الأُنس في شرح عيوب النفس

لمحمد بن علي الخروبي

888 - 963 هـ

شرح فيه رجز "عيوب النفس" للشيخ أحمد زروق

تحقيق

الأستاذ محمد طيب إدريس

حفيد الشيخ أحمد زروق



الأُنس

في

شرح عيوب النفس

لمحمد بن علي الخرّوبي

888 - 963 هـ

شرح فيه رجز "عيوب النفس" للشيخ أحمد زرّوق

تحقيق

الأستاذ محمد طيّب إدريس

حفيد الشيخ أحمد زرّوق



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

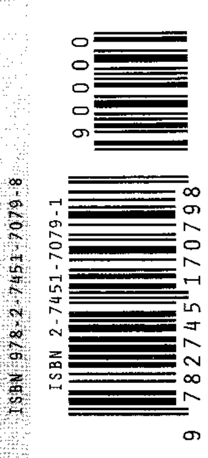
Title : **EXPLANATION OF "VICES OF SOUL"**

Classification: Sufism
Author : Muḥammad ben ʿAli al-Ḥarrūbi
Editor : Mohammad Tayeb Idris
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 352
Size : 17* 24
Year : 2011
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : **الأنس في شرح عيوب النفس**

التصنيف : تصوف
المؤلف : محمد بن علي الخروبي
المحقق : محمد طيب إدريس
الناشر : دار الكتب العلميــــة - بيروت
عدد الصفحات : 352
قياس الصفحات: 17* 24
سنة الطباعة : 2011
بلد الطباعة : لبنــــان
الطبعة : الأولى





بسم الله الرحمن الرحيم

الأنس في شرح عيوب النفس

لمحمد بن علي الخروبي[1]

(1) اعتمد في تحقيق الكتاب على مخطوط المكتبة الوطنية الرباط. رقم: 2691 د / فلم: 4352.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الأصل القسنطيني القرار من أشهر تلامذة الشيخ أحمد زروق. حيث أنه تربى تحت رعايته بعد موت والده الشيخ علي الخروبي؛ لذا فلا غرابة أن يهتم الخروبي الابن بالمدرسة الصوفية الزروقية تعلما، ودراسة، وسلوكا.

* تعلما لأنه أخذ تعلمه الأول بالمدرسة الزروقية بمصراتة على يد الشيخ أحمد زروق؛ وعلى يد الرعيل الأول من تلامذته الكبار أمثال اللقاني.

* دراسة حيث عكف بعد ذلك على دراسة، وشرح كتب الشيخ أحمد زروق. خصوصا المتعلق منها بالطريقة الصوفية الزروقية؛ فشرح أهم أعمال شيخه المتعلقة بالموضوع: (شروحه: للوظيفة الزروقية، وأصول الطريق، وعيوب النفس).

* وسلوكا لأنه بعدما صار شيخا للطريقة الزروقية بالمغرب العربي. سار بكل جرأة على درب شيخه وأستاذه في التربية الروحية؛ فتصدى للبدع الضالة المضلة، ونشر مبادئ الطريقة الصوفية الزروقية السنية المحمدية؛ بعدما تعرض أصحاب هذه الطريقة لمضايقات من طرف الحكام السعديين لأسباب سياسية؛ ولقد أخذ عنه آنذاك العهد الكثير من علماء ومشايخ المغرب العربي.

هذا ويعتبر كتاب " الأنس في شرح عيوب النفس " من أهم كتب الشيخ محمد علي الخروبي الطرابلسي. شرح فيه أرجوزة شيخه أحمد زروق في فصول السلمي؛ والذي اعتمدنا في تحقيقه على **مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط. رقم: 2691 د / فلم: 4352**

وأهم ما نسجله من خلال هذا الشرح:

* شدة اعجاب الخروبي بشيخه أحمد زروق، ووضوح تأثره بفكره وتوجهه

الفقهي الصوفي؛ ويتجلى ذلك في:

- التحلية التي خصه بها في مقدمة شرحه.

- ذكره المتكرر باحترام. طالبا له من الله عز وجل. الرحمة، والمغفرة، والرضى والرضوان.

- تأثره الواضح بفكره ونهجه الفقهي/الصوفي. القائم على التوسط، والاعتدال في تقديم الأدوية لعلل النفس؛ فلا افراط، ولا تفريط؛ كما أن لكل داء دواء. دون مغالاة في أخذ الدواء اللازم، والملائم.

* كثرة الاستطراد والاسترسال في الكلام؛ ولعل له عذر في ذلك؛ لأنه في مقام الشرح والتبسيط للمريدين، وسالكي الطريق الصوفي عموما، والزروقي على وجه الخصوص؛ ولولا هذا العذر؛ لكان ذلك الإطناب عيبا يقدح في بيانه.

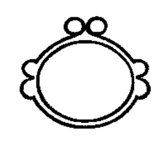
* قناعة الشيخ الخروبي بأهمية الاقتداء في الطريق الصوفي بشيخ عالم وخبير بعلل النفوس، وطرق علاجها. شريطة أن يكون هذا الشيخ جامعا بين العلم والعمل. بين الشريعة والحقيقة؛ فالعلم والورع شرطان في كمال الشيخ، أو الصاحب. الذي ينتفع بمشيخته، أو صحبته؛ فبالعلم تصح الأعمال الدينية، وبالورع تكتمل الوظائف الشرعية.

عموما فإن كتاب " الأنس في عيوب النفس " لأكبر دليل على مشيخة محمد الخروبي، وعلو مقامه في علم السلوك، والتصوف، وأكبر دليل على التزامه بنهج شيخه أحمد زروق.

المحقق:

الأستاذ الشيخ: محمد طيب إدريس

حفيد الشيخ أحمد زروق



يقول عبد الله سبحانه محمد بن علي الخروبي سامحه الله تعالى آمين[1].

ولد بقرية قرقارش على بعد 6 كلمترات غرب طرابلس الغرب. عام 888 هجرية.

كان أبوه أبو محمد علي الخروبي (الكبير) تربطه بالشيخ أحمد زروق علاقة صداقة متينة؛ فقد أخذ عن الشيخ أحمد زروق؛ كما أن الشيخ زروق هو الذي خطب له زوجته. أم ولده محمد؛ وكان علي الخروبي شيخ طريقة، وله مكانة عالية بين قومه.

يعتبر محمد علي الخروبي (الابن) أحد أشهر تلامذة الشيخ زروق الذين تخرجوا من مدرسته الصوفية الزروقية بتكران - منطقة الزروق حاليا - بمصراتة؛ فهو يذكر في رسالة له بأن الشيخ زروق كان أكثر الشيوخ تأثيرا على تربيته، وعلمه، وسلوكه حيث نجده يقول: "كانت له علينا مشيخة، وتربية، وكان يأوينا، وينظر في أمورنا، ويؤدبنا بآداب الكمال، ويرقينا إلى مقامات الرجال، ويعلمنا الخير، ويحضنا عليه، ويؤدبنا بآداب الفقراء؛ فعلم وأفاد، وربى وأجاد، وأعطى ومنح...".

وقال عنه في شرحه لأرجوزة عيوب النفس - الكتاب المحقق - :"... وله فينا تربية وتأديب، وورثنا منه أوفر نصيب؛ فكان رحمه الله تعالى تولى تربيتنا بعد المولى الوالد؛ فكان علينا عطوفا، وبنا رؤوفا؛ وكان يرعى ذمامنا رعيا للمولى الوالد. رحم الله تعالى الجميع".

استقرالخروبي بعد تخرجه من المدرسة الزروقية بمصراتة بالجزائر؛ وعمل على نشر الطريقة الزروقية بالجزائر والمغرب، وله كتب اهتم في معظمها بشرح كتب ورسائل شيخه أحمد زروق؛ منها:

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن علي الطرابلسي الأصل. السفاقسي الموطن. الشهير بالخروبي. الصوفي. الفقيه. المحدث. درة الحجال، ج 2، ص 11.

* تخريجه أحاديث الوظيفة الزروقية.
* النبذة الشريفة في الكلام عن أصول الطريقة. شرح فيه أصول الطريق للشيخ أحمد زروق.
* الأنس في شرح عيوب النفس، وهو الكتاب المحقق.
* شرح التصلية المشيشية.
* رسالة ذي الإفلاس إلى خواص مدينة فاس.
* الحكم الصغرى (كما يذكر الخروبي في شرحه هذا).

قدم الشيخ الخروبي إلى المغرب مرتين:

* المرة الأولى في عهد السلطان أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الوطاسي. (سنة 959 هجرية). قدم عليه في مدينة فاس مبعوثا من طرف الخليفة العثماني؛ فلقي منه، ومن علماء فاس، وخاصة سكانها ترحابا كبيرا، وأخذوا عنه السند الزروقي. خصوصا وأن السلطان الوطاسي كان زروقي الطريقة، كما أن الطريقة الزروقية كانت هي الطريقة المنتشرة في شمال المغرب آنذاك؛ ولقد نجح الشيخ الخروبي في سفارته الأولى هذه. حيث اسفرت عن عقد الصلح بين الأتراك وسلطان فاس.
* المرة الثانية في عهد السلطان محمد الشيخ المهدي السعدي بعدما استولى على مدينة فاس، وطرد منها الوطاسيين، وضيق على أتباعهم، وعلى مشايخ الطريقة الزروقية بالمغرب.

وفد عليه بمراكش سفيرا بينه وبين الخليفة أبي الربيع سليمان العثماني سنة 961 هجرية.

وكان سبب السفارة الثانية؛ كما ذكر الناصري في الاستقصا. ج. 2. ص: 237: "عقد الهدنة بين الأتراك، والسعديين".

ذلك أن الشيخ السعدي كان قد نقض عهد الصلح الذي كان مبرما من قبل بين الأتراك والسلطان الوطاسي فغزا تلمسان مرتين، وكان يستعد لغزوها مرة ثالثة.

وعاد الناصري مرة أخرى في الصفحة: 238 ليقول: "وقدم الإمام أبو عبد الله الخروبي ساعيا في الهدنة فلم يرجع بطائل، ولم تظهر ثمرة لمقدمه".

ولعل فشل سفارة الخروبي هو الذي أقنع الأتراك بمساعدة أبي حسون الوطاسي بالجند؛ فدخل بهم إلى فاس، وأخرج منها السعديين سنة: 961 هجرية.

لقد حرص الشيخ محمد بن علي الخروبي على نشر الطريقة الزروقية، وسارعلى نهج شيخه أحمد زروق في التقيد بالكتاب، والسنة، ومحاربة البدع. حيث إنه:

* لم تصرفه المهمة السياسية التي قدم من أجلها إلى المغرب (مهمة الصلح) من القيام بدوره الديني الإصلاحي اقتداء بنهج شيخه وأستاذه الشيخ أحمد زروق. حيث انتقد بعض البدع المنتشرة بالمغرب آنذاك. معيبا على العلماء سكوتهم على ذلك.

إلا أنه إذا كان قد وجد الترحاب في المرة الأولى؛ فإنه - مع الأسف - وجد في المرة الثانية كامل التصدي والإعراض من طرف السلطان الشيخ السعدي، وفقهائه المتحلقين حوله تماما كما وجده شيخه أحمد زروق من قبل.

جاء في مرآة المحاسن: "كان الشيخ الجزولي يقص شعر التائب، وأخذ بذلك أصحابه بعده؛ فلما جاء الشيخ أبو عبد الله الخروبي إلى المغرب الأقصى لقي بعض مشايخ الطائفة الجزولية؛ فأنكر عليهم ذلك، وقال: إنه بدعة".

وكانت الطريقة الجزولية - الطريقة الرسمية للسعديين - منتشرة في جنوب المغرب، وكان شيخ الطريقة الجزولية آنذاك هو الشيخ سيدي أبي عمرو القسطلي. شيخ السلطان الشيخ السعدي؛ فانتصر هذا الأخير لشيخه القسطلي بعد المناظرة التي قامت بينه وبين الخروبي في محضر السعدي وأعيان دولته؛ ولعل التوتر السياسي الذي كان قائما بين السلطانين السعدي، والتركي قد أثر على نتيجة المناظرة الفقهية الصوفية. إذ كان يصعب على السلطان السعدي أن يرفض الشروط السياسية للسلطان العثماني التركي، ويخضع لسلطان فقيهه محمد الخروبي.

وشيء طبيعي أن يجد الشيخ الخروبي في طريق عودته إلى تلمسان وتعريجه على فاس نفورا من بعض فقهائها. مخافة أن يحسبوا على المعارضة السياسية؛ لأن أهل فاس، وشمال المغرب عموما كان لهم ولاء للوطاسيين، وكانوا حديثي عهد بالحكم السعدي الجديد.

ومما زاد الفجوة بين الخروبي وعلماء فاس هو رسالته التي بعثها إليهم تحت عنوان: "رسالة ذوي الإفلاس إلى خواص مدينة فاس"؛ والتي بعث بها إلى علماء فاس في عهد محمد المهدي الشيخ السعدي؛ فرد عليه قاضي فاس وبعض علمائها في مضمون الرسالة. خصوصا فيما يتعلق منها بالقاعدة الأولة من قواعد

الإسلام (لا إله إلا الله) نفيا، وإثباتا. حيث تولى كبر القضية مفتي فاس وقاضيها آنذاك أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان اليسيثني؛ للتنافر الذي كان بينه وبين الشيخ الخروبي.

والحقيقة أن الظروف السياسة ألقت بظلالها على الجانب الديني، وفرقت بين الخروبي، وعلماء فاس؛ لأن الناس على دين ملوكهم؛ وهكذا يتدخل السياسي ليفسد الجانب الديني.

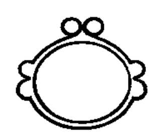
ورغم ذلك فقد أخذ عنه الطريقة الزروقية الكثير من أهل المغرب الأقصى؛ كما ذكر صاحب المرآة. سواء في رحلته الأولى، أو الثانية للمغرب، أو عن طريق الإجازات والمراسلات، أو التلقي المباشر عنه. أثناء رحلات الحج. حيث أخذ عنه الكثير من المغاربة الطريقة الصوفية الزروقية؛ وهم في طريقهم إلى الحج، أو أثناء عودتهم من حجهم. هذا فضلا عن تربعه على المشيخة بأقطار المغرب العربي.

وإذا كان أخذهم عنه في الرحلة الأولى لا يحتاج إلى تبرير؛ فإن أخذهم عنه في الرحلة الثانية، وأثناء رحلتهم للحج. مرده إلى المكانة العالية التي كان يحظى بها الشيخ أحمد زروق وطريقته في النفوس بشمال المغرب؛ لأن جنوب المغرب عموما كانت تسيطر عليه آنذاك الطريقة الجزولية.

إن انتقاد الخروبي للقسطلي شيخ شيوخ الطريقة الجزولية في عصره. النافذ الكلمة لدى الشيخ السعدي، ورجال الدولة، ورسالته لعلماء فاس؛ لهو أكبر دليل على صلابته في الحق، وتمسكه الشديد بمبادئ الطريقة الزروقية السنية المحمدية، ووحدة الأمة. بغض النظر عن الظروف السياسية التي كانت وراء ذلك.

توفي الشيخ محمد بن علي الخروبي رحمه الله تعالى بالجزائر سنة 963 هجرية.

ومن أخذ عنه الطريقة الزروقية الشيخ علال الحاج البقال الغزاوي. الذي يعود إليه الفضل في الحفاظ على نفوذ الطريقة الزروقية بشمال المغرب في بداية العصر السعدي. حيث اعترف به السعديون شيخا للطريقة الزروقية بشمال المغرب - بعدما حاولوا القضاء عليها - لأنهم كانوا في حاجة إلى نفوذه الديني؛ لضمان ولاء قبائل الشمال المغربي. كما أخذ عن الخروبي محمد بن أحمد بن محمد الحضري الزروالي؛ كما ذكر صاحب درة الحجال. ج: 2. ص: 33، وغيرهما كثير.



نحمدك يا من كشف لأهل الحضور من عباده ما خفي من عيوب النفس، ونشكرك يا من أطلع أهل المعرفة على خفايا مكرها، وخبايا خدعها؛ مما لا يطلع عليه إلا من هو خبير بها مراقب لها، ونصلي ونسلم على نبيك الأرفع، ورسولك الأنفع، وسيفك القاهر الأقطع الأروع. الذي أرسلته بالشريعة السمحاء المخرجة للنفوس من هواها، والفاسد من أغراضها. الشافية من عللها وأمراضها. الرادة لها عن طريق توليها عن الحق وإعراضها؛ ورضي الله تعالى عن أصحابه الذين أخذوا بالجد في أنواع الرياضات وضروب المجاهدات طلبا لنجاة النفوس وارتياضها؛ وبارك الله في أهل صدق تابعوهم في ذلك، ولم يرفعوا عن أنفسهم عصات[1] التأديب، ولم يكفوا عنها لسان اللوم، والعنث، والتأنيب؛ بل أخذوا في جهادها بالتجلد والتشمير، ولم يسمحوا لها فيما تعاطاه من المخالفات وسوء الأدب مع موجدها وخالقها في قليل ولا كثير. إلى أن تطهرت، وتزكت، وتخلت عن الأخلاق الذميمة؛ وبالحميدة تحلت؛ وألقت السلاح، ومالت عن طريق الفساد إلى طريق الصلاح، ونزعت عن الأوصاف البشرية، واتصفت بالأوصاف الملكية، وعادت نفسا مطمئنة وروحا إلى حضرة ربها مستكينة؛ فانخرقت لها الحجب، ودنت من حضرة القرب؛ فحينئذ صاروا معها على وفاق، وتركوا ما كانوا عليه معها من الحرب والشقاق، وحمد كل العاقبة، وعاد الأمر بينهم وبينها بعد المنافرة إلى أكرم مصاحبة؛ وصدق القائلون: "يهون على المرء ما باعه برخص إذا علم قدر ما له اشترى"، والقائل: "عند الصباح يحمد القوم السرى".

واعلم أن مراد القوم من مجاهدة النفوس، ورياضتها: تزكيتها، وطهارتها من أوصافها الذميمة التي اكتسبتها من مجاورتها للقوالب الجسمانية الظلمانية، وردها

---

(1) عصات: جمع عصا، وتجمع على عصي؛ وهو الأصح في اللغة.

إلى ما كانت عليه من الأوصاف الحميدة الروحانية؛ فهذا ثمرة الرياضة، ونتيجة المجاهدة، وذلك وسيلة الى قربها من الحضرة القدسية، ودخولها إلى الحضرة الربانية؛ وأنشدنا في هذا المعنى:

انظر لنفسك واطلقن عقالها	من قيد جسم قادها لوبالها
واعلم بأن النفس قبل هبوطها	للعالم الأدنى يسر بحالها
حتى إذا هبطت تنكر حالها	وتباعدت عن موجبات كمالها
فروضها كي تعود إلى الذي	كانت عليه من صفاء وصالها
فهناك صفو العيش فاغنم صفوه	والقلب متيم بحسن جمالها

فصل:

أيها الفقراء المريدون، والإخوان السالكون. اعلموا - رحمكم الله، ومن مكر النفوس الأمارة وخدعها وقاكم، وإلى مراتب الكمال قادكم - أن النفس؛ وإن كانت موصوفة بأوصاف ذميمة - حاشى نفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - فإنما حدثت للأنفس تلك الأوصاف لبعدها من عالمها الملكوتي، وخروجها من وطنها النوراني، ومجاورتها للجسوم الظلمانية؛ فاكتسبت من ذلك ظلمة، وتغيرت بالمجاورة؛ وقد كانت قبل هذا طاهرة زكية راضية موصوفة بأوصاف حميدة؛ وقد نبه على ذلك الشيخ القدوة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم الغازي الساحلي رحمه الله تعالى ورضي عنه؛ فقال:

"إن الله عز وجل خلق نفس الإنسان صفاء صفوة النور، وأحلها مكانا مكينا، وألبسها أثواب الطهارة والزكى. ثم أهبطها من مكانها ونقلها من قرارها وأودعها قادورة الجسم لحكمة آدمية قدرها وقضاها، وليبلونا أينا أحسن عملا؛ ليفوز بالفلاح من زكاها، ويبوء بالخيبة من دساها، وجعل بين النفس والجسم تعلقا عجيبا، وارتباطا غريبا؛ لولاه لم يستقر قرارها فيه للمضادة التي بينهما؛ وبذلك التعلق والارتباط تحلت النفس من كثافة الجسم بأوصاف، وتحلى الجسم من لطافة النفس بأوصاف. لكن النفس أشد انفعالا بمقتضيات الجسم، وأكثر اتصافا بأوصافه؛ لبعدها عن عالمها، وقربها من عالمه؛ والطبع يتوق من القريب المجاور؛ فكلما مال

الجسم لمقتضى النفس حزبه عن ذلك طبع عالمه القريب فضعف الميل، وكلما مالت النفس لمقتضى الجسم لم تجد وازعا عن ذلك من حالها لبعدها عنه؛ فاتصفت بأوصاف الجسم، وتلونت بأدران مقتضياته. حتى أخرجها ذلك عن طبعها، ونزع عنها أثواب طهارتها، ولوثها بأدران الشهوات، وأمرضها بعلل الآفات. حتى صار لها ذلك أعظم حجاب عن خالقها، وأكبر قاطع عن عالمها؛ فهي مع مرور الأزمان والأنفاس تكثر عللها؛ فيعظم حجابها، والعبد مطلوب بخلاص نفسه من علاتها؛ وطهارتها من أدرانها، وخرق حجابها عن خالقها. حتى يصح مزاجها ويعتدل، وتنقيه من غمرة عللها، وتتجرد من أثواب شهواتها، وتتحلى بالأوصاف التي كانت عليها قبل التركيب؛ فتعود إلى ربها طاهرة زكية مطمئنة راضية مرضية؛ وهذا هو العهد الذي أخذه الله على بني آدم؛ وذلك هو لباب اللباب لأن العمل لباب العلم، وطهارة النفس لباب العمل؛ وهي الغاية التي شد الأنجاد لها عنق العزائم، وأملها كل صائم وقائم، وبحسب ما يبقى عن الإنسان من طهارة نفسه يكون إخلافه عن الوصول إلى العرصات القدسية، والأسرار الإلهية؛ ولما عجزت العقول عن إدراك [1] أسباب خلاص النفس من عللها، وكفت عن معرفة ما يطهرها من دنس شهواتها؛ لأن العقول - وإن كانت عندها إدراك - تتفاضل فيه؛ فإنها محجورة عن الإحاطة بجميع المصالح فتجدها في أكثر الأمور كالأعمى الذي لا يهتدي إلا بدليل؛ فلم يوقن في تسليم النظر لها بالجملة أن تهوى في مهواة الهلكة من حيث لا تشعر؛ لعدم إحاطتها بجملة المصالح؛ ولذلك هلك من سلم لها النظر من غير تشريع بعث الله به رسله صلوات الله وسلامه عليهم هداة للعقول إلى ما فيه خلاص الأنفس من درن شهواتها، ولإنقاذها من أسر غفلاتها وطهارتها من دنس سيئاتها، ولإخراجها من الظلمة إلى النور بطرق سهلة ومآخذ هنية بوحي من الله تعالى؛ فجاءوا من عنده بوظائف العبادات، وشرائع الدين، وفنون التكليفات. منها ما يختص بالباطن، ومنها ما يختص بالظاهر.

(1) في الأصل: درك.

أما ما يختص بالباطن فكالأدوية، وأما ما يختص بالظاهر فكالأغذية "

وإلى هنا انتهى ما يحتاج إليه من كلامه مما يحسن جلبه في تعريف النفس وأحوالها التي كانت عليها أولا [1]، والتي حدثت فيها واكسبتها من المجاورة للجسم الظلماني وهبوطها من عالمه النوراني إلى العالم الجسماني.

وإذا تقرر هذا المعنى، وعلمت أن سبب انسلاخ النفس من أحوالها الكاملة، وهبوطها من عالم الأعلى إلى عالم الأدنى؛ فاعلم أن مراد السالكين ومقصد المريدين إخراج النفس عن أحوال النقص التي حدثت فيها، وردها إلى حال الكمال التي كانت عليها أولا؛ وذلك بحملها على أنواع العبادات، وإلزامها لطرق الطاعات من حيث يرضى سبحانه بما يرضى. مع استعمال أنواع الرياضات، وضروب المجاهدات. لكن بإشارة قدوة رباني صاحب مقام عارف بمكامن النفوس وخدعها. عالم بالطريق. سلك فيها مسلك أهل التحقيق. يعط كل ذي حق حقه؛ ولكل ذي قسط قسطه يسبح بكل مريد في بحره ويسقيه من نهره، وما كان على غير هذا فلا يسلم المريد من البلوى، ولا يخرج عن طريق الدعوى، ويكون في سلوكه يخبط خبط عشواء.

ولما كان النظر في أمور النفس من النظر السديد، ورياضتها من الفعل الرشيد. كان النظر في عيوبها ومعرفتها من الأمر الأكيد.

وقد ألف الناس في ذلك وتعرضوا للتعريف بعيوبها؛ وممن تعرض لذلك الشيخ الإمام علم الأئمة الأعلام. القدوة العارف بالله تعالى الإمام أبو عبد الرحمان السلمي رحمه الله تعالى ورضي عنه؛ فأتى رحمه الله تعالى في ذلك بما يشفي الغليل، ويبرئ العليل.

ثم إن شيخنا الإمام القدوة العلامة شيخ وقته وإمام عصره المربي الواصل الموصل إلى الله تعالى الرباني القدوة أبا العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى

---

(1) للمزيد من المعرفة في الموضوع يمكن الرجوع إلى: "إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين"، وهو كتاب جليل قل نظيره. خصص الشيخ أحمد زروق جزء هاما منه في الكلام عن النفس، وكان الأولى بالشيخ الخروبي أن يعتمد عليه في الموضوع.

البرنوسي[1] الخضار المشهور بزروق الفاسي المولد دفين بلد تكيران من قصور مسراتة. برد الله ضريحه وأسكنه من الفردوس فسيحه بمنه وكرمه. رجز كلام السلمي.

قال رحمه الله تعالى: "تقريبا للحفظ والتحصيل".

فهذا الرجز كما قال: - مع جزالة اللفظ، وبيان المعنى - كثير الفوائد. محصلا للمعنى الشارد، ومقربا للناء المتباعد؛ ولما كان الرجز المذكور بهذا الوصف رغب فيه كل مريد راغب، وسالك طالب؛ لتحققهم النفع؛ ولما يحصل بسببه من الجاه والرفع.

وممن رغب في تحصيله وسأل منا شرحا عليه؛ لبيان مجمله، وتفصيله؛ فسأل، وأعاد، وأكد الرغبة، وكرر الترداد. أخونا في الله، وحبيبنا من أجله. الصالح عبد الرحمان الأندلسي العزوني. أخلص الله نيته، وأصلح سره، وعلانيته؛ ولما علمنا خلوص نيته، وصلاح سره، وعلانيته، وصدق إرادته، وكمال ديانته؛ فرأيت أنه لا بد من إجابة دعوته، وإسعافه في رغبته مستعينا بالله تعالى، ومتوكلا عليه؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهأنا أبتدي فيما له قصد وإليه يكون الهمة توجهنا؛ فقال رحمه الله تعالى:

يقـول راجـي رحمـة الغفـار ... أحمـد نجـل أحمـد الخـضار

البرنوسـي[2] الأصـل ثـم الفاسـي ... المـشهور زروق بـين النـاس

---

(1) البرنوسي: تصحيف للبرنسي حيث تم إشباع النون لمن نطقها بالظم والواو. ظنا أن النسبة في ذلك لقبيلة البرانس وهو خطأ؛ والصحيح أنها بدون واو. كما كتبها الشيخ زروق في جميع كتبه ورسائله.

انظر تحقيق نسب الشيخ أحمد زروق في كتاب: الشيخ أحمد زروق / محتسب العلماء والأولياء. للكاتب. محمد طيب. حفيد الشيخ زروق.

(2) فيها تصحيف؛ لأنها كتبت في اصل أرجوزة عيوب النفس بخط الشيخ زروق (البرنسي) بدون واو. (بضم الباء والواو، وسكون الراء، وتقرأ بكسرهما أيضا)، وهو الصواب؛ وتتبعت جميع كتب ورسائل الشيخ زروق فوجدته يكتبها هكذا (البرنسي). إلا أن المتأخرين أشبعوا النون المضمومة اعتقادا منهم أنه ينتمي إلى قبيلة البرانس، وهو خطأ كما بينا في كتابنا المشار إليه أعلاه.

قوله: "يقول... إلخ".

أقول والله المستعان:

قدم الشيخ رحمه الله تعالى التعريف بنفسه اسما وبلدا، وقبيلة لفوائد منها:

* أن المتكلم في علم لا بد أن يكون معروفا بين العلماء غير مجهول؛ إذ الحكم على قول القائل ردا وقبولا فرع كونه معلوما؛ والشيخ رحمه الله تعالى قد علم، واشتهر بين الناس علما، وديانة وصلاحا؛ فقد جمع بين علم الظاهر، وعلم الباطن، وله تآليف في العلمين عديمة المثال. سلك فيها مسلك التحقيق وبلغ فيها غاية التدقيق، والترقيق، وتآليفه بين الناس مشهورة معلومة؛ فما تكلم في علم إلا وبلغ فيه إلى الغاية، ووصل فيه إلى النهاية؛ فأما تآليفه في علم الظاهر منها:

- شرحه على رسالى ابن أبي زيد القيرواني؛ وهو غاية في فنه. أبدأ فيه وأعاد، وسلك فيه مسلك العلماء الجياد الأنجاد، وأخبرني من أثق به أنه رأى للشيخ شرحين على الرسالة، وتحقق أن له شرحا ثالثا عليها [1]، وله شرح على الوغليسية في غاية الوضوح والبيان [2]، وله شرح على حزب البحر عديم المثال [3]، وله تعليق على البخاري في غاية الوضوح [4]؛ فكان تكملة لما عليه من التعاليق والشروح؛

---

(1) المتوفر في الخزانات العامة هو شرحان. شرح مفصل؛ وهو مطبوع، ومختصر، وهو غير مطبوع.

(2) له شرحان على المقدمة الوغليسية. شرح مطول، وشرح مختصر.

(3) لعله يقصد الشرح الكبير على حزب البحر؛ وإلا فإن الشيخ أحمد زروق له شرحان على حزب البحر:

* شرح مختصر كتبه بجبل زرهون بالمغرب تحت عنوان: "التنبيه على بعض غوامض حزب البحر" كتبه بجبل زرهون بالمغرب عندما كان مقيما ببلدته لجاية ببادية فاس.

* شرح مطول كتبه بمصر، وله شروح أخرى على حزبي الشاذلي.

(4) توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت عدد: 1888 ك. فلم 4766.

ونسخة بالخزانة الحسنية بالرباط. تحت رقم: 13190، ولقد اطلعت على الأولى.

أما شرحه على مسلم فقد ذكره الكثير ممن ترجم للشيخ زروق إلا أنني لم أعثر على نسخة منه في المكتبات المغربية، ولا في مكتبة الحرم النبوي بالمدينة، ومكتبة مكة المكرمة، ومكتبة الجهاد الليبي بطرابلس.

وقيل إن له حاشية على مسلم، وله شرح على القرطبية [1]، وله تآليف في علم الحديث [2]؛ فهذا الذي علمناه من تآليفه في علم الظاهر، وله كتب البدع. [3]

- وأما تآليفه في علم الباطن؛ فله على حكم ابن عطاء الله سبعة عشر شرحا. قال رحمه الله تعالى:

"هذا ما كمل منها، وأما ما لم يكمل فأكثر من ذلك". [4]

وله أيضا شرح على أرجوزة ابن البنا في التصوف غريب الوضع كثير النفع، وله شرح على الأسماء الحسنى، وله أصول الطريقة وأسسها؛ وله إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، وله العلوم الكافية لمن خصه الله بالعافية؛ ولم أزل أسمع من الثقاة أن له رضي الله تعالى عنه تآليف غير ما ذكرنا. [5].

ذكر أشياخه:

أما أشياخه في العلوم الظاهرة:

- ابن ماوس الثعالبي السنوسي. - سيدي سليمان ابن مرزوق - الديمي - السخاوي - السنهولي - ابن زين الدين المشدالي - ابن التونسي - الهبطي - الزرهوني - المغيلي - المكناسي - الورياغلي - الشاوي - الحميدي - ابن أمجل -

---

(1) مطبوع.

(2) مطبوع.

(3) للشيخ أحمد زروق كتب ورسائل عديدة في البدع أهمها:
* عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق. (مطبوع).
* رسالة في الحوادث والبدع... إلخ.

(4) أبلغها البعض إلى 24 شرحا وهو الصحيح. خلافا لمن أبلغها إلى 34 شرحا خطأ؛ ولعله وقع تصحيف في كتابة رقم 2 ب 3 للتشابه بين الرقمين حسب كتابتهما في المشرق؛ لأن شرحه الرابع والعشرين كتبه سنة 896 هجرية، ويصعب أن يكون قد كتب بقية الشروح في ثلاث سنوات الفاصلة بين تاريخ كتابة الشرح الرابع والعشرين، وتاريخ وفاته سنة 899 هجرية. إلا أن يكون قد تم احتساب الشروح التي لم تكتمل، والتي أشار الشيخ زروق إلى بعضها في مقدمة شرحه الحادي عشر، والذي ألفه أثناء إقامته ببلدته لجاية / بجاية. ببادية فاس بالمغرب.

(5) له كتب أخرى كثيرة غير هاته. انظر تفصيلها في كتابنا: الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء. نشر دار ومكتبة الشعب للنشر والتوزيع بمصراتة. نشر سنة 2008 ميلادية

ابن زكريا - ابن عباس الشرقي - حلولو - الرصاع نورالدين - يحيى الجريري. [1]

وأما أشياخه في علم الباطن:

- سيدي أحمد بن عقبة اليماني - سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري - سيدي يحيى العبدلي - سيدي محمد بن عبد الله الزيتوني - ابن الحسين - ابن يحيى السراج - ابن زمام - الوزروالي - الرقاع - الدقون - اللمطي - العجمي - الأمين - ابن كذا المزداغي - السراج - القرواني - الفخار - صاحب السارية - معطي - الغرابلي - الخراز - الجزولي - التازي - ابن علي - ابن عروس - الحمامي - الفلالي - اللمطي - العبدوسي - ابن ابراهيم - الأستاذ ابن سعيد - المجدولي - والحسن علي الخروبي الطرابلسي، وعهد ما نقلته من أشياخه على من نقل ذلك من خطه وهو الفقيه العالم سيدي عبد الهادي بن غانم البسكري رحمه الله تعالى[1].

وذكرنا أشياخه ليوثق به، وتواليفه في العلمين، وليعلم أنه أخذ العلم عن شيوخ عظام، والحال والمقام عن شيوخ أهل كمال قادة أعلام.

وأما اسمه فأحمد كما ذكر، ورأيت بخطه أنه لما ولد سمته جدته لوالده أحمد، وسمته جدته لوالدته محمدا. قال فغلب اسم أحمد لفوائد ذكرها رحمه الله تعالى لم أحضرها الآن، والذي أذكره من ذلك قال: لأن أحمد لم يقع فيه لحن من العامة بخلاف محمد؛ فإن العامة كثيرا ما تلحن فيه [2]

وأما قبيلته فهو من قبيلة يقال لها البرانسة [3] من أحواز فاس.

(1) يلاحظ - مع الأسف - عدم الضبط، والخلط، وعدم الترتيب في ذكر شيوخ الشيخ أحمد زروق في علمي الظاهر والباطن معا؛ ولعل الشيخ الخروبي لم يكن على دراية تامة بشيوخ شيخه، وله عذر في ذلك لأنه صحب الشيخ أحمد زروق وهو صغير السن.
هذا ويمكن الرجوع لكتابنا المشار إليه سابقا للاطلاع بتفصيل وترتيب وتدقيق على أساتذته في علوم الظاهر، وشيوخه في علم الباطن. - وإن كنا قد ضبطنا ذلك أكثر في الطبعة الثالثة من الكتاب -

(2) انظر تفصيل ذلك في كناش الشيخ أحمد زروق.

(3) هذا خطأ وقع فيه جميع من ترجم للشيخ أحمد زروق، وذلك نتيجة التصحيف الذي وقع على كلمة (البرنسي)؛ فكتبت بالواو، وتم بناء النسب على الكلمة بعد التصحيف الذي طرأ =

وأما طريقته فهي شاذلية.

فأخذ من الطريق الشاذلية لبابها، وبين مسالكها، وذلل صعابها، وسلك مسالك محققيها وأقطابها فكان في هذه الطريقة إماما به يقتدى، وبهديه يهتدى. سلك مسالك الرجال، ومناهج الأبطال. ذي مقام، وحال. إلا أنه ثابت في المقام، وحاله غير مستدام، وحدث عن البحر ولا حرج، وقل ما شئت من فضائله وفواضله فلا تمج. [1]

وهذا الشيخ له فينا تربية وتأديب وورثنا منه أوفر نصيب؛ فكان رحمه الله تعالى تولى رعايتنا بعد المولى الوالد؛ فكان علينا عطوفا، وبنا رؤوفا، وكان يرعى ذمامنا رعيا للمولى الوالد [2] رحم الله تعالى الجميع، ولقد جرت لنا معه قضايا لا نطيل بذكرها، وله علينا حقوق لا نقوم بواجبها وشكرها؛ فجزاه الله تعالى عنا وجميع أشياخنا أفضل الجزاء بمنه وفضله وجوده وكرمه؛ وإنما ذكرنا هذا النزر اليسير من أحواله للحاجة الداعية إليه؛ لأنه رضي الله تعالى عنه لما عرف بنفسه في البيتين المتقدمين ناسب أن نأتي من أحواله والتعريف به بما فيه مناسبة للبيتين.

وبعد أن عرف رحمه الله تعالى بنفسه أخذ فيما هو قصده فقال:

=

عليها. إلا إذا كان الخروبي يقصد بالبرانسة حي البرانس بدوار خد البغال من قبيلة بني ورياكل الجبليلة؛ وهي ببادية فاس؛ والذي يؤكد هذا هو قول الخروبي بعد ذلك " من أحواز فاس.

لأن قبيلة البرانس تقع بأحواز تازة وليس فاس، فحي البرانس هو الذي يقع بأحواز فاس، ولا يمكن للخروبي أن يخطئ في موقع قبيلة البرانص بأحواز تازة، وينسب موقعها إلى أحواز فاس؛ وقد مر عليها في رحلته للمغرب أربع مرات ذهابا وإيابا.

لتحقيق النسب انظر ترجمة الشيخ أحمد زروق في كتابنا المشار إليه سابقا.

(1) والحقيقة أن الشيخ زروق وإن انتسب إلى الطريقة الشاذلية، واعتبرها أصح الطرق لاعتمادها على الكتاب والسنة؛ فإن له سندا في الطريقة القادرية على سبيل التبرك ولبس الخرقة؛ ولقد جمع الشيخ زروق في طريقته الزروقية السنية المحمدية بين أصول الطريقتين الشاذلية، والقادرية.

انظر تفصيل الكلام عن ذلك في كتابنا: أصول الطريق.

(2) يعتبر الشيخ علي الخروبي ممن أخذ عن الشيخ أحمد زروق، وكانت تربطه به علاقة مودة ومحبة كبيرة، وبعد موت الخروبي الأب تكفل الشيخ أحمد زروق برعاية أبنائه من بعده.

الحمـــد لله الـــذي قـــد عـــرفا ... معايـــب الـــنفس لأربـــاب الـــصفا

فاطلعـــوا علـــى كمـــين غـــدرها ... وانتـــبهوا فـــي شـــأنهم لمكـــرها

وادركـــوا مكـــامن العـــيوب ... واســـتعملوا أدويـــة المطلـــوب

قوله: "الحمد لله...".

أقول: من قوله الحمد لله إلى آخرالكتاب هو المقول بجملته، وأتى الشيخ رحمه الله تعالى في كتابه بالحمد لله؛ لما في الثناء على الله عز وجل من الخير والبركة التي تعود على المثني عن الله في الدنيا والآخرة؛ ولما في ذلك من حسن البداية، ولما يرجى من حسن النهاية.

ولا يقال: إن الشيخ لم يبتدئ كتابه بالحمد لله؛ لتقديمه التعريف بنفسه؛ بل ابتدأ الكتاب بالحمد لله لأن قوله يقول... إلخ. تعريفه بنفسه خارج عن ماهية الكتاب [1]؛ وإنما ذلك مقدمة قدمها بين يدي الكتاب للفائدة التي أشرنا إليها قبل هذا.

وإذا علم هذا فالكلام في الحمد لله في الموضع الأول في حقيقة الحمد.

الحمد الثاني في موجبات البداية به.

الثالث: هل الحمد والشكر بمعنى أو لا؟

الرابع: هل المدح بمعنى الحمد أو لا؟

والكلام في الحمد في مواضع غير هذه أذكر ذلك باختصار إن شاء الله تعالى.

* أما حقيقته فقيل هو الثناء؛ وقيل الثناء الحسن؛ وقيل الثناء الكامل؛ وقيل الثناء الحسن والذكر الحميد؛ وقيل الثناء على المحمود بجميع صفاته المحمودة؛ وقيل الثناء على المحمود بجميع المحامد الحسنة؛ وقيل الثناء على المحمود بصفات الكمال ومحاسن الأمور من الأقوال والأفعال؛ وهذا أحسن ما فيه؛ وقيل هو الرضى؛ وقيل: الحمد ما يناقض الذم؛ وقيل غير هذا.

قالوا واعترض على الأول بأنه غير جامع؛ لخروج الحمد غير المكرر؛ لأن

---

(1) في المخطوط الأصلي: "الأرجوزة " كتب الشيخ أحمد زروق البيتين المتعلقين بالتعريف به في الهامش؛ وكأن الشيخ زروق تفادى بذلك ما طرحه الخروبي هنا من البدء بذكر اسم الله.

الثناء مأخوذ من تثنية الشيء إذا عطفت بعضه على بعض؛ ولأنه غير مانع؛ لأن الثناء يكون في الخير والشر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "من أثنيتم عليه بشر وجبت له النار"، والحمد لا يكون إلا في الخير.

واعترض على الثلاثة بعد الأول بما اعترض به على الأول، وعلى الخامس والسادس والسابع بهذا ويلزم الدور فيها؛ لأن المحمود مستثنى من الحمد؛ وأما مسببات البداية به؛ فمن ذلك لما في الثناء على الله تعالى في بداية الأمور بالحمد لله من وجود الكمال في البداية والتحرز من النقص؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "كل أمر ذي بال لا يبتدأ فيه بالحمد لله أجذم"، وقيل أقطع، وقيل أبتر؛ ومعنى الجميع ناقص.

ومن موجبات البداية بالحمد لله تأسيا بكتاب الله العزيز؛ فإنه ابتدئ بالحمد لله، وقد استمر عمل الأفاضل على ابتدائهم بالحمد لله بين يدي ما أرادوه من الأمور التي لها بال؛ والشيخ رحمه الله تعالى درج على ذلك لما في الاقتداء من الاهتداء، ومن ذلك أنه لما كان ما يذكر بعد الحمد إما أفعاله، وإما أوصافه؛ وعلى كل يجب له الثناء. قدم الواجب له قبل سببه اهتماما إلى غير ذلك من الموجبات التي تقتضي أولوية تقديم الحمد أولا.

وأما بعد الحمد والشكر بمعنى أو لا؟ قيل: إنهما بمعنيين؛ وذلك أن الحمد ثناء باللسان على الجميل سواء تعلق بالفضائل أو الفواضل، والشكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب الإنعام. سواء كان ذلك باللسان، أو الاعتقاد، أو محبة بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان؛ فمورد الحمد اللسان، وحده ومتعلقه يعم النعمة وغيرها، ومورد الشكر يعم اللسان وغيره، ومتعلقه يخص النعمة وحدها؛ فالحمد أعم من الشكر باعتبار المتعلق، وأخص باعتبار المورد، والشكر عكسه؛ ومما يقوي ذلك:

قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه لعائشة رضي الله تعالى عنها حين تبرئتها في قضية الإفك: "ياعائشة اشكري رسول الله"؛ ولم يقل احمدي؛ والذي عند سيبويه [1] رحمه الله تعالى: أن الحمد والشكر مترادفان. قال في باب افتراق: "فعلت،

(1) سيبويه العالم النحوي الشهير. مذهبه في اللغة والنحو على مذهب أهل البصرة.

وأفعله، وتقول حمدته إذا جزيته، وقضيته حقه". وقال ثعلب: [1]" تقول حمدت الرجل: إذا شكرت له صنيعه؛ فهذا كالصريح في الترادف " انتهى.

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة حين بدايتها في حديث الإفك: "يا عائشة احمدي الله".

وهل الحمد والمدح بمعنى؟ خلاف. قال الرازي رحمه الله تعالى [2]: "ومن قال إن الحمد بمعنى المدح. فرق بينهما بوجوه:

الأول: أن المدح قد يحصل للحي وغيره؛ فإن اللؤلؤة تمدح ولا تحمد.

الثاني: المدح يكون قبل الإحسان وبعده، والحمد مأمور به مطلقا.

الثالث: أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصا بنوع من أنواع الفضائل؛ وأما الحمد فهو القول على كونه مختصا بفضيلة معينة؛ وهي فضيلة الإنعام والإحسان؛ فثبت أن المدح أعم من الحمد.

وعلى قوله الحمد لله أسئلة:

الأول: لأي شيء ابتدأ بالحمد لله ولم يقل الشكر لله، ولا المدح لله؟ ولم قال الحمد لله؟ ولم يقل أحمد؟ ولم أضاف الحمد إلى اسم الجلالة دون غيره من الأسماء؟

فالجواب عن الأول تأدبا واتباعا للقرآن العزيز؛ فإن الله تعالى ابتدأ كتابه العزيز بالحمد لله؛ وقد قيل إن الله تعالى لم ينزل كتابا إلا وإن أوله الحمد لله، وكان صلى الله عليه وسلم يبتدئ في كتبه ومواعظه بالحمد لله.

والجواب عن الثاني: أن الحمد أكمل من الشكر، والمدح؛ لأن الحمد فيه مشاهدة الحق، والانقطاع إليه تعالى عما سواه، والشكر إنما يكون على نعمة سابقة، والحمد لا يكون على الحقيقة إلا للواحد المختار، والمدح يكون له ولغيره.

---

(1) ثعلب عالم لغوي شهير.

(2) الرازي صاحب تفسير القرآن الشهير. كان يميل إلى مدرسة أهل الرأي.

واعلم أن في الحقيقة ما حمد الله إلا الله؛ لأنه سبحانه إما حمد نفسه بنفسه كقوله تعالى في كتابه العزيز (الحمد لله)؛ أو حمد نفسه بفعله كحمد العبيد له تعالى، أو حمد فعله بنفسه كقوله عز وجل (نعم العبد إنه أواب)، أو حمد فعله بفعله؛ كحمد العبيد بعضهم لبعض.

والجواب عن الثالث: أن الحمد أولى من أحمد من ثلاثة أوجه.

* الأول: أن الحمد يفيد حمده في الأزل، وفيما يروى أن الله حمد نفسه بكلامه القديم.

* الثاني: أن الحمد شامل لحمده، ولحمد غيره، وأحمد لا يتناول الحمد لله وحده.

ومن كتب نفائس المرجان في قصص القرآن قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ ﴾.

قال ابن عباس: "كان لوح من ذهب مكتوب فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب، وعجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، وعجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل، وعجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وفي الجانب الآخر مكتوب: "أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي. خلقتكم للخير والشر؛ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه".

قال وهذا الأحمد نفسه.

* الثالث: العبد قد يكون غافلا حالة القول؛ فإذا قال أحمد الله في هذه الحالة كان كاذبا.

* والجواب عن الرابع: أنه أضاف الحمد إلى اسم الجلالة؛ لتضمنه معاني جميع الأسماء؛ فإضافة الحمد لله كأنه أضيف إلى جميعها.

فالحمد منه بدأ وإليه يعود؛ وإذا علمت أقسام الحمد؛ فلك أن تقول: الألف واللام في الحمد للاستغراق الشامل لأقسام الحمد كلها، وإن شئت قلت للعهد الأزلي، ويجوز في دال الحمد الرفع وهو الأرجح. قالوا لأنه صار معرفة، وهو خبر؛ فقولي في الابتداء بمنزلة عبد الله والرجل الذي تعلم، وقالوا أيضا في ترجيح الرفع أنه إخبار عن شيء ثابت مستقر على نحو ما به سلام في قوله تعالى: (**قالوا سلاما.** قال - الله - سلام)، والنصب على إضمار فعل لا يظهر لأن المصدر أقيم مقامه. قال سيبويه: "ومن العرب من ينصب بالألف واللام؛ فقول: الحمد لله؛ فينصبه بنو تميم،

وكثير من العرب"، والكسر إتباعا لكسرة اللام، ونقلت عن الحسن قيل: وإنها لغة تميم، وبعض غطفان، والاتباع بهم مسلوك عند العرب؛ كالمزايا والعشايا، فأتبعوا المزايا للعشايا؛ لأن مفرده عشية، ولا يجوز في لام الجر الضم، وسمع فيه ذلك؛ وهي قراءة ابن أبي عبلة.

قيل وهي لغة بعض قيس، ووجهها الاتباع كراهية الخروج من ضم إلى كسر، والفتح على الاتباع للام.

الثاني: من لله والكسر على أهل الكسر في الهاء واللام إذا كانا جارين اشعار بعملهما، واللام في لله للملك والاستحقاق؛ لأنه تعالى مالك الحمد ومستحقه لذاته العلية وصفاته الكاملة، وهو تعالى المتفضل بموجباته، والله اسم لواجب الوجود الأحد المعبود بحق، وهذا الاسم الكريم جامع لمعاني الذات والصفات، ومعاني أسماء الأفعال؛ فإليه يرجع معاني جميع الأسماء.

والأكثرون على أنه هو اسم الله الأعظم؛ وهو اسم خاص به سبحانه وتعالى لم يتسم أحد به ولا يتسمى. قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾. قال في الأمد الأقصى: "إن البارئ سبحانه اختص يهذا الاسم لفظا ومعنى".

أما اللفظ فلا يطلق إلا عليه، وأما المعنى فله فيه أحكام عشرة:

- الأول: القدرة على الخلق. **(هل من خالق غير الله)**.
- الثاني: له الإرادة؛ فلا يكون إلا ما يريد.
- الثالث: أنه القهار الذي لا يقهر.
- الرابع: أنه الغالب الذي لا يغلب.
- الخامس: لا يصح التكليف إلا منه.
- السادس: أنه لا يجوز العبادة إلا له.
- السابع: أنه لا ترفع الرغبة إلا إليه.
- الثامن: هو الذي لا تكون الرهبة إلا منه، ولديه.
- التاسع: أن المبدأ والمنتهى إليه.
- العاشر: لا ينتظر البذل، والمنع، واستدفاع الضرر إلا منه.

وهذا الاسم العظيم تكرر في القرآن ألف مرة وخمسمائة وستين، وهذا مما

يدل على تعظيمه والاعتناء به.

واختلف هل هو مرتجل أو مشتق؟

* فذهب الشافعي والحنفي، والقفال، والتاسي، والغزالي، والخطابي، والبلخي، والخليل، وسيبويه، وأكثر الأصوليين أنه غير مشتق.

* وذهب أكثر الأدباء، وجل المعتزلة إلى أنه مشتق.

* وقد منع جماعة من العلماء دخول الاشتقاق في أسماء الله تعالى، والصحيح دخول الاشتقاق. * وجمع بعضهم؛ فقال: كان مشتقا ثم صار علما.

ومنشأ الخلاف يرجع إلى أنه: هل هو اسم الرب على ما يجري مجرى الأعلام؛ كزيد وعمرو في المربوبين؟؛ وعلى هذا فالألف واللام فيه زيادة لازمة، أو مشتق من معنى قائم بذاته سبحانه وتعالى يجري في إطلاقه عليه مجرى عالم وقدير؟

قالوا والجاري على هذا أن تكون(أل) فيه للتعريف، أو هو علم للغلبة، وهو مراد من قال مشتقا ثم صار علما بالغلبة، وعلى القول بالاشتقاق:

- فقيل من أله إذا تعبد؛ ولهذا كانوا يسمون الأصنام آلهة لاعتقادهم أنها تستحق العبادة.

- وقيل من الإلهية أي القدرة على الاختراع، والتصرف في الأشياء.

- وقيل من أله إذا اعتمد؛ لأنه الذي يعتمد عليه، ويرجع في الشدائد إليه.

- وقيل من أله إذا تحير؛ لأن العقول تتحير في كنه صفاته، والاحاطة بكنهه.

- وقيل من أله إلى كذا. إذا سكن إليه واطمأن؛ لأن الخلق يسكنون إليه، ويطمئنون بذكره.

- وقيل من أله بالمكان. إذا قام فيه لأنه سبحانه لا يتبدل، ولا يتغير، ولا ينتقل.

- وقيل من أله إلى كذا إذا افتقر إليه لأن جميع الممكنات مفتقرة إليه.

- وقيل من الوله وهو الطرب، وأما من الاضطراب.

- وقيل من لاه. إذا احتجب لأنه سبحانه محتجب عن خلقه، وذلك يرجع إلى خلق الموانع في أبصارهم، فيكون من أسماء الأفعال.

- وقيل من لاه. إذا ارتفع وعلا؛ لأنه سبحانه المرتفع عن صفات الحدوث.

قال بعض العلماء: وأكثر هذه الأقوال لا تصح ولا تطرد. قالوا وهو تحكم - أي الاشتقاق -

والصحيح دخول الاشتقاق عند من يقول به. مع عدم التحكم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تنبيه:

ينبغي للعبد إذا قال الحمد لله؛ أن يضمر في نفسه أن يكون ثناؤه على الله عز وجل تابعا لثنائه تعالى على نفسه، ومؤديا لحق ربه. إن كان هذا حال من بقي مع نفسه. ناظر إلى أفعاله، ومسندها إليه. فاعلا منه مقاما، وأكمل حالا. من فنى عن نفسه، وأفعاله، وأسندها لله في الحقيقة؛ فلا يرى الثناء إلا منه، وإليه تعالى.

واعلم أن متعلق الحمد يختلف باختلاف الأحوال، وهي تختلف باختلاف المقامات:

* فأهل مقام الإسلام متعلق حمدهم الأفعال الجميلة، وهذا الذي يقتضيه حالهم.

* وأهل مقام الإيمان متعلق حمدهم الصفات القديمة الحميدة، وهذا الذي يقتضيه حالهم، وهذا أعلى مقاما من الأول.

* وأهل مقام الإحسان متعلق حمدهم الذات الكاملة العظيمة المتصفة بالصفات الحميدة الصادرة عنها الأفعال.

فمن شاهد الأفعال، ووقف عندها حجب عن شهود الصفات، ومن شاهد آثار الصفات ووقف عندها حجب عن شهود عظمة الذات، والأول مقام العامة، والثاني مقام الخاصة، والثالث مقام خاصة الخاصة.

وقد أطلنا الكلام فيما يتعلق بالحمد، وإن كان هذا الموضوع بالنظر إلى هذا الكتاب لا يقتضي هذا التطويل. لكن لما كان لفظ الحمد متعبدا به والحاجة ماسة إلى بيان معانيه ومعرفة أحكامه ومبانيه أتينا بذلك تكميلا للفائدة وتتميما للمقاصد والله المستعان وبه التوفيق.

وقوله: **"الذي قد عرفا معايب النفس لأهل الصفا"**.

أقول قوله: "الذي قد عرفا... إلخ". هو موجب الحمد السابق في الكتاب، فالحمد إذا مقيد بموجبه لتوقفه عليه، وهو أحد قسمي الحمد، والقسم الثاني المطلق؛ وهو الذي لا يتقيد بفعل، وقد للتحقيق.

وعرفا: معناها: بين وأظهر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

قال المفسرون: عرفها. معناه: بينها، والألف في عرفا زائدة جيء به لإطلاق القافية، وأهل علم العروض لهم في هذا كلام ليس هذا محله.

وتعريف الله تعالى لخاصة عبيده معايب النفوس بإلهام منه تعالى؛ وذلك إذا علم تعالى من عبيده المخلصين الإخلاص في أعمالهم، والصدق في أحوالهم كشف تعالى لهم عن معايب نفوسهم، وأظهرها لهم، وربما أظهر لهم عن ذلك بوقائع يكشف لهم بها عيبها، ومكرها، وخدعها؛ كما حكي عن بعض الصالحين المعتنين بخلاص أنفسهم، وطهارتها من دنس الأهواء، وأمراض الشهوات. القائمين عليها بعصاة الشريعة. المذيقين لها نار المخالفة. القاتلين لها بسيوف المجاهدة:

إن نفسه دعته في وقت من الأوقات إلى الجهاد؛ فاتهمها في ذلك. إذ من عادة النفوس أن لا تدعو إلى الخير، فكيف يتصور أن دعته نفسه إلى فضيلة الجهاد الذي فيه إتلاف النفوس؟ فدعى إلى الله عز وجل أن يطلعه على دسيسة نفسه، وخدعها، وأظن والله أعلم أنه رءا في منامه قائلا يقول له إن نفسك لما كنت تقتلها في اليوم قتلات كبيرة، وتخالفها فيما تهوى مرارا عديدة دعتك إلى الجهاد لتموت فتستريح منك، والحكايات عن أهل المجاهدات في هذا المعنى كثيرة لمن تتبعها؛ وللموت أهون على النفس من مخالفة الهوى ومنعها مما تهوى. [1]

ومعايب: جمع عيب، وجمع العيب لكثرة أنواعه، واختلاف وجوهه، وتعداد طرقه عند النفس؛ وستطلع على تعداد عيوبها، وكثرتها في الكتاب.

وأضاف المعايب إلى النفس؛ لأنها أهل لها، ولأنها من شأنها، ولوجوب اتصافها بها ما دامت أمارة؛ فإضافة العيب لها إضافة الشيء لمستحقه، والعيب كل

---

(1) وهذا الكلام ينطبق في حق الشيخ أحمد زروق. حيث عكف على مجاهدة النفس، ورأى أن النصر عليها مقدمة للنصر على العدو الخارجي. تحت إمام عادل.

ما يوجب نقصا، ويقدح في كمال، ويكون في الذوات، وفي الأحوال بموافقة الشرع والعوائد.

والنفس هنا: المراد بها الأمارة؛ وقد يكون في اللوامة عيوب إلا أنها أنقص من الأمارة.

وعيوب كل نفس بحسبها، وسميت النفس نفسا لنفاستها وشرفها. إذ هي من العالم العلوي اللطيف النوراني، وقد كانت طاهرة زكية موصوفة بالأوصاف الحميدة مجلوبة عليها؛ وإنما حدثت لها العيوب بعد إنسفالها، وهبوطها من عالمه العلوي إلى العالم السفلي؛ كما نبهنا على ذلك في أول الكتاب.

"**وأرباب الصفا**": هم الذين صفت أحوالهم مع الله تعالى؛ فصفت أعمالهم من الشوائب القادحة فيها، وأحوالهم مما يكدرها، وقلوبهم مما يغشيها ويذهب نورها وأسرارها؛ مما يميلها إلى الأغيار؛ فإذا اتصفت الأعمال والأبدان والقلوب والأسرار مما يجب تصفيتها منه قيل لصاحبها صفي، وكان من أهل الصفا، والصفا من التصفية؛ وهي البراءة والتخليص من الشوائب القادحة، والصفو نقيض الكدر؛ وإضافة الصفا إلى أربابه إضافة استحقاق.

وقوله: "**فاطلعوا على كمين غدرها**".

الاطلاع على الشيء معرفته، والكشف عنه، ومنه (**أطلع الغيب**... الآية)؛ وكمين الغدر ما خفي منه واستتر؛ فلم يظهر، ويقال لمن أخفى نفسه واستتر: كمن.

والغدر: نقض العهد، وهو قريب من الخيانة، وغدر النفس خيانتها ونقض عهدها، وربما سترت ذلك، وكان كامنا فيها.

والحق جل جلاله أطلع أهل الصفا الذين صفت أعمالهم وأحوالهم وقلوبهم وأسرارهم معه جل وعز على ما سترته من غدرها وخيانتها، وذلك عناية من الله عز وجل بعباده المخلصين.

وقوله: "**وانتبهوا في شأنهم لمكرها**".

الانتباه: التيقظ، **والمكر**: الفعل بباطن، وقال الفراء [1] المكي: "الخبء والحيلة". انتهى.

---

(1) الفراء: من كبار اللغويين.

وكل ذلك من أفعال النفس وأوصافها.

وقوله: "**وانتبهوا**". فيه إشارة إلى خفي مكرها؛ وكان حق الشيخ رحمه الله تعالى أن يقول ونبهوا حملا على قوله: "فاطلعوا " إذ المطلع لهم والمنبه لهم على خدع النفس وغدرها ومكرها هو الله تعالى.

والمراد بشأنهم: الشؤون التي كانت بينهم وبين نفوسهم من المباحثة والمناقشة، وغير ذلك من أحوالهم مع أنفسهم؛ وهذا حال أهل اليقظة والمراقبة لأنفسهم.

وقوله: "**وأدركوا مكامن العيوب**": إدراك الشيء الوصول إليه واللحوق به، ومنه: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ...﴾ الآية.

وقوله: "**وادركوا**" "معطوف على وانتبهوا، وهو معطوف على"فاطلعوا"، وعطف الشيء على الشيء يوذن بتغاير المعاني؛ فعلم من هذا أن الاطلاع غير الانتباه، وهو غير الإدراك، وقد تقدم معنى كل من الألفاظ.

وترتيب الشيخ هذه الألفاظ ترتيب حسن فقدم الاطلاع ثم الانتباه ثم الإدراك، ولا شك أن إدراك المدرك لشيء إنما هو بعد إطلاعه عليه وتنبهه إليه.

ومكامن: جمع كمين؛ وجمع بحسب كثرة العيوب، وكل عيب من عيوب النفس تكمنه.

والعيوب: جمع عيب كما جمعه قبل بمعايب، وتقدم تعريف الكمون وتعريف العيب.

ومعنى كلام الشيخ رحمه الله تعالى أن الله تعالى أطلع أهل الصفا على معايب النفس فكشف لهم ونبههم إلى ما أطلعهم عليه من العيوب، وأخرجهم من حالة الغفلة عن عيوب أنفسهم إلى التنبه إليها والتيقظ؛ فحينئذ أدركوا ما كمنته من عيوبها؛ ولما أدركوا ذلك تحذروا منه واستعملوا الأدوية النافعة للعيوب؛ كما نبه على ذلك بقوله:

"**واستعملوا أدوية المطلوب**": استعمال شيء لشيء تهيئته له فيهيأوا لكل داء دواء يليق به على الوجه الطبي، والقانون الحكمي من غير تفريط، ولا إفراط؛ فينظر الحكيم المناول للأمراض إلى العلة وأصلها وسببها، وما يضادها من الأدوية؛

فيعطي لكل عليل من الأدوية ما يضاد علته، وينفعها؛ وإن كانت العلة بسيطة؛ فيكون الدواء بسيطا، وإن كانت مركبة فمركب، ولا بد من مراعاة الطبائع والفصول والهواء، والحكيم أعلم بذلك، ولا فرق بين معاناة النفوس، ومعاناة القوالب.

وعيوب النفوس: هي العلل الممرضة لها. الحاجبة لها عن الدخول إلى حضرة القرب، والوصول إليها؛ فإذا اتصفت بعيب؛ فلا بد من النظر فيها وفي علتها؛ فينظر أولا في أصلها، وفي السبب الموجب لتلك العلة والمقوي لها؛ فيسلط عليها دواء يضادها، وينفيها، ويذهب أثرها بالكلية. حتى تعود النفس إلى ما كانت عليه أولا من السلامة من العيوب، والطهارة منها، والقدرة.

والحكيم خبير بذلك؛ والحذر ثم الحذر من أن يتولى هذا الأمر غير أهله؛ أو يطلب الشفا من غير محله؛ فكم من جاهل، أو ذا محاولة لعلة لينفيها فزادها اهتياجا؛ وكم من مدع أراد استقامة نفس فزادها اعوجاجا؛ وإذا وجب حفظ حياة الجسوم، فحفظ حياة الأنفس والقلوب أوجب. إذ هذه حياة دائمة، وتلك حياة يعقبها الفناء، وسيأتي في كلام الشيخ التنبيه على علل النفوس وأدويتها، والله تعالى المستعان.

لأجل ما خصوا من التوفيق ... والنظر السديد والتدقيق

تيسر العسير منها لهم ... وبان ماكان لديهم مبهم

فنهجوا مناهج الطريقه ... ووردوا موارد الحقيقه

قوله: "لأجل ما خصوا... إلخ". هو تعليل لما بعده من تيسير العسير، وبيان المبهم؛ فعرف رحمه الله تعالى أن التيسير والبيان إنما هو لأجل ما خصوا به مما ذكر؛ وفيه ترغيب في طلب التوفيق من الله تعالى، وأن يلهمه إلى سديد النظر في أمور دنياه وآخرته، وتحقيق النظر في أمور دينه، وعلى نفسه؛ ومن أعطي هذا؛ فقد أعطي خيرا كثيرا، ومن ذلك تيسير العسير، وما أبهم من الأمور مما يرجع إلى النفوس وغيرها.

والتوفيق شيء عزيز. قالوا: ومن عزازته أنه لم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، والتوفيق من الموافقة، والوفق من وافق الحق في أمره ونهيه.

والنظر السديد: هو الذي تحمد عاقبته، وتؤمن غاياته، وتتحقق سلامة صاحبه دنيا وأخرى؛ وبلا لوم، ولا شؤم.

والتوفيق في الأمور: هو بلوغ الغاية في البحث في جزئياتها من غير ترخص، ولا مسامحة.

والعسير: الصعب، وتيسيره: تسهيله، والضمير من(**منها**) عائد على معايب النفوس.

والمبهم: المنغلق الذي لايعلم؛ والمراد به هنا ما كمن من عيوب النفس.

وبان: معناه ظهر؛ والضمير في خصوا، وفي(**لهم**)، وفي(**لديهم**) عائد على أهل الصفا. والمراد أن الله تعالى سهل عليهم ما يحاولونه من علاج أمراض نفوسهم، وبراءتها من عيوبها، ويسر ذلك لهم. بحيث أن يكون ذلك من غير تعب ولا مشقة؛ ومما يعين على تسهيل ذلك عليهم، وتيسيره لهم أن بين لهم من عيوبها ما انبهم. إذ علاج ما ظهر أسهل وأيسر من علاج ما انبهم؛ ولهذا كان علاج الظواهر أيسر، وأسهل من علاج البواطن.

وقوله: "فنهجوا مناهج الطريقة": الضمير في(**نهجوا**) عائد على الذين خصهم الله نعالى بالتوفيق، والنظر السديد، والتدقيق في مباحث النفس.

ونهجوا: أي سلكوا، **والمنهج:** المسلك.

"**ومناهج الطريق**": يريد مسالك الشريعة المحمدية، ولما سلكوا مسالكها بظواهرهم وردوا موارد الحقيقة الأحمدية ببواطنهم، وهذا نتيجة التوفيق وثمرة النظر السديد والتوفيق.

ولما كملت مقدمة الكتاب ختم بالصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما جرت عادة كثير من أهل التأليف.

ثم صلاته على المختار   وآله وصحبه والأخيار

صلاة الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم زيادة تشريف وإكرام وإفضال وإنعام؛ وقد تعبدنا سبحانه بها، وأمرنا بالتقرب إليه بها لتكون صلة بيننا وبين نبيه صلى الله عليه وسلم، ووعدنا تعالى بالمكافأة عليها بإضعافها ترغيبا لنا فيها

وتحريضا عليها، وبدأ تعالى بنفسه؛ فصلى عليه. ثم ثنى بملائكته. إظهارا لشرف نبيه صلى الله عليه وسلم، وعظيم مكانته عنده؛ فكل صلاة عليه صلى الله عليه وسلم من العبيد، فهي تابعة لصلاة الله، وملائكته عليه.

و"**المختار**" صفة لموصوف محذوف تقديره: ثم صلاته على النبي المختار؛ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد اختاره الله تعالى لمحبته، واصطفاه من خليقته، وكذلك جميع الرسل والأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فقد اختارهم واصطفاهم، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خيار الأخيار.

و**آله**: المعروف أن آله عليه الصلاة والسلام هم رهطه الأدنون، وعشيرته الأقربون، وأصله آل عند سيبويه بدليل تصغيره على أهيل ثم أبدلت من الهاء بهمزة ساكنة؛ فقيل آل ثم قلبت الهمزة ألفا لسكونها، وانفتاح ما قبله، وهي الهمزة الأولى؛ فقيل آل، وقال الكسائي أصل آل: أول، وحكي في تصغيره أويل، والأول أشهر، ولا يضاف آل إلا إلى ظاهر معظم، وقد يضاف إلى الضمير كما قال عبد المطلب[1]:

وانصر على الصليب وعابديه اليوم آلك

وقال الكميت ذما: [2]

بلغ بني العبدين من آل وائل وآل مناة الأقارع آلها

وقوله: "وصحبه": جمع صاحب، ويجمع على صحب، وأصحاب، وصحاب، وصحبان. واختلف من الصاحب له صلى الله عليه وسلم. قال أبو المظفر السمعاني المروزي: أصحاب الحديث يطلقون الصحابي على كل من روى عنه حديثا أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية فهو من الصحابة؛ وقيل الصحابي من طالت صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم، وكثرت مجالسته له عن طريق التبع له، والأخذ عنه. قال أبو المظفر: وهذا طريق الأصوليين.

قيل وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن رووا عنه وسمعوا منه.

وقوله: "الأخيار": وصف لأصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله

---

(1) عبد المطلب: جد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ والبيت قاله في حادثة أصحاب الفيل.

(2) الكميت: شاعر عباسي شيعي النزعة والميول.

تعالى جعلهم خيارا فيهم خيار من خيار؛ فأمة النبي صلى الله عليه وسلم خيار الأمة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾. أي خيارا؛ وقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، والصحابة خيار الأمة، وكفى بهم شرفا أن اختارهم تعالى لصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولنصرة دينه القويم. إلى غير ذلك من أوصاف الكمال التي خصهم الله تعالى بها دون غيرهم، وفضائلهم رضي الله تعالى عنهم أكثر من أن تحصى.

وبعد هذه فصول مجمله تهدي لما وراءها محصله

لما أتى به الإمام السلمي في جزئه المحرر المنتظم

(بعد): ظرف زمان منقطع عن الإضافة مبني على الضم، وبني لانقطاعه عن الإضافة، وبني على الحركة لئلا يجتمع ساكنان، وخصت بالضمة لئلا تلتبس بحركتي اعرابها، وتستعمل(**بعد**) وحدها؛ كما استعملها الشيخ رحمه الله تعالى هنا؛ وتستعمل(**أما**) وحدها، وتستعمل. (**أما**) مركبة معها؛ فيقال: (**أما بعد**)، وأكثر ما تستعمل مركبة؛ فإذا ركبت وأضيفت كما تقول: أما بعد حمد الله؛ فتنصب على وجهين:

* إما أن يكون العامل ما له معنى. إما من معنى الشرط، وإما أن يكون العامل على معنى التقديم والتأخير؛ كأنك تقول: مهما يك من شيء؛ فإني رأيت بعد حمد الله.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعملها في خطبه ومواعيظه، وكذلك الخطباء قبله، وبعده. قيل وأول من قالها داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قيل وهو فصل الخطاب الذي قال تعالى فيه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾.

وأول من قالها من العرب سحبان وائل، وهو القائل:

لقد علم الحي اليمانيون أنني إذا قلت أما بعد إني خطيبها

وقيل: أول من قالها من العرب، وكتب بها قس بن ساعدة؛ وهو أول من كتب من فلان إلى فلان، وأول من خطب بعصا، وأول من أقر بالبعث من غير

سماع؛ وقيل إنه عاش ستمائة سنة.

وقوله: "هذه": (**الهاء**) من هذه للتنبيه، و(**ذه**) بكسر الهاء من أسماء الإشارة؛ للمفردة المؤنث، ويقال: (**ذه**) بإسكانها، و(ذهي) بالإشباع؛ وأصل (**هذه**) هذي، والهاء بدل من الياء قال الشاعر:

فهذي سيوف يا عدي بن حاتم كثير ولكن أين بالسيف ضارب

وقال ابن محيصن: هذي الشجرة، وهذي ناقة الله، وشبههما بإثبات الياء في الوصل.

وقوله: "فصول": جمع فصل، والإشارة بهذه إلى الفصول، والمراد بها عند الشيخ ما في الرجز من التفصيل من عيوب النفس.

والفصل: ما يكون بين كلامين. ما بعده متعلق بما قبله في المعنى. بخلاف الباب؛ فإن ما بعده مقطوع مما قبله في المعنى.

وقوله: "مجملة " [1]: أي غير مفصلة، والمجمل قيل أصله من الجمع؛ ومنه أجملت الحساب. إذا جمعته؛ وقيل الإجمال الخلط، وهذا الذي يليق بهذا الحال من قول الشيخ ويناسبه؛ وقيل المجمل هو المتردد بين احتمالين، وقيل من التحصيل. نقول: أجملت الشيء إذا حصلته.

وقوله: "تهدي لما وراءها". تهدي: معناه ترشد، والهداية الإرشاد؛ وقد يجيء لفظ الهداية بغير معنى الإرشاد، وكلها إذا تأملت راجعة إلى الإرشاد.

ولما وراءها: يعني لما يأتي من بعدها من الأمور المفصلة؛ وقد يجيء لفظ وراء بمعنى أمام كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ...﴾ الآية.

وقوله: "محصلة لما أتى به الإمام السلمي". محصلة: أي متضمنة، ومستوعبة لما ذكره الإمام السلمي من عيوب النفس، وغير ذلك مما أتى به في كتابه الذي رجزه هذا الشيخ؛ كما أشار إلى ذلك بقوله:

(**في جزئه المحرر المنتظم**).

فالمراد بالجزء الكتاب الذي ألفه الإمام السلمي الذي هذا الرجز

(1) وهذا من تواضع الشيخ أحمد زروق كعادته؛ وإلا فإنه قد فصل الكلام في أرجوزته تفصيلا لم يأت به السلمي.

متضمن لمنثوره.

و"**المحرر**": هو ما تحكم لفظه، وتحقق معناه.

و"**المنتظم**": هو المحكم الذي لا اشتتات فيه

وهذا مما يمدح به التآليف.

* والشيخ السلمي هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي النيسابوري؛ وهو إمام من أئمة العلماء، ومن صدورهم. جامع بين العلوم الظاهرة، والباطنة. له قدم في جميعها.

قوله:

قـــــربتها برجـــــــز مفـــــــيد للحفـــــظ والتحـــصيل والتقيـــــيد

"**تقريب الشيء**": هو تسهيله، وتيسيره ليقل عناء طالبه؛ وهنا أراد تقريب الكتاب لمن أراد حفظه، أو تحصيله، أو تقييده؛ كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى، والضمير في قربتها واقع على ما وقع عليه في قوله: لما أتى به الإمام السلمي؛ والرجز أحد أبحر الشعر؛ وهي خمسة عشر بحرا مذكورة في علم العروض، والرجز من هذه الأبحر مسدس في العادة من مستفعلن ست مرات، وله أربعة أغراض وخمسة أضرب؛ ولما كان الرجز أنشى للنفس من المنثور، وأميل إليه، وأسرع للحفظ. رجز الشيخ كتاب السلمي يرحمهما الله تعالى. (1)

وقوله: "**مفيد**". أراد إفادة تامة؛ وإلا فالكتاب قبل ترجيزه كان مفيدا؛ والإفادة تحصيل علم ما لم يكن عندك معلوما. (2)

و"**الحفظ**": حصول المعانى المعقولة في الحافظة، والحافظة هي قوة تحفظ المعاني التي يدركها الوهم بعد حكم الحاكم، وهي مغايرة للوهم.

و"**التحصيل**": الظفر بالشيء، و"**التقييد**": الكتابة؛ وللحفظ متعلق بقربتها.

أرجـــو الإلـــه أن تكـــون نافعـــه مفـــيدة لكـــل خيـــر جامعـــه

"**أرجو الإله**": خبر فيه معنى الدعاء بأن تكون الأرجوزة نافعة منفعة. خاصة

(1) فعل ذلك حتى يسهل حفظه والعمل بما فيه لكل مريد وسالك للطريقة الزروقية؛ وللتصوف عموما.

(2) وبالمقارنة بين رسالة السلمي، ورجز الشيخ أحمد زروق يتبن أنه أتى بالشيء المفيد حقا.

لمن حصلها، وعمل بمقتضاها؛ وعامة: أن يهدي العباد للعمل بمقتضاها، وأن تكون مفيدة للسالكين المريدين، وجامعة لخير الدنيا والآخرة لجميع المؤمنين، ومن حسن رجاؤه في الله تعالى فجدير أن ينيله مقاصده، وأن يجيبه فيما سأله؛ والرجاء حالة تلابس القلب تنشأ عن شهود الأسماء الجمالية؛ فإذا تجلى الحق سبحانه على عبد من عباده بمعاني أسمائه الجمالية أورثت القلب أنسا بالله تعالى، فيقوى رجاؤه في الله عز وجل.

قوله: دائمة النفع لكل سار من ناظم وكاتب وقاري

لما رجا الشيخ رحمه الله تعالى من الله أن تكون أرجوزته نافعة، وضمن الرجاء معنى الطلب. ضمن في طلبه أن تكون المنفعة دائمة من غير انقطاع بذهابها، أو صرف الهمم عنها، وعدم الاعتناء بها.

وقوله: "**لكل سار. من ناظم وكاتب وقاري**": تخصيص من عموم؛ وإنما خص الناظم والساري والكاتب والقارئ اهتماما بشأنهم لشغلهم بالمنتفع، وتعلق هممهم بأمره.

قوله:

فهو حسبنا تعالى وكفى ثم صلاته لخير مصطفى

محمد وآله وصحبه وتابعهم أبدا في حبه

"**فهو**": أي الإله. " **حسبنا**": أي اكتفينا، واجتزينا به فيما رجونا منه من دوام النفع والإفادة، وجماع الخير بالكتاب، وفي جميع الأمور الدنيوية والأخروية، ومن اكتفى بالله عز وجل كفاه، ومن آوى إليه آواه؛ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ...﴾ **الآية**. **(تعالى)**. معناه تعاظم عن صفات المحدثات، وارتفع عن أن تحيط به الجهات.

"**وكفى**": أي كفى به تعالى وليًّا وكفى به نصيرا.

وقوله: "**ثم صلاته بخير مصطفى...**". ثم ههنا عاطفة مرتبة إلا أن ما بعدها منفصل مما قبلها، ولهذا قال ابن مالك في ألفيته:

وثم للترتيب بانفصال...

وقد تقدم معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ وأما حكمها:

قال عياض في الشفا: "إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض في الجملة غير محدود بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه"؛ وجملة الأئمة والعلماء على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى ابن جعفر الطبري: "أن محل الآية عنده على الندب، وادعى فيه الإجماع".

وقال القاضي أبو الحسن القصار: "المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من عمره مع القدرة على ذلك".

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: "افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه صلى الله عليه وسلم تسليما، ولم يجعل لذلك وقتا معلوما؛ فالواجب أن يكثر العبد منها، ولا يغفل عنها".

وقال أبو عبد الله محمد بن سعيد: "ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم إلى أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض في الجملة؛ وأن من صلى عليه مرة واحدة في عمره سقط الفرض عنه".

قال العلماء؛ وما عدا ذلك فمندوب يرغب فيه لأنه من سنن الإسلام وشعار أهله؛ وأما فضائلها فأكثر من أن تحصى.

والباء في قوله: "بخير مصطفى". بمعنى على قوله: بودي لو جاء زيد لأكرمته: أي على ودي.

ومصطفى: من الاصطفاء؛ وذلك أن الله تعالى اختار الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من جميع خلقه. ثم اختار سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم من جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فهو صلى الله عليه وسلم خيار من خيار؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر".

ومحمد اسم عربي؛ وهو مفعل من الحمد من أبنية المبالغة والتضعيف الذي فيه للتكثير: أي الكثير المحامد؛ وهي الأوصاف المحمودة، أو الكثير الحمد:

أي حمد الناس له؛ كما تقول أكرمته؛ فهو مكرم، وعظمته فهو معظم؛ ويقال أحمد، ومحمود لا يدل على الكثرة، ومحمد يدل عليها؛ والدليل على الفرق بينهما قول الشاعر:

فلست بمحمود ولا محمدا ولكنما أنت الحبنطى الحيائر

وعن محمد بن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب " انتهى.

واعلم أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له أسماء كثيرة، وأشهرها محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا الاسم الكريم بركة كثيرة. منها ما هو في الدنيا، ومنها ما هو في الآخرة.

* فأما التي في الدنيا ما روى ابن وهب في جامعه عن مالك: "سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلا ورزقوا"، وعن شريح بن يونس أنه قال: "إن لله ملائكة سائحين عبادتهم الاستغفار لكل أهل دار فيها أحمد أو محمد إكراما لمحمد صلى الله عليه وسلم"؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمدان وثلاثة".

* وأما في الآخرة ما روي عن جعفر بن محمد: "إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد؛ فيدخل الجنة لكرامة اسمه"؛ وفي رواية أخرى: "ينادى يوم القيامة: يامحمد فيرفع رأسه في الموقف كل من اسمه محمد، ويقول الله جل جلاله: إني غفرت لكل من اسمه على اسم نبيي"؛ ولهذا قال صاحب البردة:

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

وقد سمعت ممن أثق به أن اسم محمد صلى الله عليه وسلم أنزل من السماء على هذه الصورة (محمد) على صورة آدم عليه الصلاة والسلام؛ فالميم رأسه، والحاء جناحاه، والميم الآخر جوفه، والدال رجلاه؛ ومن رسم اسم محمد صلى الله عليه وسلم على الصورة السابقة لها فوائد جليلة محلها غير هذا الموضع.

وقد أخرج بعض العلماء: من أحرف محمد أعداد جميع المرسلين، وتقدم الكلام عن آله وصحبه، وزوجه، وتابعيهم أبدا في حبه.

التابعون: هم أتباع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ويقال لمن بعدهم تابع التابعين؛ وهكذا تتسلسل الإضافة.

وقوله: (**أبدا**) يشمل التابع، وتابع التابع أبدا، وفيه جواز الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وفيه خلاف معلوم؛ فلينظر في محله؛ وذكر المحبة لأنها داعية إلى الاتباع؛ فلا اتباع لمن لا محبة له؛ كمن لا محبة لمن لا اتباع له.

هذا وحين أبتدي فيما أردت ... وأفتح المعنى الذي له قصدت

لما كمل الشيخ رحمه الله تعالى طالعة كتابه بما ضمن فيها من الحمد، والشكر، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وآله، وصحبه، وتابعيهم، وغير ذلك من مفردات الكتاب، كعادة غيره من المؤلفين. أخذ يذكر في هذا البيت أنه أراد الابتداء فيما أراده وقصده من التعريف بالنفس وعيوبها التي أمرضتها، وحجبتها، وقطعتها عن الوصول إلى حضرة الله، والدخول إليها، والتعريف بدواء كل علة؛ وهذا هو المقصود من الكتاب.

و(**الحين**): هنا المراد به الوقت الذي أراد الشروع فيه بما أراده وقصده، وقد يراد بالحين الوقت الذي إليه ينتهي أمد الدنيا، ومنه قوله تعالى في قوم يونس عليه الصلاة والسلام: (**ومتعناهم إلى حين**).

و"**أبتدي**": من البداية يقال أبتدي وأبدأ بمعنى، وبداية الشيء الشروع فيه.

و"**أردت**": من الإرادة؛ وهي بالنظر إلى العبد. تعلق الهمة بفعل أمر، أو تركه، ومراد الشيخ هنا الفعل.

و"**أفتح**": من الافتتاح للأمر؛ وهو بمعنى أبتدي، والمعنى: أي الأمر الذي عناه وصرف همته إلي و"**له قصدت**": أي أممته، ونويته.

قد أخبر الله بشؤم النفس ... وما لها من علة ولبس

في يوسف وغيرها في الجاثيه ... والنازعات وهي آي ناهيه

عن اتباعنا الهوى والنفس ... وترك موجب الرضى واللبس

"**شؤم النفس**": ما يصيب صاحبها بسببها من الأسواء، والبلايا، والمصائب، والرزايا، ومن شؤمها ما تورث صاحبها من العلل في أعمالها الدينية، وتلبيسها للباطل؛ فتجعل ذلك صورة حق.

والمراد بإخبار الله تعالى عنها في يوسف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾، وما في الجاثية والنازعة من النهي عن اتباع الهوى هو قوله تعالى في الجاثية: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، والهوى ما تهواه النفس، وتميل إليه من شهواتها وحظوظها ما دامت نفسا لآ تهوى إلا ما فيه حظ وشهوة لها، وسبب بعدها عن الله تعالى، وهذا كله موجب لترك الرضى وموجب للبس أيضا: أي لبس الحق بالباطل؛ وذلك أن العبد إذا اتبع حظوظ نفسه وهواها، ومال إلى شهواتها. ذهب نور الإيمان من قبله، وتتراكم على قلبه ظلمة المعاصي؛ فتتلبس عليه الأمور، وتتغلب الظلمة على النور. قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

وفـي حـديث المـصطفى المعظـم	**ثلاثــة فــي طــي طــين لآدم**
وهــي الــبلاء والهــوى والــشهوه	**فليعتـــصم بـــربنا ذي القـــوه**
علــى اصــطبار وادكــار وجهــاد	**لكــي تــنل بــذاك غايــة المــراد**
مــشمرا فــي الـبحث عــن عــيوبك	**وهاربـــا الله مـــن ذنـــوبك**
فلــيس للعــبد ســوى مــولاه	**فهــو الــذي يعطــيه مــا يهــواه**

النفس: من الملائمات التي تلائم طبعها، وتوافق شهوتها، والهوى: ما تهواه وتميل إليه، والشهوة: ما تشتهيه، وهي ما دامت نفسا. لا تتلذذ، ولا تهوى، ولا تشتهي إلا ما فيه نقصها، ويبعدها من خالقها،

و"**البلاء، والهوى، والشهوة**". **هي الثلاث ركزت في طين آدم**، ومعنى ركزت أي مزجت وخلطت في طين آدم. غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لحكمة أرادها تعالى، وليبلونا أينا أحسن عملا؛ فابن آدم غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجبول على حب الملاذ، والميل إلى الهوى والشهوة. إلا من رحم الله. قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾.

وابن آدم المسكين لا يتخلص مما هو مركب في طينته إلا بالاعتصام بالله ذي القوة الشديدة، والقدرة العظيمة. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فقوله: "**على اصطبار وادكار وجهاد**": هذه الأمور الثلاثة التي هي: اصطبار، وادكار، وجهاد هي التي أمر الشيخ بالاعتصام بالله عليها؛ ولا شك أن من اعتصم بالله تعالى أمده بقوته، ويسر له الأمور بفضله ورحمته.

و"**الاصطبار**": بمعنى الصبر. قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾؛ أي اصبر عليها حاملا لأثقالها متحملا لأعبائها، وزيدت الطاء في اللفظة للتقوية. إذ الزيادة في المبنى تقوية للمعنى.

و"**الادكار**": الذكر، وأصله إذتكر على وزن افتعل، فقلبت التاء دالا لقربها منها؛ فأدغم الأول في الثاني. ثم أبدلت دالا غير منقوطة لقوتها، وعن الحسن، والذكر بذال معجمة.

و"**الجهاد**": المراد به جهاد النفس، ورياضتها، وإضعاف قوتها حتى تعود روحا مطمئنة لا ميل فيها إلى الملاذ، والهوى، والشهوة.

و"**الاصطبار**": توطين النفس وصبرها على الطاعة وعن المعصية.

وسئل عبد القادر[1] عن الصبر؛ فقال: "هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب والثبات مع الله عز وجل، وتلقف مر قضائه بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة".

و"**الادكار**": تذكر الثواب الحامل على فعل الطاعات، وتذكر العقاب المانع من الورود على المخالفات.

و"**الجهاد**": هو القيام على النفس بسيف الشرع القويم الراد من قيم به علة إلى الصراط المستقيم، ومن جاهد مخالفة هواها، وإقامة ميزان المحاسبة عليها، واتهامها فيما يبدو منها من الطاعات، وغير ذلك مما يقتضي زوالها عن أخلاقها الذميمة، وإخراجها عن أوصافها الناقصة، وهذا هو الجهاد الأكبر، وأي جهاد أكبر من جهاد عدو بين جنبيك لا يفارقك، ولا يحيد عنك، ولا يوافقك؛ بل يخالفك في كل ما تدعوه إليه من خير عوده عليه؛ فإذا استعمل العبد الاصطبار، والادكار، والجهاد، واعتصم بالله تعالى بلغ غاية المراد من تصفية النفس، وطهارتها، وقربها

(1) يقصد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

من الله تعالى. قال أبو يزيد [1]: "كنت اثنتي عشرة سنة حدادا لنفسي، وخمس سنين أصقل مرآت قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما؛ فإذا في وسطي زنار فعملت في قطعه اثني عشر سنة".

والحكايات عنهم في هذا المعنى كثيرة. انظر رسالة القشيري في باب المجاهدة.

وقوله: "مشمّراً في البحث عن عيوبك". مراده بالتشمير استعمال الجد في البحث عن عيوب النفس؛ ليطلع عليها مما كان متلبسا به من عيوبها. استعمل الأسباب التي تنفي عنه ذلك، وما كان متخيلا عنها. استعمل الحذر من الوقوع فيه، وسنبين إذا لم يقع البحث عن عيوب النفس ربما لم تنكشف له، ولم يطلع عليها؛ فيقع فيها من غير شعور به؛ وأهل الجد بارك الله فيهم استعملوا الجد في البحث عن عيوب نفوسهم، والحذر من الوقوع فيها. فما تلبسوا بشئ منها، وأهل الغفلة بعكس ذلك؛ فالواجب على العبد مخالفة الهوى.

قال سهل بن عبد الله: "ما عبد الله بشيء مثل مخالفة الهوى والنفس".

قال بعضهم: "مخالفة النفس رأس العبادة".

وقال ذو النون المصري: "مفتاح العبادة الفكرة، وعلامته إصابة مخالفة النفس والهوى".

وقال ابن عطاء الله: "النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب". انظر رسالة القشري في باب مخالفة النفس.

وقوله: "فليس للعبد سوى مولاه". إعلاما بانفراده تعالى بالجلب، والدفع، والضر، والنفع؛ ومن أسمائه تعالى: المعطي. المانع. الضار. النافع. وإذا علمت أيها العبد أن ليس لك إلا مولاك؛ فلا تتوجه في جميع أمورك إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تطلب إلا منه، ولا ترجو إلا هو تعالى، فارفض الأكوان، ولا تعول على شيء منها، وكن له عبدا؛ كما هو لك ربا.

وقوله: "فهو الذي يعطيه ما يهواه". إذ لا معطي سواه، ولا ينتظر العطاء إلا منه؛ وإن صدر عطاؤه لك على يد أحد من خلقه؛ فوجب رعي الوسائط شرعا

---

(1) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي.

بحكم الظاهر، واعتقد أن لا معطي إلا مولاك في الحقيقة.

من عيبها: توهم النجاة ... بالأخذ في الأذكار والطاعات
مع أنها مقيمة بعيبها ... مصرة على عظيم ذنبها

أخذ الشيخ رحمه الله تعالى يذكر عيوب النفس على التفصيل؛ فتوهم العبد النجاة من العقوبة بمجرد عمل الأذكار، والطاعات. مع إقامته على عيوب نفسه وإصراره على عظيم ذنبه من عيوب نفسه القادحة في حاله الموجبة للنقص في أقواله، وأفعاله؛ فالأذكار، والطاعات أسباب عندها لا بها، فلا ينجو أحد من عقوبة الله إلا بفضله، ورحمته؛ والأسباب التي هي الطاعات لا تفيد مع إقامة العبد على عيوب نفسه، وإصراره على عظيم ذنبه؛ ونعني بالإقامة الكاملة المعتبرة عند أهل الصدق، والوهم الذي لا حقيقة له في الخارج؛ فتوهم النجاة حكم لا حقيقة له؛ وهو أضعف المراتب والأعمال مع الإقامة على عيوب النفس، والإصرار على الذنب، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الموجب لتوهم النجاة بالطاعات. مع الإقامة على عيوب النفس، والإصرار على الذنب.

فقال رحمه الله تعالى:

وذاك من جهل بأصل الدين ... وموجبات الفتح والتمكين

الإشارة بذاك: إلى توهم النجاة بالأذكار، والطاعات. مع الإقامة على العيب، والإصرار على الذنب، والسبب الموجب لذلك الجهل بأمر الدين، وموجبات الفتح والتمكين؛ وذلك أن من جهل أمر دينه، وما يتعلق بقواعده وأحكامه، وموجبات فتحه، وتمكينه. غلب وهمه على يقينه بحكم مقتضى وهمه، فغلط في حكمه بغلبة جهله على علمه؛ ولو كان عالما بأمر دينه؛ لظفر بالنجاة من فضله؛ كما أن المواخذة بعدله، وأن الطاعة إنما هو أسباب عندها لا بها كما تقدم؛ وذلك من جهل موجبات الفتح، والتمكين. حيث يتوهم أن موجبات ذلك: الأذكار والطاعات، وليس الأمر كذلك؛ وإنما موجب الفتح والتمكين: الفضل؛ كما أن موجبات عدم ذلك: العدل؛ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾.

و"**الفتح**": هو ما يفتح الله تعالى به على قلوب أوليائه من العلوم، والأسرار، والحقائق، وغير ذلك من الفتوحات الإلهية. إذ كل فتح بحسب مقام صاحبه وحاله.

و"**التمكين**": هو التمكن في المراتب والمقامات والأحوال، وكل ذلك لا ينال بأعمال ولا اكتساب وإنما هي مواهب من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده المخلصين.

لصالح المري قول أصله ... من أدمن القرع يرجى الفتح له

صالح المري هذا من أهل الطريقة ورجال الحقيقة. صاحب تمكين وفتح مبين؛ ومما ينقل عنه هذا القول.

فقال رحمه الله تعالى: "من أدمن قرع الباب يرجى الفتح له".

و"**أصله**": أي جعل هذا القول أصلا، ولا شك أن من لازم باب الله بالإخلاص والصدق، واستعمل أسباب الوصلة، وموجبات القربة فتح له الباب.

و"**الإدمان على الشيء**": الدوام عليه والملازمة له.

و"**قرع الباب**": إذا ضربه للاستفتاح.

قال رحمه الله تعالى:

قالت له ربيعة العدويه ... كلمة صحيحة قويه

الباب مفتوح وأنت تهرب ... منه بفعلك فكيف تقرب

كيف يصل لمقصد من أخطا ... طريقه ودونه قد حطا

وكيف ينجو من عنان شهوته ... أرخى لنفسه وحبل غفلته

رابعة العدوية: هذه مشهورة، وبين أهل الصدق معلومة مذكورة. ذات حال ومقام، وسلكت في طريق القوم مسلك الرجال، وأي رجال، ومقالتها التي أسندها الشيخ رحمه الله تعالى إليها هي قولها: **الباب مفتوح**... إلى آخر الكلام المتقدم، وعبر عن جميع مقالتها بكلمة؛ كما يقال في لا إله إلا الله. كلمة التوحيد، وقال تعالى: (وألزمهم كلمة التقوى)؛ وهي مشتملة على كلمات، ومن ذلك في كلام العرب كثير، ووصف الكلمة بالصحة والقوة لصحة مبناها، وقوة معناها.

وقولها: "**الباب مفتوح**": تريد باب القبول، وهو معنوي، ومفتوح أي غير مغلق، ولا مانع لمن أراد الدخول منه من القاصدين، والمتوجهين إلى الله تعالى

على سبيل الصدق والإخلاص؛ **وقولها:** "**وأنت تهرب**". خطاب لمن أعرض عن الله تعالى بالخروج على سبيل الموافقة إلى سبيل المخالفة، والميل عن طريق الاستقامة إلى طريق الاعوجاج، واستبدل الرشد والهدى بالغي والردى والشر؛ وإلى هذه الأفعال الإشارة بفعلك أي بأفعالك المانعة لك من الدخول إلى باب الفتح.

وقولها: "**فكيف تقرب؟**". إنكار واستبعاد لقرب من أفعاله أفعال المبعدين، ووصل من هو على سبيل المقطوعين.

وقولها: "**كيف يصل لمقصد من أخطأ طريقه؟**". إنكار أيضا أن يصل إلى مقصده من أخطأ طريقه؛ وذلك أن الطريق الموصل إلى الله عز وجل هو طريق الاستقامة؛ فمن لم يكن سالك طريق الاستقامة الشرعية والسنة المحمدية، فقد أخطأ الطريق، والمخطئ له محال أن يصل إلى المقصد الذي قصده من قربه إلى الله تعالى، والوصول إلى بابه الكريم.

وقولها: "**ودونه قد حط**". الضمير في دونه عائد على المقصد، وحط: هو هنا من حط الرحال. يقال حط المسافر رحله إذا ترك السير، وأقام في البلد، وانقطاع السالك من وصوله إلى ما قصده من الوصول إلى باب الرب، ودخوله لحضرة الوصول بسبب الموانع والقواطع التي تمنعه، وتقطعه عن بلوغ مقصده والموانع، والقواطع هي أفعال المخالفات وارتكاب المعاص، واجتراح السيئات، ومن كانت موارده فمحال أن يبلغ مقاصده.

وقولها:

وكيف ينجو من عنان شهوته من أرخى لنفسه حبل غفلته

من أرخى عنان شهوته وحبل غفلته لنفسه بعيد أن ينجو من عقاب ربه؛ لأن من اتبع شهوات نفسه، وغفل عن القيام بحقوق ربه. استحق العقاب، ورتب عليه العتاب.

وإرخاء عنان الشهوة، وحبل الغفلة عبارة عن استرسال النفس في الشهوات، ولإقامتها في حال الغفلات؛ وهذا داء عضال، ومرض حياة صاحبه قريب من المحال. إلا أن يتداركه صاحبه بالمعاناة؛ فعسى أن ترجى له الحياة.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله تعالى دواؤه؛ فقال:

دواء هـذا المـرض الـذي عـدا الأخـذ بالتقـى مـع طـيب الغـذا

المرض المشار إليه في هذا البيت هو إرخاء عنان الشهوة، وحبل الغفلة، وتقدم ما المراد بإرخاء العنان والحبل.

و"**عدا**": إما من التعدي؛ فكأن المرض تعدا الحد الذي يرجى فيه الشفاء، أو من العدا الذي هو الإصابة والغفلة.

وقوله: "**الأخذ في التقى مع طيب الغذا**". هذا هو الدواء الذي يستعمل لنفي هذا المرض، ويرجى به الشفاء منه، وهو استعمال التقى مع طيب الغذا.

والمراد بطيب الغذا أن يكون مع الحلال الذي لا شبهة فيه؛ فإن في طيب الغذا عونا على انقياد الجوارح إلى الطاعات، وحفظها من المخالفات في الحركات والسكنات؛ وللغداء تأثير في العمل. قال بعض الحكماء: "كل ما شئت فمثله تفعل"

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾؛ فما أمرهم بالعمل الصالح إلا بعد ما أمرهم بأكل الطيبات؛ والمراد به هاهنا الحلال؛ فلما قدم الأكل من الطيبات بين يدي الأمر بالعمل الصالح علم من ذلك أن تحسين الغذا، وهو كونه حلالا فيه عون على انقياد الجوارح التي تستمد من ذلك المأكول إلى الأعمال الصالحات، والتقوى من جملة الأعمال؛ إذ هي من الأعمال الباطنة التي يظهر أثرها في الظواهر؛ فإذا استعمل العليل بعلة استرسال النفس في الشهوات وإقامتها في ميدان الغفلات التقوى وتحسين الغذا؛ فقد ظفر بالدواء المضاد لتلك العلة المنفى ويرجى من الله الشفاء، وهذا كله مع وجود الصدق في الأحوال والإخلاص في الأقوال والأفعال، ولما كان في التقوى وتحسين الغذا عونا على انقياد الجوارح إلى الطاعات حض عليه أهل هذا الطريق ورغبوا فيه وجعلوه من أساس الطريق، ولا بد للمريد السالك من التحقق في التقوى، ويجتهد كل الاجتهاد في تحسين غذائه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال يا نبي الله: أوصني. قال: عليك بتقوى الله؛ فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية المسلم وعليك بذكر الله فإنه نور لك".

وقال بعضهم: "التقوى جماع الخيرات"؛ وحقيقة التقوى أن يطاع فلا

يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر".

وقيل: "التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى"؛ وقيل غير هذا.

ومما قيل في تحسين الغذا قال أبو عبد الله بن الجلاب[1]: "أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته ورشاه، ولم يتناول من طعام جلب من مصر".

وقال ابن الجلاب: "من لم يصحبه التقوى في قوته أكل الحرام"؛ ومن هذا المعنى كثير.

قال رحمه الله تعالى:

قال حكيم وهو قول حسن	**متجه محقق مبين**
لا تطمع النجاة مع ذنوبك	**ولا ترجو الصحو مع عيوبك**

حكيم هذا له قدم في الطريقة، ولسان في الحقيقة، ومن مقالاته ما ذكره الشيخ هنا ووصف قوله بكونه متجها: أي له وجه يوجب قبوله، ومحقق: أي محرر صدق يؤيده الكتاب والسنة، ومبين: أي ظاهر غير غائب؛ ولما كان القول بهذه الأوصاف كان حسنا؛ فقال فيه حسن.

وقوله: "**لا تطمع النجاة مع ذنوبك**". هذا هو قول حكيم المسند إليه في البيت السابق، وما قاله فحق؛ فلا مطمع لعاقل في النجاة من العقاب مع الإقامة على الذنب والإصرار عليه. إذ النجاة إنما وعد الله تعالى بها المتقين؛ فقال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ ...﴾ الآية. أما قوله:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. إنما ذلك نجاة في الدنيا من المسالك التي أصاب بها الكفار كفرعون وقومه.

وقوله: "**ولا ترجو الصحو مع ذنوبك**". هذا من تمام قول حكيم؛ فالصحو من غمرات الغفلة وسكر الهوى لا يرتجى مع وجود عيب النفس القادح في صفو اليقين؛ فالطمع في النجاة مع الذنب، والرجا في الصحو مع العيب حال الحمقى

---

(1) هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاب. كان عالما من جلة علماء ومشايخ الشام. صحب أبان، وذا النون المصري. من تلامذته: محمد بن داود الرقي.

الذين سترت عقولهم بظلمات الهوى.

قال رحمه الله تعالى:

مــن عيــبها إذا بكــت تفــرجت مــن حــزنها واســتروحت فابــتهجت

هذا عيب من عيوب النفس؛ وهو بكاؤها عند سماع المواعظ، أو ما ترق له عند سماعه. مع عدم تأثيرها من تلك المواعظ، وانفعالها منها. ثم تسرع إلى البكاء الكاذب الصادر منها على غير حقيقة، ولا يفيد لها فائدة تثمر لها ثمرة، وتجد عند هذا البكاء فرجا من حزنها الذي اكتسبته مما اكتسبت، وابتهاجا يزيل عنها كآبتها مما عملت؛ فإذا كانت النفس على هذه الحال وبهذه الصفة؛ فذلك من عيب كامن فيها.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى سببه فقال:

وذاك مــــن مــــيلها للــــراحه وطلــــب العــــبد للاســــتراحه

الإشارة بذلك إلى ما ذكره من عيب النفس، فذكر أن ما تجده النفس من الفرج من حزنها عند البكاء، واستراحتها، وابتهاجها. إنما ذلك بسبب ميلها إلى الراحة، وطلبها للاستراحة؛ ولو كان هذا البكاء بكاؤه بصدق وحزنه بحق؛ لكان بكاؤه في الحزن أشد من بكائه على الحزن؛ وكما نبه الشيخ على ذلك.

ثم قال رحمه الله تعالى:

دواؤه بكــــاؤه فــــي الحــــزن عــوض مــا يبكــي لأجــل الحــزن

إذ مــــن حــــزنه يــــستروح وبالــــبكاء فــــيه يــــزيد التــــرح

ذكر هنا دواء ما تقدم من عيب النفس؛ وهو أن يكون العبد الصادق بكاؤه في حالة الحزن عوض؛ بل أشد من بكائه لأجل الحزن؛ لأن الحزن للعبد الصادق أصلح له وأحفظ لأدبه من عدمه، وكان حقه أن يكون بكاؤه في حالة حزنه أشد من بكائه عند فقده، ولأجله.

قال ابن عطاء الله: "البسط تأخذ النفس منه حظها، والقبض لا حظ للنفس فيه".

فقد كانوا رضي الله تعالى عنهم ملازمين للحزن. يفرحون لورود أسبابه عليهم؛ علما منهم أن حالة الحزن أصلح لحالهم، واحفظ لآدابهم مع الله تعالى؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكر؛ وكذلك أهل الصدق

في الإرادة. قالوا فإن الحزن يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة؛ فلذلك كان الحزن من أوصاف المريدين وأحوال السالكين.

ومن آداب العارفين قال أبو علي الدقاق صاحب الحزن: "يقطع من طريق الحق في شهر ما لا يقطعه من فقده في سنين".

وفي الخبر: إن الله يحب كل قلب حزين، وفي التوراة: "إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدا جعل في قلبه مزمارا"، وقيل: القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، وقال الفضيل بن عياض: "كان السلف يقولون: إن على كل شيء زكاة وزكاة العقل طول الحزن"، وقال سفيان بن عيينة: "لو أن محزونا بكى في أمة لرحم الله تلك الأمة من بكائه".

ومن هذا المعنى في فضيلة الحزن كثير، وإذا كان الأمر كذلك؛ فحق على المريد؛ بل كل مؤمن أن يكون بكاؤه عند فقد حزنه، فإذا وجده يبكي فيه لا لجله.

ثم ذكر رحمه الله تعالى عيبا آخر من عيوب النفس فقال:

من عيبها رجاء نفع الخلق وخوفهم أيضا؛ وهم الرزق

رجاء النفع من الخلق داء عضال، وهو ناشئ عن رؤية الخلق، والغيبة عن الملك الحق، وكذلك وجود الخوف منهم؛ ولذلك أسباب أخر يذكرها الشيخ بعد هذا؛ وكيف يرجى النفع ممن لا يقدر على نفع نفسه؟ فالأحرى ألا يقدر على نفع غيره؟؛ فهو سبحانه مختص بأن يمد الخلق بما فيه نفعهم؛ كما يختص تعالى بابتلائهم بما فيه مضرتهم، ومن اسمائه تعالى: الضار، والنافع؛ فالنفع من فضله، والضر من عدله، وهم الرزق أيضا من عيوب النفس، وهو داء ابتلى به كثير من الخلق.

وقد استعاذ نبينا صلى الله عليه وسلم من هم الرزق، وخوف الخلق فقال: "اللهم إني أعوذ بك من هم الرزق وخوف الخلق والرضى عن النفس".

قال وهب بن منبه: "أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود: أما وعزتي، وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبيدي دون خلقي أعلم ذلك من نيته؛ فتكيده السماوات السبع، والأرضون السبع. إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا. أما وعزتي، وعظمتي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني أعلم ذلك من نيته. إلا

قطعت أسباب السماوات من يده وأسخت الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك".

وقال بعضهم: كنت في مجلس يزيد بن هارون وكان إلى جانبي رجل فسألته عن قصته وخبره، فقال: "نفذت نفقتي؛ فقلت: ومن يوصل لما قد نزل بك؛ فقال يزيد؛ فقلت: إذا لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك، ولا يبلغ أملك؛ فقال: وما علمك رحمك الله، فقلت: إني قرأت في بعض الكتب: إن الله عز وجل يقول: "وعزتي وجلالي، وجودي، وكرمي، وارتفاعي فوق عرشي في علو مكاني لأقطعن أمل كل مؤمل لغيري بالإياس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي، ولأقطعنه من وصلي. أيؤمل غيري والنوائب والشدائد بيدي، وأنا أنجي، ويرجى غيري، وتطرق الفكرأبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب؛ وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني. من ذا الذي أملني لنائبته فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيم جرمه فقطعت رجاءه مني؟ أمن الذي قرع بابي فلم أفتحه له؟ جعلت آمال الخلق بيني وبينهم متصلة؛ فقطعت بغيري، وجعلت رجاءهم مذخورا عندي، فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يملون تسبيحي من ملائكتي، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يأتوني؛ ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري؟؛ فما لي أراه بآماله معرضا عني، وما لي أراه لاهثا إلى سواي. أعطيته بجودي ما لم يسألني. ثم انتزعته منه فلم يسألني رده، وسأله غيري افتراء. أبدأه بالعطية قبل المسائل أفلا أجيب سائلي؟ أسأل أنا فيبخلني عبادي. أوليس الدنيا والآخرة لي؟ أوليس الفضل والرحمة بيدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس أنا محل الأمال؟؛ فمن الذي يقطعها دوني؟ وما عسى أن يؤمل المؤملون؟؛ لو قلت لأهل سماواتي وأهل أرضي أملوني ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكي قدر درة، وكيف ينقص ملك كامل أنا قيمه؟؛ فيا بؤس القانطين من رحمتي، ويا بؤس من عصاني ولم يراقبني، ووثب على محارمي ولم يستحي مني". انتهى.

وهذاكله يقوي رجاء العبد في مولاه، ويدعو أن لا يرتجي لنوائبه سواه، ولا يطلب مسائله إلا منه تعالى، ولا يخاف أحدا غيره؛ فهو تعالى حسبنا ونعم الوكيل.

نعم المولى ونعم النصير؛ وقد ذكرنا قبل هذا سببا من أسباب عيوب النفس ذكرها الشيخ في البيت المتقدم.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى أسبابا أخر فقال:

وذاك من غلبة الأوهام والضعف في اليقين والأفهام

لأن من يفهم عن مولاه لم يرتج لشأنه سواه

الإشارة إلى ما ذكر قبل من رجاء نفع الخلق، والخوف منهم؛ وهم الرزق.

قال رحمه الله تعالى: "**من غلبة الأوهام**" - وتقدم الكلام على الوهم - وحاصله أنه خواطر تنقدح في الباطن ينشأ عنها أمور خيالية لا حقيقة لها في الخارج إذا نظرت إليها بعين الحقيقة، ومن هذا المعنى رؤية الخلق وأفعالهم فإنها أمر وهمي إذا اعتبرت ذلك على سبيل الحقيقة، وإن كانت الشريعة أثبتت ذلك ظاهرا، والصواب من ذلك إثبات الخلق ظاهرا، ونفيهم باطنا؛ وكذلك أفعالهم، والمحقق يحكم بذلك؛ وإذا كان الأمر هكذا؛ فكيف يرجو المحقق النفع منهم أو يخالفهم بلا قدرة لهم على نفع فيرجى منهم، ولا على ضرر فيخاف منهم إلا من حيثية مراعاة الوسائط والأسباب.

ومما قيل في هذا المعنى:

حسن بأن تدع الوجود بأسره حسن فلا يشغلك عنه شاغل

ولئن فهمت لتعلمن بأنه لا ترك إلا للذي هو حاصل

ومتى شهدت سواه فاعلم أنه من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل

حسب الإله شهوده لوجوده والله يعلم ما يقول القائل

ولقد أشرت إلى الصريح من الهوى دلت عليه إن فهمت دلائل

وحديث كان فلا شيء غيره يقضي به الآن اللبيب العاقل

لا عز وإلا نسبته مبثوثة ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

وغلبة الأوهام إنما تكون من ضعف اليقين والأفهام؛ فكلما ضعف اليقين والفهم قوي الوهم، وكلما قوي الوهم كثر تصور الخيالات الوهمية، وينشأ عن ذلك أحكام باطلة منها إسناد الحكم لمن ليس هو له في الحقيقة، وأهل الفهم عن الله تعالى الذين قوي يقينهم، وانتفت عنهم الأوهام غيبهم الشهود عن رؤية كل

مشهود؛ فشاهدوا الحق بعين الحقيقة، وغابوا عن رؤية الخليقة؛ فلم يثبتوا لهم ضرا ولا نفعا، فاعتمدوا على الإله ولم يرتجوا لشأنهم أحدا سواه.

قال رحمه الله تعالى

دواؤه بـصحة الإيمـان وعـدم النظـر للأكـوان

وفكـره فـي عجـزها وفقـرها وعـزلها عـن نفعهـا وضـرها

إذ مـن بـه الحاجـة لـم يـواته فـي غيـره مـا فاتـه فـي ذاتـه

أخذ رحمه الله تعالى يذكر دواء علة عيب النفس السابق ذكره؛ فمما ينافي تلك العلة ويضادها صحة الإيمان بوحدانية الذات، والصفات، والأفعال؛ فإذا صح إيمانه بذلك كله، وخلا من الشكوك والأوهام حصل على صريح التوحيد القاضي بعدم النظر إلى الأكوان، فلم يرها ولم يعول عليها لسبق فكره إلى وجود عجزها وفقرها، وأنها معزولة عن أن يصدر منها ضر أو نفع؛ فإذا تحقق ذلك لم يرتج من مخلوق نفعا، ولم يخف أن يصدر له من أحدهم جلب، ولا دفع؛ بل يرى جميع الأشياء الصادرة إليه إنما هي من الفاعل المختار؛ وهذا حال من صح إيمانه، وتحقق يقينه، وحصل على صريح توحيد الأفعال.

فهذا معنى قوله: "دواؤه بصحة الإيمان... " إلى آخرالبيت الثاني.

وقوله: "إذ من به الحاجة لم يواته... البيت". معناه: أن من كان فقره ذاتيا؛ وهو على كل حال محتاج إلى غيره، ولا قدرة له على أن يرفع ما نزل به، وفاته ذلك في ذاته؛ لم يصلح به أن يفعله بغيره؛ فمن لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه؛ فكيف يستطيع أن يكون عن غيره رافعا؟

فقال:

وهمـه بـرزقه عـذاب يفـوته بفعلـه الـصواب

مـع ضـمان ربـنا لـرزقه ورزق كـل دابـة مـن خلقـه

فمـن يكـن يهـتم بـالأرزاق فإنـه مـتهم الـرزاق

لا شك أن هم الرزق يؤلم القلب ويذهب اللب، وهو عذاب القلب، لأن القلب يضعف عن حمل أعبائه؛ لما فيه من الوهم الدائم، والحزن اللازم. مع عدم الفائدة، والأنكاد المترادفة المتزايدة، وهو مع ذلك لا يحصل مقصدا ولا يعيد مردا،

وغالب حال المهتم برزقه شغل غلبه، وعدم القيام بحقوق ربه، وتضييع ما أمره به؛ ففاته ما طلب منه، وأشغل قلبه بما ضمن له، وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله:

"**يفوته بفعله الصواب**": أي يفوته الصواب - وهو شغله بحقوق ربه، وأداء ما طلب منه - باهتمامه برزقه المضمون له. مع ثقة الضامن، وصدق وعده، وملء خزائنه.

قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله تعالى عنه: "كنت في بدايتي واقف بين العشاءين أصلي، وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتني النفس فقالت لي: السلام عليك. قلت لها وعليك السلام. قالت لي: العشاء، فدهمتني داهية؛ فتوقفت. ثم ألهمني الله سبحانه وتعالى أن قلت لها: أتدري له موضعا؟ قالت لا. قلت لها: أي شيء هو أو متى هو؟ قالت: لا. قلت: أنا رب أو عبد؟ قالت: عبد. قلت: فالعبد يقدر على شيء؟ ما هذا الكفر والشرك الذي أتيتني به. اهربي إلى خالقك، فاطلبي منه العشاء، لأنه خالقك، والقادر على كل شيء فيعطيك، ويجيب إليك ما طلبتني فتعطى وتأكلي. ما لك وإياي وما هذه الحيرة؛ فهربت إلى خالقها؛ فجاء عشاء متمكن كثير فأكلنا؛ وكذلك يحتج عليها، ومن هنا ثبتت الأقدام.

وقوله: "**مع ضمان ربنا للرزق... البيت**". يشير به إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ...﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ **الآية**. ثم أقسم تعالى وأكد فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ وكل ذلك توطينا للنفس، وتسكينا لها عن الاهتمام بالرزق، ونفيا للشكوك والأوهام؛ لأنه سبحانه عالم بعدم اطمئنانها، وكثرة شكوكها، وغلبة أوهامها؛ فالنفس لبعدها عن خالقها، وعدم ثقتها برازقها لم تثق بالضامن، ولا صدقت بالوعد كل التصديق، ولا تحققت الموعود تحققا يريحها من الاهتمام بالرزق؛ وأهل الحق، وأرباب الصدق، وأحوالهم على غير ما ذكر.

فنسأل الله العظيم هداية إلى سبيل الصديقين، ونعوذ به سبحانه من الاتصاف بأوصاف الغافلين.

وقوله: "**فمن يكن يهتم بالأرزاق... البيت**". الأمر كما قال. من اهتم برزقه

متهم لربه، ودليل اتهامه له اهتمامه بما ضمن له، وأكد ذلك بالقسم، وأداة التوكيد، والمتهم لربه جاهل بأوصاف الربوبية، ولم يسلك مسالك العبودية، ولكل داء دواء من هذا الداء، وأي عيب للنفس أعظم؛ فحق على كل من أصابه هذا الداء، واتصفت نفسه بهذا الوصف الذميم، وابتلي بهذا العيب العظيم أن يجهد نفسه في استعمال الدواء المزيل لهذا الداء، وقد تقدم دواؤه.

فقال رحمه الله تعالى:

من عيبها الفتور والتقصير وتركها النهوض والتشمير

ذكر رحمه الله تعالى هنا عيبا آخر من عيوب النفس، وهو الفتور عن العبادة والتقصير في الطاعات، وكذلك ترك النهوض إلى العبادة والتشمير عن ساق الجد في الطاعات؛ فذلك كله من عيوب النفس القادحة فيها، وبالضرورة أن وجود العيبين الأولين يستلزم عدم التاليين؛ والفتور ينشأ عن ركود الهمة وعدم نهوضها، والتقصير ناشئ عن عدم المعرفة بأوصاف من قصرت في معاملاته، والجهل بحقوقه، وذلك داع أيضا إلى عدم التشمير، وسبب ذلك كله طول الأمل واستبعاد حضور الأجل، والقنوع بالحال، وعدم النظر في المآل، وغير ذلك من الأسباب الداعية إلى الفتور، والتقصير، وعدم النهوض والتشمير.

وسيذكر الشيخ دواء هذه العلل بعد هذا إن شاء الله تعالى.

فقال رحمه الله تعالى:

أكبر منه عدم اهتمامه لنقصه وعدم اتهامه

ثم العمى عن رؤية التقصير أكبر منه عند ذي التحرير

عيوب النفس ليست متساوية، وإنما بعضها أعظم من بعض، وكلما عظم العيب صعب علاجه، وتمكن داؤه، وزادت النفس بذلك بعدا عن عالمها الروحاني، وقربا من العالم الكثيف الجسماني؛ وذلك يخرجها عن حال كمالها وطهارتها، وبقدر بعدها من العالم اللطيف وقربها من العالم الكثيف؛ فيخلد إلى الأرض، ويتبع هواه، ولما كانت عيوب النفس متفاوتة المقدار، وكلما كان العيب أكبر كان النقص أكثر.

نبه الشيخ رحمه الله على الأكبر منها؛ ليكون الاهتمام بزواله أشد وأكثر،

ولما ذكر شيئا قبل هذا من عيوب النفس أخذ الآن يذكر ما هو أكبر وأعظم.

فمن ذلك عدم اهتمامه لنقصه؛ وذلك ألا يرى العبد النقص في حاله، والخلل في أقواله، وأفعاله، ولا يهتم بإصلاح ما فسد من ذلك؛ فهذا معدود من أكبر عيوب النفس، وكل نقص لا يهتم بزواله فيكون دائما في زيادة وتمكين. إلى أن يبلغ إلى غاية لا يقدر على زواله، ولو اهتم بزواله.

ومن العيوب الكبيرة عدم اتهامه لنفسه؛ وسبب ذلك رضاه عنها؛ وكيف يصح الرضى عن النفس والكريم بن الكريم يقول: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.

قال أبو حفص: [1] " من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا؛ ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها".

وقال أبو سليمان [2] رضي الله تعالى عنه: "ما استحسنت من نفسي عملا فاستحسنته؛ فقد ورد عن الكبار، والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيب نفوسهم، والتهمة منهم لها وعدم الرضى منهم عنها أكثر من أن يحصى".

وقوله: "ثم العمى عن رؤية التقصير... إلخ".

إذا عميت بصيرة العبد عن رؤية تقصيره في المعاملات، وعدم نشاطه إلى أداء العبادات، واستعمال الطاعات؛ فذلك من أكبر عيوب النفس وأعظمها، وقال بعض السادت: "من لم ير التقصير في أعماله والخلل في أحواله فهو مخدوع". أو كما قال.

والواجب على العبد أن يحكم على نفسه بالتقصير، ولا يسمح لها فيما يصدر منها من سوء الأدب في قليل ولا كثير، ويتهمها في جميع أمورها، ويراقبها في ورودها وصدورها؛ فإذا كان العبد مع نفسه هكذا فيرجى له الخلاص من نفسه،

---

(1) هو أبو حفص عمر بن سالم الحداد النيسابوري. كان أوحد الأئمة وكبار الصوفية. توفي سنة: 270 هجرية.

(2) هو أبو سليمان عبد الرحمان بن عطية الداراني. نسبة إلى داران قرية بدمشق. من أعلام رجال التصوف. مات سنة: 215 هجرية. من أقواله: "أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

وعسى أن يكون يومه خيرا من أمسه.

قال رحمه الله تعالى:

أكبـــر مـــنه مـــن يـــرى توقيـــره مـــع أنـــه مـــلازم تقـــصيره

قبـــيحه فـــي عيـــنه قـــد حـــسنه وســـوء فعلـــه لـــه قـــد زيـــنه

وذاك مـــن عـــدم شـــكر العمـــل وعـــــدم اعتـــــنائه بالعلـــــل

ذكر هنا عيبا أكبر من التي تقدمت، وهو توقيره لنفسه وتعظيمه لها، وارتفاع منزلتها عنده. مع كونها ملازمة للتقصير الموجب لذمها، وعدم توقيرها، وانحطاط رتبتها.

وسبب توقير العبد لنفسه رضاه عنها؛ فالرضى عن النفس أصل كل عيب؛ كما قال الشيخ ابن عطاء الله [1] رضي الله تعالى عنه: "أصل كل معصية، وغفلة، وشهوة. الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة، ويقظة، وعفة عدم الرضى عنها"؛ فإذا لم يكن العبد راضيا عن نفسه ظهرت له عيوبها ولم يستحسن شيئا من أفعالها ولم ير لها حظا ولا يرفع لها قدرا ولا يكون عنده شيئا من توقيرها في قلبه ولا مزية فيه؛ ومما قيل في هذا المعنى:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

قال أبو حفص: "منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك".

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: "ما رضيت عن نفسي طرفة عين".

وقال بشر [2] رضي الله عنه أنه قال: "إني لأنظر إلى أنفي كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة".

فانظر رحمك الله تعالى إلى عدم رضاهم عنها وعدم توقيرهم لها. الله تعالى ملكهم أمرها، وجعل زمامها بأيديهم، وأذلها لهم، وسخرها حتى ألقت السلاح،

---

(1) ابن عطاء الله صاحب الحكم؛ وهو أشهر من أن يعرف.

(2) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافي. صحب الفضيل بن عياض. كان أوحد عصره علما، وورعا، وحالا. مات ببغداد سنة 227 هجرية.

ورجعت عن طريق الفساد إلى طريق الصلاح، ونزعت عن أوصافها الذميمة، وعادت إلى ما كانت عليه من الأوصاف الحميدة.

وقوله: "**مع أنه ملازم تقصيره**". يشير إلى وجود التوقير مع وجود التقصير؛ وبهذا كان الذنب عظيما والعيب كبيرا.

وقوله: "**قبيحه في عينه قد حسنه**". هذا ناشئ عن الرضى عن النفس؛ فمن كان راضيا عن نفسه استحسن قبيحها، واستحسان القبيح قاض بالإقامة عليه، والمداومة على فعله، والرضى به؛ وهذا حال من زين له سوء فعله؛ كما أشار إليه الشيخ بقوله:

"**وسوء فعله له قد زينا**"؛ فكل من كانت هذه أوصافه؛ فهو مخدوع ممقوت ممكور به. يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ **الآية.**

ولهذه العيوب أسباب تنشأ عنها. **نبه الشيخ بقوله:** "**وذاك من عدم العمل... البيت**". الإشارة إلى ذكر من أكبر عيوب النفس؛ فأخبر أن تلك العيوب الكبيرة إنما سببها عدم العمل المشكور عند الله عز وجل، وهو العمل الخالص الذي لا شوب فيه، ولا قادح، ولا شك.

إن العمل إذا سلم من الشوائب، والقوادح أذهب علل النفس وعيوبها. إذ العمل غير المشكور هو عيب بنفسه، والعيب لا يذهب بالعيب، وكذلك عدم الاعتناء بمعاناة العلل وزوالها؛ فهو سبب لبقائها، والزيادة فيها وتمكنها حتى تعود مفضلة؛ فمن لم يعتن بمعاناة علل نفسه، وخلاصها منها، وطهارتها من عيوبها؛ فقد أسلمها وأهملها، ويعاتب بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾، ومن اعتنى بها وسعى في خلاصها، واجتهد في طهارتها. دخل في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾.

فهذا مايتعلق بالبيت من قول الشيخ: "**وذاك من عدم شكر العمل... إلخ**".

قال رحمه الله تعالى:

دواؤه دوام الالتجا	**لربنا والذكر للإله**
ثم لزوم الذكر والتلاوه	**وفكرة تذهب بالغباوه**
والبحث عن مطعمه ومشربه	**وترك كل باطل ومشتبه**
وحفظ حرمة ذوي الإسلام	**ثم دعاء السادة الأعلام**

بـــرده لحالـــه فـــي طاعـــته وبلــــزوم بــــره وخدمــــته

حتـــى يـــرى فـــي حلـــبة الـــسباق مـــشمرا للـــسير والـــسباق

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات أدوية لمعاناة ما سبق من العيوب الكبيرة التي تتصف بها النفس.

فالـدواء الأول: دوام الالـتجاء لـربنا. مـع وجـود الاضـطرار، ولـزوم الافتقاروالانكسار، والالتجاء إلى الله تعالى. إذا كان على وصف العبودية. لا يخيب صاحبها، ولا يرد دعاؤه.

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾.

الثاني: ذكر الآلاء؛ وفيه الفلاح والنجاح. قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾؛ فذكر الآلاء سبب لزيادة النعماء، وفي ذكر الآلاء ما يوجب الحياة، وهو من الموانع التي تمنع النفس من موجبات الذنوب، ومن الاتصاف بالعيوب؛ فلذلك جعل من أدوية النفس.

الثالث: لزوم الذكر والتلاوة. يريد مع الحضور، وتفهم المعاني، والمراد بالذكر أنواع الأذكار لا ذكر مختص؛ فعنى تنويع الأذكار بحسب تنويع أمراض النفس وعيوبها؛ فلكل نوع من أنواع عيوب النفس، وأمراضها يسلط عليه من الأذكار ما يضاده وينفيه؛ ولهذا كان الذكر، والتلاوة دواء لعيوب النفس.

الرابع: الفكرة: يريد في معنى الصفات وآثار أسماء الأفعال؛ فإذا تفكر العبد في ذلك، ونظر في آثار معاني أسماء الصفات، ومعاني أسماء الأفعال. اكتسبت النفس من ذلك تعظيم المتصف بالصفات الكريمة، والصادرة عن الأفعال العظيمة، ومع وجود التعظيم تكون الهيبة والإجلال، فيقل عيب النفس، وتنزع عما كانت عليه من سوء الأدب وارتكاب الذنب، وعلى قدر لزومها الذكر، والتلاوة يكون بعدها من ذلك؛ وبحسب بعدها من العيوب والأمراض يكون تيقضها، وبحسب تيقضها يكون خروجها عن حال الغفلة والغباوة.

وقد تبين لك أيها العبد ما في الفكرة من الفوائد الجليلة والخصال الحميدة.

قال ابن عطاء الله: "ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة". انتهى.

وفي الخبر: "تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة".

وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: "طوبى لمن كان قوله ذكرا، وصمته تفكرا، ونظره عبرة. إن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت".

وقال كعب[1]: "من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر".

وقيل لأم الدرداء [2]: "ما كان أفضل عمل أبي الدرداء. قالت: التفكر".

وذلك أنه يصل به إلى حقائق الأشياء، ويبين الحق من الباطل، والنافع من الضار، ويطلع به أيضا على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو، وغرور الدنيا، ويتعرف بها وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

وقال الحسن [3] رضي الله عنه: "الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك، وتطلع بها أيضا على عظمة الله تعالى وجلاله. إذا تفكرت في آياته ومصنوعاته، وتطلع بها أيضا على آلائه ونعمائه الجلية والخفية؛ فتستفيد بذلك أحوالا سنية يزول بها مرض قلبك، وتستقيم بها على طاعة ربك".

ولأجل ما ذكر في التفكير من الفوائد الجليلة، والخصال الحميدة. كانت من أدوية عيوب النفس، وكان يذهب بالغباوة.

الخامس: البحث عن المطعم والمشرب؛ فإن طيب المطعم والمشرب يؤثر في النفس بقدرة الله عز وجل. صلاحا، وبراءة من العيوب والأمراض؛ وخبث في المطعم، والمشرب يؤثر في النفس عيوبا وأمراضا؛ فلذلك يتأكد على كل من أراد تطهير نفسه من عيوبها، وخلاصها من أمراضها أن يبحث عن مطعمه ومشربه؛

---

(1) هو كعب الأحبار الصحابي الجليل. توفي في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنهما.

(2) هي زوجة الصحابي الجليل أبي الدرداء عويمر بن زيد رضي الله تعالى عنه. كان زاهدا في الدنيا. قالت له أم الدرداء يوما: "إن احتجت بعدك افآكل الصدقة؟ قال: لا. اعملي وكلي؛ فإن ضعفت عن العمل؛ فالتقطي السنبل، ولا تأكلي الصدقة"؛ ومن أقواله: "تفكر ساعة خير من قيام أربعين ليلة".

(3) هو أبو سعيد الحسن البصري مولى الأنصار. من كبار الأئمة العالمين العاملين، وأحد أقطاب السند الصوفي.

فبحسب تخليص الآقوات من الشبهات يكون خلاص النفس من العيوب والأمراض، وانقياد الجوارح إلى عمل الطاعات، وبحسب عدم تخليصها تكثر عيوبها وأمراضها، وتميل الجوارح إلى عمل المخالفات.

ومن الحكم: "عدم تخليص الأقوات سبب قوي لاسترسال الجوارح إلى أفعال المخالفات".

قال بعض العلماء: "أكل الحرام لا يوفق للعبادة، وإن إتفق له فعل خير؛ فهو مردود عليه غير مقبول منه".

وقال بعضهم: "من أكل الحلال أطاع الله أراد أو لم يرد، ومن أكل الحرام عصى الله أراد أو لم يرد".

وقال بعض الحكماء: "كل ما شئت مثله تعمل"؛ فمن أكل الحلال المحض فعل الطاعة الخالصة، ومن أكل الحرام المحض فعل المعصية المحضة، ومن أكل المتشابه أعماله كذلك

شرب أبو بكر رضي الله تعالى عنه جرعة من لبن فيها شبهة [1]؛ وهو لا يعلم؛ فلما علم استقاءها؛ فأجهده ذلك حتى تقيأها؛ فقيل له: أكل ذلك في شربة؟ فقال: والله لو لم تخرج إلا بنفسي لأخرجتها. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به".

السادس: ترك كل باطل ومشتبه. يريد بالباطل كل ما كان مضادا للحق مخالفا للشرع؛ وسواء كان فعلا، أو قولا، أو حالا؛ فيلازم من ذلك كله ما كان حقا، ويترك ما كان باطلا؛ فالحق أحق أن يتبع؛ وكذلك يترك كل ما كان مشتبها. قولا كان، أو فعلا، ويدخل في ذلك الأقوات والملابس، والمتشابه هوالمشكوك فيه وضابطه: "**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**".

فالباطل، والمتشابه يقوي أمراض النفوس، ويكثر عيوبها؛ ولهذا كان تخليص الأقوات أصلا عظيما من أصول الطريقة؛ فلا يتسامحون فيه أصلا.

---

(1) ذلك أن غلاما له سقاه لبنا؛ فلما علم أن فيها شبهة حرام. وضع يده في فيه وتقيأه؛ وذاك من شدة ورعه رضي الله تعالى عنه.

مكث إبراهيم بن أدهم [1] ببعض الأماكن نحو ثمان عشرة سنة يلتمس أكل الحلال.

وعن ابن عباس [2] رضي الله تعالى عنهما: "لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام".

قال الإمام الغزالي[3] رحمه الله تعالى: "عليك بحفظ البطن وإصلاحه فإنه أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهدين، وأكثرها مؤونة وشغلا وأعظمها ضررا وأمراضا؛ لأنه المنبع والمعدن ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة، وضعف، وجماع، ونحوه؛ فعليك بصيانته من الحرام والشبهة أولا. ثم عن فضول الحلال ثانيا. إن كانت لك همة في عبادة مولاك تعالى".

السابع: حفظ حرمة ذوي الإسلام محافظة لأخوة الإسلام، ومراعاة لروابطه، وللمسلم على أخيه المسلم حرمة في الغيبة، والحضور، والوفاء بذمته، ومعاملته له بمكارم الأخلاق؛ ففي ذلك اتضاع للمؤمنين، واتصافه بأوصاف المحسنين؛ وهذه أحوال توجب لصاحبها خلاص نفسه من العيوب؛ ولهذا جعل الشيخ من جملة أدوية عيوب النفوس.

الثامن: دعاء السادات الأعلام الذين جعلهم الله تعالى رحمة للمسلمين وهداة للمؤمنين؛ فليغتنم العبد منهم الدعاء الصالح، وخصوصا بالهداية إلى طريق الطاعة؛ وبلزوم الخدمة والبر متبعا في ذلك منهج الجماعة، ولا يزال طالبا منهم الدعاء إلى أن يرى في حلبة السباق مشمرا للسير القويم والسباق على الصراط المستقيم؛ فتتخلى النفس عن عيوبها، وتتخلص من أمراضها وذنوبها.

قال رحمه الله تعالى:

من عيوبها فقد حلاوة العمل   وذاك من شوب رياء قد حصل

---

(1) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور. كان من أبناء الملوك. ثم زهد في الدنيا؛ فكان لا يأكل إلا من عمل يده؛ كالعمل في البساتين، والحصاد... توفي سنة: 161 هجرية.

(2) ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحد العبادلة. صحابي جليل. دعا له الرسول قائلا: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل"؛ فكان من أفقه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

(3) صاحب الإحياء. أشهر من أن يعرف.

أو تـــرك ســـنة وخـــوض الـــنفس فـــي جملـــة الأســـباب ذات اللـــبس

إذا فقد العبد حلاوة العمل؛ فذلك دليل على عيب كامن في نفسه؛ فليجتهد العبد في زوال هذه العلة، والبراءة من هذا العيب الذي من أجله فقدت حلاوة طاعة ربه.

ولما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى هذا العيب ذكر له أسبابا ثلاثة:

الأول: شوب حصل في عمله؛ وهو الرياء؛ فإن المرائي لا يذوق حلاوة عمله؛ لتوجهه به على غير ما أمره به ربه من الإخلاص في عمله، وإفراد الوجهة إلى الله تعالى؛ فكلما تكدر مشربه، ولم يصف مورده؛ فقد حلاوة العمل من الشوب في العمل الذي قد حصل وهو الرياء.

الثاني: فقد السنة؛ فإذا كان العمل خاليا من السنة؛ فلا يجد العامل لعمله حلاوة أبدا. إذ سر الأعمال جريانها على سبيل السنة المحمدية؛ فبالفرائض يكون كمال العبادات وصحتها، وبالسنة يزول اعتلالها.

الثالث: خوض النفس في جملة الأسباب ذات اللبس، والأسباب المراد بها الأعمال؛ فإذا كان العبد يشغل نفسه بالأعمال الملتبسة حدثت منها في نفسه عيوب، ولهذا تجنب أهل التقوى من الأعمال ما كان متسخا من الأعمال، ونجزوا الأعمال الخالصة التي لا لبس فيها ولا شوب.

ولما ذكر الشيخ العيب السابق وذكر اسبابه أخذ بذكر الدواء الذي يزيل ذلك العيب.

فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه تـــصحيح الـــبدايه لكـــي يـــنال صـــحة الـــنهايه

هذا من أدوية عيب النفس الذي هو فقد حلاوة العمل، وهو تصحيح البداية. يريد بداية السلوك على معارج السالكين؛ فتصحيح البداية موجب لتصحيح النهاية؛ فمن صحت بدايته من موجبات الاختلال صحت نهايته من موجبات الاعتلال؛ ولهذا قيل: "من صحت بدايته صحت نهايته، ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته".

وجعل الشيخ رحمه الله تعالى تصحيح البداية من أدوية عيب النفس الذي

قدم ذكره في البيت الذي قبل هذا، وله أدوية أخرى منها:

* انتفاء أسبابه المتقدمة. إذ انتفاء السبب يوجب انتفاء مسببه.

* ومنها: صدق المحبة لمن إليه العمل؛ فالمحب الصادق يتلذذ بخدمة حبيبه ومناجاته، والوقوف بين يديه على بساط القرب في حضرة المشاهدة.

* ومنها: التحقق في مقام العبودية ومعرفة حقوق الربوبية، وتذكر الآلاء.

وهذه الأدوية أقرب إلى زوال العلة المذكورة، ونفي العيب السابق بما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من الدواء.

ولما ذكر تصحيح البداية أخذ يذكر ما تصح به فقال رحمه الله تعالى:

وذاك بالتوحـــيد والإخـــلاص والأخـــذ بالــسنة والخـــلاص

مـــن تــبعات وحقـــوق لازمـــه وقلـــة الأكـــل علـــى المداومـــه

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى ما تصح به بداية السالكين؛ وهي خمسة أصول بها تصح البداية وعليها تتوقف صحة النهاية.

الأول: تصحيح التوحيد بالأدلة النقلية والعقلية؛ وهذا هو الأساس الذي يبني عليه العبد السالك بدايته، وهو قاعدة من قواعد الدين؛ فلا بد للعبد من تصحيح توحيده؛ فإن هذه الطائفة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف، وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل، ولا تعطيل[1]. عرفوا ماهو حق القدم بما هو نعت الموجود عن العدم

قال أبو محمد الجريري [2]: "من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف".

بين بذلك أن من ركن إلى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن

(1) ولهذا السبب اهتم الصوفية في بدايتهم بتصحيح عقيدتهم على عقيدة أهل السنة والسلف الصالح، ولهم في ذلك أقوال جليلة؛ كما ألفوا في العقيدة كتبا كثيرة منها شروح الشيخ أحمد زروق على عقيدة الغزالي - شرحان - وشرحه لعقيدة السنوسي... إلخ.

(2) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري (بضم الجيم وفتح الراء الأولى). من كبار أتباع الجنيد. ورث مقامه ومكانه في الوعظ وعلوم القوم.

النجاة، ووقع في أسر الهلاك.

الثاني: الإخلاص؛ فإن الإخلاص مما يصحح البداية، والنهاية؛ فمن لا إخلاص له لم تصح بدايته، ولا يرتجى صحة نهايته. إلا ان تصحيح التوحيد عليه يتوقف على تصحيح الإخلاص، وتصحيح ما بعده؛ والإخلاص عبارة عن إفراد الوجهة إلى الله تعالى.

وقيل: "الإخلاص إفراد الحق بالطاعة بالقصد".

وقال أبو عثمان المغربي[1]: "الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال"؛ وقيل غير هذا.

الثالث: الأخذ بالسنة في جميع معاملاته، وسائر عباداته؛ بل وفي جميع أموره؛ وسواء كانت من العادات، أو من العبادات [2]؛ فلا يخرج في ذلك كله على سبيل السنة؛ ففي ذلك تصحيح بدايته ونهايته.

الرابع: الخلاص من تبعات وحقوق لازمة، فلا تصح البداية بدون هذا، وسواء كانت التبعات والحقوق لله عز وجل، أو لمخلوق.

الخامس: قلة الأكل على الدوام؛ فإن في قلة الأكل ضعف النفس وكسر شهوتها، وصفاء القلب؛ ولهذا كان أساسا من أصول الطريقة، واعتمده أهل الحقيقة، وهو سبب قوي لصحة البداية، وسلم لصحة النهاية، وأن أرباب السلوك استعملوا قلة الأكل بتدريج الحكمة، فبلغوا فيه الغاية من غير ضرر، ولا إخلال بالبنية، ولا ضعف في الحواس؛ فوجدوا في ذلك ينابيع الحكمة، وحصل لهم من ذلك القيام بالخدمة، وبراءة الذمة، وثقوب اللب، وصفاء القلب؛ كما نبه الشيخ على ذلك.

---

(1) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي. أصله من القيروان. رحل إلى المشرق، وأخذ عن جلة علمائه وشيوخه. كان عظيم الحال والمقام. صادق الفراسة. توفي بنيسابور سنة: 373 هجرية.

(2) إذا كان الفقهاء يقصرون في الغالب اهتمامهم بالسنة التي لها ارتباط بالعبادات؛ فإن الصوفية يهتمون بالسنة النبوية مطلقا. سواء ارتبطت بالعبادات، أو العادات (أي صفاته صلى الله عليه وسلم وأحواله، وأخلاقه)؛ فهم يحرصون على التشبه به في كل شيء. (في أكله وشربه، ومشيه وجلوسه... إلخ)، وهم يرون في ذلك كمالا أفنوا حياتهم في التحقق به.

فقال رحمه الله تعالى:

فخفة البطن دواء القلب وكثرة الأكل أساس العيب

إذا خف البطن من الطعام تنور القلب، وانشرح، وانفسح، وزالت عنه ظلم الأهواء؛ وكثرة الأكل أساس العيب، وتنبني عليه أمور ذميمة، وتنشأ عنه مفاسد عظيمة، وتحدث بسببه عيوب كثيرة. **قال عليه الصلاة والسلام: "ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه"**.

جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: "ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرص خبزته، ولم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة؛ فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام". صلى الله عليه وسلم.

وفي إشباع البطن علل ذكر الشيخ بعضها فقال:

إن تشبع البطن تجوع الأعضا وإن تجع يكون منها الإغضا

أحد الخصال الذميمة التي تحدث من الشبع جوع الأعضاء عبارة عن عدم نهوضها إلى العبادات، وكسلها عن فعل الطاعات. مع ما في شبع البطن من الآفات، والعلل المعضلة، وحدوث عيوب النفس، ولهذا قيل: **"البطنة تذهب الفطنة"**.

وأهل الصدق مع الله، والجد في الطاعات رضوا بالجوع خوفا مما ينشأ عن الشبع من الخصال الذميمة التي منها جوع الأعضاء الكائن منه الإغضاء عن عيوب النفس، وعدم نهوض الجوارح إلى الطاعات، وغير ذلك من الأمور القادحة في حال السالكين.

قال يحيى بن معاذ [1]: "لو أن الجوع يباع في الأسواق لما كان لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره؛ فإذا أكل منه فإنه لا يأكل حتى يرى الهلال"؛ وكان يفطر كل يوم على الماء القارح. [2].

---

(1) هو أبو زكرياء يحيى بن معاذ الرازي النيسابوري الواعظ. سافر إلى بلخ للقاء العلماء والشيوخ، وأقام بها مدة. ثم عاد إلى نيسابور، وبها توفي سنة 258 هجرية. له كلام جليل في معارف القوم، وفي الزهد، والرجاء، وهو غير الرازي المفسر، والفيلسوف الشهير.

(2) الماء القارح: غير البارد؛ ومنه قول عروة بن الورد:

=

وقال سهل بن عبد الله [1]: "لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة".

وقال يحيى بن معاذ: "الجوع للمريد رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين مكرمة " وخرج أبو تراب النخشبي [2] من البصرة، فأكل ببنباج ثم بذات عرق، فقطع البادية بأكلتين. والحكايات في هذا المعنى كثيرة. انظر رسالة القشيري في باب الجوع.

قال رحمه الله تعالى:

من عيبها رجاؤه الخير بما يشهده من مشهد قد عظما

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت من عيوب النفس، وهو أن يرجى الخير لنفسه بسبب ما يشهد من تعظيم الناس له، ومباشرتهم له على ما يظنون فيه من موجبات ذلك، وكان حق من كان له عقل وافر إذا شاهد تعظيم الناس له. لا يغتر بذلك، ولا يرجى الخير لنفسه.

قال أبو سليمان[3]: "من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة".

وقال أبو عبد الله [4]: "من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا؛ فالعاقل لا يستحسن من نفسه شيئا، ولا يغتر بما يشهده من تعظيم الناس ومن مدحهم له، وليرجع إلى ما يعلمه من نفسه من العيوب".

=

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأشرب قراح الماء والماء بارد

(1) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (بضم التاء وسكون السين). ابن أخت محمد بن سوار لقي ذا النون المصري في حجه. كان شديد الورع والخوف من الله تعالى. توفي سنة 283 هجرية.

(2) هو أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي. من أكابر خراسان المشهورين بالعلم والزهد والورع والتوكل. صحب حاتما الأصم. توفي رحمه الله تعالى سنة: 245 هجرية.

(3) يقصد الداراني. سبق التعريف به.

(4) يقصد أبا عبد الله محمد بن الفضل البلخي. كان من أكابر القوم علما وعملا. صحب أحمد بن خضرويه. توفي سنة: 319 هجرية.

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: "أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس "انتهى.

قال الشيخ ابن عباد [1] رحمه الله تعالى: "الاغترار بمدح الناس وثنائهم في غاية الجهل والغباوة، وذلك من علامات المقت؛ لأن المغتر بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به، وهو على كل حال أعلم بنفسه".

وسبب ما يشهده من تعظيم الناس له غفلة عن نفسه، وعدم رؤيته لعيوبها.

كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

وذاك من غفلته عن نفسه إذ حقه في ذا شعور يأسه

لهم لأجل كونه حضرهم إذ ربما بذنبه قد ضره

غفلة العبد عن نفسه وعدم رؤية نقصها، وشهوده لسوء أحوالها. توجب أحوالا ذميمة منها:

* رجاؤه الخير لما يشهده من تعظيم الناس، وكان من حقه شهود نقصه، وشعور بؤسه لمن حضره، وأن ما يصيب الحاضرين معه من ضر ومصيبة فإنما ذلك من ذنبه؛ فإذا كان مستشعرا لهذا. شاهد النقص من حاله، ولم يغتر بما رآه من تعظيم الناس له، وإقبالهم عليه؛ فمن شاهد التقصير من نفسه لا يركن إلى ما يراه من التعظيم من أبناء جنسه.

وقد أشار الشيخ إلى هذا المعنى فقال:

نعم وإزراء الفتى بنفسه خير له من شغله بأنسه

الإزراء: هو من قبيل الاستهزاء. يقال أزرى فلان بفلان: أي استهزأ به، ولم يكن له عنده مكانة، والإزراء بالنفس هو تحقير وحطة مكانتها، وعدم المبالاة بها؛

(1) هو محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن مالك بن ابراهيم بن عباد النفزي الرندي. الخطيب الشهير الفقيه الصوفي الصالح. أخذ علم الظاهر عن علماء أجلاء بالأندلس والمغرب. ثم صحب ابن عاشر بمدينة سلا، فأخذ عنه علم الباطن وعليه اعتمد في التصوف.

ترجم له الشيخ زروق في شروحه على الحكم العطائية، وأقر له بالفضل والسبق، واعتبره أحد سنديه في تحمله لحكم ابن عطاء الله.

لابن عباد شرحان على الحكم؛ كما نظمها رجزا في ثمانمائة بيت، وله الرسالة الكبرى، والصغرى.

فلا يرفع لها شأنا بين الناس، ولا يرى لها منزلة ولا حظا، وهذا حال من لم يرض عن نفسه، وهذا الحال خير للعبد من شغله بأنسهم وتعظيمهم له، وإقبالهم عليه؛ فإن في هذا أنس بهم، وركون لهم، وفي ذلك نقصان من درجة الأخيار، وسقوطه من عين الله تعالى.

قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله تعالى عنه: "تزكية الأشرار تزكية لك، وحبهم لك عيب عليك".

وقيل لبعض الحكماء: "إن العامة يثنون عليك"؛ فأظهر الوحشة من ذلك، وقال: "لعلهم رأوا مني شيئا أعجبهم، ولا خير في شيء يسرهم ويعجبهم"، ومدح بعض العوام بعض الحكماء؛ فبكى؛ فقال له تلميذ: أتبكي وقد مدحك؟؛ فقال له: "لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه؛ فلذلك بكيت"؛ وهذا حال من أزرى بنفسه، ولم يشتغل بأنسه بالمدح الصادر من الخلق إليه.

ومن هذا المعنى ما قال الشيخ:

قيل لبعض سادة في السلف	**كيف ترى حالة أهل الموقف**
فقال لولا أني كنت معهم	**لكنت أرجو الله أن يغفر لهم**
كذا يكون حال أهل اليقظة	**في تهمة النفس بكل تهمة**

المقالة التي حكاها الشيخ عن بعض السلف هي مقالة من غلب عليه الجلال، ونفى عن نفسه وصف الكمال. حتى ظن من غلبة خوفه أنه لو لم يكن في أهل الموقف لغفر الله تعالى لهم، وهكذا يكون حال أهل اليقظة. متهمين لأنفسهم. محافظين عليها من أمن مكر الله الموجب للخسران، ومن الانبساط الداعي إلى سوء الأدب على البساط؛ فالمؤمن لا يفارقه الخوف، ولا يأمن مكر الله. قال معاذ بن جبل [1]: "إن المؤمن لا يطمئن قلبه، ولا يسكن روعه حتى يخلف جسر جهنم"، وقال ذو النون المصري: "الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف؛ فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق.

(1) معاذ بن جبل صحابي جليل، ومن فقهائهم. بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً إلى اليمن

قال حاتم الأصم[1]: "لكل شيء زينة، وزينة العباد الخوف "

وقال ابن سنان: "إذا سكن الخوف القلب أحرق موضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه "

وقال أبو سليمان: "ينبغي للقلب أن لا يكون الغالب عليه إلا الخوف؛ فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد"؛ وهذه حالة القائل:

لولا أن كنت مع أهل الموقف لكنت أرجو الله يغفر لهم.

قال رحمه الله تعالى:

دواؤه الحياء من مولاه لكونه في ذنبه يراه

ذكر في هذا البيت دواء عيب النفس الذي هو رجاء العبد الخير بتعظيم الناس له؛ فقال رحمه الله تعالى: "**دواؤه الحياء من مولاه... الخ**"، ولا شك أن العبد إذا كان مقيما على الذنب، ويعلم أن الله تعالى معه حاضر، وإليه ناظر؛ وهو عليه رقيب؛ فيستحيي منه، ويمنعه الحياء أن يغتر بتعظيم الخلق له، ويضعف رجاؤه، ويعظم خوفه، وتزيد خشيته؛ فيتأدب مع مولاه أن يرجو الخير لنفسه مع إقامته على ذنبه؛ فالحياء إذا دواء للعيب الذي أعد له؛ فلا يجد العبد معدلة لما فيه من التداوي لعيوب النفس، وانكماشها عنها، وتركها للموجبات المناقضة للحياء من الله عز وجل يوجب فعل المأمورات، وترك المنهيات؛ وفي ذلك مخالفة هوى النفس وعدم إقامتها على عيوبها.

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى [2] عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه: "استحيوا من الله حق الحياء". قالوا: "إنا نستحيي والحمد لله". قال: "ليس ذلك، ولكن من استحيى من الله حق الحياء؛ فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا؛ فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء".

فانظر إلى الحديث كيف بين أن حقيقة الحياء من الله عز وجل الخروج عن

---

(1) هو أبو عبد الرحمان حاتم بن علوان المعروف بالأصم. تلميذ شقيق البلخي، وأستاذ أحمد بن خضرويه. من أكابر رجال التصوف. توفي سنة: 237 هجرية.

(2) صحابي جليل. من السابقين للإسلام. تحمل أذى كثيرا من قريش. قارئ الكوفة.

حظوظ النفس وهواها وترك ملاذها وشهواتها الموحية لأحداث عيوبها.

قال ابن عطاء الله: "العلم الأكبر الهبة والحياء؛ وإذا ذهبت الهبة والحياء لم يبق خير".

وقال ذو النون المصري[1]: "الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة منك على ربك".

واعلم أن الحياء أعلى وأكمل مقاما من الخوف، وأمنع من ارتكاب المخالفات، وأكبر داع إلى أفعال الطاعات؛ وذلك لأن الخوف ناشئ عن الأفعال القهرية؛ وهي غير دائمة؛ وما نشأ عن غير دائم مثله، والحياء ينشأ عن شهود صفات الكمال، والصفات دائمة، وما ينشأ عنها مثلها.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: "نعم العبد صهيب [2]؛ لو لم يخف الله لم يعصه". يشير بهذا إلى علو مقام صهيب رضي الله تعالى عنه، وأن المانع له من المعصية وجود الحياء اللازم الناشئ عن سبب دائم كما تقدم.

وعن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه قال: "يقول الله تعالى: عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك؛ ومحوت من أم الكتاب زلاتك...".

وفي الحياء من الله عز وجل فوائد كثيرة توجب لمن اتصف بها القرب من الله تعالى.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه ما جاء عن فضيل بن عياض مما يدل على حيائه من مولاه عز وجل؛ فقال:

وعن فضيل بن عياض أثر ... واسوأتا وإن ذنوبي تغفر

وذاك من تعظيمه لربه ... ومن شهوده عظيم قربه

---

(1) هو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصري الملقب بذي النون. كان أوحد زمانه علما وورعا وحالا وخلقا. توفي سنة: 245 هجرية.

(2) هو الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي. من السابقين للإسلام. شهد جميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفي بالمدينة سنة: 38 هجرية.

وقوله: "بالجوع والذل... إلخ. ذكر رحمه الله تعالى في هذا الأسباب التي بها يقع ما أراده من الموت في الحياة العاجلة.

فضيل بن عياض هذا من كبار العارفين، ومن سادات المقربين. أصله قيل من خراسان من ناحية مرو، وقيل إنه ولد بسمرقند، ونشأ بأفيود، ومات بمكة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة، وقضيته في توبته مشهورة؛ فانظرها في رسالة القشيري؛ وكان يغلب عليه شهود القرب، وتعظيم الرب؛ فعظمت خشيته من الله تعالى، وهيبته منه، وهذا سبب بروز القول المأثور عنه؛ وهو قوله: "واسوأتا وإن ذنوبي تغفر"؛ فكأنه يقول: وإن غفر الله ذنوبي، وأمنت عقابه؛ فأنا أستحيي منه تعالى حيث واجهته بالذنب الذي غفره تعالى، ولم أستحيي منه، وهذا شأن أهل مقام الحياء من الله عز وجل؛ فيغلب حياؤهم على خوفهم؛ فتجدهم يحزنون ويتأسفون على ما صدر منهم من أسباب الذنب؛ وإن غفره الله تعالى لهم، ولا تزيدهم المغفرة إلا أسفا وحياء.

قال رحمه الله تعالى:

من عيبها فقد حياة الآجله	**إلا بموت في الحياة العاجله**
بالجوع والذل وبالمخالفة	**وتركه لكل شيء ألفه**

الحياة الآجلة هي ما تكون في الدار الآخرة، والحياة العاجلة هي الحياة في الدنيا، وفقد الآجلة عبارة عن عدم التفكر فيها، وترك أخذ الأهبة لها، والعمل لأجلها، والزاد الموصل إلى موطنها؛ وهذا عيب من عيوب النفس. سببه حب الدنيا والرغبة فيها والاشتغال بها بالقلب والقالب، واتباع الهوى؛ فإن اتباع الهوى والاشتغال بالدنيا ينسي الآخرة؛ إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة؛ فإذا أقبل إلى أمر أعرض عن الآخر، وسيأتي بعد هذا إن شاء الله.

دواء هذا العيب الصارف له، وقوله: "إلا بموت في الحياة العاجلة". هنا كلام محذوف تقديره: لا توجد الحياة الآجلة عوضا عن فقدها إلا بموت في الحياة العاجلة، والمراد بالحياة الآجلة: هي الحقيقة التي لا موت بعدها؛ وبالموت في الحياة العاجلة الموت المعنوي الذي هو موت النفس بإخراجها عن هواها، وإضعافها عما تنشط إليه من حظوظها، وشهواتها بحيث لا يبقى لها ملاك، ولا تصريف مع الروح.

السبب الأول: الجوع؛ فهو يميت النفس، ويضعف قواها. حتى لا يبقى لها

ملاك أبدا؛ ولهذا اختاره المريدون، واستعمله الصديقون؛ ففي الجوع تهذيب النفس، ورياضتها؛ فكل ذي همة لا يسعه تركه، ولا بد من استعماله، وقد استعمله سيد الصديقين، وإمام العارفين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وتقدم أن فاطمة رضي الله تعالى عنها جاءت بكسرة خبز رضي الله تعالى عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: "ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرصت خبزته، ولم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام"؛ وتقدم أيضا قول يحيى بن معاذ: "لو أن الجوع يباع في الأسواق لابتاعوه " يعني لطالب الآخرة أن يشتروا غيره.

وتقدم بعض كلام في الجوع عند قول الشيخ: "**فخفة البطن... البيت**"؛ وعند قوله: "**إن شبع البطن...**"؛ فانظره هنالك يتبين لك أن الجوع سبب قوي لفقد حياة النفس، ووجود حياة الروح، وفي فقد تلك، ووجود هذه شروق الأنوار، وظهور الحقائق والأسرار، والخروج من مقتضيات البشرية، والاتصاف بأوصاف الروحانية.

السبب الثاني: الذل ففيه كسر النفس وإذلالها وإخراجها عن مقتضيات حظوظها وشهواتها، وفي ذلك موتها واضمحلالها؛ واعلم أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، والعز والاستكبار مناقضان لها، لأنهما من صفات الربوبية، ولا خير في عبد خرج عن أوصاف عبوديته؛ وما طلب الحق جل جلاله من غيره خيرا من لزومه أوصافه؛ فإذا حمل العبد نفسه على أوصافه، وألزم نفسه المذلة والتواضع، واستمر على ذلك حتى صار الذل له خلقا بحيث لا يجد لذته ألما؛ فحينئذ تزكى نفسه، ويستنير بنور الإيمان قلبه، وينال من ربه أعلا درجات الخصوصية، ويحصل على أعلا نصيب من الحياة الحقيقية.

السبب الثالث " المخالفة": أي مخالفة النفس؛ فهذا السبب أيضا من أعظم أسباب موت النفس وفقد حياتها، والموجب لحياة الروح وظهور صفاتها، وبمخالفة النفس نال القوم أعلا الدرجات، ورزقوا سعادة المحيا والممات، وغلبت حياتهم الآجلة على العاجلة. كل ذلك بمخالفة النفس.

قال أبو حفص [1]: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومخالفة النفس رأس العبادة".

سئل بعض المشايخ عن الإسلام فقال: "ذبح النفوس بسيوف المخالفة".

وقال ابن عطاء الله: "النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب؛ فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بزهده عن سوء المطالبة؛ فمن أطلق عنانها؛ فهو شريكها في فسادها".

وقوله: "وترك كل شيء ألفه..."؛ فهذا مندرج في مخالفة النفس؛ فإن من خالفها ترك ما له أمارة من الحظوظ والأهواء، وكل شيء ألفته بطبعها، وركنت إليه عن مقتضى هواها وشهواتها، ولا شيء أعظم على النفس من ترك ما ألفته وربيت عليه واعتادته.

وما دامت النفس ملتبسة بهذا العيب مقيمة على مألوفها كانت بعيدة من العالم الملكوتي محجوبة عن الاستشراف على الأسرار التوحيدية، والحقائق الإحسانية؛ فلذلك طولب العبد بإخراج نفسه على مألوفاتها التي هي حجاب لها عن موجبات كمالها.

قال رضي الله تعالى عنه:

وفقدها حياتها بالحق إلا بموتها بترك الخلق

وذاك من عتوها وشؤمها وجهلها بقدرها في علمها

وقوله: "وفقدها " معطوف على ما قبله من عيوب النفس القادحة فيها؛ فقدحها حياتها بالحق؛ والمراد بحياة الحق. إما حياة الأرواح والقلوب؛ أو حياة الآخرة؛ والأول أقرب إلى المراد هنا؛ لأن حياة الأرواح هي المعتبرة، وكذلك حياة القلوب، وحياة النفوس ليست بمرادة. إذ في حياتها وجود الشر، والخسران، والعتو، والطغيان؛ وإذا فقدت النفس حياتها بالحق كانت أقرب إلى الهلاك، ووقعت في مهواة من الخسران لا خلاص لها منها، ولا انفكاك، وغلب عليها اتباع الهوى،

---

(1) هو أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد النيسابوري. أحد أئمة التصوف. توفي سنة 260 هجرية.

ونسيان ذكر المولى؛ ولحياة الروح أسباب منها:

* دوام الذكر مع خلو البطن، * ودوام الفكر، * والنظر في كتب المواعظ والزواجر القرآنية، والأحاديث النبوية.

وفقد ذلك سبب في موت الروح، وحياة النفوس.

وقوله: "إلا بموتها بترك الخلق". هنا كلام محذوف يدل عليه الظاهر تقديره، ولا تجد النفس حياتها بالحق إلا بموتها. ثم ذكر السبب الذي يقتضي موتها؛ فقال بترك الخلق؛ والمراد بتركهم: عدم النظر لهم، والسكون إليهم، ورفع همته عنهم، وعدم المخالطة لهم. إلا فيما لا بد له منه؛ فإذا دعي الحال إلى مخالطتهم فليكن معهم بظاهره مفارقا لهم بباطنه؛ وليحذر الخوض فيما يخوضون فيه والانشغال معهم بما لا يعني؛ وبالجملة فإن مخالطة الخلق داء عضال يميت الأرواح، ومن عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فيهلك كما هلكوا.

وقوله: "وذاك من عتوها وشؤمها..." الإشارة إلى ما تقدم من عيوب النفس التي منها فقد الحياة الآجلة، وفقد حياتها بالحق؛ فذاك كله من عتوها وشؤمها، والعتو هو النهاية في الظلم، والشؤم

حالة ينشأ عنها فقد الملايمات، ووجود المولمات، والنفس إذا وصفت بهذين الوصفين. الذين هما العتو، والشؤم كثرت عيوبها، وخرجت عن طريق الهدى إلى طريق الردى.

وقوله: "وجهلها بقدرها في علمها". معطوف على قوله: **"وعتوها وشؤمها"**؛ والنفس لها قدر كبير، وشأن عظيم. لكنها من صفاء صفوة النور؛ كما تقدم لنا في التعريف بحقيقتها في أول هذا الكتاب؛ ولما كان قدرها خطيرا وشأنها كبيرا كان حقها أن تتصف بمجامل الصفات لا بالعتو، والشؤم. لكنها لما جهلت قدرها، وخالفت أمرها. انحطت عن مكانتها، وسفلت عن عالمها الملكوتي، وغلب عليها الطبع الجسماني حتى تلبست بالعتو، وما يقتضي شؤمها بكثرة عيوبها.

وأراد بقوله: "في علمها": تخصيص جهلها. إنما هو في علمها خاصة لا بالنظر إلى حقيقتها، والله سبحانه أعلم.

ويحتمل أن يراد بقوله: "**وجهلها بقدرها** " من حيث الحقيقة الإنسانية، وضعف البشرية؛ فإذا جهلت ذلك اتصفت بالعتو الذي لا يصح لمن كان ضعيف الاتصاف به، والأول أقرب وأولى بهذا المحل.

وقوله: "**بقدرها**". حذف مضاف يقدر على الأول بعظيم، وعلى الثاني بحقير.

قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

دواؤها في ذاك عين دائها	**إذا خالفت ما كان من أهوائها**
فانطبعت للحق واتباعه	**بالترك للباطل وارتفاعه**

ذكر هنا رحمه الله تعالى دواء ما تقدم من عيب النفس، والدواء عبارة عما يزيل الداء، وذاك إشارة إلى العيوب، والدواء هو مخالفة الهوى، وسئل الجنيد رحمه الله تعالى متى يصير داء النفس دواؤها فقال: "إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها".

وإلى هذا أشار الشيخ بقوله: "دواؤها في ذاك عين دائها... البيت"؛ وجعل الدواء الذي هو مخالفة النفس هو عين الداء من حيث أن مخالفة النفس مؤلم من حيث الطبع ملائم من حيث الشرع؛ فكل ما يخالف هوى النفس مؤلم لها وفيه صلاحها، وانطباعها للحق واتباعه، وترك الباطل وارتفاعه، والحق الموافقات، والباطل المخالفات، واتباع الحق هو العمل به، وترك الباطل هو رفضه، وارتفاعه زواله، والمراد أن لا يترك أمرا، ولا يقرب نهيا.

قال رحمه الله تعالى:

قد قال يحيى بن معاذ الرازي	**كلمة بالغة الإيجاز**
تقرب العبد بموت نفسه	**لربه يقضي بحفظ نفسه**

يحيى بن معاذ المذكور هنا أحد شيوخ الطائفة الصوفية، ومن أعلامها المقتدى بأقوالهم وأفعالهم، والكلمة البالغة الموجزة المسندة إليه هي قوله: "تقرب العبد... إلخ البيت"؛ وموت النفس إخمادها بإضعاف حواسها، وإخراجها عن مألوفاتها، والميل إلى هواها وشهواتها؛ فلا يكون لها ملاك ولا غلبة على الروح؛ بل يكون الروح مستوليا عليها جاذبا لها إلى العالم الملكوتي؛ فإذا كان الأمر هكذا

كانت النفس في حكم من هو ميت، وجعل فعل العبد في إضعاف نفسه ومجاهدته لها بما يميتها ويخرجها عن ملاكها تقربا إلى الله تعالى. إذ في ذلك ما يقتضي قربه إلى الله تعالى بمخالفة هواه واتباع مرضاة مولاه، ومن اتبع مرضاة المولى جل جلاله حفظ نفسه من عقابه وشر عذابه، وصانها من الخروج عن مناهج العبودية؛ فليستعمل العبد الموفق الأسباب التي تقتضي النفس وإضعاف حواسها، ولا شيء أعظم عليها من الجوع؛ فهو مميت وقاهر لها ومخمد لحواسها. لكن يكون ذلك بتدريج حكمي، وسياسة شرعية من غير إفراط، ولا تفريط. إذ كلا طرفي قصد الأمور ذميم. حتى إذا راض العبد نفسه وعودها الجوع وأنست به، وصار لها ديدنا وعادة. كان الجوع لها بمنزلة الطعام كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله:

قلت وفي إفراطه إضرار إذ تفلس الأبدان والأفكار

قوله: "إذ تفلس الأبدان والأفكار" بيان للأضرار الناشئة عن الإفراط في الجوع؛ وإفلاس الأبدان والأفكار المراد به قلة منفعتها. إذ الجوع المفرط يضعف البدن عن القيام بأنواع العبادات، ويطمس الفكرة عن التفكر في معاني أسماء الأفعال، ومعاني أسماء الصفات؛ والإفراط في الشيء الزيادة فيه زيادة تخرج عن المقصود؛ فالإفراط في الجوع مخرج عن المقصود، ومانع من بلوغ المراد، وهذا كالتفريط، وإلى هذا أشرنا قبل هذا بقولنا: "**كلا طرفي قصد الأمور ذميم**".

فاحذر الطرفين: الإفراط، والآخر التفريط؛ وكلاهما ذميم.

وقصد الأمور الوسط، وهو الخيار؛ كما قيل: "خيار الأمور أوسطها"؛ وهو القدر الذي أخذ به الموفقون؛ كما أشار إلى ذلك الشيخ بقوله:

فلتأخذن بالوسط المحمود

أمرك الشيخ بالوسط. ثم وصفه بكونه محمودا: الذي تحمد عاقبته من موارد الندم؛ وفي وصفه بكونه محمودا إشارة إلى كل ما سواه مذموما؛ وهما الطرفان؛ فإن قوله: "واقتنع بالحاصل الموجود " أمر بالقناعة بالحاصل الموجود من الأقوات، والملابس لما في عدم القناعة بذلك من تعب القلب، والقالب، وفراغهما لما أنت به مطالب؛ وعنه عليه الصلاة والسلام: "القناعة كنز لا يفنى".

وفي الحديث: "كن قنوعا تكن أشكر الناس"، وقال كثير من العلماء في

قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ أن الحياة الطيبة القناعة، وقيل: "القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن"، ويقال: "القناعة: الاكتفاء بالموجود، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل".

قوله: "فطرفا قصد الأمور ذما " إشارة إلى ما قدمناه من ذم طرفي قصد الأمور، وهما الإفراط والتفريط؛ وإنما ذما لما فيهما من الأضرار حسبما بين قبل، وأيضا لما فيهما من الإخلال بالحكمة، والحكم كما أشار إليه الشيخ بقوله:

"إذ قد يخل حكمة وحكما".

أما الإخلال بالحكمة من حيث التفريط لما فيه من التقصير، ومن حيث الإفراط لما فيه من تعدي الحدود التي حدها الله تعالى بحكمته، والإخلال بالحكم؛ لما في التفريط، والإفراط من مخالفة الحكم الشرعي الذي حكم على العباد من اتباع المنهج القويم، والصراط المستقيم من الأخذ في الأمور الدينية، والدنيوية بالوسط منها:

قوله رضي الله عنه:

من عيبها عدم إلف الحق ... برفض موجب الهدى والصدق

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى هنا عيبا من عيوب النفس؛ وهو عدم إلف الحق: أي نفورها منه، والحق هنا: أراد كلما كان حقا. فعلا كان، أو قولا، أو اعتقادا؛ والنفور من الحق قادح في الإيمان، وينشأ عن مرض في القلب.

والباء في قوله " برفض " للسبب، والمعنى رفض موجب الهدى، والصدق سبب عدم إلف الحق، والهدى هنا المراد به الإرشاد إلى طريق الحق.

والصدق: هو حال من صدق الله تعالى في المعاملات، وعامله لأجل ما اتصف من كمال الصفات **وموجب الهدى والصدق:** القيام بحقوق الربوبية، ولزوم أوصاف العبودية؛ فمن رفض هذا الموجب عدم إلف الحق.

ثم ذكر رحمه الله تعالى ورضي عنه السبب الحامل على عدم إلف الحق الباعث على رفض موجب الهدى والصدق.

فقال رضي الله تعالى عنه:

وذاك من إهمالها في الحال ... وتركها لموجب الكمال

الإشارة إلى ما ذكر من عدم إلف النفس الحق؛ أو إلى جميع ما تقدم من عيوبها؛ فأعلم رحمه الله تعالى أن ذلك من إهمالها في الحال، والضمير في " **إهمالها** " للنفس، والإهمال الترك، ويعني بإهمالها ترك رياضتها، ومجاهدتها، والغفلة عن مناقشتها، ومحاسبتها عما يصدر منها؛ فمن غفل عن نفسه في رياضتها، ومجاهدتها، ومحاسبتها؛ فقد أهملها؛ وإهمالها سبب لعدم إلفها الحق، وكذلك رفضها موجب الهدى والصدق؛ فهو أيضا سبب لعدم إلفها الحق.

وإذا تعددت الأسباب قوي موجب وقوع المسبب؛ فيصعب ارتفاعه؛ والذي يجب على العبد أن لا يهمل نفسه، ولا يغفل عن مجاهدتها، ورياضتها، وكذلك محاسبتها صباحا ومساء؛ فمن فعل بها فقد زكاها، ومن أهملها فقد دساها؛ فالأول من المفلحين، والآخر من الخاسرين.

وإذا علمت النفس أن عليها رقيبا يحاسبها ويناقشها. ربما تمتنع من القدوم على ما تقوم عليها به الحجة، ويجب لومها وعقابها؛ وإذا أمنت رتعت، وأطلقت العنان، واسترسلت في الشهوات، والمخالفات، ونفرت من الحق، ورفضت موجبات الهدى والصدق؛ وقيد رحمه الله تعالى الإهمال بالحال؛ لأن الإهمال في الحال يؤثر في الاستقبال.

وقوله: "**وتركها لموجب الكمال**". معطوف على الإهمال للاشتراك في الحكم. إذ ما ينشأ عن الإهمال ينشأ عن موجب الكمال؛ والمراد بموجب الكمال ما يوجب للنفس كمالها من اتصافها بالأوصاف الحميدة والأفعال الجميلة التي تستوجب به رتبة أهل الكمال؛ فإذا حصل منها موجب الكمال ألفت الحق، وإذا أنفت من موجب الكمال نفرت من الحق، وألفت الباطل؛ وذلك عيب فيها قادح في إيمانها وموجب لخسرانها.

ثم ذكر رحمه الله تعالى فعل النفس بمن أهملها؛ فقال:

فكل من أهملها تهلكه وفي الضلال والهوى تسلكه

هذا تحذير من إهمال النفس، وتنفير من ذلك، وإعلام بما تفعله النفس بمن أهملها.

والإهلاك: الرمي بأنواع المصائب المهلكة.

والضلال: الحيد عن الحق.

والهوى: ما تمليه النفس من محبوباتها، وأغراضها الفاسدة.

"**وفي الضلال والهوى تسلكه**": أي في طريق الضلال، وفي طريق الهوى، وتسلكه أي تسيره فيكون سيره على اعوجاج، وسلوكه على أسوئ منهاج؛ فلا يزال سيره كذلك إلى أن توقعه في مهواة الزلل، وتلقيه في صحراء الخسران.

قال بعضهم: "إذا أردت أن تملك نفسك، فلا تملكها وضيق عليها، ولا توسع لها؛ فإن لم تملكها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك؛ وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد بلائها؛ فإن لم تمسكها انطلقت بك".

وهذا الذي يقتضيه طبع النفس، وعليه جبلت؛ كما أشار إلى ذلك بقوله:

إذ طبعها مخالف للطاعه موالف التفريط والإضاعه

طبع النفس أبدا - ما دامت نفسا أمارة - مخالفة لطاعة خالقها، والحيد عن مرضاته؛ فهي أبدا ميالة إلى المعاصي بطبعها. داعية إلى الهوى. راغبة في الشهوات؛ فمن أهملها أمالته إلى ما فيه هلاكه من المخالفة لأمر المولى جل جلاله، ودعته إلى ما فيه خسرانه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾؛ فالعاقل لا يسعفها فيما به أمرته، ولا يسلك حيث أسلكته وسلكته؛ بل يكون معها على طرفي النقيض، ولا يضع عنها عصاة التأديب حتى تضع الحرب أوزارها.

وقوله: "موالف التفريط والإضاعة " أمر بمخالفة التفريط فيما يجب على العبد من طاعة مولاه عز وجل، وما يطالب به من النظر في أمور نفسه من رياضتها وتهذيبها وإخراجها عن طبعها الذميم؛ فلا يفرط في ذلك، ولا يضيعه، وليستعن على ذلك بالله عز وجل.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب السابق المزيل له؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه الخروج منها كلها لربها بأصلها وفصلها

هذا الدواء لا شك أن الله تعالى قدر بنفي عيب النفس بوجوده بنفعه

حاصل، وشفاء لمن استشفى به إليه، وأصل الخروج من النفس. أراد به هنا إسلامها لخالقها. قال تعالى ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾. قال بعض المتصوفة في هذه الآية بعد تأويلها على ظاهرها أن المراد بقوله: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ...﴾ الآية. النفس؛ فمن خرج عن نفسه، وتعلق بربه كفاه ما أهمه منها، وطهرها من عيوبها، وشفاها من عللها؛ فتخرج إذاك عن طبعها وتسعى في مرضاة ربها.

وقوله: **بأصلها وفصلها**". تأكيد لقوله: "**كلها**"، فكرر التأكيد للاهتمام.

وقوله:

قيل لابن زادان الذي قد يخرج ... لربه فأي أصل ينهج؟ [1]

قال بترك كل ما عنه خرج ... وعدم اللحظ لما عنه درج

ضمن رحمه الله تعالى في هذين البيتين سؤالا وجوابا في معنى ما تقدم من الخروج عن النفس، فسئل ابرازه رحمه الله تعالى عن الخارج عن نفسه. أي أصل ينهج؟؛ فأجاب بأن قال:

"**يترك كل ما عنه خرج**". يشير إلى كمال الخروج، وتمامه عن أصل ما خرج عنه، وفصله، وبعضه، وكله؛ فلا يتمسك بشيء من ذلك، ولا يستثني منه شيئا.

وقوله: "**وعدم اللحظ لما عنه درج**". أي لا ينظر لما درج عنه من أمر سلوكه، ولا يلتفت إليه، ولا يعول؛ أو لا يعتمد عليه؛ بل يكون خارجا عن نفسه وفعله؛ فإذا كان فعله على هذا صح له الخروج إلى ربه؛ فلا يصح البقاء مع الرب، ومع الأكوان.

ثم أتى الشيخ رحمه الله تعالى بسؤال آخر وجواب عليه تاما لفائدة السؤال والجواب الأوليين؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

قيل فهذا حكم من له قدم ... فكيف حكم خارج عن العدم

لما كان ما ضمنه ابن زادان في جوابه من الخروج عن النفس، وعدم

---

(1) ابن زادان: هو أبو بكر بن يزدانيار. أرميني الأصل. عالم ورع متصوف. له كلام كثير في الموضوع منه: "إياك أن تطمع في الأنس بالله تعالى وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله تعالى وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله تعالى وأنت تحب المنزلة عند الناس".

ملاحظة أفعالها من أحوال ثابتي القدم في السلوك، وهم أهل التمكين. تطلب السائل منه بيان حكم أهل البداية، وعبر عنهم بالخارج من العدم تشبيها لهم بخارج من العدم إلى الوجود؛ فكان أهل البداية قبل بدايتهم عدم؛ لتركهم الأسباب النافعة؛ فلما ابتدأوا السلوك صاروا وجودا. ألا ترى إلى قول الكفار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ وقد كان لهم سمع وعقل لكن لما لم يفيدا شيئا عدا كالعدم.

ثم أجاب ابن زادان عما سئل عنه ثانيا فقال:

قال وجود لذة المستأنف عوض مره الذي في السلف

يشير في هذا البيت إلى أن أهل البداية إذا وجدوا لذة طعم الحق؛ وجدوا مرارة ما سلف منهم من المخالفات؛ فتركوا هذا لذلك: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ثم لا يزال الحق يميلهم إليه بحلاوته، وعن الباطل بمرارته، والخير في أثناء ذلك يتزايد ويتضاعف، والشر يتلاشى ويتجانف. إلى أن تثبت قدم أهل البداية، ويترقون إلى التمكين. ثم إلى النهاية، ويصير حكمهم حكم من عن نفسه خرج، ولم يلاحظ ما عنه درج.

وهذا حكم من وجد طعم الحق؛ كما أشار إليه بقوله:

فكل من وجد طعم الحق في نفس فسالك بالصدق

لا يتصور ممن وجد طعم الحق - ولو في نفس - إلا أن يكون سالكا بالصدق؛ لأن الحق يحمله على ذلك؛ فهذا حكم من ذاق طعم الحق؛ ولغيره حكم آخر بينه بقوله:

وغيره فليتهم أعماله إذ لم يجد في نفسه كماله

من لم يجد طعم الحق، ولا تحلى بحلية أهل الصدق. أعماله مشوبة مدخولة، وأحواله كلها معلولة؛ فلهذا وجب عليه إتهام أعماله، وعدم الرضى عن نفسه؛ فيما يبدو إليه من أحواله، وذلك لفقد كماله ولوجود اعتلاله.

قال يحيى بن معاذ رضي تعالى عنه: "مسكين ابن آدم. جسم معيب، وقلب كئيب. يريد أن يخرج من معيبين عملا بلا عيب".

فالواجب على العبد أن يتهم نفسه ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما تظهره من الطاعات، وما يتصور منها من أنواع المعاملات، ومن استحسن شيءا منها، وسكن إليها هلك.

قال أبو حفص رضي الله عنه تعالى: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها".

وقال بعضهم ما معناه: "كنت كذا وكذا سنة ما استحسنت شيئا من أعمالي".

وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لأنفسهم، والتهم منهم لها، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن تحصى.

قال رضي الله تعالى عنه:

من عيبها الخواطر الرديئه تألفها والحالة الدنيه

فتحتكم بإلفها المخالفه حتى تعد لفعلها موالفه

هذا عيب من عيوب النفس ذكره هنا؛ وهو أن النفس تألف الخواطر الرديئة، والحالة الدنية. **والخواطر الرديئة:** هي الشيطانية، والنفسانية؛ فإن الشيطان، والنفس يلقيان في القلب خواطر رديئة يشغلان القلب بها بما لا فائدة فيه، ولا خير؛ وكذلك يأمرانه بالتحلي بكل حالة دنية. أي ذميمة تسقطه من المراتب العلية؛ فإذا ألفتها النفس، وأنست بها علم أن ذلك من عيوبها القادحة فيها المسقطة لها عن رتبة الكمال. القاضية عليها بوجود النقص فيها، والاعتلال.

وبسبب إلفها للخواطر الردية، والحالة الدنية تحتكم في طريق المخالفة، وتتأسس فيه، وتعود لفعلها موالفة؛ وهذا شأن النفوس المهملة التي تترادف عليها الخواطر الردية المحلاة بالأحوال الدنية وما دامت الخواطر الردية، والحالة الدنية تترادف على النفس، وتتكرر، ويزيدها ذلك ثبوتا في القلب، ورسوخا في الفكر كما نبه الشيخ على ذلك بأن قال:

إذ يثبت الخاطر بالتكرار ويرتسخ في قوة الأفكار

ثبوت الخاطر بالتكرار، ورسوخه في قوة الأفكار. حكم ظاهر صحيح لا شك فيه؛ فلذلك كان ينبغي للعبد إذا طرق قلبه خاطر رديء؛ أن يميطه عن قلبه،

ويصرفه عن فكره؛ لئلا يستحكم، وينطبع في القلب، ويرسخ في الفكر؛ فيصعب حينئذ دفاعه، ويعسر ارتفاعه؛ وكذلك الحالة الدنية يجهد العبد في الانتقال عنها، والتخلي عنها؛ لئلا تصير له شعارا، وقلبه للخواطر الشيطانية موطنا وقرارا.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الناشئ عنه هذا العيب، فقال:

وذاك من فقدانها المراقبه وعدم الذكر على المواضبه

إذا خلي القلب عن المراقبة، ولم يكن للعبد ذكره على الدوام والمواضبة. حدثت في النفس عيوب رديئة، وسكن القلب خواطر شيطانية، وتلبس بأحوال ذميمة رديئة؛ وكل ذلك من فقد المراقبة، وعدم الذكر على المواضبة؛ فالمراقبة مانعة للنفس من التلبس بالعيب، ودوام الذكر بحفظ القلب من الريب، والمراقبة حال القلب اليقظان الذي لا تطرقه الخواطر الرديئة، ودوام الذكر شأن أهل الشهود والمن، فإن المنزهين عن التلبس بالأحوال الرديئة، وما ألف المخالفة ذو قلب مراقب حاضر، ولا تصدر من عبد ذي لسان ذاكر؛ وفي هذا حض للعبد على دوام المراقبة واستصحاب الذكر على سبيل الدوام والمواضبة.

واعلم أن المراقبة على وجهين:

* **مراقبة أهل البداية:**؛ وهي مراقبتهم لأنفسهم؛ فيضبطون أنفاسهم، ويراعون حواسهم.

* **ومراقبة أهل النهاية:**؛ وهي مراقبتهم للمولى جل جلاله. علما منهم أنه سبحانه مراقب لهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﴾؛ فهم أبدا يراعون ما يتجلى به عليهم من معاني أسماء صفاته الجمالية، والجلالية؛ وهذه المراقبة تنطوي فيها الأولى، وفيها زيادة معنى لطيف. قال الإمام أبو القاسم القشيري [1] رحمه الله تعالى ورضي عنه: "المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه؛ فاستدامته هذا العلم مراقبته لربه؛ وهذ أصل كل خير له؛ ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من

(1) هو أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري الشافعي. لزم الشيخ الأستاذ أبي علي الحسين بن علي النيسابوري الشهير بالدقاق. إمام وقته، وعالم نيسابور آنذاك، وتزوج من ابنته. للقشيري كتب كثيرة أشهرها الرسالة القشيرية. توفي سنة: 376 هجرية.

المحاسبة؛ فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله مراعاة القلب، وحفظ مع الله الأنفاس، وراقب الله سبحانه في عموم أحواله؛ فيعلم سبحانه أنه عليه رقيب، ومراقبه قريب يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ومن يغفل عن هذه الجملة؛ فهو بمعزل عن بداية الوصلة؛ فكيف عن حقائق القربة". انتهى.

ولما ذكر رحمه الله تعالى عيب النفس الموالي قبل هذا. أراد أن يذكر دواء ذلك العيب؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه الـــرد لهـــا فـــي الابـــتدا ... بالخوف والذكر على طول المدى

وكــــــونه مـــــراقبا لـــــربه ... وعـــاملا علـــى صـــلاح قلـــبه

كأنـــــه منفـــــرد للحـــــق ... والجـــسم فـــيه علـــة للخلـــق

إذا طرقت قلب العبد خواطر رديئة، وابتدأ التلبس بأحوال دنية، فحقه المبادرة إلى رد ذلك في ابتداء الأمر؛ فهذا هو الحزم الناشئ عن قوة العزم؛ ومعاناة الداء في ابتدائه أرجى لربه إذا ترك إلى انتهائه؛ فهذا حكم الحكماء، ووافق عليه جل العلماء؛ وإذا ترك الداء حتى استحكم، وتمكن صعب علاجه، وربما خالطه داء آخر؛ فيصير داء عضالا، والشفاء منه كاد أن يكون محالا.

والدواء النافي لهذا العيب المذكور ما ذكر الشيخ: "**الخوف من الوعيد، ودوام الذكر**"؛ فالخوف مانع من التلبس بالأحوال الدنية، والذكر صارف من وقوع الخواطر الرديئة؛ وكذلك مراقبة العبد لمولاه جل جلاله تمنع النفس من تلبسها بالعيب، وكذلك من كان عاملا على صلاح قلبه بعيد أن يتلبس بعيب أو يرضى في الوقوع في ذنب؛ لكون ذلك مضادا لمراده، وأقرب إلى فساده، والمنفرد للحق يعمل على سبيل الوفا والصدق؛ فانفراد وجهته إلى ربه، وشغله بصلاح قلبه يمنعه من ورود الخواطر الرديئة، ويستحيي أن يتلبس بالأحوال الدنية، وتتطهر نفسه من العيوب ويتنزه عن مواقعة أسباب الذنوب.

وقوله: "**والجسم فيه علة للخلق**"؛ وإنما كان كذلك؛ لأنه يدعو النفس من العلو إلى الانسفال، وإلى النقص من الكمال؛ فهذا من العلل التي فيه. إذ طبعه يقتضي وجود تلك العلل؛ وأيضا فإن الجسم يطلب ما هو إصلاح؛ وكلما يصلحه

فيه فساد الروح، وما يقويه يضعفها؛ فهذا أيضا من علله، وليس المراد صلاح الأجساد؛ بل صلاح القلوب والأرواح؛ لأن الله عز وجل لا ينظر إلى الصور، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال.

وقد نبه الشيخ على ذلك؛ فقال:

ففي حديث المصطفى المختار — نص عليه عمل الأبرار

لا ينظر الله إلى صوركم — ولا إلى الأعمال بل قلوبكم

فخيرها ذو رقة وذو صفا — وشرها ذو غلظة وذو جفا

ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو قوله: "إن الله لا ينظر إلى صوركم...". الحديث بكماله مروي عنه عليه الصلاة والسلام، فالصور لا عبرة بها؛ فلهذا لم ينظر الله إليها، وإنما المعتبر القلوب؛ فكانت أحق بنظر الله إليها، وإذا كان الأمر كذلك؛ فواجب على العبد أن يعتني بصلاح قلبه، وطهارته من الأخلاق الذميمة، والأوصاف الردية؛ وكيف لا يعتني به وفي صلاحه صلاح غيره. قال عليه الصلاة والسلام: "إن في العبد بضعة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب"،.

وفي الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم... إلخ " إشارة إلى الاهتمام بإصلاح القلب، ومعاناته - إذ هو محل نظر الله تعالى - وإلى ما يعتنى بطهارته، وهو أيضا الملك المطاع، وسائر الأعضاء رعيته.

قوله: "فخيرها ذو رقة وذو صفا". الضمير في " خيرها " للقلوب. أي خير القلوب ما كان ذو رقة لأنه يقبل المواعظ والتذكير، ويؤثر فيه التخويف والتعيير، وما رق قلب إلا سهل علاجهوإصلاحه؛ ولهذا مدح صلى الله عليه وسلم قوما بكونهم أدوية جمراوات القلوب، ومعاناتها والاشتغال بصلاحها واجب على كل مريد؛ بل على كل مؤمن، و"ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة". قاله ابن عطاء الله.

وأمراضه إنما تكون من غفلة أحكام الطبع عليه وصحبة الأضداد، ووقوفه مع المعتاد، وانقياده إلى هوى النفس وأنسه بعالم الحس.

ومداواته من أوجه كثيرة: أعظمها، وأنفعها. ما قدمناه من كلام ابن

عطاء الله رضي الله تعالى عنه.

وقوله: "وشرها ذو غلظة وذو جفا". أراد شر القلوب ما كان موصوفا بالغلظة والجفاء، وكل من الوصفين ذميم، وتنشأ عنه أخلاق ذميمة، وأفعال كريهة؛ فالغلظة ينشأ عنها الكبر، والحقد والجفا، والقسوة، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة، والجفا ينشأ عنه القطيعة والنكر، وبغض عباد الله... إلى غير ذلك.

وقد نبه نبيه عليه الصلاة والسلام إلى ما في غلظ القلب من الأمر المكروه؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾؛ فالفظاظة، وغلظ القلب. تبعد القريب، وتنفي البعيد، ولا يكون معها إئتلاف، ولا جمع شمل، ولا مودة.

قال رحمه الله تعالى:

وأول الذنب يقال الخطره ... كالسيل في ابتدائه بالقطره

الخطرات متعددة، وليست من وجه واحد. إذ منها إلهي، ومنها ملكي، ومنها شيطاني، ومنها نفساني؛ فالإلهية تسمى بوارق، والملكية تسمى لوائح والشيطانية تسمى خواطر، وكذلك النفسانية.

والخواطر في هذا البيت المراد الشيطاني والنفساني، وسمي خاطرا لخطوره على القلب وعدم ثبوته، وهو أول الذنب، وتشبيه الشيخ أول الذنب بالقطرة التي هي أول السيل تشبيه حسن، ووجه الشبه بين المشبه، والمشبه به ظاهر فتأمله؛ وذلك أنه كما كان أول السيل يتعاظم بتزايد القطرات؛ فكذلك الذنب يعظم بتكرر الخطرات.

وأنشدوا في هذا المعنى:

خف الله واحذر عواقب شهوة ... مسرتها تفنى ويبقى لك الوزر

ولا تحقر ذنبا صغيرا تضيفه ... إلى مثله؛ فالسيل أوله قطرة

فلا تزال الخطرة تتكرر وتترادف؛ وهي مع ذلك تتقوى وتتزايد حتى تثبت في القلب؛ كما تقدم في البيت قبل هذا حيث قال:

إذ يثبت الخاطر بالتكرار ... ويرتسخ في قوة الأفكار

فإذا رسخ وثبت قوي وصار معارضا؛ كما نبه عليه بقوله:

ثــــم يـــــصير بعـــــدها معارضـــــه ... مــــا لــــم يكــــن بكــــرهه قــــد عارضــــه

إنما صارت الخطرة معارضة لما اكتسبت من القوة بالتكرار؛ فأولا كانت خطرة لا ثبات لها ولا معارضة؛ فلما قويت ورسخت في القلب عارضت ما يخطر في القلب مما يناقضها، والمعارض قوي؛ وهذا ما لم يكن العبد كارها لتلك الخطرة، ويعارضها بالمدافعة؛ فإن لم يعارضها، ويدافعها قويت وصارت إلى حال أقوى؛ فتعود وسوسة؛ كما نبه على ذلك بقوله:

ثــــم تــــصير بعــــد ذاك وسوســــة ... مــــا لــــم يكــــن بكــــرهه قــــد سايــــسه

الوسوسة ما يجتاح أي باطن؛ مما يلقيه الشيطان فيه، أو النفس، وغالبه من الشيطان؛ وقد أسندت الوسوسة في كتب الله إلى الشيطان، فقال: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ...﴾ الآية، وإلى النفس فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾؛ وهي أقرب من الخطرة المعارضة لثبوتها في الباطن أي الوسوسة، ولأن انفعال النفس لها، وانشغال القلب بها أكثر من الخطرة، والخطرة المعارضة تصير وسوسة ما لم يكن مدافعا لها بسياسة علمية، وأسباب شرعية، وكذلك الوسوسة إن لم تدافع بالأسباب النافية لها يحدث عنها ما هو أقوى؛ وهي الشهوة الناشئة عن الهوى؛ كما نبه على ذلك الشيخ بقوله:

ثــــم تهــــيج شــــهوة مــــن الهــــوى ... تــــذهب بالخيــــر وتــــضعف القــــوى

إذا دامت الوسوسة، ورسخت، وقويت، ولم تدافع أثرت شهوة نفسية؛ والشهوة قوة نفسانية تنشأ عن الهوى النفساني تبعث النفس على علائمها، ويميلها إليه؛ وهي أبداً لا تميل إلا إلى المخالفات، **والهوى بالقصر:** هو هوى النفس، وقيل الحب؛ وجمعه أهواء؛ وقيل الهوى أول مراتب الحب. قال ابن عطية: "وأكثر استعماله في الباطل"؛ وقد يستعمل في الحق؛ كقول عمر رضي الله تعالى عنه في أسرى بدر: "فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قاله عمر رضي الله عنهم أجمعين".

وهيجان الشهوة: شدة دفعها لصاحبها على تحصيل ما تعلقت به، وتوجهت إليه. مع لزومها وعدم فتورها؛ ولما كانت الشهوة المنبعثة من الهوى على هذا الحال يذهب بالخير أي بأسبابه حتى لا يبقى له أثر بالكلية، ولا يخطر الخير بالبال

أصلا، وكذلك تضعف القوى الروحانية حتى لا يبقى لها ملاك، وتصير الروح تحت قهر النفس، ويغلب عليها سلطان الهوى، فيكون آخذا بزمامها يميلها إلى مراد الشهوات، وأنواع المخالفات؛ فيفارق حزب الله؛ فيكون من حزب الشيطان ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، وهذا الحكم جار في كل من هاجت شهوة نفسه، وغلب عليه الهوى. إلا أن يتدارك ذلك بجهاد النفس ورياضتها؛ كما نبه الشيخ على ذلك بأن قال:

إن لم تدارك بجهاد النفس تثير كل علة ولبس

المتداركة: هي الشهوة، والمراد في هذا البيت أن الشهوة إذا انبعثت من الهوى، وهاجت، ولم تدارك بمجاهدة النفس أثارت عللا كثيرة تقطع من قامت به عن الاتصاف بأوصاف العبودية، وتمنعه من القيام بحقوق الربوبية، وتلبس عليه الحق بالباطل؛ ولهذا اشتغل الموفقون بجهاد أنفسهم، واهتموا بذلك خوفا من إثارة العلل والتلبيس المخجل؛ فمن أراد قهر النفس، ورياضتها، وإخراجها عن أوصافها الذميمة، وأخلاقها اللئيمة؛ فليجاهدها.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾، وما جوهدت النفس بأعظم من الجوع، ومخالفة الهوى؛ فإن الجوع يضعف قوتها، ويزيل شهوتها، ويذل سطوتها، ويغلب عليها حكم الروح والعقل، ويتنور القلب، ويقرب من مرضاة الرب؛ وبالرياضة، والمجاهدة تنتفي علل النفس وعيوبها.

قال أبو علي الدقاق: [(1)]"من زين ظاهره بالمجاهدة حسن سرائره بالمشاهدة".

قالوا: "ومن لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة. لم يجد من هذه الطريق شمة".

وقال أبو عثمان المغربي: "من ظن أنه يفتح عليه شيء من هذه الطريقة، أو

---

(1) هو الأستاذ أبو علي الحسين بن علي الشهير بالدقاق. إمام وقته، وأحد أعلام نيسابور وشيوخها.
تتلمذ عليه عبد الكريم القشيري، وتزوج من ابنته فاطمة. كان القشيري يطلق عليه: الشهيد.

يكشف له شيء منها إلا بالمجاهدة فهو في غلط".

وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه: "كنت اثنتى عشرة سنة حدادا لنفسي، وخمس سنين مرآة قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما؛ فإذا في وسطي زنار ظاهر؛ فعملت في قطعه اثنتى عشرة سنة. ثم نظرت فإذا في باطني زنار؛ فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه؛ فكشف لي؛ فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات".

وقال أبو الحسن البزاز: [1]" بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغلبة، ولا تتكلم إلا عند الضرورة".

وقال إبراهيم بن أدهم: [2]" لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

أولها: يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة.

الثانية: يغلق باب العز، ويفتح باب الذل.

الثالثة: يغلق باب الراحة، ويفتح باب الشدة.

الرابعة: يغلق باب النوم، ويفتح باب السهر.

الخامسة: يغلق باب الغنى، ويفتح باب الفقر.

السادسة: يغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت".

وللناس في مجاهدة النفس ورياضتها كلام كثير؛ فلينظر في كتب القوم، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال رحمه الله تعالى:

---

(1) البزاز: هو أبو حمزة محمد بن ابراهيم البغدادي. كان فقيها عالما عاملا. صحب السري السقطي وأبا تراب النخشبي، وبشر الحافي. دخل بغداد، وكان يجلس في مجلس أبي حنيفة، فيستشيره أبو حنيفة في المسائل التي تطرح عليه قائلا له: "ما تقول في هذا يا صوفي؟"، ومن أقواله: "من رزق ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات: بطن خال مع قلب قانع، وفقر دائم مع زهد حاضر، وصبر كامل مع ذكر دائم. توفي سنة: 289 هجرية.

(2) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور. كان من أبناء الأمراء ثم تنسك؛ فضرب به المثل في الزهد والورع. كتب إليه الأوزاعي: "إني أريد أن أصحبك يا إبراهم"؛ فأجابه: "إن الطير إذا طار مع غير شكله طار الطير وتركه. توفي سنة: 161 هجرية.

إذ غطـــت العقـــول ذا البـــرهان والعلـــم ذا الحجـــة والبـــيان

الفاعل بغطت الشهوة؛ ويريد أنها إذا هاجمت، وتقوت تستر عقول الرجال ذوي البرهان، والعلم، والحجة، والبيان؛ وهذه أوصاف جليلة؛ فالمتصف بها يرجى أن لا يغطى له عقل لما اتصف به من الأوصاف التي تقتضي كمال عقل صاحبها ووفوره، والوصف الواحد من هذه الأوصاف كاف في حفظ العقل، وعدم استتاره، فأحرى اجتماعها كلها. لكن في هذا تنبيه على عظيم ما ينشأ عن هيجان الشهوة من الأمور الذميمة، والأفعال القبيحة، وفيه تحذير من الوقوع في الأسباب المهيجة للشهوة، وبعث على استعمال ما يضعفها، أو ينفيها. من دوام المجاهدة، والرياضة.

ثـم ذكـر رحمـه الله تعالـى مـا ينـشأ عـن الـشهوة عـند هـيجانها مـن الأفعـال الذميمة زائدا على ما ذكره أولا؛ فقال رحمه الله تعالى:

فأعمـــت الـــسرائر المـــنوره وطمـــست بـــصيرة المستبـــصره

العمى: فقد النظر، ويكون في البصر وفي البصائر، والمعتبر البصيرة. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

والسرائر: جمع سريرة، وهي القلب.

والمنورة: نعت للسرائر.

والطمس: هنا المراد به فقد البصيرة بالكلية.

والبصيرة: ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين.

ومستبصرة: نعت للبصيرة.

فأخبـر رحمـه الله تعالـى أن الـشهوة النفسانية إذا هاجـت، وتقـوت أعمـت القلـوب المـنورة بـنور الإيمـان، وطمـست البـصيرة عمـا سـرى إلـيها مـن ذلـك الـنور الإيمانـي، وهـذا الـذي ذكـره الـشيخ رحمـه الله تعالـى خبـر صـدق لا شـك فـيه؛ فـإن هـيجان الـشهوة يـنشأ عـنه عمـى القلـوب، وطمـس البـصائر؛ فـيضل العـبد تائهـا فـي صحراء النفس، وظلم المعاصي؛ فلا يهتدي سبيلا، ولا يجد إلى طريق الحق دليلا، بل يكون دائما يعمه في طغيانه. منقادا إلى شيطانه. أسير هواه. موافقا للشهوة فيما تهواه؛ فانظر رحمك الله تعالى ما ينشأ عن الخطرات الرديئة، والحالات الدنيئة، والشهوات النفسانية من الأحوال الذميمة التي تقتضي خسران من تحلى بها، وفساد

دين من اتصف بها؛ فأوكد على العاقل المسارعة إلى الدواء النافي لهذه العلل قبل استحكامها، وأن يهتم بزوالها في مبادئها قبل نهايتها وتمامها؛ فإن الداء متى ما تمكن. عسر منه الخلاص، وصعب علاجه واعتاص، وكأن الأمر كما قال:

فأصبح القلب لذاك أعمى وقد علاه ظلمة وظلما

هذا حال قلب من عميت سريرته، وطمست بصيرته، وتمكنت فيه العلل، ولم يعمل في زوالها، وتطهير المحل؛ فيتوالى على القلب العمى، وتعلوه ظلمة؛ فيعود مظلما بما فقد من النور الإيماني، ولا تزال الأنوار منه تتباعد، والظلم عليه تتراكم، وتتزايد. إلى أن يغلب عليه حال الكسوف، ويكون دوامه أقرب من انجلائه، وموته أقرب من برئه من دائه. إلا أن يتداركه الله برحمته.

ثم قال رحمه الله

وذاك معنى جاء في الأخبار عن النبي المصطفى المختار

المعنى المشار إليه هنا ما ذكره من تغطية العقول، وعمى السرائر، وانطماس البصيرة، وعمى القلب عند فقد الأسباب المانعة من ذلك، وعدم النظر فيما ينجي من الوقوع في هذه المهالك؛ فقد جاء في الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم ما يؤيد ذلك ويقويه، ولم يحضرني الآن ما أنقله من الأحاديث في هذا المعنى، ومن أراد الوقوف عليها؛ فلينظرها في في مجالها.

ثم قال رضي الله عنه:

من عيبها الشغل بعيب الناس وترك ما بها من الأدناس

اشتغال العبد بعيوب غيره، وعدم نظره إلى ما فيه من العيوب معدود عند العقلاء من عيوب النفس المهلكة لها. التي تسقطها من عين الله عز وجل؛ وهذا ليس من شأن المؤمنين، ولا من أحوال المتقين؛ بل فيشتغل العبد بالبحث عن عيوب نفسه، واطلاعه عليه، ومداواة عللها، وطهارتها من أدناسها؛ وفي هذا شغل شاغل عن رؤية العبد عيوب غيره، وأيضا فإن العبد لا ينقصه عند الله عز وجل عيوب غيره، وإنما ينقصه عيوب نفسه، وما لا يقع للعبد به انتقاص عند مولاه؛ فلا يشغل نفسه بالنظر فيه؛ وإنما يلزمه النظر والاشتغال بما ينتقص قدره عند ربه، ويعد من جملة ذنبه.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الذي ينشأ عنه هذا العيب؛ فقال:

وذاك من كبر ومن إعجاب وغفلة عن موجب العذاب

الإشارة إلى ما قدمه من عيب النفس، ولا شك أن الكبر، والعجب حال من رضي عن نفسه؛ والرضى عن النفس يقتضي ستر عيوبها، ولا تقدير أن يلاحظ منها شيئا؛ فلا يشتغل به، ولا يراه عيبا لما هو عليه من حال الغفلة، ويدعوه كبره وعجبه إلى عدم رضاه عن الخلق، ولرؤية مساوئهم، والتطلع على عيوبهم، والبحث عن عوراتهم. إلى غير ذلك من الأمور المناقضة لأحكام الأخوة الإيمانية. الفاصمة للروابط الإسلامية، وكفى بهذه عن الله قواطع، ومن الجبر موانع؛ فإياك أيها العبد. ثم إياك من التخلق بالكبر، والعجب، والغفلة الحاملة لك على الشغل بعيب الناس، وترك نظرك إلى عيب نفسك الأمارة بالسوء؛ وقد وردت أخبار، وجاء آثار في التحذير من العجب، والتنفير من الكبر؛ وإنما وقع التحذير، والتنفير من هذين الوصفين الذميمين؛ لما ينشأ عنها من الأمور المحظورة، والعيوب المنكرة، وهي من الأوصاف الشيطانية، والأخلاق الإبليسية.

قال تعالى حاكيا عن إبليس لعنه الله: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ و ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ...﴾ الآية، وإنما حمله على هذه المقالة المنكرة. ما كان في باطنه من الكبر، والعجب؛ فمن كانت فيه خصلة من الخصال الإبليسية؛ ففيه شائبة إبليسية، والعياذ بالله؛ وأما الغفلة عن موجبات العذاب؛ فهي حال المنكر ربهم الذين نهى الله تعالى عن مطاوعتهم؛ فقال جل من قائل: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾.

ثم ذكر رحمه الله تعالى العيوب المرتبة على الشغل بعيوب الناس؛ لما قام به من الكبر والعجب؛ فقال رحمه الله تعالى:

فقد أتى الويل لكل همزه وبعده في ذاك كل لمزه

وفسروه أنه العقاب ويل له حل به العذاب

الويل: الثبور، والحزن، والشقاء على الدوام؛ وقيل: **الويل**: واد في جهنم؛ وقيل فيه غير ذلك، وكيف ما كان؛ فهو وعيد توعد الله به من استوجبه.

والهمزة اللمزة: الذي يهمز الناس بلسانه؛ أي يعيبهم ويغتابهم، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "هو المشاء بنميم"، وقال مجاهد: "الهمزة الذي يأكل

محرم الناس"، واللمزة: "الطعان". يقال: لمزه، ولهزه أي طعنه، واللمزة: قريب من المعنى في الهمز.

وقال أبو العالية، والحسن: "الهمز بالحضور، واللمز بالمغيب"، وقال مقاتل ضد هذا، وقال مرة هما سواء.

وقال ابن أبي نجيح: "الهمز باليد والعين، واللمز باللسان". قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وجاء اللفظ في همزة لمزة على بناء فعلة إشارة إلى أن ذلك عادة منه ضرب بها، ونحوهما اللعبة والضحكة.

والوعيد عام لكل من اتصف بالهمز واللمز؛ ولهذا جيء بالكل الذي يقضي الشمول.

والضمير في قوله: "وفسروه"؛ وهو: "الهاء " واقع على الويل، وضمير الفاعل من: "فسروه " واقع على المفسرين. فسروا الويل أنه العقاب، وتقدم تفسيره.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب المتقدم الآن ذكره؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه إبصار عيب نفسه — وبحثه عن موجبات تعسه

وصحبة الأخيار والأبرار — بالاتباع والاستمرار

من عالم ورع وذي تقى — أو صالح في شأنه تحققا

ذكر هنا الدواء الذي يقتضي نفي العلة السابقة؛ وهو شغل العبد بعيب الناس؛ فقال:

"**دواؤه إبصار عيب نفسه**": أي نظره إلى ما فيها من العيوب؛ لأن العبد إذا نظر عيب نفسه شغله ذلك عن النظر في عيوب الناس؛ وهذا حال أهل النصفة واليقظة. الناظرين لأنفسهم المعتنين بها، وبطبها من عيوبها، وعللها؛ وكذلك بحث العبد عن موجبات نفسه؛ فهذا أيضا من الأدوية التي تداوى بها العلة المذكورة، وهذا أيضا حال من وصفناه قبل بالأوصاف المتقدم ذكرها.

والتعس: الهلاك، والعثار بقوله.

وبحثه من موجبات تعسه: معناه عن موجبات هلاكه في دينه وعثاره، وفي محاولة أموره، **وصحبة الأخيار والأبرار** أيضا من الأدوية لعيب النفس. الذي هو

الشغل بعيب الناس؛ وإنما كانت صحبة الأخيار، والأبرار دواء لتلك العلة ومبرئا من ذلك العيب؛ لأن صحبة الأخيار، والأبرار تبين للعبد عيوب نفسه لشهوده قصورها، ونقصها مع كمالهم، وفسادها مع صلاحهم، وتقصيرها مع نشاطهم في أنواع العبادات، وضروب المعاملات؛ فإذا شاهد العبد المصاحب للأخيار، والأبرار قصور نفسه - مع كمال من صحب من أهل الكمال - اطلع على عيوب نفسه، وظهر له النقص فيها فشغله ذلك عي عيوب غيره.

وهذه الفوائد لا تحصل للصاحب بالحال. مع ما ينضم إليها من القول؛ فإن الأخيار، والأبرار لا يتركون من صحبهم ممن كان دونهم في الحال أن يأمروه بالخير، والمعروف وينهوه عما يقدح في حاله. لكن حصول المنفعة بذلك بشرط الاتباع لسبيلهم، والائتمار لأوامرهم؛ كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى.

وسئل الدقاق: "بما ذا يقوم الرجل اعوجاجه؟ فقال بالتأدب بإمام؛ فإن من لم يتأدب بإمام بقي بطالا". انتهي.

ولهذا احتاج الناس إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم، واتباع أوامرهم ونواهيهم.

والأخيار: جمع خير؛ وهم الذين اختارهم الله تعالى لطاعته، واصطفاهم لمحبته.

والأبرار: جمع بر؛ وهم الذين حالهم البرور لمولاهم عز وجل فيما أمرهم به، ونهاهم عنه؛ فلا يتركون أمرا ولا يقترفون نهيا، ولا يبتغون عن ذلك عوضا، ولا يطلبون عرضا؛ فإذا كان العبد بهذا الوصف؛ فهو بار. ثم ذكر بعض أوصاف الخير الذي به يقتدى، والبر الذي بهديه يهتدى؛

فقال " من عالم... إلى آخر البيت"؛ فالعلم والورع والصلاح شرط في كمال الصاحب الذي ينتفع بصحبته، ويأتمر العبد بأوامره؛ فبالعلم تصح الأعمال الدينية، وبالورع تكتمل الوظائف الشرعية؛ فبالعلم تعلوا الدرجات، وبالورع تنال الكمالات، وبالصلاح ترفع المنازل والمقامات؛ فبالعلم تشرق الأنوار، وبالورع تلوح للقلب الحقائق والأسرار، وبالصلاح تتواصل الأذكار؛ فبالعلم تصح الاستقامة، وبالورع تنال الكرامة، وبالصلاح يبعد العبد من موارد الندامة، فالعلم

أصل من أصول الطريق، والورع من أحوال أهل التحقيق، والصلاح الخاص مورد من موارد الطريق؛ فمن لا علم له لا ورع له، ومن لا ورع لا صلاح له.

واشترط الشيخ في كلامه أن يكون هذا الخير إلى العالم الورع الصالح في شأنه محققا، وفي شأنه معناه فيما هو متصف به من العمل، وفيما اتصف به من العلم والورع أو الصلاح محققا، والتحقيق في ذلك كله هو التخلق بمعناه في باطنه حتى تظهر ثمراته عليه ونتائجه بعد إحكامه واستفاء أحكامه، وهذا الذي ذكره الشيخ من الدواء؛ وهو السابق ذكره هو الغاية في التداوي والنهاية.

ثم ذكر رتبة دون ذلك لمن قصرت همته، وقلت بضاعته؛ فقال رحمه الله تعالى:

ودون ذا السكوت عن أخبارهم ... ونشر ما يظهر من أعذارهم

رجاء ستر ذنبه وعيبه ... وخوفه افتضاحه بسببه

الإشارة بذا إلى ما سبق من دواء عيب النفس، وهو إبصار عيب النفس... إلخ.

والمعنى: ودون إبصار عيب نفسه مع ما قارنه من الأدوية السكون عن عيوب الناس، وعن أخبارهم غير المرضية؛ التي يكتسب منها الذم والنقص؛ فسكوت العبد عن ذلك من أحوال الناس كاف في التداوي من عيب النفس الذي هو الشغل بعيب الناس؛ وكذلك نشر ما يظهر من أعذارهم؛ فهذ أدنى درجة في التداوي من عيب النفس، وينبغي للعبد أن يتخلق مع عبيد الله سبحانه بمعنى اسم الستار. راجيا من الله تعالى ستر ذنبه وعيبه؛ كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى؛ وليكن خائفا من افتضاحه بسبب فضيحته لعبيد الله عز وجل؛ فمن صمت عن عيوب الناس، وسوء أخبارهم. فعل الله تعالى به ذلك، ومن أعذرهم عذره الله، ومن ستر عن أخيه المسلم عيبا ستره الله، ومن فضح مسلما فضحه الله، ومن شمت مسلما شمت الله به، ومن هتك ستر مسلم هتك الله ستره، ومن سمع سمع الله به، والحق جل جلاله يكون العبد كما هو لعبيد الله، والعاقل يعمل مع عبيد الله ما يريد الله أن يفعله به، وإذا أردت أن يكون الله لك كما تريد، فكن لهم كما يريد.

وإلى هذه المعاني التي ذكرناها أشار الشيخ رحمه الله تعالى بأن قال:

ففــي الحــديث ســترة المــرء أخيـه ســتر لــه فــي كــل عــيب يقتفــيه
وفــيه أيــضا مــن يتــبع عــورته فـــــضحه الله وأبـــــدى زلـــــته
ولــو يكــن فــي جــوف بــيت بخــلا جـــــاء بمعــــناه ذو العـــــلا

هذه الأبيات الثلاثة ضم الشيخ رحمه الله تعالى فيها ما ذكرناه قبيل هذا، وأشار إلى أن ذلك وردت به أحاديث نبوية؛ وقد جاء ذلك في الترغيب والترهيب.

* أما الترغيب قوله عليه الصلاة والسلام: "من ستر عن أخيه المسلم عيبا ستر الله عيبه"، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

* وأما الترهيب فقوله عليه الصلاة والسلام: "من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن فضح مسلما فضحه الله"؛ أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. انظر المنذري [1] وغيره.

وقد جمع الله تعالى هذه المعاني في آية من كتابه العزيز؛ فقال جل من قائل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾.

وفي قول الشيخ: "ولو يكن في جوف بيت". فعل تقوية للترهيب من كشف عيوب الخلق وفضيحتهم، وإعلام بأن الفاعل لذلك يفضحه الله على أعين الملإ، ولو تستر غاية جهده؛ ولو في جوف بيت.

قال رحمه الله تعالى:

قالــوا رأيــنا مــن خلــي عــن عيــبه فعـــــاد عيـــــبا شـــــغله بغيـــــره

ذكر في هذا البيت أن العبد هب أنه كان خاليا من العيب، وكان يشتغل بعيب غيره؛ فهذا نفسه عيب يقتضي مذمته بين الناس، وكفى بذاكر عيب الناس عيبا ذكره لعيوبهم، ورؤيته لمساوئهم، والعبد مرآة نفسه؛ فما كان مركوزا في جبلته؛ فذلك يظهر له في غيره. إن كان خيرا فخيرا، وإن شرا فشر، ورحم الله تعالى الشيخ أبا الحسن الششتري [2] حيث قال:

---

(1) يقصد كتابه الترغيب والترهيب.

(2) هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري(بمعجمتين فمثناة فوقية فراء). نسبة لقرية بالأندلس. قال عنه الشيخ أحمد زروق: "الشيخ العارف أحد الصوفية. من أبناء الملوك. ثم من سادات الصوفية. كان يقرئ القرآن والسنن. عارفا بالحديث. حائزا قصب السبق في =

انظر في مرآك الذي ترى غيرك أنت هو ذاك

وقد أراد بعض المشايخ اختبار أصحابه؛ فلما دخلوا مدينة أمرهم باختبارأهلها؛ فخرجوا في أزقتها وأسواقها متفرقين؛ فلما رجعوا إليه سألهم؛ فكل واحد ذكر في أهل المدينة ما هو وصفه وحاله بسبب أن كل واحد إلى جنسه؛ فبذلك عرف أحوالهم.

قال رحمه الله تعالى:

وأحدث الناس لهم عيوبا كان لديهم شانئا محجوبا

الضمير في" لهم " المشتغلين عن عيوبهم بعيوب الناس، والضمير في لديهم عائد على الناس، ويحتمل عوده على المشتغلين. ذكر رحمه الله تعالى أن من اشتغل بالنظر إلى عيوب الناس أحدث الناس لهم عيوبا كانت عن أهلها، أو عن الناس مستورة محجوبة؛ فكشفها الله تعالى للخلق، وأظهرها لهم جزاء بما كانوا يعملون، وكانت عقوبة هؤلاء من جنس الذنب الذي اقترفوه، وبسبب العيب الذي ارتكبوه. قال مالك رحمه الله [1]: "أدركت أناسا ليس لهم عيوب؛ فتتبعوا عيوب الناس، أو نظروا إلى إلى عيوب الناس؛ فأحدث الناس لهم عيوبا، وأدركنا أناسا لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فسكت الناس عن عيوبهم".

قال رحمه الله تعالى:

وآخرون بالعيوب اشتهروا فسكتوا عن غيرهم فستروا

هذا قسم آخر؛ وهم قوم مشهورون بالعيوب. مقترفون للذنوب؛ لكنهم سكتوا عن عيوب الناس. إما شغلا بعيوبهم عن النظر إلى عيوب غيرهم، وإما حياء أن يذكروا عيوبا تلبسوا بها؛ وإما خوفا من فضيحة الله لهم حين فضحوا غيرهم؛ وإما رجاء ستر عيوبهم؛ فسترهم الله تعالى معاملة بما عاملوا به الخليقة من معنى

=

الأسرار والأنوار، والحكم والأذواق، وكتبه دائرة على تحقيق العلم.... شرح الشيخ أحمد زروق نونيته، ومقطعاته، وبرأه مما نسب إليه. توفي بالطينة بمصر.

(1) مالك بن أنس. إمام دار الهجرة. صاحب المذهب الفقهي المالكي. له كتاب الموطأ.، والمدونة المنسوبة إليه.

اسمه الستار، وفعل الله تعالى بهم ما أشار إليه الشيخ:

وزالـــت العـــيوب عـــند الـــناس وطهـــروا مـــن جملـــة الأدنـــاس

هذه الإزالة يحتمل أن تكون فيما يظهر للناس. مع تحليتهم بها في الباطن. إلا أن الله سترهم، ويكون الكلام جريا على ما سبق من اشتهارهم بها، وستروا لسكوتهم عن عيب غيرهم، وكذلك التطهير من الأدناس، ويحتمل أن يكون الزوال حقيقة، وأن الله تعالى عافاهم من عيب نفوسهم جزاء لهم عن سترهم عن الخلق، وعدم نظرهم إلى عيوبهم، ويكون التطهير أيضا حقيقة؛ وجيء بلفظ التطهير تأكيدا للإزالة.

والتطهير: التنقية، والنزاهة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

والأدناس: في كلام الشيخ جمع دنس وهو العيب.

قال رحمه الله تعالى:

فلـــتعن ياصـــاح بهـــذي الخـــصلة فإنهـــــا مـــــصيبة وذلـــــة

الخصلة التي أمر الشيخ بالاعتناء بها هو: عيب النفس المذكور الذي هو شغل العبيد بعيب الناس، وترك النظر إلى عيب نفسه.

والاعتناء هنا هو: عبارة عن النظر في الأمر المعتنى به، وهو عيب النفس، والبحث عن أسبابه؛ فيحبسها، والاشتغال بزواله باستعمال الأشياء التي تذهب وتبرئ علته.

ثم حرضك على إمتثال أمره بالاعتناء بذلك بقوله: "**فإنها مصيبة وذلة**"؛ ولا شك أن عيوب النفس مصيبة في الدين، وذلة في الحال؛ وإذا كان كذلك، فواجب على العبد الاعتناء بزوال ما به المصيبة في دينه، والعلة في حاله.

قال رحمه الله تعالى:

وتـــــركها منقـــــبة عظـــــيمه ووصـــف كـــل مهجـــة كـــريمه

الضمير في" **تركها** " عائد على الخصلة التي أمرك بالاعتناء بزوالها. قال: "وتركها منقبة"، **والمنقبة**: الخصلة الحميدة. يقال: فلان له مناقب. إذا كانت فيه خصال حميدة، وعظيمة.

وصف المنقبة أفاد الترغيب فيها، والتحريض على تحصيلها، وزاد في

الترغيب وقواه بقوله: "**ووصف كل مهجة كريمة**"، والمهجة هنا المراد بها الروح، و"**كريمة**": وصف مدح، والمراد الروح الريضة. المطاوعة. المنقادة للخير. الموصوفة بالأوصاف الحميدة؛ فهذه هي الروح الكريمة؛ وقيل المهجة الدم مطلقا، وقيل دم القلب.

قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الإصرار والتواني والعجز والتسويف والأماني

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت خمسة عيوب من عيوب النفس:

الأول: الإصرار على الذنب، والإصرار هو المقام على الذنب ونية العودة إليه؛ فهذا عيب من عيوب النفس، وداء عضال يميت القلوب والأرواح. سببه غلبة الهوى، ونسيان حقوق المولى؛ وقد وردت أحاديث كثيرة في الترهيب من ارتكاب الذنب، والإصرار عليه؛ فلينظر في كتب الوعظ كالمنذري، ونحوه؛ وليس هذا محله؛ وإنما المراد في هذا الكتاب التنبيه على أن الإصرار من عيوب النفس.

الثاني: التواني، وهو التقاعد، والتسويف في أفعال الخير، وعدم النهوض إليها، والمبادرة بها والعزم عليها، وهذا عيب من عيوب النفس. سببه طول الأمل، واستبطاء مجيء الأجل؛ وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين؛ فالواجب على العبد أن لا يتوانى في الأعمال الصالحات، ولا يسوف؛ بل يبادر إليها على أية حالة، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت، وحلول الفوت، وأن يتوكل على الله سبحانه وتعالى في تيسيرها عليه، وصرف الموانع الحالية بينه وبينها، ويحسن في هذا المحل قول ابن الفارض في هذا المعنى:

وعد من قريب واستجب غداه ... واشمر عن ساق اجتهاد بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت في عسى ... وإياك عل فهي أخطر علة
وسر زمنا وانهض كسيرا فحظك ... البطالة ما أخرت عزما لصحة
وجز بسيف العزم سوف فارتجه ... تجد بالنفس إن جدت جدت

الثالث: العجز: وهو عدم نهوض العبد إلى ما يطالب بعمله، وركود ذهنه عن ذلك؛ وينشأ عن التواني، والكسل، وسببه ركود الهمة، وقد ذم الله قوما تكاسلوا عن أداء الواجبات؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ...﴾ الآية، وقد

استعاذ عليه الصلاة والسلام من العجز والكسل.

الرابع: التسويف: وهو تأخير ما يطالب به العبد في الزمن الحاضر إلى زمن مستقبل، وينشأ عن التاني، والواجب قطعه بسيف العزم، والمسوف قل أن يبلغ المنى. إذ قد يعالجه الموت فيقطعه عن مراده، أو تحدث له قواطع أخر؛ لأن القواطع، والموانع يتداعى بعضها إلى بعض.

الخامس: الأماني: وهو تعلق القلب بمأمول مع فقد الأسباب التي يترتب عليها حصول ذلك المأمول؛ وهو حال الحمقاء؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "الأحمق من اتبع النفس هواها وتمنى على الله الأماني".

وهذه الخمسة أشياء كلها من عيوب النفس؛ فواجب على العبد حسم أسبابها، وتطهير النفس منها وتنزيهها عنها.

ثم ذكر رحمه الله تعالى الأصل الذي تنشأ عنه العيوب الخمسة كأنها فروع عنها، ولو كان كل واحد منها أصلا تنشأ عنه فروع؛ فقال رحمه الله:

وذاك من أنس لها بالكسل ... وقلة التوفيق حال العمل

وعدم التقوى والاحتياط ... والخوض في موارد الخباط

الإشارة بذلك إلى ما تقدم من عيوب النفس الخمسة المذكورة؛ فقال:

إنما حدثت للنفس تلك العيوب من أنسها بالكسل؛ فالإسرار نشأ عن كسل النفس عن الإقدام على التوبة، وعلى العزم على الإقلاع عن الذنب، والتواني نشأ عن كسل النفس على الإقدام على ما طلبت بفعله، والعجز نشأ عن الكسل عن النشاط ما دام فيه التواني، والعجزنشأ عن كسل النفس، وركود همتها عما تطالب بالنشاط، والإسراع إليه، والتسويف نشأ عن الكسل فيما طلب منه التنجيز، والإسراع إليه، والأماني نشأ عن كسل النفس عن استعمال الأسباب المحصلة لما يرجوه العبد؛ والكل نشأ عن عدم احتياط العبد لنفسه أن يوردها موارد النجاة، ويبعدها موارد الهلاك، ولو احتاط لها لسعى في نجاتها، وطهارتها من ذميم أوصافها؛ وخلاصها من عيوبها. لكن لما أوردها موارد الخوض فيما لا يعني، ومواطن الخبط فيما لا يجدي، ولا يغني. أسلمها لارتكاب الذنوب، وتركها متصفة بالعيوب.

ثم أخذ الشيخ يذكر الدواء النافي لتلك العيوب؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه بقـــــولة الجنـــــيد لمـا سـئل عـن طـريق القـصد [1]

بـــتوبة تـــذهب بالإصــــرار ورفـــض تـسويف بخـــوف بـــار

وبـــرجاء باعـــث علـــى العمــل والذكـــر دائمـــا وتقـــصير الأمـــل

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الثلاثة أدوية خمسة لعيوب النفس السابق ذكرها.

فالدواء الأول: التوبة: التي تذهب بالإصرار على الذنب، وهي التوبة النصوح التي أمر الله تعالى بها عباده المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾.

فالتوبة النصوح هي التي تذهب بالإصرار، وتمحو الأوزار. سمع ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أعرابيا يقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك؛ فقال له: يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. قال: وما التوبة؟ قال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم أن لا تعود، وأن تذيب نفسك في طاعة الله تعالى كما زينتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعة؛ كما أذقتها حلاوة المعاصي.

وعن السري: [2] " لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس ونصيحة المؤمنين".

الدواء الثاني: رفض التسويف. الناشئ عن طول الأمل. المتولد عن الكسل؛ فالتسويف عن الطاعات مضيعة للعمر النفيس، ومخل بالعمل؛ ومن الأشياء الحاملة على رفض التسويف خوف الباري جل جلاله، أي خوف عقابه على مخالفة أمره؛

---

(1) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد. سيد الطائفة الصوفية وإمامهم. كان فقيها على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته. صحب خاله السري، والحارث المحاسبي؛ ومن أقواله المشهورة التي تؤكد تمسكه بالسنة النبوية الشريفة: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام"، وقوله: "من لم يحفظ القرآن الكريم، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. توفي رحمة الله عليه وهو يقرأ القرآن سنة: 297 هجرية.

(2) هو أبو الحسن السري بن المغلس السقطي. خال الجنيد وأستاذه. صحب معروفا الكرخي. كان أوحد أهل زمانه في الورع، وإليه ينتمي أكثر شيوخ بغداد. توفي سنة: 251 هجرية.

فإنه أمر تعالى عباده بالإتيان بالطاعات، وأعمال الصالحات عزما لأن حقوق الباري سبحانه مرتبة على العبد في كل نفس بيده؛ فما من نفس بيدي العبد إلا ولله تعالى عليه فيه حق؛ فكيف يسوغ للعبد التسويف فيما هو مطالب به.

الدواء الثالث: الرجاء. الباعث على على العمل. المقارن بقصر الأمل؛ فإن العبد إذا تحقق رجاؤه في الله عز وجل، وقارن ذلك الرجى عمل. انبعث عن خوف؛ فيكون ذلك سببا في براءة النفس من العيوب القادحة فيها.

الدواء الرابع: الذكر الدائم؛ والمراد بالذكر هنا أي ذكر كان من أنواع الأذكار؛ فإن الذكر مطهر للنفوس من العيوب، ومجنب لها من أسباب الذنوب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة والورق، وأن تلقوا عدوكم؛ فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم. قالوا ما ذاك يارسول الله؟ قال: ذكر الله".

فالذكر منور للقلب، ومقو للأرواح، ومطهر للنفوس، وبه تنشرح الصدور؛ وهذه الخصال الحميدة، والأحوال السنية. إنما يستفيدها الذاكر من مجالسته الحق تعالى؛ لأن الله تعالى يقول: "أنا جليس من ذكرني"؛ وبعيد من كان الحق جليسه أن تتصف نفسه بعيب، أو تقدم على ارتكاب ذنب.

الدواء الخامس: تقصير الأمل؛ فإن النفس إذا قصر أملها ترى أن الآخرة أقرب إليها من شراك نعلها؛ فيبعثها قصر الأمل على العمل الذي به طهارتها من العيوب.

وهذه الأدوية الخمسة المذكورة فروع تنشأ عن أصل ذكره الناظم رحمه الله؛ فقال:

وأصل كلها فؤاد مفرد	**توحيده محرر مجرد**
بخالص التوحيد والطريقه	**كمثل أصل الغصن في الحديقه**

الفؤاد هنا عبارة عن القلب ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؛ فذكر الشيخ رحمه الله تعالى أن الأدوية المذكورة التي هي التوبة، ورفض التسويف

والرجى الباعث على العمل؛ والذكر الدائم، وتقصي الأمل؛ فأصل هذه كلها، وعنصر مبعثها القلب المفرد توحيده، وإفراد التوحيد هو تجريده عما يقتضي الاثنية المنافية للتوحيد. الراجع إلى الأفعال، وإلى الصفات؛ فإذا تجرد التوحيد بحق عن هذه المقتضيات، وكان التوحيد محررا مجردا؛ فالتحرير في معناه، والتجريد في مقتضاه، وهذا هو التوحيد الخالص مما يشوبه من القوادح فيه. المخرجة له عن حقيقة التوحيد؛ فافهم راشدا؛ فإذا كان القلب بهذه النسبة كان أصلا لتلك الأدوية، وتنشأ عنه كأغصان نشأت عن أصل في حديقة في أرض طيبة، والحديقة الروض الذي احدقت به بنائات وحوائط.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها رؤيته لنفسه ورفقه بها لأجل حسه

قال الواسطي [1] رحمه الله رحمه الله تعالى: "أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس، وأفعالها " حسب ما يأتي قدحه بعد هذا إن شاء الله تعالى، فرؤية العبد لنفسه عيب قادح فيها، وعلة مهلكة لها **ورؤيته لها:** المراد به هنا رؤية على سبيل الرضى عنها، وكذلك رفقه بها علته تضعف قواها وتميلها إلى هواها؛ فالنفس إذا نظرت إليها بعين الرضى أمالتك إلى ما تهوى، وإن رفقت بها لم ترفق بك أبدا - وإن تعبتك على طول المدى - ولا تسعفك أبدا إلى سبيل الهدى.

وإذا كان حال النفس هكذا؛ فعلى العاقل أن يتعبها قبل أن تتعبه، وأن يضعفها قبل أن تهلكه، وأن لا يرضى عنها، ولا يرفق بها؛ فإن فعل حقرته، واستعبدته، فتميله إلى ما تهوى، وتقوده إلى ما ترضى، وفي ذلك هلاكه.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى السبب الذي ينشأ عنه العيب المذكور في البيت قبله؛ فقال:

وذاك من غلبة الأوهام وعدم الخوف من الآثام

إذ من يخف يوم حلول رمسه لم يتصور رفقه بنفسه

الإشارة إلى ما سبق من عيب النفس، وهو رؤيته لها ورفقه بها؛ فقال:

(1) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي. كان من كبار العلماء العاملين. صحب الجنيد، والنوري. توفي سنة: 331 هجرية. ،

سبب ذلك " **غلبة الأوهام، وعدم الخوف من الآثام**"؛ والوهم هو ما لا حقيقة له في الخارج؛ فإذا غلب على العبد تصور أشياء يظنها وجودية، وفي الخارج لا حقيقة لها. قالوا كمن سمع ريحا انضغط في كوة أنه زئير أسد؛ فلما تحقق ذلك وجده بخلاف ظنه، ومن هذا رؤية العبد نفسه ورؤية كمالها؛ فلما رآها كذلك توهم أن لها وجودا في الحقيقة، ولها أوصاف كمالية، وليس الأمر كذلك، وإنما ذاك وهم، ولو تحقق الأمر لوجدها عدما على الحقيقة؛ وإنما هي خيال مضمحل، وما كان لها من الأوصاف الحميدة فعارية لا تدوم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾؛ فعلى العبد أن ينظر إلى نفسه بعين الحقيقة، فلا يرى لها وجودا، ولا ينسب لها كمالا يوجب رضاء عنها؛ ورؤيته لنفسه ورفقه بها؛ وكذا إذا عدم العبد الخوف من الآثام. أوجب له ذلك رؤيته لنفسه، ورفقه بها، ورضاه عنها؛ فإذا خاف من الوقوع في الآثام. كان حاله مع نفسه بخلاف ذلك، وكذلك إذا خاف العبد يوم حلوله في رمسه. لم يتصور منه أبدا أن يرفق بنفسه؛ بل يحمله على طريق الجد في العمل، ويذيقها مرارة المجاهدة، ولا يرفع عنها عصاة التأديب، وسوط الخوف إلى أن تلقي السلاح، وتميل إلى طريق الصلاح؛ ومن غلب عليه الخوف لم يتصور منه أبدا رفقه بنفسه؛ فإن الرفق بالنفس ينشأ عنه الكسل، والخوف باعث على العمل.

ثم ذكر الشيخ دواء العيب السابق فقال:

دواؤه رؤيــة فـضل الله	**وتــرك كــل غافــل ولاه**
والأخــذ بالجــد وبالتــشمير	**وتــرك صــحبة ذوي التقــصير**
وكــل مــن عــن نفــسه رضــاه	**فــلا يــرى العــيب الــذي أتــاه**

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الثلاثة أربعة أدوية لعيب النفس السابق ذكره:

الأول: رؤية العبد فضل الله تعالى عليه؛ فإذا شاهد ذلك تحقق نقاء أوصاف نفسه الكمالية الموجبة لرؤيته لها على سبيل الرضى عنها ولزمه القيام بحقوق المتفضل عليه عز وجل؛ فلا يتصور منه حينئذ الرفق بنفسه؛ لما يقتضيه الرفق من التقصير في حقوق المولى جل جلاله.

الثاني: ترك كل غافل، ولاه؛ فالغافل عن يوم حلول رمسه، واللاهي عن

أداء حقوق الله بحظوظ نفسه. يجب على العاقل ترك صحبته، والبعد عن خلته. إذ ترك من حاله الغفلة، واللهو يقتضي عدم التخلق بأخلاقه، والاقتداء به في أفعاله؛ بل يكون مخالف له في ذلك؛ فيكون يقضانا لا غافلا، وعاملا لا لاهيا؛ فتنتفي علة الرفق بالنفس ورؤيته لها رؤية تقتضي الرضى عنها.

الثالث: الأخذ بالجد، والتشمير؛ فتنتفي علة التسويف، والكسل، والتقصير - وتقدم كلام ابن الفارض فى الأبيات التي رسمناها قبل هذا؛ فانظرها؛ فإنها تضمنت معاني مناسبة لهذا المحل.

الرابع: ترك صحبة ذوي التقصير في العمل؛ لما في صحبتهم من التخلق بأخلاقهم، والتلبس بأحوالهم. إذ الطباع تسوق الطباع فللصحبة أثر؛ فمن صاحب ذوي التقصير عزل عن طريق الجد والتشمير.

وفي حكم ابن عطاء الله: "لا تصحب من لم ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله " انتهى. قال بعض أهل هذه الطائفة: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله تعالى: "كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة. قلت: لا بد لي. قال: فلا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة. قلت: لا بد لي. قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة. قلت: أنا بين أمرهم لا بد لي من معاملتهم. قال: فلا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم مهلكة. قال ياهذا أتنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهلكى وتريد أن تجد حلاوة الطاعة، وقلبك مع الله عز وجل. هيهات هذا ما لا يكون أبدا".

ومما يجب على العبد أيضا ترك صحبة من هو راض عن نفسه ولا يرى لها عيوبا فإن صحبة من هذا حاله توجب التخلق بأخلاقه والاتباع له في أحواله، ويزداد بصحبته رضى عن نفسه.

كما نبه الشيخ عن ذلك بأن قال:

إذ صحبة الراضي تزيد في الرضى وتدفع العبد إلى سوء القضا

تقدم أن للصحبة أثر؛ ولذلك كان من صحب من هو راض عن نفسه يزداد بصحبته رضى عن نفسه، وكل ما ازداد رضى عن نفسه ازداد بعدا من ربه؛ وهذا من

سوء القضاء؛ والعياذ بالله تعالى وفي حكم ابن عطاء الله: "اصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس".

وفيها أيضا: "ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، وأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه".

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه تعالى: "ما رضيت عن نفسي طرفة عين".

قال أبو عبد الرحمان [1] رضي الله تعالى عنه: "سمعت جدي [2] يقول: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه".

فإن استشعر المريد شيئا مما ذكرنا فلبادر إلى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ فبدايات الأمور هي التي ينبغي أن تراعى كثيرا، وكلام الناس في هذا المعنى كثير، وفيما ذكرنا كفاية.

قال رضي الله تعالى عنه:

وصحبة المجتهد النحرير تزيد في الجد وفي التشمير

لما تكلم رحمه الله تعالى عن صحبة من يتضرر بصحبته؛ وأن تركها أدوية لعيوب النفس. أخذ يذكر في هذا البيت صحبة من ينتفع بصحبته، وهو المجتهد في أعمال الطاعات ذو الجد والتشمير في الأعمال الصالحات، وأنواع المعاملات؛ فمن صحب من هذا حاله إزداد اجتهادا، وجدا، وتشميرا في طاعة الله عز وجل؛ وسمي المجتهد في الطاعة ذو الجد والتشمير نحريرا على جهة المدح، والنحرير الحاذق الماهر، فالعاقل يختار لصحبته من يحصل له به الانتفاع؛ فقد قيل من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها؛ فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة. هذا في الحضور والمجالسة؛ فما ظنك في الصحبة والمؤانسة، وانتفاع الصاحب من

---

(1) هو أبو عبد الرحمان السلمي. صاحب الرسالة في عيوب النفس التي رزجها الشيخ أحمد زروق، وهذا شرح الخروبي عليها. مات أبوه صغيرا، فكفله جده لأمه ابن نجيد.

(2) جد أبي عبد الرحمان السلمي من أمه هو: أبو عمر اسماعيل بن نجيد السلمي. لقي الجنيد. كان من أكابر مشايخ وقته. سمع الحديث ورواه. توفي سنة: 366 هجرية.

مصحوبه، وسريان أخلاقه إلى أخلاقه هو غاية المأمول، ونهاية المطلوب، ولهذا رغب الناس في صحبة الأخيار، ومخالطة الأبرار.

قالوا ولا يشترط في المصحوب كمال اتصافه بالأوصاف الكمالية؛ فإن ذلك متعذر؛ وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه بحيث يكون أعلا منه حالا، وأصوب مقالا؛ ومن لم يكن هكذا، فلا منفعة في صحبته، ولا فائدة في مخالطته.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: "إذا أراد الله تعالى بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية".

قال رحمه الله تعالى:

والواسطي قال قولا حسنا ... أقرب شيء مقت من بها اعتنى

ومن رأى أفعاله الجميله ... بأنها حسنة فضيله

لأن ذاك يقتضي استحسان ما ... تأتي له بما يكون مأتما

قوله: "والواسطي... إلخ " أشار به إلى ما تقدم من قوله: "أقرب شيء إلى مقت الله... إلخ"، والواسطي هذا من كبار أهل هذه الطائفة، وله مقامات وأحوال؛ وهو ممن يعتد بقوله، ويقتدى بفعله، وقوله هذا صحيح؛ فمن رأى نفسه بعين الرضى. يستحسن جميع أفعالها، ويراها حسنة جميلة كاملة فضيلة أي فاضلة، وهذا يقتضي استحسان ما صدر منها وإن كان مأثما.

قال أبو عبد الله السجزي: "من استحسن شيئا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته. إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا".

وسبب هذا رضاه عن نفسه، وصدق القائل:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة

والذي يحسن بالعبد الموفق عدم الرضى عن نفسه، وعدم استحسان أفعالها، ولينظر إليها بعين السخط؛ فبذالك تظهر مساوئها كما قال القائل في البيت المتقدم بتمامه:

ولكن عين السخط تبدي المساوئا

فليكن العبد المهتم بأمر دينه مراقبا لنفسه. حذرا من مكرها، وخدعها،

ومتهما لها في جميع أفعالها. غير راض عنها في جميع أحوالها؛ كما نبه الشيخ إلى ذلك حيث قال:

فلتتهم نفسك طول الدهر معتصما بربك في ذا الأمر

إنما أمر الشيخ باتهام النفس دائما؛ لأن في اتهامها تسخيرا لها، وتأديبا، وتربية، وتأنيبا، ولتعلم أن عندها من ينصب عليها ميزان المحاسبة، ويبحث على مساوئها، وينظر في أفعالها.

وإذا علمت ذلك لم تطلق عنانها في استعمالها ما كان مشوبا، ولم تقم على ما فيها من العيوب.

قال أبو حفص رضي الله تعالى عنه: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها".

قال أبو عثمان [1] رضي الله تعالى عنه: "لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا؛ وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال".

وفي قول الشيخ: "طول الدهر " تنبيه إلى دوام تنبه العبد لنفسه على دوام الأوقات كما قال أبو حفص؛ وإن هي اتهمت في وقت دون وقت تجاسرت واستخفت بصاحبها، وعلمت منه الغفلة عنها وعدم ضبطه لها وإرخاء العنان فتسرح في ميدان البطالة وتسبح في بحر الضلالة، ولا تبالي بعملها أمخلص أم مشوب؟ ولا يظهر لها ما هي عليه من العيوب.

ولما كان هذا الأمر لا يتم، ولا ينتج إلا بإعانة الله تعالى والاعتصام به. أمر الشيخ بالاعتصام بالله تعالى في الأمر؛ فيحتمل أن يريد بالأمر الخالص المذكور في هذا الكتاب من إذهاب عيوب النفس بما ذكره من الأدوية، ويدخل في ذلك ما ضمنه في البيت السابق من اتهام النفس، ويحتمل أن يريد بالأمر العموم؛ كأنه قال: معتصما بالله في جميع الأمور؛ ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

---

(1) هو أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري. صحب شاه الكرماني، ويحيى بن معاذ الرازي. قدم نيسابور فلزم أبا حفص الحداد، وإليه انتسب؛ فزوجه أبو حفص ابنته. توفي سنة: 298 هجرية.

ثم قال:

من عيبها تزيينه الظواهر مع تركه لزينة السرائر

ذكر هنا عيبا من عيوب النفس. أكثر النفوس متلبسة به، وما برئت منه إلا نفوس رجال غابوا عن رؤية الخلق بشهود الحق، وأكثر الناس مشاهدون للخلق ناظرون إلى أفعالهم؛ فتجدهم يقابلونهم بما يستحسنونه منهم في العوائد من تزيين الظواهر؛ فالملابس الحسنة، والهيئة المستحسنة؛ فاشتغلوا بتزيين ظواهرهم التي هي محل نظر الخلق، وتركوا تزكية سرائرهم، وطهارة قلوبهم التي هي محل نظر الله عز وجل؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"؛ أو كما قال عليه عليه الصلاة والسلام؛ فأولى للعبد أن يهتم بتزيين سريرته، وطهارة قلبه وإصلاح نيته؛ فهذا الذي أمر الله به عباده المخلصين، وهذه أوصاف المؤمنين؛ وكانوا رضي الله عنهم يكرهون تزيين الظواهر، ويرون ذلك من أكبر العيوب وأعظم الذنوب.

قال يوسف بن الحسين الرازي [1] رضي الله تعالى عنه: "لأن ألقى الله بجميع المعاصي أحب إلي أن ألقاه بذرة من التصنع".

وقيل لبعض الصالحين: "إن فلانا يحبك ويكثر من ذكرك"؛ فقال: "إنه لحبيب إلي وأعرف قدره، ولكن يهون علي أن ألقى الشيطان مائة مرة، ولا أحب أن ألقاه مرة. قيل له: وكيف ذلك؟؛ فقال: أخشى أن تزين له أو تزين لي".

وكان الثوري [2] رضي الله تعالى عنه يقول: "من عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راآهم، ومن راآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا".

وقال بعض الحكماء: "من كان ناظرا في أخوة أخيه أو في صحبته لكثرة أعماله، وواقفا مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريقة التي تنفد إلى التقيق؟ لأنها تحول، وإنما العمل على حقائق القلوب لأنها ثابتة في الأصول؛ فإن اقترن إلى

---

(1) هو أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي. كان عالما عاملا. صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد الخراز. توفي سنة: 304 هجرية.

(2) هو سفيان بن سعيد الثوري شيخ الإسلام وإمام الحفاظ. ولد بالكوفة، وتربى على يد والده المحدث سعيد بن مسروق وسكن مكة والمدينة. روى الحديث عن خلق كثير، وروى عنه خلق كثير أشهرهم الأوزاعي، وابن المبارك. توفي بالبصرة سنة: 161 هجرية.

جهله نقص معرفة الأخوة دخل عليه التزين له والتصنع عنده؛ لتعلو منزلته، ويحسن عنده أثره؛ فيدخله ذلك في الشرك، ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد؛ فتزل قدم بعد ثبوتها، ويسقط من عين مولاه؛ فلا يتولاه لأن النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح وإثبات المنزلة بإظهار الوصف؛ فيكون هذا الصاحب أيضا من أشأم الناس عليه وأضرهم له، ويصير أحدهما بلاء على صاحبه فليفارقه حينئذ لأنه جاهل؛ فلا يصحبه لأنه يجد النقصان بصحبته، وتدخل عليه الآفات بمقاربته، ولينفرد بنفسه، ويصدق في حاله عالية كانت أو دنيئة. وضيعة كانت أو رفيعة. من غير مقاربة أحد، ولا مباينة فهو خير له وأحمد عاقبة " انتهى.

ثم ذكر رحمه الله تعالى سبب عيب النفس الذي هو تزيين الظواهر وترك زينة السرائر؛ فقال رحمه الله تعالى:

وذك من تعظيمه للخلق ... وترك موجب الهدى والصدق

تعظيم الخلق يجب مداراتهم والتصنع لهم والتزيين ومداهنتهم والرياء من أجلهم وغير ذلك من الأحوال الذميمة؛ وكذلك ترك موجب الهدى والصدق يوجب ذلك كله، وموجب التقوى والهداية؛ فمن اتقى اهتدى، وموجب الصدق مع الله تعالى سكون هيبته في القلب، وشهود جلاله وعظمته؛ فإذا امتلأ القلب بالهيبة والجلال وشاهد العظمة والكمال كان العمل للحق شهوده لغيبته عنهم.

ثم ذكر رحمه الله تعالى العيب المذكور فقال:

دواؤه أن يعتني بسره ... ليصلح الله جميع أمره

الاعتناء بإصلاح السرائر يشغل عن إصلاح الظواهر، وما به يكون الاعتناء يذهب ما لا يعتني به كما يذهب الدواء العلة التي تضادها، وما أصلح أحد سريرته إلا وأصلح الله ظاهره؛ كما جاء في الحديث، ونبه الشيخ رضي الله عنه حيث قال:

إذ في الحديث مصلح السرائر ... لربه يصلح له الظواهر

في الحديث إشارة إلى أن الظواهر تستمد من البواطن، وهذا المدد أقوى من أنوار الظواهر؛ لأن أنوار السرائر من أنوار أوصافه، وأنوار الظواهر من أنوار آثاره؛ وقد نبه الشيخ ابن عطاء الله عن ذلك بقوله في حكمه: "أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه".

وإذا كان كذلك؛ فليرغب العبد فيما هو أقوى. لا فيما هو أضعف، ويهتم بإصلاح سريرته. لا بإصلاح علانيته؛ إذ من أصلح سريرته أصلح الله علانيته؛ كما تقدم في الحديث؛ وأنشدوا في هذا المعنى:

كمل حقيقتك التي لم تكمل ... والجسم دعه في حضيض الأسفل
أتكمل الفاني وتترك باقيه ... هملا وأنت بأمره لم تجعل
فالجسم للنفس النفيس التي ... ما لم تحصله به لم يحصل
يفنى ويبقى دائما في غبطة ... مع شقوة وندامة لا تنجل
أعطيت جسمك خادما بخدمته ... أتملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت في حبلانه ... ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ... ما باله يرضى بأدنى منزل

وقيل في هذ المعنى أيضا:

ياخادم الجسم كم ترضى بخدمته ... وتطلب الربح فيما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ففي هذه الأبيات كلها تنبيه، وإعلام على أن إصلاح الباطن أولى وآكد من إصلاح الظاهر؛ لأن الظواهر تبع للبواطن، وللمتبوع فضل على التابع؛ كما نبه الشيخ على ذلك بأن قال:

وفضل ذي السرالرسول إذ دعا ... بقوله خيرا أو كلا جمعا
فبين الفضل لدى الجميع ... وفضل السر على المجموع

أشار في هذين البيتين إلى فضيلة السر التي هي النفس؛ كما نبه على ذلك في الأبيات السابقة، والمراد بالنفس إنما هي الزكية الطاهرة المطمئنة، وإذا كانت كذلك كان الظاهر الذي هو الجسم الذي هو خادمها منقاد إليها للأعمال الصالحة. لا يتحرك، ولا يسكن إلا في طاعة مصونا عن المخالفات، فيكون فاضلا بما سرى إليه من فضلها.

وإلى هذا الإشارة بقول الشيخ: "**فبين الفضل لدى الجميع**": أي لمن أصلح باطنه، وظاهره.

وقوله: "**وفضل السر على المجموع**": إعلام بفضيلة السر على الظاهر.

فضل المتبوع على التابع؛ كما تقدم؛ ولأن الله عز وجل إنما ينظر إلى البواطن. لا إلى الظواهر.

قال رحمه الله:

من عيبها طلبه الأعواضا بفعله وقصده الأغراضا

طلب العبد العوض عن عمله عيب من عيوب النفس المنقصة لها، وكذلك إذا قصد بعمله غرضا من الأغراض؛ فهو أيضا عيب من عيوب النفس، وسواء كانت الأعواض دنيوية، أو أخروية محسوسة، أو معنوية، وكذلك الأغراض. إذا طلب ذلك عوضا عن العمل مخرج عن حقيقة العبودية، وجهل بحقوق الربوبية؛ وكيف يصح لعبد أن يطلب من مولاه على عمله العوض، أو يعمل على غرض؛ فمن كان حاله هكذا؛ فما تحقق في مقام العبودية، وما شاهد عظمة الألوهية، وما أدى حقوق الربوبية؛ وإنما هو عبد هواه. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

وجميع المطالب على سبيل الأعواض وقصد الأغراض كلها علة في العمل وقادحة فيه، ويدخل في ذلك طلب الحور، والقصور، والمنازل، والمقامات، والمراتب العلية، وفي أخبار داود عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى أوحى إليه: إن أود الأود إلي من عبدني لغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها".

ومما نقل وهب بن منبه [1] من الزبور: "ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار. لو لم أخلق جنة ولا نار ألم أكن أهلا أن أطاع"؛ أو كما قال عز وجل.

ومر عيسى عليه الصلاة والسلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية؛ فقال: ما أنتم؟ فقالوا نحن عباد. قال: ولأي شيء تعبدتم؟ فقالوا: خوفنا الله من ناره فخفنا منها؛ فقال: حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه. ثم جاوزهم؛ فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا شوقنا الله إلى الجنان، وما أعد الله فيها لأوليائه؛ فنحن نرجوها؛ فقال: حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم. ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون؛ فقال: ما أنتم؟ فقالوا المحبون لله

(1) وهب بن منبه. من خيار التابعين. كان ثقة صدوقا. أخذ الحديث عن كبار الصحابة. كان شديد الاهتمام بأخبار الأولين من الأمم. ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء، ومات بها سنة 114 هجرية

عز وجل لم نعبده خوفا من ناره، ولا شوقا إلى جنته، ولكن لجماله وتعظيما لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم فأقام بين أظهرهم، وفي لفظ آخر أنه قال للأولين: مخلوقا خفتم، ومخلوقا أحببتم، وقال للآخرين: أنتم المقربون.

قال الشيخ أبو طالب المكي[1] رضي الله تعالى عنه: "وممن روي عنه هذا القول وأقيم في هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان. منهم: أبو حازم المدني. كان يقول: إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفا من العذاب؛ فأكون مثل عبد السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له". قال الشيخ أبو طالب: "وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجر لم يعمل"، وقال الثوري يوما لرابعة العدوية: "لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفا من النار؛ فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبا للجنة؛ فأكون كالأجير السوء إن أعطي عمل؛ ولكن عبدته حبا له وشوقا إليه".

وقال بعض إخوان معروف[2] رضي الله عنه له: "أخبرني عنك يا أبا محفوظ. أي شيء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: فذكر القبر؟ قال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ قال: وأي شيء هذان؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته انساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا".

وفي حكم ابن عطاء الله: "من عبده لشيء يرجوه منه، أو يدفع بطاعته ورود العقوبة عنه؛ فما قام بحق أوصافه".

وفي حكمنا الصغرى[3]: "لا تطلب العطاء على عمل هو لك مهديه، وربما

---

(1) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية المكي الحارثي العجمي. صوفي كبير. ولد بالعراق، ونشأ بمكة؛ فنسب إليها. كان معجباً بالحسن البصري، وإبراهيم بن أدهم، والتستري، يسير على نهجهم. توفي سنة 386 هجرية. من أشهر كتبه: «قوت القلوب».

(2) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي. مولى علي بن موسى الرضا، وأستاذ سري السقطي. توفي سنة: 200 هجرية.

(3) هذه العبارة ترددت في الشرح غير ما مرة، ويظهر أن الخروبي له كتاب اسمه: الحكم الصغرى. لم أعثر عليه.

برز منك دون إخلاص فيه".

قال ابن عباد رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه: "عمل العاملين لأجل حصول الجزاء، وفرارا من عقوبة المولى مدخول معلول ليس من شأن العارفين والمحققين؛ لأن قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضي أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب، أو دفع عقاب؛ لأنه عبد يستحق عليه مولاه كل شيء، ولا يستحق هو عليه شيئا، وهذا من أعلام المحبة لله تعالى؛ لأن المحب مجتمع إليهم بأمر محبوبه لا مراد له إلا ما أراد؛ فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته، وما هو عليه من محامد صفاته التي لا يشارك فيها؛ فإن خالف هذا وعمل على طلب حظه لم يقم بحق صفاة مولاه، وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته، وعدم حبه لربه ومعرفته". انتهى.

فإن كان ولا بد للعبد من طلب الثواب؛ فإنما يطلبه انتجازا لوعد ربه، وفرارا من دعوى رؤية عدم حظه، واتباعا لما أحبه منه، وأذن له فيه من طلبه لفضله، وإحسانه، وكرمه، وامتنانه.

ولعيب النفس المذكور في البيت قبل هذا، وهو طلب الأعواض وقصد الأغراض أسباب ذكر الشيخ منها سببين؛ فقال:

وذاك من رؤيته أعماله ولحظه في شأنه أحواله

إذا رأى العبد أعماله، ولاحظ أحواله، وأسند ذلك إليه. كان ذلك سببا في طلبه الأعواض، وقصده الأغراض، ولو سلب ذلك عن نفسه ورأى الأعمال، والأحوال في الحقيقة من ربه؛ لم يطلب على عمل ليس له عاملا عوضا، ولا يقصد به غرضا. إذ ذو العقل السليم يأبى ذلك، وإن أسند العبد أعماله وأحواله إليه شريعة؛ فحقه أن يعمل قياما بحق أوصاف الربوبية، وتحققا في مقام العبودية لا لأجل حظ نفسه من جلب ملائم، أو دفع مؤلم، وتقدم الكلام في هذا المعنى.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى الأصل الذي ينشأ عنه هذان السببان فقال:

وأصله من غفلة عن ربه وفقده شهوده لقربه

والغفلة عن الله عز وجل توجب عدم مراعاة حقوقه، وفقد شهود قربه عز وجل يوجب طلب العبد لحظوظه؛ ولو أفاق من غفلته، وشاهد قربه من ربه لم

ير أعماله، ولا يطلب عليها أعواضا، ولم يلاحظ أحواله، ولا يقصد بها غرضا؛ فالغفلة أصل كل عيب للنفس، وفقد شهود القرب موجب لكل غلط ولبس.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب السابق فقال:

دواؤه في رؤية التقصير وفي شهود الحكم والتقدير

إذ لا يزيد عمل فيما قسم لكنه عبودة لنا رسم

رؤية العبد التقصير في أعماله وعدم الصدق في أحواله ينفي عنه أن يطلب على عمله عوضا أو يقصد بحاله غرضا لأن المقصر في عمله يستحيي أن يطلب عليه عوضا من سيده، وكذلك من لم يصدق مع الله تعالى في أحواله. كيف يصح له أن يقصد به عوضا.

وما أحسن قول ابن عطاء الله في حكمه: "متى طلبت عوضا عن عمل طولبت بوجود الصدق ويكفي لمريد وجدان السلامة". انتهى.

فإذا طالب العبد ربه بالجزاء على عمله. طالبه ربه بوجود الصدق فيه، والصدق، والوفاء بحقه في العمل؛ وأنى له توفية ذلك مع كونه طالب الحظ من ربه؛ فهو لا محالة مريب؛ فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها.

ولذلك قال الواسطي رضي الله تعالى عنه: "العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأغراض عليها"، وقال النصرأباذي رضي الله تعالى عنه: "العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها " انتهى.

فأقاويل هؤلاء السادات رضي الله تعالى عنهم كلها تشير إلى أن الأولى للعبد أن يرى التقصير في أعماله، وعدم الصدق في أحواله؛ فإذا تحقق ذلك لم يطلب على عمله عوضا، ولا يقصد بحاله غرضا؛ فينتفي عن النفس عيبها الذي هو طلب الأعواض، وقصد الأغراض. بسبب رؤية التقصير في عمله، وعدم الصدق في حاله؛ فكان كالدواء للعلة؛ وكذلك شهود الحكم والتقدير؛ فإذا نظر العبد إلى سابق حكم الله وتقديره علم أن مطالب العبد لا تتوقف على علة حتى تكون العطايا متوقفة على الأعمال؛ وإنما هي بمحض الفضل. إذ لا يزيد عمل فيما قسم الله للعبد، وحكم له به، وقدره له أزلا.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل أحد الجنة بعمله... الحديث". لكنه تعالى كلفنا بالعمل، وألزمنا إياه تعبدا، والتزاما للعبودية من بساط الربوبية، وجعل تعالى الأعمال أسبابا عندها لا بها.

قال رحمه الله تعالى:

ومن يرد أخذ الجزاء بالعمل طولب بالذي يكون من علل
يكفي المريد غنمه السلامه إذ فعله يؤول للندامه

ما ضمنه رضي الله تعالى عنه في هذين البيتين هو في معنى ما قدمنا آنفا من كلام ابن عطاء الله في حكمه، ومن كلام النصرآباذي [1]، ومن كلام الواسطي؛ فنزل كلامهم على هذين االبيتين تجد المعنى كالمعنى.

ومن حكمنا الصغرى: "لا تطلب العوض على عمل هو لك مهديه، وربما برز منك دون إخلاص فيه".

ومن هذا المعنى ما أشار إليه الشيخ في هذا البيت حيث قال:

وإنما أعمالنا من منته فكيف يطلب الجزا عن هبته

فأعمال العبد الصالحة، وأحواله الحميدة هدايا من الله تعالى إلى عبده، ومنة منه تعالى؛ فكيف يطلب الجزاء على ما هو مهديه إليه.

وما أحسن كلام ابن عطاء الله حيث قال في هذا المعنى: "كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا".

وقال أيضا: "كفى العاملين جزاء. ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته".

وفي مخاطبات لنا[2]: "عبدي إن طلبت مني الجزاء على عمل هو منة مني عليك، وهدية إليك أقمت عليك ميزان العدل، فتضمحل إذ ذاك أعمالك، وتتلاشى أحوالك، فأحسن إليك أن تأتيني فقيرا بلا عمل؛ فأقابلك بالكرم والفضل، وإن كنت

---

(1) هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر آباذي. كان عالما بالحديث. زاهدا في الدنيا. جاور بمكة المكرمة. توفي سنة 369 هجرية. من أقواله: "إذا بدا لك شيء من بوادي الحق، فلا تلتفت معها إلى جنة أو نار؛ فإذا رجعت عن تلك الحال؛ فعظم ما عظمه الله تعالى".

(2) هذه العبارة تدل على أن الشيخ الخروبي له مناجاة ومخاطبات.

حيث لم تكن ولم يكن لك عمل وواجهتك نعمي، وعاملتك بفضلي وكرمي فكن لي كما أنت. أكون لك كما أنا، وعلى نفسك مفقودا، وعملك غير موجود. أعاملك بالفضل والجود".

قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها نفي التذاذ بالعمل وفقده من بعد ما كان حصل

وجود اللذة في العمل الصالح ينشأ عن صدق العامل في عمله.

قال أبو تراب[1]: "إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل".

وإذا فقد الصدق، والإخلاص في العمل. فقدت اللذة؛ ونفي الالتذاذ في العمل، أو فقده من بعد وجوده من عيوب النفس القادحة فيها، وعلة قاتلة لها. إن لم تعاني بما يضادها، وينفيها؛ فمن لم يذق لذة العمل، وحلاوة الطاعة، أو فقد العمل بعدما حصل له نصيب منه؛ فليعلم أن ذلك من عيب حدث في نفسه، وعلة قائمة بها، وفقد العمل بعد وجوده أعظم ذنبا من عدم اللذة به مع وجوده. واعتبار لذة العمل إنما هو بحسب مقام أهل البدايات. أما أهل النهايات؛ فلذة العمل عندهم من كبير الذنب، وعظيم العيب حتى قالوا: "إن اللذة بالعمل سموم قاتلة"؛ لأن من التذ بعمله سكن إليه، وهو سكون إلى غير الله تعالى؛ وهذا حال البعداء، وأهل القرب يرون أن السكون إلى العمل بعد من الله تعالى، والعمل عندهم إذا وجدت فيه هذه العلة لا خير فيه؛ ولهذا قلت في حكمنا الصغرى: "ربما كانت أعمالك أيها العبد اعمى لك".

ولفقد حلاوة العمل أسباب نبه الشيخ على بعضها؛ فقال رحمه الله تعالى:

وذاك من خيانة السريره وسقم القلب مع البصيره

خيانة السريرة: علة توجب خللا في العمل، ونقصانا فيه؛ وذلك يوجب عدم اللذة فيه، أوانقطاعه رأسا.

وكذلك سقم القلب، والبصيرة. ينشأ عنه ما نشأ عن خيانة السريرة.

---

(1) يقصد أبا تراب عسكر بن حصين النخشبي.

وخيانة السريرة: وجود اعوجاج بها؛ وحيث استولى عليها أضمرته، وانطوت عليه؛ فإضمارها لذلك، وانطواؤها عليه يعد خيانة منها.

وسقم القلب: مرضه بما قامت به من الأوصاف الذميمة، وتلبس به من الأوال القبيحة التي توجب له الاعتلال، وتحدث في عمله الاختلال، وتخرجه عن وصف الكمال، وتميله إلى أقبح حال، **وسقم البصيرة:** انطباع صور الأكوان في مرآتها، وركوب ظلمة المخالفات عليها.

فإذا اتصفت السريرة بالخيانة حسبما ذكرناه، وسقم القلب والبصيرة بما قلناه. فقد لذة الطاعات وحلاوة المناجاة، وسقط صاحبها من عين الله تعالى، ووقع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة، وانتسخ الضياء بالظلمة، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال لأنه إذ ذاك تنقطع عنه الأمراض المتصلة، والواردات المتحصلة؛ فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان، وتستر عنه الكشوفات والبيان؛ فيقع في الخذلان، ويستحوذ عليه الشيطان، فينسيه الذكر، ويحيق به سوء المكر، ويرجع إلى متابعة نفسه الأمارة، ويخرج عن دائرة الصفوة المختارة - فنعوذ بالله من سوء المقدور وعدم التوفيق إلى مراعاة أوائل الأمور - وهذا الكلام نقلناه من كلام ابن عباد رضي الله تعالى عنه، وربما بدلنا في بعض عبارته، وأسقطنا من كلامه ما لا تمس إليه الحاجة.

ومن الأسباب التي توجب فقد حلاوة الطاعة، ولذة العمل الصالح اتباع الشهوات.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: "أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: "إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقه؛ فإياك أن يتعلق قلبك منها بشيء؛ فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك".

وفي أخبار داود عليه الصلاة والسلام: "ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات؛ فإنها تنقص حلاوة مناجاتي".

ولما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى سبب العيب الذي ينشأ عنه فقد لذة العمل وفقده بالكلية. أخذ يذكر الدواء الذي ينفي ذلك العيب؛ فقال:

دواؤه في خدمة الأخيار والشغل بالتقوى وبالأذكار

وخفة البطن وأكله الحلال ثم تضرع لربي وابتهال
لا سيما في ظلمة الأسحار وفي خلوك عن الأغيار

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات أدوية ستة نافعة دافعة لعيب النفس الذي هو عدم الالتذاذ بالعمل أو انقطاعه.

الدواء الأول: خدمة الأخيار، وهم الذين اختارهم الله تعالى لولايته، واصطفاهم لمعرفته، وأهلهم للجلوس على بساط العبودية في عظيم حضرته؛ ولا شك أن خدمة أولياءه تنفي عن النفس جميع العيوب، وتطهر من الأدناس الأسرار والقلوب، وتصون العبد من موارد الذنوب، ويشترط في خدمة الأخيار التي تنتج هذه النتيجة، وتثمر هذه الثمرة أن تكون بصفاء قلب وانشراح صدر وطهارة سر ومخالفة نفس ممتثلا لأومارهم، وحسن الظن فيهم، والتأدب معهم فيما يعاملونه به، أو يعاملهم به من أمور الدنيا والآخرة، وأن لايكون له معهم. إلى غير ذلك مما يلزم الخادم من حقوق المخدوم[1]

وليست هذه الخدمة من باب الصحبة؛ بل هي أخص لعلو رتبة المخدوم على خادمه بخلاف الصحبة قد تقع بين المتساويين في الرتبة، والحال؛ فإذا كانت خدمة الأخيار على الوجه الذي ذكرناه صح بها الانتفاع، ووقع بها لعيوب النفس وعللها الاندفاع.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: "إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية".

الثاني: الشغل بالتقوى؛ وحقيقة التقوى ألا يفتقدك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك؛ فإذا كان العبد مشغولا بتقوى الله باجتناب المناهي، والإسراع إلى الأوامر؛ فيبرأ من العيوب، ويجتنب موارد الذنوب.

قال ذو النون المصري [2]رحمه الله تعالى: "لا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر".

---

(1) لقد قام الشيخ زروق على خدمة شيخه الزيتوني بمدينة فاس مدة دويلة، ولزمه على ذلك حتى سافر في رحلته للحج في المرة الأولى سنة 874 هجرية.

(2) هو ذو النون ثوبان بن ابراهيم المصري.

وقال سهل[1]: "من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها".

وقال الجريري [2]: "من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة".

الثالث: الاشتغال بالأذكار وملازمتها بشرط كونها على هذا السبيل. حصلت للذاكر ثمراتها ونتائجها؛ ومن ذلك طهارة النفس من عيوبها التي منها نفي التلذذ بالعمل أو فقده بعدما حصل.

ولما كانت علل النفس متنوعة كانت الأذكار متنوعة بحسبها؛ فعلى الذاكر مريد الاستشفاء من علل نفسه، ونفي عيوبها أن يسلط على كل علة ذكرا يضادها وينفيها؛ والقدوة أعلم بذلك، وعلى كل حال فالذكر مرغب فيه.

قال القشيري رحمه الله تعالى: "الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه؛ بل هو العمدة في هذه الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر".

وقال أبو علي الدقاق: "الذكر منشور الولاية؛ فمن وفق إلى الذكر؛ فقد أعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل".

وفضائل الذكر كثيرة أعلاها ذكر الله لعبيده إذا ذكروه. قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾.

الرابع: خفة البطن. يريد بإقلال الأكل، والجوع؛ ففي ذلك إضعاف النفس، وكسر شهوتها، ووجود ذاتها، وإكسارها، ورياضتها، وانقيادها؛ فتترك العيوب، وتباعد أسباب الذنوب.

ولما كان خفة البطن، والجوع تنشأ عنه هذه الفوائد الجليلة، والأحوال الحميدة. رغب فيه الرجال، ونالوا به أحسن حال، وترقوا به رتبة الكمال؛ وكان حاله صلى الله عليه وسلم.

عن أنس بن مالك: "جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ما هذه الكسرة يافاطمة؟ قالت قرص خبزته،

(1) يقصد سهل التستري.

(2) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسن الجريري. من كبار أصحاب الجنيد. جلس مكانه للوعظ بعد وفاته.

ولم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام"، وفي بعض الروايات. " جاءت فاطمة بقرص شعير، وكان عليه الصلاة والسلام يبيت الليالي الطويلة طاويا"؛ وهذا حال أصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وتبعهم على ذلك أفاضل الأئمة.

كان سهل بن عبد الله [1] لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوما؛ فإذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح؛ ودخل أبو تراب النخشبي من بادية البصرة إلى مكة؛ فسئل عن أكله فقال: خرجت من البصرة فأكلت ببنباج. ثم بذات عرق، ومن ذات عرق إليكم؛ فقطع البادية بأكلتين.

وقال أبو عثمان المغربي: [2]" الرباني لا يأكل إلا في أربعين يوما، والصمداني في ثمانين".

وقال أبو سليمان الداراني: "مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع".

وقال يحيى بن معاذ [3]: "الجوع للمريدين رياضة وللتائبين تجربة وللزاهدين سياسة وللعارفين تكرمة".

وقال سهل بن عبد الله [4]: "لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل؛ وفي الجوع العلم والحكمة".

ولهذا كان أرباب السلوك يرغبون في خلو البطن، واعتياد الجوع، والإمساك عن الأكل في غالب أوقاتهم؛ فوجدوا ينابيع الحكمة، وكثرة المنافع الغريبة والأحوال العجيبة، ورزقوا دقائق العلوم وحقائق الأسرار والحكايات عنهم في هذا المعنى كثيرة. [5]

---

(1) يقصد سهل بن عبد الله التستري.

(2) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي. أصله من القيروان كان شديد الورع والزهد. تنقل في البلاد، ولقي الكثير من مشايخ الصوفية والزهاد، وأخذ عنهم. أقام بمكة مدة ثم انتقل إلى نيسابور؛ فتوفي بها سنة: 373 هجرية.

(3) يحيى بن معاذ الرازي. سبقت ترجمته.

(4) سهل بن عبد الله التستري. سبقت ترجمته.

(5) بشرط أن لا يؤثر على قوى الإنسان الفكرية أو البدنية؛ أو يقعده عن القيام بأمر من أمور الدين =

الخامس: أكل الحلال فهذا أيضا أصل كبير من أصول الطريق؛ فيعتبره كل ولي وصديق وسالك مسلك أهل التحقيق. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾.

قال أهل العلم الطيبات هنا الحلال وفي ترتيب الآية سر عجيب، وذلك أنه قدم الأمر بأكل الطيبات الذي هو الحلال على الأمر بالعمل الصالح؛ ففيه اشعار بأن العمل الصالح يترتب عن أكل الحلال، ولهذا قيل: "من أكل الحلال أطاع الله أراد أم لم يرد، ومن أكل الحرام عصى الله أراد أم لم يرد". وقال بعض الحكماء: "كل ما شئت تعمل مثله"؛ فمن أكل الحلال المحض عمل الطاعة المحضة، وكذلك الحكم في أكل الحرام، ومن أكل المتشابه عمل المتشابه، ومن أكل المكروه فعل المكروهات.

وأكل الحلال ينور القلب، ويصلح السر، ويقود الجوارح إلى فعل الطاعات، والأعمال الصالحات، وتزكوا به النفوس، وتتطهر من عيوبها، ويجد صاحبها لذة العبادات، وحلاوة الطاعات، ومرارة المخالفات.

شرب أبو بكر رضي الله عنه شربة لبن كان من وجه غير جائز شرعا؛ فلما علم بها قاءها بعدما شربها؛ وقال رضي الله تعالى عنه: "كنا ندع تسعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام".

وقال محمد بن داود الدينوري [1]: "سمعت أبا عبد الله ابن الجلاب [2]

=

أو الدنيا المشروعة.

(1) هو أبو بكر محمد بن داود الدينوري. المعروف بالدقي (وليس الرقي كما صحف عند البعض). من كبار الصوفية. أقام ببغداد مدة ثم انتقل إلى الشام. صحب أبا عبد الله بن الجلاء. توفي بمصر سنة: 363 هجرية؛ كما في الكواكب الدرية.

(2) هو أبو عبد الله أحمد بن يحيى الشهير بابن الجلاء. لقب بذلك لأنه كان إذا تكلم جلا القلوب. من كبار مشايخ الصوفية. أصله من بغداد. ثم انتقل إلى الشام. صحب أباه الذي كان من مشايخ القوم؛ كما صحب أبا تراب النخشبي، وذا النون المصري، وأخذ عن الدقي - أعلاه - واللباد، واجتمع بالجنيد، والنوري، وغيرهما كثير. كان يقال: "أئمة الصوفية ثلاث لا رابع لهم: الجنيد ببغداد، وأبو عثمان الحيري بنيسابور، وابن الجلاء بالشام. توفي سنة: 306 هجرية.

يقول: "أعرف من قام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما سقاه بركوته ورشاه، ولم يتناول من طعام جلب من مصر".

السادس: التضرع لله عز وجل والابتهال؛ فإن فيه قربة من الله عز وجل، وتكتسب النفس منه رقة واستكانة؛ لتطارحها على باب الله تعالى بوصف الذل والفقر؛ فتشفى بذلك النفوس من عيوبها؛ فترزق حلاوة المناجاة، ولذة الطاعات؛ فهذا من فوائد التضرع والابتهال. سيما إذا كان ذلك في الأسحار، وخلو عن الأغيار؛ كما قال الشيخ رحمه الله تعالى؛ فهو أجدر بالقبول، وأن يحصل بسببه المأمول.

وقد جاء في الحديث؛ أو كما قال عليه الصلاة والسلام: "ينزل ربنا إلى السماء؛ فيقول: هل من داع فأستجيب له... الحديث"؛ أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وكان بعضهم يقول: التملق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدنيا. ليس من الدنيا هيِّ من الجنة أظهر لأهل الله تعالى في الدنيا لا يعرفه إلا هم، ولا يجده سواهم روحا لقلوبهم.

وقال بعض العلماء: "ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة".

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه: "دخلت على أبي سليمان الداراني رضي الله عنه يوما وهو يبكي؛ فقلت له، وما يبكيك؟ فقال: يا أحمد؛ ولم لا أبكي. إنه إذا جن الليل، ونامت العيون، وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة اقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم. اشرف الجليل سبحانه؛ فنادى ياجبريل: بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى ذكري؛ وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم، فلم لا تنادي فيهم. ياجبريل ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبا يقرب أحباءه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا لي؛ فبي حلفت إذا وردوا علي يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي، وأنظر إليهم".

قال رحمه الله تعالى:

من عيبها طلبه الرياسه ... بالعلم والجاه وبالسياسه

والكبر والفخر مع التباهي ... لجنسه وقصد غير الله

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين ستة عيوب من عيوب النفس؛ وهي من أعظم عيوبها المانعة لها من حصول قصدها؛ ومن عيوبها:

الأول: طلب الرياسة؛ وهو علة قاطعة، ومن الحجب المانعة. مع ما فيها من سوء العاقبة؛ والنفس ميالة إلى الرياسة، ومحبتها. فيها شؤمها؛ فتبذل فيها الأموال، ولا تفكر في انقلابها بسببها إلى أسوإ حال؛ فالعقلاء الذين ينظرون إلى عواقب الأمور في الدنيا والآخرة. الحريصون على السلامة في الدنيا من وبالها، وفي الآخرة من عظيم أهوالها. لا تميل قلوبهم إلى الرياسة، ولا يتسببون في نيلها بعلم ولا بسياسة، والجهال بالله الذين خلت قلوبهم من التقوى، ولم يهتموا بصلاح دينهم وسلامتهم في دنياهم؛ رغبوا في الرياسة، وسعوا في تحصيلها، وربما تعلموا العلم لأجل نوالها؛ وهذا هو الغالب على طلبة العلم في هذا الزمان لأن حب الرياسة قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترأس قد ملكهم؛ فأصمهم وأعماهم.

ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا، وتحصيل الرفعة والجاه، ونيل الرياسة؛ كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت؛ فما أشرف الوسيلة، وما أخس المتوسل إليه.

وقد قال الحكماء: "زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل كلما ازداد ريا ازداد مرارة".

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ...﴾ في هذه الآية إشارة أن لا يوتوا السفهاء العلم؛ وهم الذين يتعلمون العلم لطلب الدنيا؛ فهؤلاء هم السفهاء، وإذا منع السفهاء الأموال التي بها قوام الدنيا، فأحرى وأولى أن لا يوتوا العلم الذي به قوام الدنيا، وصلاح الدين.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يخرج في آخر الزمان أناس يحتالون للدنيا بالدين؛ فيلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تبارك وتعالى: "يغترون أمما

علي يجترئون بي. حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران " رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه.

الثاني: حب الجاه؛ وهو مقارن للرياسة وأخوها؛ ولذلك توجد فيه من العلل ما يوجد في الرياسة؛ وهو من عيوبات النفوس، وإن كان فيه هلاكها؛ فلا يتجنبه إلا عاقل، ولا يرغب فيه إلا جاهل.

الثالث: الكبر: وهو من الأخلاق الذميمة، ومن عيوب النفس العظيمة، وقاطع عن الله، ومانع من القرب إلى الله، وليس الكبر من صفات المؤمنين ولا من أحوال المتقين؛ بل هو من الأخلاق الإبليسية، والأحوال الشيطانية. منافيا للعبودية.

قال تعالى حاكيا عن إبليس: ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ وكيف يصح أن يتكبر العبد وهو مركوز في مقام الذل، وقد حذر الله عباده المؤمنين من الكبر وتوعدهم عليه؛ وقد جاء: "العظمة إزاري والكبر ردائي؛ فمن نازعني في واحدة منهما قصمته"؛ أو كما قال تعالى.

والذل مع المعصية أرجى للعبد من الطاعة مع الكبر.

وفي حكم ابن عطاء الله: "معصية اورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا". فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل والعاصي وذل. هيبة لله عز وجل وفرقا منه؛ فهو أطوع لله عز وجل من العالم أو العابد.

ومن هذا المعنى ما روي أن رجلا من بني اسرائيل أتى عابدا من بني اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال له العابد ارفع فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله عز وجل: "أيها المتؤلي علي. أنت لا يغفر الله لك".

قال الحارث المحاسبي [1] رضي الله تعالى عنه لأنه إنما تألى على الله عز وجل لا يغفر له لعظم قدر نفسه عنده، وإن الإساءة إليه عند الله عز وجل عظيمة لا يغفرها الله تعالى لعبادته وسجوده له؛ لأنه - عند نفسه - عظيم القدر عند الله عز وجل فجمع عجبا وكبرا واغترارا بالله عز وجل.

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح بني اسرائيل

---

(1) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي. كان غاية في العلم والورع. توفي ببغداد سنة: 243 هجرية.

فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم؛ فقعد منتبذا عنهما منكسرا فدعا الله سبحانه وتعالى؛ فقال: اللهم اغفر لي، ودعا هذا الصالح فقال: اللهم لا تجمع بيني وبين ذلك العاصي؛ فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إني قد استجبت دعاءهما جميعا رددت ذلك الصالح، وغفرت لذلك المجرم".

وروي: "أن رجلا من بني إسرائيل يقال له خليع بني اسرائيل لكثرة فساده مر برجل من بني اسرائيل - وهذا عابد بني اسرائيل - قال العاصي فلو جلست إليه لعل الله عز وجل أن يرحمني به فجلس إليه؛ فقال العابد في نفسه أنا عابد بني اسرائيل، وهذا خليع بني اسرائيل يجلس إلي، فأنف منه، وقال: قم عني؛ فأوحى الله عز وجل إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل؛ فقد غفرت للخليع، وأحبطت عمل العابد؛ وروي في حديث آخر أن الغمامة تحولت عن رأس الخليع". انتهى.

فالكبر يوجب انحطاط الرتبة، والذل والتواضع يوجبان الزلفة والقربة، ووردت أحاديث كثيرة في الترهيب من الكبر، والوعيد عليه. انظر المنذري في هذا المحل.

وكفى بالكبر مذمة أن الكليم موسى عليه الصلاة والسلام استعاذ ممن كان متصفا بهما؛ فقال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾.

الرابع: الفخر؛ فهو أيضا عيب من عيوب النفس التي تحدث في حالها الاختلال، ويوجب لها الاعتلال، وتحطها عن درجة الكمال، وهو سبب نفي محبة الله عز وجل عمن كان حاله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾، وهو من أوصاف المتكبرين، ومن احوال الجبارين؛ وليس الفخر من أحوال عقلاء الرجال، ولا من صفة ذوي التقوى والكمال؛ وإنما هو من أحوال كل أحمق سخيف أخرق لا يعرف لنفسه قدرا، وما علم أنه ارتكب أمرا إمرا.

الخامس: التباهي بين أبناء جنسه؛ بما يقع به التباهي بين أبناء الدنيا، وغالب وقوعه من السخفاء الذين لا حسب لهم ولا أصل، ولا كم نسب، وهو مذموم عند العقلاء قبيح عند النبلاء. معدود عندهم من عيوب النفس القادحة فيها؛ ومن عللها

التي تذهب بصحتها، وتنافيها؛ فليتجنبه ذوي العقول السليمة، وليباعده أهل النفوس الكريمة.

السادس: قصد العامل بعمله غير الله تعالى؛ وهو عبارة عن الرياء الذي هو الشرك الأصغر، وهو أيضا عيب من عيوب النفس الكبيرة، وداء عضال يقوي كل مرض ويثيره؛ وقد ذم الله المرائين، وتوعدهم، وحسبك أنه جعله من قبيل الشرك؛ وقد وردت أحاديث كثيرة في التنفير من الرياء والترهيب منه فلتنظر في كتب الوعظ.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الذي تنشأ عنه هذه العيوب المتقدم ذكرها؛ فقال:

وذاك من إيثاره دنياه — نعم ومن نسيانه مولاه

لأن ذكر الرب ينسي النفسا — فلم يكن للعبد فيها أنسا

قال عليه الصلاة والسلام: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه. ألا آثروا ما يبقى على ما يفنى".

ومن آثر دنياه على آخرته كان عمله لدنياه لا لله عز وجل؛ فتدخله العلل، وتعتريه الأمراض، وتعلق همته بحصول الاعراض، ونيل الأغراض الدنيوية التي منها الرياسة، وحب الجاه والكبر والفخر والمباهاة بين أبناء جنسه، ويكون الغالب عليه في عمله الرياء؛ ليحصل أغراضه الدنيوية، وينسيه ذلك ذكر الله عز وجل. الذي ينهى النفس عن الاتصاف بالعيوب، وعن ارتكاب المعاصي، وأسباب الذنوب. لكن لما أنساه الشيطان وغلبة الهوى ذكر الله تعالى لم يكن له فيه أنسا ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾.

وإذا قد علمت أيها الحريص على براءة نفسه من العيوب، وطهارتها من أدران المعاصي والذنوب الأسباب التي تنشأ عنها العيوب، فاجتنب الأسباب لتجتنب المسببات، وكن حريصا على نفسك وطهارتها بعمل الطاعات، وأنواع القربات، واستعن بالله سبحانه على ذلك، وكفى بالله وليا، وكفى بالله نصيرا ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ثم أخذ رحمه الله تعالى يذكر دواء العيوب التي ذكرها قبيل هذا؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه في رؤيته التقصير وشكره للملك القدير
في جعله وعاء علم وعمل وخوفه من سلبه بما فعل
ثم التواضع والانكسار والنصح والإشفاق والإبرار

احتقار العبد لنفسه، ورؤيته التقصير في عمله، والخلل في أحواله ينتفي عنه بذلك تعظيمه لنفسه، ولما يصدر منها من عمل وحال؛ فتنتفي علة الكبر والفخر والرياسة والجاه، ويبرأ أيضا من علة الرياء؛ لرؤيته التقصير في العمل الذي يرائيه، وكذلك التواضع والانكسار ينفي عن النفس علة الكبر والفخر، وما ناسبهما من العلل، وكذلك النصح والإشفاق والإبرار؛ فمن نصح نفسه وأشفق عليها وبرها. طهرها من عيوبها، وعمل على خلاصها من أمراضها، وعللها بما فيه شفاؤها، وطهارتها.

فإذا وفق العبد إلى طهارة نفسه، وإخراجها عن دائرة حسه. لزمه الشكر لله عز وجل أن جعله تعالى وعاء لعلم نافع، وآلة لعمل صالح خالص. إذ الاشتغال بطهارة النفس من عيوبها، وخلاصها من أمراضها وعللها من عمل العلماء العاملين؛ ومن العلم علمه بعيوب نفسه، ومن العمل الصالح اشتغاله بطهارتها منها، وبراءتها من عللها.

قال رحمه الله تعالى:

قال النبي المصطفى المختار قولا صحيحا طيه إنذار
من طلب العلم يباهي الفقها بعلمه أو ليماري السفها
أو لينال الجاه عند الناس باء بنار فهو ذو افلاس

ما ذكره من قول النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيمن طلب العلم لعلة دنيوية هو إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار"؛ وهذا الحديث يتضمن إنذارا ووعيدا أو ترهيبا. كل ذلك تنفير من تعلم العلم لغير الله تعالى.

قال سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: "إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به؛ فإن اختار هذا المقصد وفسدت نية طالبه؛

بأن يستشعر به التوصل إلى مناه الدنيوي من مال، أو جاه فقد بطل أجره، وحبط عمله، وخسر خسرانا مبينا".

قال الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾، وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تعلم علما لا يبتغي به وجه الله تعالى. لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - يعني ريحها -".

وقال الحسن[1] رضي الله تعالى عنه: "ما طلب هذا العلم أحدا إلا كان حظه منه ما أراده به".

وقال الحسن: "عقوبة العالم موت القلب. قيل وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة " فإن إنضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولي الأعمال السلطانية كائنة ماكانت، أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة؛ فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه، وباء بإثمه وإثم المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خير إليه من العلم، وأحمد عاقبة.

والغالب على طلبة العلم في هذا الزمان هذا الوصف المذموم؛ لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم وأصمهم وأعماهم، وقد تقدم هذا.

ومن كان حاله من طلبة العلم على ما ذكرناه؛ فهو ذو إفلاس كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى، ومعناه أن أحواله إذا باينت عنده علم لم يعمل به؛ فقد أضله الله على علم.

قال رضي الله تعالى عنه:

وكل علم لم يزد من الهدى ... صاحبه عن ربه قد بعدا

العلم الذي لم يزدد به صاحبه هدى ولا خشية من الله تعالى؛ فلا يزيده منه إلا بعدا من الله تعالى. قال ابن عطاء الله في حكمه: "العلم إذا قارنته الخشية فلك

---

(1) يعني حسن البصري.

وإلا فعليك".

وروى أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه. عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنزل الله في بعض الكتب (أو أوحى الله إلى بعض أنبيائه). قال: "الذين يتفقهون في الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة. يلبسون للناس مسوك الكباش، وقلوبهم قلوب الذئاب. ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر. إياي يخادعون، وبي يستهزئون. لأبعثن إليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران".

وفي بعض الأخبار المرويةعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه. قلوبهم خربة من الهدى، ومساجدهم عامرة من أبدانهم. شر من تظل السماء يومئذ. علماؤهم. منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود". انتهى.

والعالم الذي لم يزدد بعلمه هدى ولا خشية كالأرض السبخة المطر فيها؛ فتنتعش نفوسهم، وتتقوى صفاتهم، ويظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا، والركون إلى أبنائها؛ فيصلو ن إليهم بما علموا من العلم؛ فيحتايلون بذلك على إقبالهم عليهم، وصرف وجوههم عليهم، ولا يسلمون في ذلك من الرياء، والتصنع والنفاق والمداهنة، ويخرجهم ذلك إلى أنواع من المحظورات، وضروب من العصيان والمخالفات. مع ما يحل بهم في ذلك من الذل والهوان؛ فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم، وتمكنوا من جميع حظوظهم فخرجوا من الحرية إلى استعباد الأغيار، واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار؛ وقد نبهتك - أيها الحريص على خلاص نفسه، وصلاح دينه - إلى الآفات التي تنشأ عن تعلم العلم لغير الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى:

كذا أتى في السنة العليه　　　من زاد علما فليزد في الخشيه

جاء: "من زاد علما زاد خشية".

قال ابن عطاء الله: "خير علم ما كانت الخشية معه".

وكل علم لا خشية معه لا خير فيه؛ بل لا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة؛ وإنما العلم ما قارنته الخشية، والعالم من يخشى الله تعالى.

قال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾.

وقد نبه الشيخ على ذلك بأن قال:

وجاء معنى في الكتاب المحكم　　　من يخشى ربه ذلك عبد قد علم

قال في لطائف المنن[1]: "فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية لله، وشاهد الخشية موافقة الأمر. أما عالم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة؛ فما أبعد من هذا العالم علمه أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه، ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء، كمثل الشمعة تضيء على غيرها؛ وهي تحرق نفسها. جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه، وسببا في تكثير العقوبة لديه " انتهى.

وقال في التنوير[2] في قوله صلى الله عليه وسلم: "طالب العلم تكفل الله له برزقه".

"اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب العزيز، وفي السنة. إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾؛ فبين أن الخشية تلازم العلم؛ وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية".

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في وصيته: "وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل".

وقال الواسطي رضي الله تعالى: "رحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى، وإشفاقهم مما علمهم الله عز وجل".

وقال الشيخ أبو عبد الرحمان السلمي رضي الله عنه: "علم لا يورث الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم ولا يحمله على حسن معاملة الله ودوام

---

(1) لطائف المنن في مناقب أبي العباس، وشيخه أبي الحسن؛ لابن عطاء الله الإسكندري.

(2) التنوير في اسقاط التدبير؛ لابن عطاء الله.

مـراقبته وطلـب الحـلال وحفـظ الجـوارح وأداء الأمانـة ومخالفـة الـنفس ومبايـنة الشهوات؛ فذلك العلم الذي لا ينفع، وهو الذي استعاذ منه صلى الله عليه وسلم فقال: "أعوذ بك من علم لا ينفع"، ووصف الله تعالى العلماء بالخشية؛ فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾.

وقال رجل للشعبي: "أيها العالم"؛ فقال: "اسكت. العالم من يخشى الله تعالى".

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت؛ فقال:

وقيل للشعبي يذا العالم   فقال من يخشى فذاك العالم

فرأى رحمه الله تعالى أن من معه الخشية فهو العالم، ومن لا خشية له فليس بعالم؛ ويقال للعالم الذي لا خشية له ولم يعمل بما عمل ناقل.

قال فرقد السبخي[1]: "سألت الحسن عن مسألة فأجابني عنها؛ فقلت له إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال لي: ثكلتك أمك فريقد. هل رأيت فقيها بعينك. إنما الفقيه الزاهد في الدنيا. الراغب في الآخرة البصير بدينه. المداوم على عبادة ربه. الورع الكلف بنفسه عن أعراض المسلمين. العفيف عن أموالهم. الناصح لجماعتهم. المجتهد في العبادة. المقيم على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. الذي لا ينبذ من هو فوقه، ولا يسخر ممن هو دونه، ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاما " انتهى.

قال:

وعلماء السوء في الأخبار   أول من يصلى سعير النار

أشار في هذ البيت إلى ما روي عن فضيل بن عياض، وأسد بن الفرات قال: "بلغنا أن الفسقة من العلماء، ومن حملة القرآن. يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان".

---

(1) هو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي كوفي الأصل. نزل البصرة. يعد من كبار عباد البصرة. توفي بالبصرة سنة: 131 هجرية.

قال فضيل بن عياض[1] رضي الله عنه: "ليس من علم، كمن لم يعلم".

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى: "روينا عن الأوزاعي[2] رضي الله عنه قال: "شكت النواويس إلى الله عز وجل ما تجد من نتن جيف الكفار؛ فأوحى الله تعالى إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه"، وعلماء السوء الذين تعلموا العلم للدنيا وجمع حطامها.

قال وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه لعطاء الخرساني[3]: "كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم؛ فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم".

وقال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: "كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا في الدنيا، وتركا لها؛ فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا، ولها طلبا، وكان الرجل ينفق ماله على علمه، ويكتسب الرجل اليوم بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم زيادة في ظاهره وباطنه؛ فاليوم يرى على كثير من أهل العلم

(1) هو أبو علي الفضيل بن عياض. أحد الأقطاب، ومن أكابر الصالحين كان شاطرا يقطع الطريق؛ فبينما هو يتسور جدار بيت ذات ليلة. إذ سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: (ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)؛ فقال: يارب قد آن، فتاب إلى الله، وهام على وجهه، وقدم الكوفة وسمع الحديث بها. ثم سافر إلى مكة وجاور بها حتى توفي في شهر المحرم سنة: 187 هجرية. قال هارون الرشيد: "ما رأيت في العلماء أهيب من مالك، ولا أورع من الفضيل. قال له الرشيد يوما: "ما أزهدك"؛ فقال له الفضيل: أنت أزهد مني. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية، والآخرة باقية.

(2) هو أبو عمرو عبد الرحمان بن عمرو بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام ومحدثهم، وشيخ الإسلام. نشأ يتيما في حجر أمه، وكان يسكن الأوزاع بدمشق. ثم رحل إلى بيروت مرابطا في سبيل الله إلى أن مات سنة: 157 هجرية. جمع بين العلم والعبادة. من أقواله: "ويل للمتفقهين لغير العبادة، والمستحلين الحرمات بالشبهات"، وقال: "ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين للرئاسة، فلا يمقتهم. هم أحق بالمقت من الشرطي.

(3) من الزهاد غلب عليه الحزن والخوف؛ فقضى حياته كلها حزينا خوفا من الله تعالى.

فسادا في الظاهر والباطن؛ فهؤلاء هم علماء السوء".

قال ابن عباد رحمه الله تعالى ورضي عنه: "فانظر رحمك الله إلى ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان وليس الخبر كالعيان. ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم، وتوغلهم بها في سوء أدبهم. يتعذر عليهم سلوك طريق الحق؛ لما استحكم في قلوبهم من علاقات الخلق؛ فقد قيل التعمق في الباطل قطع للأمل عن الرجوع عنه؛ فكلما كان بعد المسافة عن الحق أتم. كان اليأس من الرجعة أوجب".

وأعظم الوبال عليهم اعتزازهم بحالهم، واستحسانهم لسيء أعمالهم، واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة في الدار الآخرة، ونيل الثواب فيها، وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة، والمناقب المنيعة التي أختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق من يخرجون به من هذا الغرور؛ لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك، ولم يهتدوا لما هنالك؛ فهذا هو الفساد الذي يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه، وأما الفساد الذي يتعدى إلى غيرهم فأظهر من كان ظاهر، وناهيك عمن ملكته نفسه، واستعبدته أتم استعباد. هل يبقى عليه شيء من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه. إذ تمكن منه.

ومن دقيق ما يسري عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك. وقوع الاغترار للجهلة والأغمار شهد حالهم؛ فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه، ويتوهمونهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوهم واستفادوهم؛ فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم في طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك؛ فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك، أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم، وموالاتهم، واتخاذهم أربابا يسمعون منهم، ويطمعونهم في أوامرهم، ونواهيهم. ثم يخرج لهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين؛ وهو مسارقة طباعهم الدنية، وأخلاقهم الردية؛ فإن نفوس العامة قابلة لذلك، ومهيأة له بمنزلة الصبي الذي ترسخ فيه أخلاق آبائه، وجبلاتهم، ومذاهبهم، وغير ذلك مما يبطل في حقهم ما هو مقصود الرسل عليهم الصلاة والسلام

من التزهيد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وحب الفقر والمسكنة، وإيثار التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان والإسلام، وشدة الحذر من ارتكاب المناهي والآثام. ثم يؤول بهم ذلك إلى الشرك الخفي والجلي، ويحيق بهم المكر السيء؛ والعياذ بالله، ويكون وبال جميع ذلك راجعا إلى المعلم لتيسر أسباب ذلك على يديه".

ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله تعالى حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانا

فباعوا النفوس، ولم يربحوا ... ولم يقلل في البيع أثمانا

لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العقل إنتانا

والكلام في المعنى طويل جدا. انظر كتب العلم من الإحياء للغزالي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الكسل والتواني ... وأصل ذلك شبع الأبدان

به يقوى حظها ولحظها ... فتترك القلب ويبدوا رفضها

لكل خير كان في الحقيقه ... وكلما يطلب في الطريقه

ذكر رحمه الله تعالى، ورضي عنه في هذه الأبيات عيبين من عيوب النفس، وأصلا من أصولها، وما ينشأ عنهما من سوء الأحوال، وقبيح الأفعال.

العيب الأول: الكسل؛ وهو عدم نشاط العبد إلى الأعمال الصالحات، وتثاقل الجوارح عند إرادة عمل الطاعات، وقد ذم الله تعالى قوما كان حالهم الكسل عند أداء الواجبات.

فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من الكسل؛ فقال: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل"، وهو من العيوب العظيمة والأحوال الذميمة؛ فما اتصفت به نفس إلا وكانت ملومة ومن الخير محرومة، وسلبت وصف السباق، وخرجت من دائرة السباق؛ وقد حذر العلماء من الكسل لما فيه من ترك العمل.

الثاني: التواني في العمل الصالح، وينشأ عن الكسل وطول الأمل، **والتواني**: التراخي، وما في معناه، وتقدم تعريفه عند قوله: "من عيبها الإصرار والتواني... البيت".

ومن أصول هذين العيبين أعني: "الكسل والتواني " شبع الأبدان الناشئ عن امتلاء المعدة؛ فإذا امتلأت تحدث عيوب عظيمة، وأحوال ذميمة؛ وقد نبه الشيخ على ذلك حيث قال:

إن تشبع البطن تجوع الأعضا   وإن تجع يكون منها الإغضا

وخفة المعدة بإقلال الطعام تحدث منه أحوال حميدة؛ كما نبه الشيخ على ذلك. حيث قال:

فخفة البطن دواء القلب   وكثرة الأكل أساس العيب

وقد تقدم لنا قبل هذا كلام على هذين البيتين وذكرنا ما يناسبهما من كلام الناس من التحذير من كثرة الأكل وامتلاء المعدة والترغيب في فراغ البطن وقلة الأكل، وذكر الشيخ في هذه الأبيات بعض ما ينشأ من ذميم الأحوال عن الشبع وامتلاء المعدة. قال رحمه الله تعالى: "به يقوى حظها ولحظها". أي يقوى حظها من الشهوات، وفعل المخالفات، ولحظها: أي ملاحظتها لما يصدر منها من الأعمال، وشهودها لما تدعيه من الأحوال.

وتقوية الحظوظ يميت القلوب؛ كما نبه الشيخ على ذلك بقوله:

فتترك القلب يريد بتركه   عدم اعتباره لموته

وتقوية لحظها؛ لما يصدر منها من الأعمال والأحوال. ينشأ عنه الوقوف، وعدم الزيادة، والوقفة قطيعة.

وإلى هذا المعنى أشار رحمه الله تعالى بقوله: "ويبدو رفضها لكل خير"، والله سبحانه أعلم.

ثم بين الشيخ المرفوض فقال:

لكل خير كان في الحقيقه   وكل ما يطلب في الطريقه

أراد بالخير الكائن في الحقيقة أنواع المعارف، والحقائق، واللطائف التي هي من ثمرات مقام الإحسان، ومن نتائجه، والذي يطلب في الطريقة أراد به

الوظائف الشرعية، والعقائد التوحيدية التي هي من وظائف مقام الإسلام ومقام الإيمان؛ فسبب رفض هذه كلها شبع البطن، وامتلاء المعدة، وسينبه الشيخ بعد هذا على شر امتلاء البطن بقوله:

"ففي حديث المصطفى المكرم البطن... " البيت بكامله.

وتقدم قول الشيخ رحمه الله تعالى حيث قال: "إن تشبع البطن... البيت بكامله"، وقوله أيضا: "فخفة البطن دواء القلب... البيت إلخ".

وتقدم ما نقلناه من كلام الناس من ذم الشبع، والتحذير منه، والترغيب في الجوع، وما ينشأ عن الشبع من الأحوال الذميمة، وعن الجوع من الأحوال الحميدة؛ ولذلك اختار الصديقون الجوع على الشبع، وكان الجوع من أحوال الربانيين، وكان أكيدا في حق السالكين والمريدين.

ثم نبه الشيخ على الدواء النافي للعيبين المذكورين، والذي يشفي الله تعالى به من العلتين السابقتين فقال:

دواؤه إضعافها بالجوع وشغلها من غير ما هجوع

لا شك أن الجوع يضعف النفس، ويقوي الروح، ويحيي القلب، وهذ إذكار على سبيل التدريج المحمود الذي قدره أرباب هذه الطريق، وسلكه أهل التحقيق؛ فإذا كان على ذلك المنهاج القويم كان دواء لعيوب النفس، ومخمدا لها من شرورها، ومقصرا لها عن طلبها لحظوظها وشهواتها.

قال سهل بن عبد الله(1) " لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة".

قال يحيى بن معاذ (2): "الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولد منها الإحراق، ولا ينطفئ ناره حتى يحرق صاحبه".

فتبين من هذا أن الجوع ينشأ عنه أنواع الخيرات، والشبع ينشأ عنه أنواع الشرور والمذمات، وأن الجوع يقوي الأرواح ويحييها، وينور القلوب ويصفيها، ويطهر الأسرار ويزكيها، وهو قوت أرواح الصديقين؛ كما نبه الشيخ عليه قبل هذا

(1) هو سهل بن عبد الله التستري. بضم التاءين بينهما سين ساكنة.

(2) هو يحيى بن معاذ الرازي

حيث قال:

قد قيل إن الجوع كالطعام لبدن الصديق في القوام

فالصديق يقوم بدنه بالجوع؛ كما يقوم بدنه غيره بالطعام؛ لأن بدن الصديق تابع لروحه، وبدن غيره الروح تتبعه؛ وذلك بحسب ضعف التابع، وقوة المتبوع، والقوة والضعف بحسب المواد فافهم.

وليحذر العبد من إفراط الجوع؛ فإن في ذلك ضررا، والإفراط كالتفريط، وكلا قصد الأمور ذميم؛ وقد نبه الشيخ على هذا المعنى قبل حيث قال: "وفي إفراطه إضرار " ثم بين وجه الضرر فقال: "إذ تفلس الأبدان والأفكار". يريد بإفلاس البدن ضعفه عن القيام بالوظائف الشرعية. إذ هو آلة القيام بها، وإفلاس الأفكار ضعفها عن إدراك الأشياء التي طولب الفكر بالنظر فيها من آثار معاني أسماء الأفعال، وأسماء الصفات؛ وإذا كان الجوع ينشأ عنه هذا، فلم يكن دواء بل يكون هو عين الداء، وصدق صاحب البردة إذ قال:

فرب مخمصة شر من التخم

وقوله: "وشغلها من غير ما هجوع". (هذا هو الأصل عوض يجوع). هكذا هو في النسخة التي اعتمدنا عليها في شرحنا هذا، ولم يتم هنا الكلام على هذا التركيب، وأظنه أن في اللفظ خللا إما من الناسخ أو من الناقل، والذي يظهر لنا من معنى الكلام أن النفس إذا جوعت لا يكون شغلها بالجوع أي بما يدفعها عنها لأن شغلها بذلك اشتغال بالأغيار، ويكون الجوع حينئذ سببا لشغلها عن الله تعالى، وإذا كان الجوع أنتج غير ما قصد به. مع أن المقصود الأهم شغل النفس بالله، ورجوعها إليه، واستغناؤها به؛ فلا يكون لها شغلا سواه عز وجل، ولا تلتفت إلى أحد عداه، وقد جاء في الخبر أن البطن شر ما يملؤ.

ونبه الشيخ على ذلك بأن قال:

ففي حديث المصطفى المعظم البطن شر ما ملأه الآدمي

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطن".

وقال عليه الصلاة والسلام: "لا تسكن الحكمة معدة ملئت من طعام".

وقال عليه الصلاة والسلام: "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء".

فظهر من هذا، ومما قررناه أن في الجوع صلاح الظاهر والباطن، وفي الشبع وامتلاء المعدة فسادهما؛ فالجوع أولى لكل مريد سالك. قاصدا أن يسلك بنفسه أحسن المسالك، وأما عوام المؤمنين، فسبيلهم أن يكون إجراء حالهم على نحو ما ذكره الشيخ فقال:

إن كان لا بد فثلث للطعام ... وللنفس الثلث وللماء التمام

هذا القدر الذي ذكره الشيخ في هذا البيت هو القدر المحمود شرعا لعوام المؤمنين؛ وذلك أن يكون ثلث البطن للطعام، والثلث للنفس، والثلث للماء؛ فهذا هو العدل الذي لا إفراط فيه، ولا تفريط، ولا يقع به اختلال في البدن، ولا نقص في الحواس، ولا تغيير في الطبيعة، ولا ضعف في العقل.

قال عليه الصلاة والسلام: "حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان فلا بد؛ فثلث للطعام... الحديث بكماله"، والغالب على من كان على هذا التقدير قلة فساد مزاجه.

قيل لسهل بن عبد الله: "إن الرجل يأكل في اليوم أكلة. قال: أكل الصديقين. قال فأكلتين. قال فأكل المؤمنين. قال: فثلاث. قال: قل لأهله يبنوا له معلفا "[1].

ولما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى ما في الجوع من الخصال الحميدة، وأنه مما تداوى به عيوب النفس، وذكر ما في الشبع من الفساد العظيمة أخذ يذكر كيف يكون الإنسان مع نفسه في رياضتها وسياستها، والوجه المحمود الذي يسلكه معها فقال:

والنفس إن أهملتها لا تصلح ... وإن تزد في ضيقها قد تجمح

إذا أهمل العبد نفسه ولم يشتغل برياضتها وسياستها وتهذيبها وإخراجها عن أوصافها الذميمة وأخلاقها اللئيمة لا تصلح أبدا؛ بل لا تزال مقيمة على ذميم أوصافها وسوء أحوالها، وإن اهتم بصلاحها واشتغل بطهارتها وتزكيتها من أوصافها الذميمة وأخلاقها اللئيمة صلحت، وتزكت، وطهرت، وتصفت، وإلى هذا المعنى

---

(1) المعلف: ما يوضع فيه العلف - من شعير وتبن - للدابة.

أشار صاحب البردة بقوله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

لكن لا ينبغي للعبد أن يسلك مع نفسه طريق العدل أو أن يجريها على الوجه الوسط؛ فالإهمال تفريط لا يكون به صلاحها، والزيادة على الحد إفراط وتضييق يقع به جموحها ونفورها؛ وهي إذا جمحت أصبحت عسيرة الانقياد، وإذا نفرت كانت أقرب إلى الفساد؛ فليسسها الحكيم بمهل، وليستعمل في سياستها الحيل؛ فرب حيلة أنفع من قبيلة؛ كما قال الشيخ رحمه الله تعالى؛ فاحتل على النفس فرب حيلة أنفع في النصرة من قبيلة. [1]

الاحتيال على النفس في سياستها هو شأن الضعفاء. أما الأقوياء فحالهم مع أنفسهم على غير هذا لقوتهم، وعاملوا أنفسهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾. أما الضعفاء؛ فالمحاولة لهم أجمل وأبلغ في حصول مقاصدهم، وأنسب لنيل فوائدهم، وبالحيل قد تحصل المقاصد، وتنال الفوائد؛ وقد يقع بها الاقتصار ما لا يقع بقبائل كثار.

وما زال الرؤساء والقواد والملوك والكبار يستعملون الحيل في حروبهم، ويعدون ذلك من الدهاء الذي يستعملونه في حروبهم أولوا النهي، وإذا كانت الحيل تستعمل في حروب العدى؛ فأحرى وأولى في جهاد النفس التي هي أشد عداوة، وأعظم كيدا.

قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها اكثارها من الكلام وذاك من حب العلو في الأنام

والجهل بالواجب في التحدث وموجات المقت والتشتت

(1) وأحسن طريقة للمبتدئ في هذا السلوك: أن يبتدئ بصيام الفرض؛ أي شهر رمضان. ثم بعد ذلك يصوم الأيام البيض من كل شهر؛ فإذا ألف ذلك أضاف صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع. ثم يتدرج في رياضتها بحملها على الصوم شيئا فشيئا حتى يتحقق له ما يريد. من دون إفراط ولا تفريط

كثرة الكلام فيما لا يعني، وفي المواطن التي يطلب فيها الصمت عيب من عيوب النفس التي تؤدي إلى هلاكها، وتخرجها عن موجبات كمالها؛ وكثير الكلام إن أصاب فهو ملوم، وإن أخطأ فحظه منه المصيبة والشؤم.

قيل: إن أبا حمزة البغدادي [1] كان حسن الكلام فهتف به هاتف: تكلمت فأحسنت؛ فإن تسكت فأحسن؛ فما تكلم بعد ذلك حتى مات، ومات قريبا من هذه الحالة على رأس أسبوع.

وكان السلف الصالح، ومن تبعهم يكرهون كثرة الكلام، وينهون عنه، ويحذرون منه؛ ومن ذلك التقعر في الكلام، والتشدق، وتكلف السجع، والفصاحة.

والحامل على ذلك حب العلو بين الأقران، والتقدم والرياسة بين الأمثال، والشهرة في الأنام، وكذلك الجهل بما يجب على المتكلم من الشروط والواجبات التي يجب مراعاتها عند الكلام، والجهل بما يوجب مقته عند الله تعالى، وشتاته في أحواله؛ فهذا أيضا يحمل العبد على كثرة الكلام.

وقد ذم عليه الصلاة والسلام الذين حالهم كثرة الكلام وأخبر ببعدهم من الله تعالى، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون، والمتفيهقون المتشدقون".

وقال عليه الصلاة والسلام: "ألا هلك المتصنعون ثلاث مرات".

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: "إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان"، وأنكر رضي الله تعالى عنه التشبيب في الكلام، والمقدمة المصنوعة.

وهذا إنما هو في الكلام فيما لا يعني. أما فيما يعني؛ فهو ليس من هذا المذموم؛ والذي يعني محصور في ذكر الله تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، وغير هذا ما لا يعني وهو المذموم المنهي عنه.

---

(1) هو أبو حمزة البغدادي. أصله من خراسان ثم سكن بغداد فنسب إليها. صحب مشايخ بغداد كأبي تراب النخشبي، وأبي سعيد الخراز، وكان يكثر الجلوس في حلقة الإمام أحمد؛ فإذا عرضت عليه مسألة تتعلق بطريق القوم. كان يحيلها عليه قائلا: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟ توفي سنة 309 هجرية.

قال عليه الصلاة والسلام: "طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله".

وأكثر رجل كلامه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال له عليه الصلاة والسلام: "كم دون لسانك من باب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له عليه السلام: أما كان في ذلك ما يرد كلامك". قال بعضهم: "أترك جواب من يكلمني. مخافة أن يكون من الفضول".

واجتمع ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر؛ فقال أحدهم: "أنا نادم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل"، وقال الآخر: "إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني"، وقال الثالث: "عجبت لمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع عليه لم تنفعه"، وقال الرابع: "أنا على رد ما لم أقل؛ لأقدر مني على رد ما قلت".

وعن معاذ بن جبل: [1] " علم الناس قليلا، وكلم ربك كثيرا. لعل قلبك يرى الله".

وقيل لذي النون المصري رضي الله تعالى عنه: "من أصون الناس لنفسه؟ فقال: من أملكهم للسانه".

وقال شقيق[2]: "ما شيء بطول السجن أحق من اللسان".

وقال علي بن بكار: "جعل الله لكل شيء بابين، وجعل للسان أربعة أبواب؛ فالشفتان مصراعان، والأسنان مصراعان".

وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يمسك في فيه حجرا. كذا. كذا سنة؛ ليقل كلامه.

وقال بعضهم: "تعلم الصمت كما تتعلم الكلام؛ فإن كان الكلام يهديك، فالصمت يقيك".

وقيل: "عفة اللسان صمته"، وقيل: "مثل اللسان مثل السبع. إن لم توقفه عدى عليك".

---

(1) الصحابي الجليل.

(2) يقصد شقيق البلخي

وقال طاووس: [1] " لساني سبع إن أطلقته أكلني".

ولما في الصمت من السلامة، وقلة الملامة. آثره سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدى به فيه؛ فكان عليه الصلاة والسلام كثير الصمت دائم السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ويعرض عمن تكلم بغير جميل.

قال ابن أبي هالة: "كان سكوته على أربعة: على الحلم، والحل، والتقدير، والتفكير".

وعلى سبيله صلى الله عليه وسلم سلك أصحابة الكرام، ومن تبعهم، وكذلك من تمسك بهم واقتدى وبهديهم اهتدى.

فالصمت أجمل شيء للعبد أن يتحلى به؛ وهو أحد أركان الطريقة، ومن أوصاف أهل الحقيقة، وقد تقدمت الحكايات عنهم في ذلك.

وإذ قد علمت أن كثرة الكلام عيب من عيوب النفس، وحصل لك العلم بما في كثرة الكلام من الآفات، وما ينشأ عنه من الخطإ، والزلات؛ فهاك ماذكره الشيخ من دواء ذلك العيب الدافع لعلته الصارف لمضرته.

قال رحمه الله تعالى:

دواؤه تفضيله استماعه على كلامه لأجل الطاعه

استماع الكلام فيما فيه خير وطاعة خير من التكلم به لمن علم من نفسه حب كثرة الكلام لغرض فاسد كرياسة، وحب جاه، وثناء، وارتفاع صيت، وما أشبهه ذلك، وأكثر ما تجد هذا في طلبة هذا الزمان والمتفيقهين؛ فإذا رأى العبد نفسه تميل إلى الكلام في المجالس والمحافل؛ لذلك؛ فالصمت أولى به وخير وأسلم، ويكون صمته دفعا لهذه العلل، واستماعه حينئذ أفضل من كلامه.

قيل إن داود الطائي[2] لما أراد أن يقعد في بيته اعتقد أن يحضر مجالس أبي

---

(1) هو التابعي أبو عبد الرحمان طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني. رأى كثيرا من الصحابة - في مقدمتهم العبادلة الأربعة - وسمع عنهم. كان من كبار الفقهاء، وغلب عليه الزهد والتقشف. توفي سنة: 106 هجرية.

(2) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي. كان تلميذا لأبي حنيفة وأحد كبار الزهاد الصوفية. توفي سنة 165 هجرية.

حنيفة رضي الله تعالى عنه. إذ كان تلميذا له، ويقعد بين نظرائه من العلماء ولا يتكلم في مسألة؛ فلما قوى نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة قعد في بيته عند ذلك وآثر العزلة.

وقال ممشاد الدينوري: [1] " الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت".

وقال سهل بن عبد الله: "لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت"،.

وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه".

وقال: "الصمت حكم وقليل فاعله".

وقال بعضهم: "تعلم الصمت كما تتعلم الكلام".

وسئل أبو حفص: "أي الحالين أفضل؟ الصمت أو النطق؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمر نوح، ولو علم الصامت آفة الصمت لسأل الله عز وجل ضعفي عمر نوح حتى ينطق". [2]

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "من عد كلامه من علمه قل كلامه إلا فيما يعنيه".

ثم أتى الشيخ رحمه الله بأبيات ضمن فيها الترهيب من الكلام فيما لا يعني، وما جاء في ذلك من الوعيد فيما روي عن الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم؛ فقال رحمه الله:

إذ في حديث المصطفى المصدق　　　أن البلا موكل بالمنطق

ما ذكره من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن البلاء موكل بالمنطق " رواه الثقاة؛ ولهذا قيل لسان الجاهل مفتاح حتفه، وروي مرفوعا: "إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تشتكي اللسان. تقول اتق الله تعالى فينا إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا".

---

(1) ممشاد الدينوري من كبار الصوفية في عصره. صحب ابن الجلاء وغيره. توفي سنة: 299 هجرية.

(2) قد يكون الصمت أولى من الكلام، وقد يكون الكلام أولى من الصمت. حسب الظروف والأحوال.

وروي: "ليس شيء من الجسد لا يشكو إلى الله اللسان على حدته".

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان على الصفا وهو يلبي ويقول: "يا لساني قل خيرا تغنم، واصمت شرا تسلم من قبل أن تندم". قيل له يا أبا عبد الله: "هذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ قال بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أكثر خطايا ابن آدم في لسانه".

ثم قال رحمه الله تعالى:

وهل تكب الناس في النيران شيء سوى حصائد اللسان

أشار في هذا البيت إلى ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"؛ وقيل ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسانه وقال: هذا؛ وقيل أي الأعمال أفضل؟؛ فأخرج عليه الصلاة والسلام لسانه ثم وضع عليه أصبعه وقال عليه الصلاة والسلام: "من سره أن يسلم فليزم الصمت"؛ وروي: "أكثر خطايا ابن آدم في لسانه"، وقال عليه الصلاة والسلام: "من صمت نجا"، وقال عليه الصلاة والسلام: "من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه وقي".

والقبقب البطن، والذبذب الفرج، واللقلق اللسان.

وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل النار قال: "الأجوفان: الفم، والفرج"، وقال عليه الصلاة والسلام: "من أكثر الكلام أكثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به".

واطلع عمر رضي الله تعالى عنه على أبي بكر رضي الله عنه تعالى عنه وهو يحد لسانه فقال: "ما تصنع ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إن هذا أوردني الموارد".

وقال يونس بن عبيد: [1] " ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله".

ولم يتكلم المنصور بن المعتمر[2] بعد العشاء الأخيرة أربعين سنة، ولم

---

(1) يونس بن عبيد أحد الصوفية. توفي سنة: 139 هجرية

(2) هو أبو عتاب منصور بن المعتمر السلمي. أحد الفقهاء الصوفية الكبار. كان من أعبد وأزهد =

يتكلم الربيع بن خيثم [1] بكلام الدنيا عشرين سنة.

قال الحسن: [2] " كانوا يتكلمون عند معاوية والأحنف [3] ساكت. قالوا ما لك لا تتكلم يا أبا بحر؟ قال: أخشى الله إن كذبت، وأخشاكم إن صدقت".

قال رحمه الله تعالى:

وقال كل ما يقول الآدمي فهو موجب عليه للندم

إلا الذي يأمر بالمعروف أو ينه عن نكر وعن مألوف

ما يقوله الإنسان من أقاويل السوء يوجب ندامة على ذلك. إما لنقص في دينه؛ فيخشى عقوبة في الآخرة، أو لضرر يعود عليه بسبب ذلك في دنياه، ولا تنفعه الندامة، ولا تقال له عثرة يوم القيامة، والأقوال التي توجب لقائلها الندم والعقوبة: الخطأ، والكذب، والنميمة، والغيبة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس، والفضول، والخوض في الباطل، والتحريف، والزيادة والتقصان فيما يطلب فيه التحري، وإذاية الخلق، وهتك العورة؛ فهذه كلها من أقاويل السوء، واللسان سباق إليها؛ فالنفس تستلذ بها وتميل إليها، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، وما لا ندامة فيه ولا عقاب عليه بل يحصل لقائله الثواب الجزيل؛ وهو ما ذكره الشيخ: أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو عن ما تألفه النفوس، وتميل إليه الطباع؛ وغير ذلك من الأقوال التي توجب القرب إلى الله والمثوبة بما فيه صلاح الدين، أو قوام معيشة يطالب بها.

قال رحمه الله تعالى:

وجامع القول على التحرير في قوله لا خير في كثير

يشير في هذا البيت إلى قوله تعالى:

=

الناس. طلب منه ابن هبيرة والي العراق تولية قضاء الكوفة فرفض فسجنه. كان من أصحاب الثوري. توفي سنة: 132 هجرية.

(1) الربيع بن خيثم من كبار الزهاد. توفي في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة: 67 هجرية.

(2) يقصد الحسن البصري.

(3) يقصد الأحنف بن قيس

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فإن هذه الآية الكريمة جامعة لأنواع الخير، فالتكلم فيها خير وطاعة لا ندامة على المتكلم فيها؛ وذكر في الآية لفظة الصدقة، والمعروف، والإصلاح ليشمل جميع أنواعها.

فالصدقة أي صدقة كانت؛ فأعلاها بذل المال لمستحقيه، وإفادة العلوم لمستحقيه صدقة، وأدناها كلمة طيبة.

والمعروف أعلاه النصيحة في الدين، وأدناه المعروف في المعاملات.

والإصلاح بين الناس يختلف أنواعه بحسب أحوال الناس ووقائعهم ولذلك أعلى وأدنى وبين الطرفين وسائط؛ فألفاظ الآية شاملة لجميعها فهذا سر التنكير في لفظ الآية.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وما أتى في شأن كتب الحفظه لعمل العبد مع المحافظه

إذ كل لفظ فله رقيب يكتبه وهو لنا رقيب

أشار رحمه الله تعالى في هذين البيتين إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾. قال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: "يكتب الملكان جميع الكلام فيثبت الله تعالى الحسنات والسيئات، ويمحو غير ذلك"، وقال أبو الجوزاء ومجاهد: "يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه"، وقال عكرمة: "المعنى: "ما يلفظ من قول خير أو شر، وأما ما خرج عن هذا فإنه لا يكتب". وروى أن رجلا قال لجمله: "حل"؛ فقال ملك اليمين لا أكتبها، وقال ملك الشمال لا أكتبها؛ فأوحى الله تعالى إلى ملك الشمال أن اكتب ما ترك ملك اليمين. " قال ابن عطية رحمه الله تعالى: "وهذه اللفظة إذا أعتبرت فهي بحسب مشيه بعيره؛ فإن كانت في طاعة فحل حسنة، وإن كانت في معصية، فهي سيئة " انتهى.، ويروى: "أن ملك اليمين أمين على ملك الشمال، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر تثبت

لعله يتوب". رواه إبراهيم التيمي، وسفيان الثوري. (1)

وقيل: إذا عمل العبد حسنة كتبها ملك اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر.

والرقيب: المراقب، والعتيد: الحاضر، وكل ما نقلناه من كلام العلماء في الآية الكريمة يتضمن التحذير والترهيب من الكلام الذي يترتب عليه السيئات، والترغيب فيما يترتب عليه الحسنات؛ فليتحفظ العبد من آفة اللسان؛ كما قال رحمه الله تعالى:

فليتحفظ من آفة اللسان فإنه ضر على الإنسان

لا شك أن اللسان مضرة على من لا يتحفظ منه، ويراقب ما يلفظ به. إذ آفاته كثيرة.

وقد روي أن لسان المؤمن وراء قلبه؛ فإذا هم بشيء أمضاه للسانه ولم يتدبره بقلبه.

قال بعض السلف: "تعلمت الصمت بحصيات جمعتها في فمي ثلاثين سنة. كنت إذا هممت بكلمة تلجلج بها لساني فسكت"، وتقدم ما روي مرفوعا: "إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تشكو اللسان. تقول: إتق الله فينا. إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا".

ثم قال رحمه الله تعالى:

واصعب الأعضاء في المراقبه علله على الأنام عاقبه

إنما كان اللسان أصعب الأعضاء في المراقبة؛ لقوة حدته، وشدة انطلاقه مع ميل النفس، وقوة انبعاثها إلى الكلام فيما لا يعني، وما يدخل به عليها الضرر.

ولما كان أصعب للمراقبة، وعلله كثيرة راجعة على من لا يراقبه من الأنام. اهتم الرجال بمراقبته. قال بعضهم: "جعلت على نفسي بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعني صلاة ركعتين، فسهل ذلك علي، ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صدقة درهم؛ فصعب ذلك علي فانتهيت؛ فيجب على العبد مراقبة لسانه وحفظ

---

(1) جميع من ذكر في هذه الفقرة هم من العلماء الفسرين.

جميع أركانه من المخالفات وارتكاب المحظورات من الأقوال والأفعال والآثام.
الأنام: قيل الإنس والجن، وقيل ما على الأرض من الخلق وقيل الخلق مطلقا، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

ثم قال رحمه الله تعال:

مـــن عيـــبها تجـــاوز الحـــدود	**عـــند الرضـــى والغـــضب الموجـــود**
بـــزائد المـــدح لمـــن ترضـــى بـــه	**وعكـــسه يـــزيد فـــي عـــيوبه**
وذاك مـــن جهـــل بحـــق الله	**وطلـــب الرضـــى لغيـــر الله**

تعدي الإنسان الحدود، والتجاوز عليها في مدح من أحبه ورضي عنه، وذم من أبغضه وغضب عليه عيب من عيوب النفس. ذلك الجهل بحق الله تعالى، وطلب رضى غير الله عز وجل. إذ من طلب رضى غير الله جاهل بحقه سبحانه، ولو كان عالما بذلك لطلب رضاه دون غيره، ومن العلم بحق الله إعطاء كل ذي حق حقه، وكل ذي قسط قسطه؛ وليكن في ذلك طلب رضى الله لاغير متوقيا سخطه تعالى لا سخط من عداه.

وقد نهى عن تجاوز الحدود في المدح. قال عليه الصلاة والسلام لما مدح رجل عنده: "قطعت عنق صاحبك". ثم قال: "إن كان لا بد أحدكم مادحا أخاه فليقل: أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحدا". انتهى.

قالوا والمدح تدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنان في الممدوح.

فالتي في المادح:

الأولى: يفرط فينتهي إلى الكذب. قال خالد بن معاذ: "إن من مدح إماما برا أو فاجرا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله تعالى يوم القيامة يعثر بلسانه.

الثاني: الرياء؛ فإنه قد يكون غير معتقد بجميع ما يقوله، فيصير به مرائيا منافقا.

الثالثة: قد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه؛ وتقدم ما قاله صلى الله عليه وسلم لمن مدح رجلا عنده.

قال أبو حامد [1] رضي الله عنه تعالى: "وهذه الأوصاف تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأولى؛ كقوله: إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه. أما إذا قال رأيته يصلي ويتصدق ويحج فهذه أمور متيقنة، ومن ذلك أنه عدل، ورضي؛ فإن ذلك خفي لا يجزم به إلا بعد خبرة باطنة".

وسمع عمر رضي الله تعالى عنه رجلا يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟ قال: لا قال: أخالطته؟ قال: لا. قال: والله الذي لا إله إلا هو لا تعرفه".

الرابعة: قد يمدح الظالم، والفاسق؛ وذلك غير جائز.

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يغضب إذا مدح الفاسق".

والتي في الممدوح:

الأولى: حدوث الكبر، والعجب؛ وهما مهلكان، ومدح الجارود بمحضر عمر رضي الله تعالى عنه فخفقه بالذرة، وقال: خشيت أن يخالط قلبك شيء.

الثانية: خشية الرضى عن النفس، والفرح بالمدح؛ وطرق الفتور إذا نما يشمر للعمل من يرى أنه مقصر؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى ماضيا"، وقال عليه الصلاة والسلام لمن مدح رجلا: "قطعت عنق صاحبك. لو سمعك ما أفلح".

قال زياد بن مسلم: "ليس أحد يسمع ثناء عليه إلا تراءى له الشيطان".

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: "المدح الذبح".

فهذا آفات مطلق المدح؛ فما بالك يتجاوز الحدود فيه فهو أعظم آفة، وأما تجاوز الحدود في الذم وزيادة العيوب فمذموم لمناقضته لمقتضى الأخوة الإيمانية، والروابط الإسلامية، وتقدم الكلام في معنى هذا في قول الشيخ: من عيبها الشغل بعيب الناس... إلخ البيت.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى دواء هذه العيوب؛ فقال:

دواؤه في ذا التزام القصد ... حتى يصير مؤثر للحق

في حالتيه من رضى ومن غضب ... إذ عدله في الحالتين قد وجب

---

(1) يقصد أبا حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين.

وعـده خيـر الـورى فـي المنجـيات وفـي الخـصال الفاضـلات الـزاكيات

التـزام الـصدق مـع الله تعالـى فـي الأقـوال، والأفعـال، والأحـوال ينفـي عـن النفس تجاوز الحدود، ومن ذلك زيادة المدح عند الرضى، وعكسه عند الغضب؛ فإذا التزم العبد سبيل الصدق، وكان مثر الحق في حالتي رضاه وغضبه. أخذ بالعدل الواجب عليه في الحالتين، وقد عد هذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في المنجيات من العقاب، وفي الخصال الفاضلات الزاكيات الموجبة للثواب؛ فليرغب العبد فيما هو فاضل يحصل به الثواب، وليجانب ما فيه العقاب.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقـال مـن يطلـب رضـى المخلـوق بـــــسخط الله يـــــبق بالـــــضيق

إذ يـــــسخط الله علــــيه ربـــــنا ويـسخط علـيه الخلـق فـي الـدنا

فـــــلا يـــــنال مـــــا أراد أبـــــدا مـــع أنـــه مـــن ربـــه قـــد بعـــدا

من عمـل بمـا يرضـي الخلـق، ويـسخط الله عـز وجـل بـاء بالـضيق؛ وهـو العذاب، ويسخط الله تعالى عليه في الدنيا، وفي الآخرة.

فأما سخطه في الدنيا فيعرضه للفتن، ويبتليه بالمحن، ويكله إلى نفسه، وإلى من طلب رضاهم من الخلق؛ فلا ينال ما أراد أبدا.

وأما سخطه في الآخرة، فإعراضه وإبعاده منه؛ ومن كان الله معرضا عنه، ولم ينزله منزلة القرب منه؛ فقد وجب عليه العقاب، وحل به العذاب الأليم، ولا يسلم من سخط الخلق عليه في الدنيا، فيكون بينهم مبغوضا مهانا ذليلا؛ فلا يواجهونه بقبول، ولا يحصل منهم على مولى، وهذه سنة الله تعالى في خلقه؛ وجاء: "من أرضى الله، وأسخط الناس رضي الله عنه ورضي عنه الناس، ومن أغضب الله، وأرضى الناس سخط الله عليه، وسخط عليه الناس".

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقـــد نهـــى الله عـــن اقـــتفاء مـــا لـــم يكـــن المـــرء لـــه قـــد علمـــا

أشار في هذا البيت إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ...﴾ الآية؛ ومن ذلك تجاوز الحدود في المدح والذم. إذ قد يذكر الإنسان من ذلك ما لا يتحققه، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه؛ فيقع في الكذب وقول الزور.

هذه الآفة الثالثة من الآفات الأربع الكائنة في المدائح فيدخل هذا فيما وقع عليه النهي في الآية الكريمة.

ثم قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

وقال خير من أتى للمفلحين [1] احثوا التراب في وجوه المادحين

المفلحون هم المؤمنون؛ وخير من أتى للمفلحين هو نبينا صلى الله عليه وسلم، وقوله عليه الصلاة والسلام: "احثوا التراب... الحديث"؛ فحمل بعضهم الحديث على ظاهره وحثي التراب حقيقة، وذلك تنكيل للمادح؛ لما ينشأ عن مدحه من الآفات للممدوح؛ فكان فعله به ذلك يوذن بعدم رضاه بما صدر من المادح، وحمل بعضهم الحديث على غير ظاهره وأن قوله عليه الصلاة والسلام احثوا التراب على المجاز والمراد ملاقاة المادح بما يكرهه؛ كما يكره حثي التراب في وجهه، والوجهان محتملان، وهذا كله يقتضي ذم المدح والإنكار على المادح؛ والذي يحسن في حق الممدوح أن لا يركن إلى ما قيل فيه؛ فإن ركن إلى ذلك هلك، والعاقل لا يترك ما يتحققه من نفسه إلى ظن غيره.

ثم قال:

من عيبها أن يستخير أولا وبعدها يسخط ما قد حصلا

وذاك من تهمته لربه وبعده عن موجبات قربه

الاستخارة في الأمور المغيبة عواقبها عن العبد مأمور بها ومندوب إليها؛ وهي بمنزلة الاستشارة مع من هو أعلم منه بعواقب الأمور، وفائدتها استجلاب لما فيه خير وحسن عاقبة، وإذا وقعت من العبد فسبيله الرضى بالواقع، وسواء كان ذلك الواقع ملائم في الظاهر والباطن، أو ملائما في الباطن مؤلما في الظاهر؛ فإذا كان العبد هكذا فقد حصلت له ثمرة الاستخارة والرضى بحكم من استخاره، وإن سخط بالواقع بعد استخارته ولم يرض بالحكم فدليل على عدم صدقه في استخارته، ويعد ذلك عيب من عيوب النفس؛ وهذا حال من اتهم ربه عز وجل في حسن تدبيره له، وكل متهم لربه فهو بعيد من موجبات قربه ومتعرض لغضبه وسخطه.

(1) في الأصل للعالمين عوض المفلحين.

وبعد أن ذكر الشيخ رحمه الله تعالى هذا العيب وسببه، وما ينشأ عنه من المحظور. أخذ يذكر دواءه الذي ينفي علته فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه بعلمه بجهله ... في حاله وأصله وفصله

إذ قد يحب ما يكون شرا ... ويكره الأمر يكون خيرا

علم العبد بأنه جاهل بحاله الذي يقتضيه وصفه البشري، وأصله الذي هومن نطفة مذرة، وفصله الذي هو جيفة قذرة. ينفي عنه التسخط لما حكم؛ فمولاه الذي هو أعلم منه بعواقب الأمور، وتنتفي عنه تهمته لمن هو أحب إليه منه، وأرحم به منه، وأعلم بمصالحه الظاهرة والباطنة، والعبد الذي يجهل أصله وفصله قد يحب ما هو شر له، ويكره ما هو خير له. إذ نظره قاصر على ظواهر الأمور دون بواطنها؛ فرب أمر يكون ظاهره خيرا وباطنه شرا، ورب أمر عكس ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

كما أشار الشيخ إلى ذلك؛ فقال:

فالعبد لا يعلم ما يختار ... ووصفه العجز والافتقار

لما كان العبد جاهلا بعواقب الأمور، ولا يعلم من الأمور ما هو خير له، ولا ما هو شر له. مفتقر إلى من يدير أموره ويختار له ما فيه خير له وصلاح في الدنيا والآخرة؛ فليكن هكذا حال العبيد مع مولاه عز وجل، ولا ينسب لنفسه ما هو عنه بمعزل من أوصاف الربوبية من العلم وغيره؛ فإنه وإن اكتسب شيئا من علم فإنما ذلك بما ظهر، وربما يعلم أمرا ويخفى عليه باطنه؛ كما نبه على ذلك؛ فقال رحمه الله تعالى:

وربنا يعلم ما يخفى عليه ... وقادر عليه في عجز لديه

هذا الحكم هو الذي يحكم به على العبيد لأن أصلهم الحهل ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾. ثم إن العبد علمه قاصر على ما ظهر من الأمور. لا بما خفي من بواطنها، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾؛ وكذلك العبد عاجز في حال قدرته لأن العجز وصفه الذاتي، وما بالذاتي لا يتخلف، وما كان على يديه

من انفعال المقدورات؛ فذلك بقدرة القادر على كل شيء سبحانه وتعالى، وقدرة العبد تابعة؛ وإنما تعتبر من حيث الوسائط والأسباب. لا من حيث الإيجاد والاختراع، وإذا كان كذلك؛ فسبيل العبد التسليم فيما يجري عليه من المقادير والاستراحة من طلب التدبير كما نبه الشيخ على ذلك؛ فقال:

فليستزح من تعب التدبير والهم والنكد والتدبير

التدبير من شأن الربوبية؛ فهو تعالى المنفرد به. إذ من أسمائه تعالى المدبر؛ وإذا كان الأمر هكذا فسبيل المعزول عن رتبة التدبير تركه والاستراحة من تعبه وهمه ونكده وما ينشأ عنه من النكير عند صدور ما يخالف تدبيره؛ ففي تركه التدبير الاستراحة من آفاته، وفي تكلفه التدبير التعرض لما يخشى من محظوراته.

قال ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه: "أرح نفسك من التدبير؛ فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك".

ففي تدبير العبد لنفسه مناقضة العبودية، ومضادة أحكام الربوبية، ومنازعة القدر، وإضاعة العمر؛ فعلى العاقل اجتنابه، وقطع مواده وأسبابه.

قال سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: "إن كان ولا بد من التدبير فدبروا أن لا تدبروا".

وترك التدبير أصل من أصول الطريق، ومسلك أهل التحقيق، والكلام فيه طويل عريض؛ فمن أراد الاطلاع على ذلك؛ فلينظر كتاب: "التنوير في اسقاط التدبير"، فيطلع على على ما في التدبير من الآفات، وما في تركه من السلامة والنجاة؛ وليكن العبد مفوضا إلى ربه في تدبيره راضيا بحكمه وتقديره كما نبه الشيخ على ذلك بأن قال:

مفوضا لربه وراضيا بما قضاه عاليا ودانيا

تفويض العبد لمولاه، ورضاه وقضاؤه بما قدره يثبت له مقام العبودية، والمعرفة بحقوق البوبية؛ وسواء كان ذلك المقدر والمقضى به عاليا: أي مما يترتب عليه الثواب، أو دانيا: أي مما يترتب عليه العقاب. إلا أن في الأول يكون راضيا بالقضاء والمقضي، وفي الثاني بالقضاء لا بالمقضي؛ فهذا مراده بقوله عاليا أو دانيا، والله سبحانه أعلم، ويحتمل أن يريد بقوله عاليا: أي في قدره، وهو الذي يعظم في

النفوس العطايا والمنح، ودانيا: أي وضيعا لحقارته وقلته؛ فهنا يكون الرضى بالقضاء والمقضي في الأمرين.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إكثاره التمني دون توقف ولا تأني
إما لخير يرتجي وصوله أو دفع شر يختشى حصوله

كثرة تمني المرء لخير يرتجي وصوله إليه، أو دفع شر يخشى حصوله. عده أهل الطريق عيبا من عيوب النفس سيما إذا كان وقوع التمني دون توقف، ولا تأن؛ فإن ذلك دليل على الطيش وعدم التدبر في الأمور، وليس هذا من شأن العقلاء، ولهذا العيب الذي هو التمني أسباب ذكرها الشيخ بأن قال:

وذاك من خوض ومن تدبير ورفضه النظر للتقدير

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت ثلاثة أسباب ينشأ عنها التمني:

الأول: الخوض في الأمور التي لا ينبغي للإنسان الخوض فيها. من جلب ملائم أو دفع مؤلم؛ ومن حقه ألا يخوض في شيء من ذلك. إذ هو عبد تجري عليه أحكام مولاه عز وجل؛ فالخير من فضله، والشر من عدله. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ فالخوض فيما جرت به الأقدار، وحكم به الحاكم المختار لا يفيد.

الثاني: التدبير؛ ومنه جلاء الخوض؛ وحق العبودية أن لا يدبر في شيء من أموره. إذ ليس ذلك من شأن العبودية؛ وإنما هو من شأن الربوبية، وتقدم الكلام في الندبير.

الثالث: رفض النظر لتقدير الحق جل جلاله؛ فلما لم ينظر العبد إلى سابق التقدير، وما جرت به المقادير خاض في الأمور، ودبر فيما سبق به القضاء والقدر، وتعلقت نفسه بتمني جلب ما سبق به القضاء ودفعه؛ وهذا قادح في الدين، ومن ضعف اليقين، وعيب من عيوب نفوس المؤمنين، وقد بوب البخاري فقال: "باب ما يكره من التمني".

ولهذا العيب دواء ذكره الشيخ رحمه الله تعالى:

دواؤه تسليمه لربه وعلمه في حاله بقربه

تسليم العبد لمولاه عز وجل في أحكامه، ورضاه بمنعه وعطائه. ينفي عنه

علة التمني لجلب، أو دفع. إذ التسليم يقتضي عدم التدبير في الأمور، والخوض فيها. إذ هما من الأسباب التي ينشأ عنها التمني المحظور كما تقدم؛ وانتفاء السبب يقضي بانتفاء المسبب.

ولما كان العبد ظرفا لوقوع الأحكام، وغرضا ترميه المقادير في كل نفس كالسهام. طلب منه التسليم للقضاء، وقبول الأحكام الجارية عليه وتلقيها بالرضى، ولا يتمنى دفع مؤلم، ولا جلب ملائم؛ لعلمه أن الحكيم بصير بحاله عالم به قريب منه.

وقد نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ما قدمنا من أن العبد ظرف لوقوع الأحكام؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

إذ ما يكن من نفس تبديه إلا وفيه قدر يمضيه

وفي حكم ابن عطاء الله: "ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه"؛ فأنفاس العبد ظروف لوقع أحكام المولى عز وجل عليه فيه. إذ العبد مظهر لمعاني الأسماء؛ فأسماء الأفعال تظهر فيه آثارها، وأسماء الصفات تظهر فيه معانيها وأسرارها، والناس فيما يجري عليهم من الأحكام، وما يظهر فيهم من آثار معاني الأسماء في الليالي والأيام على قسمين: راض وساخط.

فنبه على الأول بأن قال:

فإن رضي بحكمه وقسمته نال الذي يقضي مع استراحته

الراضي بحكم المولى وما قسم له من أدنى، أو أعلا. ينال ذلك مع وجود الراحة في ظاهره من تعب الكد والتشمير، وفي باطنه من ثقل التدبير؛ فعيشه بذلك هني، وحاله عند الله رضي.

ونبه رحمه الله تعالى عن القسم الثاني؛ فقال:

ونفسه يتعبها مهما سخط إذ ينفذ القضاء وهو يختبط

فتسخط العبد لما جرى به الحكم ونفذ به القضاء وملاقاة ذلك بعدم التسليم وعدم الرضى لا يحصل له من ذلك إلا التعب والتعرض لسخط الرب، ولا بد من نفوذ ما سبق به القضا. كان عن سخط العبد، أو عن رضى، ولا ينفعه التخبط والاضطراب. إذ لا مانع ولا دافع لما سبق في أم الكتاب. وإذا كان الأمر هكذا، فلا

يتمنى العبد دفع ما جرى به القلم، ولا جلب ما به الحاكم حكم؛ ويلزم العبد إذا تمنى أن ينظر فيما يتمنى؛ كما جاء في الخبر عن خير البشر. إذ أمر المتمني بالنظر؛ كما قال رحمه الله تعال:

قال الرسول وهو خير مخبر إذا تمنى أحد فلينظر

فيما تمنى والذي قصد له إذ أنه لا يدري ما كتب له

مفهوم هذا الحديث الكريم: أن العبد إذا كان ولا بد أن يتمنى؛ فلينظر أولا ما قصد بتمنيه، وهذا النظر إنما ينشأ عن توقف وتأن وهو المطلوب. أما دون توقف أو إناه فهو عيب من عيوب النفس كما تقدم؛ فإذا قدم قبل تمنيه نظرا فيما قصد حصل له العلم بما قصد، فإن كان مقصدا حسنا كان من باب تمني الخير.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لو كان لأحدكم واد من ذهب... الحديث"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسد إلا في اثنين: رجل أتاه الله القرآن فهو يتلوه من آناء الليل والنهار. يقول لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل آتاه الله مالا ينفقه في حقه. يقول لو أوتيت مثل ما أوتي لفعلت كما يفعل"، وقال بلال: "يا ليت شعري... البيت".

فهذا الحديث يدل على جواز تمني الخير، وإن كان مقصدا غير حسن فيكره، وفي البخاري من "باب ما يكره من التمني"، وقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

وإذا كان التمني على الوجه المذكور ربما يكون فيما تمناه شرا له وهو يظن أنه خير إذ لا يدري العبد ما كتب له فيما تمناه، وهذا التمني في غير الموت. أما تمني الموت؛ فجاء النهي عنه من الشارع صلى الله عليه وسلم.

وقد نبه الشيخ رحمه الله على ذلك؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

وجاء نهي عن تمني الموت عند نزول الضر خوف الفوت

ما ذكره الشيخ في هذا البيت: "نهي النبي عن تمني الموت عند نزول ضر بالعبد". صحيح رواه الثقاة، وفي البخاري عن النضر بن أنس: "لولا أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تتمنوا الموت. لتمنيت"، وعن ابن أبي خالد عن

قيس قال: "أتينا خباب بن الأرت نعوده وقد اكتوى سبعا فقال: لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعوا بالموت لدعوت به". وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يتمنى أحدكم الموت. إما محسنا فلعله يزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب".

ومن هذا المعنى تمني تلقاء العدو؛ فإنه مكروه، وفي البخاري: "باب كراهة تمني لقاء العدو". رواه الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبد الله، وكان كاتبا له. قال: "كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى؛ فقرأته؛ فإذا فيه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية".

ثم إن العبد إذا كان ولا بد أن يدعوا بالموت فليقل ما أمر به الشيخ في هذا البيت. حيث قال:

وليقل العبد أحيني ما كانت　　　حياتي خيرا وأمت إن كانت

وفاتي خيرا لي وذا تفويض　　　فيه الدعاء والصمت والتعريض

لما كان العبد مغيبا عليه ما فيه صلاحه أو فساده؛ فلا يعلم الحياة خيرا له أو الموت. أمر بأن يدعو بهذا الدعاء الذي ذكره الشيخ، وأظن أنه من دعائه صلى الله عليه وسلم، أو أمر به؛ ليخرج العبد من كراهة تمني الموت، وهذا الدعاء فيه تفويض للمولى جل جلاله العالم بما فيه صلاح عبده، وما فيه خير له، ومقام التفويض مقام كريم؛ لما فيه من سقوط اختيار العبد لنفسه، ومن تدبيره لها؛ ففوض أمره إلى ربه، وخرج من اختيار نفسه إلى اختيار مولاه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾، وفي التفويض وإسقاط العبد التدبير براءة العبد من علة التمني؛ لما فيه من حظ نفسه الداعي له إلى الميل إلى ما يتمناه؛ وفي الدعاء المذكور تعريض بتساوي الأمرين عنده، ولم يمل إلى واحد منهما. إذ لا يعلم الخير لإي منهما، وهذا في حد الصمت. إذ أنه لم يدع بنيل أمر معلوم.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الخوض بكل واد　　　والأخذ في الأسباب بالمعتاد

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس:

الأول: الخوض بكل واد؛ ومراده - والله سبحانه أعلم - توجه العبد بقلبه وقالبه إلى جهات كثيرة من محاولة أمر الدنيا، فلا يترك أمرا إلا خاض فيه، وفي ذلك له شغل شغيل عما أريد منه. إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة؛ فإذا توجه إلى أمر أعرض عن آخر؛ فكيف إذا كثرت التفاتاته، وتعددت أشغاله الدنيوية لم تترك للآخرة فيه نصيب وكفى بهذا عيب قادح في حاله، ومحط له عن درجات كماله، وتعييره بالخوض تقبيح للفعل؛ كما عبر الكفار عن قبيح أفعاله التي كانوا يتعاطونها في دار الدنيا بقولهم: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

الثاني: الأخذ في الأسباب بالمعتاد. يريد ان جريان العبد في أسبابه الدنيوية على معتاده في عادته غير محمودة عند أهل هذا الطريق، ويعدونه عيبا من عيوب النفس، وإنما جريانهم في أسبابهم على غير العادة التي يعتادونها العامة؛ فهم - بارك الله فيهم - ردوا العادات إلى سبيل العبادات.

ولهذا المعنيين أسباب ذكر الشيخ منها سببين فقال:

وذاك ميراث فراغ لبه وفرع دنياه التي في قلبه

الإشارة بذاك إلى ما ذكره في البيت السابق من عيوب النفس؛ فذكر رحمه الله تعالى سببين:

الأول: فراغ لبه. أي لا عقل له كاملا يدرك به الفاضل من المفضول، ويحتمل أن يريد فراغ لبه خلو قلبه من الأعمال الأخروية حتى غلب عليه الخوض بكل واد، والأخذ في الأسباب بالمعتاد.

الثاني: سكون الدنيا بقلبه، وجعلها أصلا نشأ عنه العيب المذكور؛ وسكون الدنيا بالقلب تنشا عنه عيوب كثيرة، وعلل عديدة. خص منها هذا العيب في هذا المجال لمناسبة المعنى الذي اقتضاه المحل.

ولما ذكر رحمه الله تعالى عيب النفس المذكور آنفا، وذكر أسبابه. أخذ يذكر الدواء الذي ينفي العيب فقال رضي الله تعالى عنه

دواؤه اشتغاله بالذكر وترك ما لم يعنه من أمر

اشتغال العبد بالذكر يمنعه من الخوض في أدوية الدنيا؛ لأن القلب إذا استولى عليه سلطان الذكر لم يبقِ لغير فيه بغية، ورفع منه كل شاغل من الشواغل

الدنيوية، وانفرد من كل شيء سوى مذكوره؛ والمراد بالذكر. أي نوع كان من أنواعه لا ذكر مخصوص، وكذلك من اشتغل بالذكر. ترك ما لم يعنه من كل أمر؛ فبان بهذا مضادة الذكر لما سواه كمضادة الدواء للعلة؛ فلذلك نزل الذكر منزلة الدواء.

ثم أتى الشيخ رحمه الله تعالى بما يرغب الذاكر في الذكر؛ لما فيه من الشغل به عما لا يعني؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

فحسن اسلام الفتى منه ورد ترك الذي لا يعنيه فيما قصد

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"؛ وهو ما لا فائدة فيه للعبد دنيا وأخرى؛ فاشتغاله به دليل على عدم حسن إسلامه، كما أن تركه دليل على حسن إسلامه، وكذلك اشتغاله بما يعنيه دليل أيضا على حسن إسلامه؛ كما أن اشتغاله بما لا يعنيه دليل على عدم حسن إسلامه.

وحسن الإسلام عبارة عن قيام العبد بوظائف مقام الإسلام، واتصافه بأوصاف مقام أهل الإسلام وعدم حسن الإسلام عدم القيام بذلك، وعدم اتصافه بأوصاف مقام أهل الإسلام، وفي الحديث ترغيب في الاشتغال بما يعني عما لا يعني، وأنواع كل منهما كثيرة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إظهاره للطاعه وحبه لرؤية الجماعه

لفعله مزينا إياه لأجل تعظيم الذي يراه

حب الطاعة لعلة، وإظهارها ليراه الناس عيب من عيوب النفس القادحة في الإيمان، وكذلك تزيين العمل وتحسينه ليراه الناس؛ فيعظمونه لأجل ذلك. عيب أيضا موهن للعمل، وقادح في العمل؛ وهذا هو الرياء بعينه، وهو نوع من أنواع الشرك الذي يجب على العبد اجتنابه. فيه من الخروج عن وصف العبودية، وعدم القيام بحقوق الربوبية، وحب الطاعة وإظهارها وتزيين العمل لعلة ليس من شأن أهل الإخلاص، ولا من أحوال أهل الإختصاص؛ وإنما شأنهم إخفاء الطاعة، ونشر المعاملات قصدا بها التقرب إلى الله تعالى، ومن قصد بعمله محمدة الناس، والتصنع للمخلوق فما أخلص لله في أعماله، ولا صدق الله في أحواله.

قال ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه في حكمه: "استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك".

فأهل الصدق في معاملة الحق جل جلاله أخفوا أعمالهم، وستروا أحوالهم ليلا يعلم الخلق بخصوصيتهم، ولا يطلعوا على ما عملوا به الحق من خالص عبوديتهم؛ فعلى العبد أن يقنع بعلم الله تعالى بحاله، ولا يتطلع إلى أن يعرف بذلك أحد من الخلق؛ فيشغله حينئذ الحياء من ربه، والشكر له عن الاستشراف للخلق بذلك، ويغارعلى حاله من رؤية الأغيار؛ ولهذا فضل عمل ليس على عمل العلانية بسبعين ضعفا؛ فقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يوصي أصحابه ويقول لهم: "إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه وليمسح شفتيه؛ فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم، وإذا أعطى أحدكم فليعط بيمينه وليخفها عن شماله، وإذا صلى أحدكم فليدل عليه ستربابه؛ فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق".

وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق فقال: "كتمان الطاعة"، وقال أحمد بن أبي الحواري[1] رضي الله تعالى عنه: "من أحب أن يعرف شيء من الخير، ويذكر به؛ فقد أشرك في عبادته؛ لأن من عبد على المحبة لا يجب أن يرى خدمته سوى مخدومه".

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: "كل من لا يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة".

وقال بعضهم: "ما أخلص أحد قط إلا أحب أن يكون في جوف لا يعرف".

وقال سهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنه: "من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مرائي، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب".

وقال بعضهم لمن استوصاه: "لا تحب أن تعرف ولا تحب أنك ممن لا يحب أن يعرف".

فعلى العبد إخفاء حاله جهده، وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده. قال

(1) هو أبو الحسن احمد بن أبي الحواري. من أهل دمشق. صحب أبا سليمان الداراني، وسفيان بن عيينة، وغيرهما كثير. كان الجنيد يقول: "أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام. توفي سنة 230 هجرية.

الحسن رضي الله تعالى عنه: "أدركت أقواما ما من أحد منهم يستطيع أن يستر شيئا من عمله إلا أسره وإن الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه، وما يعلم به حتى يقوم، ولقد أدركت أقواما ما يأتي أحدهم الزوار؛ فيقوم فيصلي وما يشعر به الزوار، ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدمونه عليه أن يعملوه لله تعالى سرا فيكون علانية أبدا، ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره، وقد أدركت أقواما يجتهدون في الدعاء، وما يسمعهم أحد".

وقال محمد بن واسع[1] رضي الله تعالى عنه: "أدركت رجلا كان الرجل يكون رأسه مع رأس أسرته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به إمرأته، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف؛ فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جنبه "

وفي رواية عنه: "إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة؛ وامرأته معه لا تعلم"؛ فإن وقع منه إعلان في وقت؛ فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه على أن يعمل فيه الفرح باطلاع الناس على حاله، ولينكر ذلك على نفسه، ولا يرضى منه ويجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدة؛ فإن خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه في حال ظهور ذلك منه ولو في لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح في قلبه فيقع عند ذلك في الفتنة، فإن كان ضعيف الإرادة لم يسلم من الوقوع في الرياء الجلي، والخفي لأن سببه قد استتب، وإن كان قوي الإرادة، وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون؛ فيفقد حينئذ الغيرة على الحال، وينحط بذلك عن ذروة الكمال ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضرورات سالكي هذه الطريق.

---

(1) هو سيد القراء، وعالم البصرة، وعابدها. محمد بن واسع. من رواة الحديث. عرض عليه قضاء البصرة، فرفض. دخل يوما على قتيبة بن مسلم؛ فقال له قتيبة: "ما دعاك إلى لبس الصوف؟؛ فسكت؛ فقال له: أكلمك فلا تجيبني؟؛ فقال: أكره أن أقول زاهدا فأزكي نفسي، أو فقيرا فأشكو ربي عز وجل"، وكان مع قتيبة بن مسلم في قتال الترك؛ فلما تصاف الفريقان هال قتيبة أمرهم؛ لما رأى من كثرتهم، وعدتهم، فسأل قتيبة عن محمد بن واسع؛ فقيل له: هو ذاك يحرك سبابته ويشير بها نحو السماء؛ فقال قتيبة: لتلك الأصبع أحب إلي من مائة سيف.

قال في لطائف المنن: "اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده".

قال الله سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، وقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

فمبنى أمرهم من الخلق في بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال تحقيقا بفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم. حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء؛ فهناك - إن شاء الله - الحق أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم؛ فاقتطعهم عن كل شيء إليه.

وقد كان بعض الأقوياء من الرجال ومن أهلوا لهداية الخلق من أهل الكمال يظهرون أعمالهم، ويشهرون أحوالهم. رجاء هداية الخلق بهم، وردهم إلى باب الملك الحق. حتى كان بعضهم يقول: "صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة؛ فيقال له أما تخشى من الرياء، فيقول ألم يقل الله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، وأنتم تقولون: لا تحدث؛ فإن قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعا بهم إلى الله فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه؛ فهو خارج من النمط الأول كله، ودخل في حكم هذا المنزع.

وقال له مالك بن دينار - وقد نبهه على بعض دقائق الورع - : "ما أحوجني إلى معلم مثلك".

الثاني: وعلانية هذا أفضل من سره؛ لأنه سلم من الآفات التي تعرض لها غيره، وحصلت منه الفوائد التي تضمنها إظهاره وجهره؛ وقد جاء في الخبر: "السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء"؛ وبالله سبحانه التوفيق.

وللعيب السابق دواء ذكره الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

دواؤه تعظيمه لربه ... إذ فقد ذاك هو أصل عيبه

تعظيم العبد لربه جل وعلا بما شاهد من عظيم صفاته وأفعاله وتحقق من عظمة كبريائه وجلاله لا يترك في قلبه عظمة لغيره؛ فيعتبر ذلك الغير، ويحتاج إلى أن يطلعه على طاعته، ويرائي بما يصدر منه من معاملاته؛ فوجود تعظيم الرب ينفي عن العبد ذلك العيب الذي هو حب الطاعة وإظهارها. للعلل المذكورة. كما أن عدم تعظيم المولى سبحانه أصل العيب والباسه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عرف الحق رآه وحده — وناظر الغير استحق بعده

واطلب الخلاص بالإخلاص — إذ ما له عن ذاك من مناص

من عرف جل جلاله رآه وحده، ولم يشهد معه غيره؛ لتحقق أحديته، وشهود فردانيته؛ وهذا حال أهل القرب من الله تعالى، ومن كان ناظرا إلى الأغيار؛ فمقامه البعد من الله تعالى. إذ لو كان قريبا من الحق لما رأى غيره.

قال ابن عطاء الله في حكمه: "من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فني به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا".

ومما قيل في هذا المعنى:

الله قل وذر الوجود وما حوى — إن كنت مرتادا بلوغ الكمال

الكل دون الله إن خفته عدم — على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها — لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته — فوجوده لولاه عين محال

فالعارفون فنوا به لم يشهدوا — شيئا سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواه على الحقيقة هالكا — في الحال والماضي والاستقبال

وقيل أيضا في المعنى: "مذ عرفت الله لم أر غيره، وكذلك الغير عندنا ممنوع "

وقال غيره: "مذ تجمعت ما خشيت افتراقا، وأنا اليوم واصل مجموع".

قال بعض العارفين: "لو كلفت أن أرى غيره ما استطعت؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده".

فهذا حال العارفين ووصف المقربين ومن رأى الأغيار؛ فعليه أن يطلب

الخلاص بالإخلاص في أعماله، والصدق في أحواله. إذ ما له عن ذاك من مناص أي من مهرب.

ثم قال رحمه الله تعالى:

فلا يحب الله قلبا مشترك كذاك لا يحب فعلا مشترك

هو غني ما له شريك فلم يجز في قصده التشريك

القلب المشترك هو الذي للغير فيه نصيب كائنا ذلك الغير ما كان، والعمل المشترك هو أن يريد به غير الله تعالى؛ فالله عز وجل لا يحب القلب، ولا العمل الذي لغيره فيه شرك ونصيب. إذ هو أغنى الشركاء، ولا شريك له تعالى في ملكه.

ومن حكم ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه: "كما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه".

قال ابن عباد رحمه الله تعالى ورضي عنه: "العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع، والقلب المشترك الذي فيه محبة غير الله تعالى والسكون إليه والاعتماد عليه بالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك كمعتل ينظر صاحبه إلى نفسه، فالعمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ولا يثيب عليه؛ لفقدان الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يحبه ولا يقبل عليه ولا يرضى عنه؛ لعدم وجود الصدق فيه؛ فمن صحح أعماله بالإخلاص، وأحواله بالصدق كان محبوبا لله تعالى مثابا مرضيا عنه وإلا فلا".

واعلم أن العمل المشترك لا يصدر إلا من قلب مشترك، ولما كان سبحانه لا يحب الشريك. لزم أن لا يقصد العامل في عمله التشريك؛ وإذا كان ذووا الهمم من المخلوقين يأنفون من الشرك،

والتشريك فكيف برب العالمين.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ومن يكن في قصده يشارك تركه وذلك المشارك

كذا أتى معناه في الحديث وصح نقلا لذوي التثبيت

إذا كان العبد يعمل لعلة؛ فهو مشرك في عمله قاصدا به غير الله تعالى؛ ومن كان قصده بعمله غير الله تعالى؛ فإن الله تعالى يعرض عنه، ويرد عمله. إذ هو

سبحانه لا يحب العمل المشترك كما تقدم.

وجاءت أحاديث نقلها أهل التثبيت في هذا المعنى منها ما جاء في حديث معاذ بن جبل الطويل المعروف قال فيه: "وتصعد الملائكة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة واجتهاد وورع له صوت كصوت الرعد، وضوء كضوء البرق؛ فإذا انتهى إلى السماء السابعة يقول الملك الموكل بالسماء أنا صاحب الذكر إن كان صاحب هذا العمل أراد به الذكر في المجالس والرفعة عند الناس والجاه عند الكبراء وأمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري؛ فكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائي".

قال رحمه الله تعالى:

من عيبها طمعه في الخلق وذاك ضد ورع وصدق

طمع العبد في الخلق عيب من عيوب النفس، وهو قادح في ورع العبد وصدقه، ومضر بصاحب هذين الحالين، والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة في عبوديتها، وهو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالخلق بالالتجاء إليهم والاعتماد عليهم والعبودية لهم، وفي ذلك من الذلة والمهانة ما لا يزيد عليه، وقد يأتي بعد هذا إن شاء الله تعالى.

وفي كلام الشيخ التنبيه على ما ينشأ عنه من الآفات والعلل. قال في التنوير: "وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تفقد من سواه، وتطهر من الطمع في الخلق؛ فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم".

وقيل: "ملاك الدين الورع، وفساده الطمع".

وقال في التنوير: "سمعت شيخنا رضي الله تعالى عنه يقول: "كنت في ابتداء أمري بثغرالإسكندرية. جئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ثم قلت في نفسي فلعله لا يأخذه مني فهتف في هاتف: السلامة في الدين ترك الطمع في المخلوقين".

ثم قال رحمه الله تعالى:

وفيه أصل الذل والصغار وخدمة العبيد والأحرار

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت ثلاث آفات تنشأ عن الطمع.

الأولى: الذل؛ فالطمع أصله الذل. قال ابن عطاءالله: "ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع". قال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري[1] رحمه الله تعالى:

دع المطامع واعلم أن صاحبها في ذل وفي خجل
قد قيل أحرفه تبدو مجوفة كجوف ذي طمع في الشكل والمثل

فالطامع ذليل، والذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين.

قال الله عز وجل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ...﴾ الآية.

وقال بعض المشايخ لرجل يوصيه: "أيها الرجل ما قدر لماضغيك أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه؛ فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل". بين رحمه الله تعالى أن العز لمن طلب رزقه من الله تعالى، والذل لمن طلبه من المخلوقين؛ فكأنه دله على الله دون غيره.

الثانية: الصغار؛ فأصله أيضا طمعه فيهم، واعتماده عليهم، واستناده عليهم.

الثالثة: خدمة العبيد والأحرار؛ لأن من طمع في أحد استخدم.

قال ابن عطاء الله في حكمه: "أنت حر ممن أنت عنه آيس، وعبد لمن أنت له طامع".

وقيل: "العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع".

وقيل: "لولا الأطماع الكاذبة لما استبعد الأحرار بكل شيء لا خطر له".

وقيل: "العقاب يطير في فضاء غيره بحيث لا يرتقي إلى مطاره، ولا تسمو همته إلى الوصول إليه؛ فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة، فينزله الطمع من مطاره، فيعلق بالشبكة جناحه؛ فيصيده صبي يلعب به".

---

(1) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري. صاحب المنظومة اللامية الشهيرة في العقيدة. أثنى عليه السنوسي في شرحه لمنظومة المشار إليها. قال عنه الشيخ أحمد زروق: "كان شيخنا هذا من أعظم الناس اتباعا للسنة، وأكبرهم حالا في الورع. توفي سنة 884 هجرية.

وقيل: إن فتح الموصلي [1] رضي الله تعالى عنه كان قاعدا؛ فسئل عن اتباع الشهوات كيف صفته، وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز مع كامخ؛ فقال: الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه أطعمني من الكامخ. قال بشرط أن تكون كلبي؛ فقال صاحبه نعم؛ فجعل خيطا في فيه، وجعل يجره كما يقاد الكلب؛ فقال فتح للسائل: "أما إنه لو رضي بخبزه ولم يطعمه في كامخه لم يصر كلبا لصاحبه".

وقيل: إن رجلا أخرج من السجن - وفي رجله قيد يسأل الناس - فقال لإنسان أعطني كسرة؛ فقال: لو قنعت بالكسرة ما وضع القيد في رجلك".

ورأى رجل رجلا من الحكماء يأكل ما تساقط من البقل على رأس ماء؛ فقال: "لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا"؛ فقال الحكيم: "وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان".

ثم قال رحمه الله تعالى:

والجلب للرياء والتصنع وخيبة تلحقه بالطمع
وفقده حلاوة الأعمال ورفضه الهمم العوال

ألحق رحمه الله تعالى بهذين البيتين من الآفات التي تنشأ عن الطمع أربع آفات:

الأولى: جلب الرياء، والتصنع؛ لأن من طمع في أحد يحتاج إلى أن يرائيه في أعماله، ويتصنع له في أحواله. استجلابا لمودته، وسعيا لحصول محبته. لكن الخيبة إلى هذا أقرب من حصول مطلوبه، والحرمان أولى له من نيل مرغوبه.

قال أبو بكر الوراق الحكيم [2] رضي الله تعالى عنه: "لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال الشك في المقدور، ولو قيل ما حرفتك؟ لقال اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك؟لقال الحرمان".

---

(1) هو أبو نصر فتح بن سعيد الموصلي. من أقران بشر الحافي، وسري السقطي. كان كبير الشأن في الورع، والمعاملات. توفي سنة 220 هجرية

(2) هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق. غلب عليه التصوف والزهد. له تآليف كثيرة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات.

وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري[1] رضي الله تعالى عنه: "من أشعر نفسه محبة شيء من الدنيا؛ فقد قتلها بسيف الطمع، ومن طمع في شيء ذل وبذله هلك؛ فالطامع لا محالة فاسد الدين مفلس من أنوار اليقين".

الثانية: الخيبة؛ وهي غاية الطمع، كما تقدم؛ فالطامع محروم، وذله محتوم، وعيشه في هم دائم، وغم لازم.

الثالثة: فقد حلاوة الأعمال؛ لفساد دينه، وضعف يقينه، وتعلقه بمن ضره أقرب إليه من نفعه، وكيف يجد حلاوة الأعمال قلب مال إلى غير مولاه عز وجل، واعتمد على سواه، وطلب الرزق من غير محله، وطمع في العطاء من غير أهله. هيهات. هيهات. هذا لا يخطر ببال أن يجد حلاوة الأعمال لفقد أسباب وجود حلاوة الأعمال التي هي صلاح الدين، وقوة نور اليقين، وإفراد الوجهة إلى الله تعالى، ورفض ما سواه.

الرابعة: رفض الهمم العوالي، وأخذه بأسافلها؛ فالطامع سقيط الهمة بين الناس لم يزل ذا حاجة وإفلاس؛ فلا ينال سؤدد بين الورى، ولا راحة في الدنيا، ولا عز في الآخرة.

والهمم جمع همة؛ وهي حالة للقلب، وقوة إرادة، وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما؛ وتكون عالية إن تعلقت بعوالي الأمور، وسافلة إن تعلقت بأدناها.

قال الشاعر:

وقائلة لم علتك الهموم ... وأمرك ممتثل في الأمم

فقلت ذرني على حالتي ... فإن الهموم بقدر الهمم

وقال آخر

إذا عطشتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعا وريا

فكن رجلا رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريا

فلا مساواة بين الهمة العالية، والهمة الدنية؛ فكل ذي همة فهمته بحسب حاله في علو مقامه، وانسفاله، فما علت همة من كان حاله الطمع، ولا سفلت همة

---

(1) هو أبو الحسن محمد بن سعيد الوراق. من تلامذة أبي عثمان الحيري، وأكابر مشايخ الصوفية. توفي قبل سنة 320 هجرية.

من كان حاله الصيانة والورع.

ثم قال رحمه الله تعالى:

فالعبد حر دائماً متى قنع والحر عبد للذي فيه طمع

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى ما قدمناه من قول بعض الشيوخ: "العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع"؛ وقيل لولا الأطماع الكاذبة ما استبعد الأحرار بكل شيء لا خطر له؛ وتقدم كلام من هذا المعنى فانظره.

ولما تكلم رحمه الله تعالى على الطمع وما ينشأ منه من الآفات. أخذ يتكلم في أصل الطمع فقال:

وأصله من شكه فيما قسم وفقده الرضى بما له رسم

الشك في المقسوم، وفقد الرضى بالمرسوم أصل من أصول الطمع، وأقوى سبب حامل على ترك الصيانة والورع؛ وتقدم أنه لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال الشك في المقدور، والأب أصل لما يتولد عنه.

ثم أخذ رحمه الله يذكر دواء هذا العيب السابق آنفا ذكره فقال:

دواؤه بالترك والإعراض عن كل وجه جر للأغراض

إما اكتفاء بالذي قد قسما أو رفع همة لما قد رسما

من خلق كريمة رفيعه وترك ما يخشاه من شنيعه

الإعراض عن الطمع، وترك أسبابه، وحسم أصله الذي هو الشك فيما قسم، وعدم الرضى بما كتب للعبد. ينفي عن النفس علة الطمع في المخلوق، ويبريه من عيبه القادح في إيمانه؛ وليكن الإعراض بكل ما جر إلى الأغراض التي تعلقت بها همة الطامع على اختلاف أنواعها، وتباين ضروبها اكتفاء بقسمة المولى جل جلاله السابقة في الأزل، أو رفع همته العالية بما قد وصف به من أخلاق كريمة، وأحوال رفيعة يخشى سلبها بنفيه الطمع؛ ليستبدل الخلق الكريمة بأخلاق ذميمة، والرفيعة بالوضيعة ولا أسوأ من هذه الشنيعة من أهل الهمم العلية، والأحوال الحميدة المرضية؛ ولما في الطمع من الآفات القادحة في الدين، وموجبات ضعف اليقين. استعاذ منه نبينا صلى الله عليه وسلم كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

قد استعاذ المصطفى من الطمع أعني الذي يهوي به إلى طبع

استعاذ المصطفى صلى الله عليه وسلم من الطمع؛ لما فيه من الآفات القادحة في الدين؛ ولما ينشأ عنه من ضعف اليقين الذي هو سبب الشك في المقدور، واتصاف صاحبه بكل وصف منكور؛ فلزم العبد الاستعاذة مما استعاذ منه نبيه وقدوته صلى الله عليه وسلم؛ وليجانب أسباب الطمع الذي يهوي به إلى طبع ذميم، وخلق لئيم؛ وهو كل طبع يميل قلبه إلى الأغيار، ويخرجه من دائرة الكرام الأحرار.

ثم قال:

وطمع العبد بغير مطمع لأنه ذل وخزي فاسمع

طمع العبد في غير مولاه جل وعز طمع في غير مطمع؛ لكونه طمع في غير أهله، ورجاء نوال من غير محله؛ فلا يصح له سوى الذل والخزي والعياذ بالله تعالى؛ فالذل بالتملق والرغبة والخزي بالحرمان والخيبة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقال بعض سلف الإسلام قولا صحيحا سابغ الأحكام

في طمع العبد احتقار حاضر مشاهد في كل حال ظاهر

قوله: "**في طمع العبد احتقار حاضر**" هو القول الذي أسنده إلى بعض سلف الإسلام، وقد تقدم من أقوالهم رضي الله تعالى عنهم ما يقتضي أن في طمع العبد في غير مولاه احتقار، وحط منزلة، وانسفال همة، وحرمانا، ووجود الذل والهوان؛ وهذا كله مشاهد ظاهر في أحوال الطامع.

ولما كانت أقوالهم رضي الله تعالى عنهم ثابتة الأحكام لا خلل فيها. صحيحة سابغة الأحكام. قال رحمه الله تعالى:

إن طمع الغني فهو مفتقر أو قنع الفقير فهو منتصر

فائدة الغنى عدم احتياج صاحبه إلى غيره، ولا يطمع في أحد سوى الله عز وجل وآفة الفقر احتياج صاحبه، ووجود الطمع في الخلق؛ فالغني إن أنتج نتيجة الفقر؛ فهو فقر في الحقيقة؛ فصاحبه فقير، والفقير إذا أنتج نتيجة الغنى؛ فهو في الحقيقة غنى؛ فالمعتبر في الغناء، والفقر النتيجة لا أنفسهما؛ فالغني الطامع مفتقر،

والفقير القانع منتصر؛ ولهذا قيل القناعة غنى.

وقال عليه الصلاة والسلام: "القناعة كنز لا يفنى"، وقال كثير من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ إنها القناعة؛ وقيل: "الفقراء أموات الأمر. أحياء الله بالقناعة".

وقال بشر الحافي: "القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مومن"، وقال وهب بن منبه: "العز والغنى خرجا يجولان؛ فلقيا القناعة فاستقرياه".

وفي الزيور: "القانع عني وإن كان جائعا"، وقيل: "وضع الله خمسة أشياء في خمسة مواضع: العز في الطاعة، والذل في المعصية، ووالهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والعز في القناعة".

وقيل: من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال الكتاني[1]: "من باع الحرير بالقناعة ظفر بالعز والمروءة".

وقال ذو النون المصري: "من قنع استراح من الشغل، واستطال على الكل".

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: "**أو قنع الفقير فهو منتصر**". باستطالته على الكل؛ وقيل قوله تعالى حاكيا عن نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾؛ أي مقاما في القناعة. أنفرد به من اشكالي، وأكون راضيا فيه بقضائك.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي لأسلبنه القناعة، ولأبتلينه بالطمع.

وقيل لأبي يزيد [2]: "بم وصلت إلى ما وصلت؟ فقال جمعت أسباب الدنيا وربطتها بحبل القناعة، ووضعته في منجنيق الصدق، ورميتها في بحر الإياس؛ فاسترحت".

وقيل في ذم الطمع: "من تبعت عيناه ما في أيدي الناس طال حزنه".

---

(1) هو أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن جعفر الكتاني. أصله من بغداد، وأقام بمكة. صحب الجنيد، والنوري، والخراز. كان المرتعش يقول: "الكتاني سراج الحرم". جاور بمكة وبها توفي سنة: 322 هجرية.

(2) يقصد أبا يزيد البسطامي.

وقيل لما نطق نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بذكر الطمع. ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قال الخضر عليه السلام: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾؛ وقيل لما قال موسى عليه الصلاة والسلام ذلك وقف بين يدي موسى والخضر عليهما السلام طير وكانا جائعين. الجنب الذي يلي موسى غير مشوي، والجانب الذي يلي الخضر مشوي، وقيل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ هو القناعة في الدنيا؛ ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ هو الحرص في الدنيا، وقيل قوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ أي فكها من الطمع؛ وقيل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ يعني البخل والطمع، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ القناعة بالسخاء، والإثار.

ثم قال:

لعز هذا أو لذل هذا ... إذ لم يكن عز الغنى ملاذا

إذ ليس إلا تعب وخوف ... وآفة وذلة وحيف

قوله: "لعز هذا " إشارة إلى الفقير القانع، " ولذل هذا " إشارة إلى الغني الطامع، فوصف القناعة توجب لصاحبها العز، ووصف الطمع يورث صاحبه الذل؛ فعز القناعة لا ملاذ له عمن اتصف بها، وذل الطمع لا خلاص منه لمن اتصف به، ويتبع ذل الطمع التعب في الدنيا بقلبه في انتظار ما هو فيه طامع، وبقالبه في ترداده إلى من طمع فيه، وخدمته له والخوف من الحرمان،

ومن اعراض المطبوع فيه عنه، وسخطه عليه؛ فيخيب بذلك سعيه، ويحرم طلبه.

والآفات التي تلحقه بسبب طمعه من فساد دينه، ونقص يقينه، وفساد دنياه بما نال من الحرمان، والخسران، والذل اللاحق له من الطمع. إذ من طمع ذل.

والحيف هو الغلبة، والقهر الموجبان لذله.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الحرص على التكاثر ... والجمع والمنع مع التهاتر

الحرص حالة تلابس القلب تنشأ عن قوة انبعاثه إلى تحصيل مطلوب ملائم له. إن كان محمودا إلى النفس أو كان مذموما؛ فمن المحمود قوله تعالى: ﴿ حَرِيصٌ

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾، ومن المذموم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾، وهو الذي عد من عيوب النفس، والكلام هنا في الحرص على تحصيل حطام الدنيا، والتكاثر منها، وينشأ عن حب الدنيا، وطول الأمل؛ وهما أيضا عيبا من عيوب النفس، وكل ما نشأ عن عيب فهو عيب مثله، وينشأ عن الحرص أيضا عيوب كثيرة، وعلل وآفات عديدة. منها: الشح. إذ كل حريص شحيح، وشغل صاحبه عن كثير من العبادات؛ لأن من حرص على شيء توجه إليه بقلبه وقالبه، وخلطت الأفراد. إذ الحرص يدعوه إلى ذلك، وعدم التورع في المكسب؛ لأن الحريص لا يتوقى في معاملاته ما يقدح في دينه ومروءته ومنع الحقوق اللازمة له في ما له؛ لأن الحريص شحيح، وإذا كان يمنع الحقوق اللازمة له فهو لسواها أمنع من صلة رحم وإرفاق لمساكين، ورحمة لضعفاء المسلمين، وحتى عدم رحمته لنفسه واستغراق أوقاته النفيسة في طلب أشياء خسيسة، وغير ذلك من العيوب، والعلل، والآفات؛ ولكثرة ما ينشأ منها عن الحرص.

قال عليه الصلاة والسلام: (أخوف ما أخاف على أمتي الحرص وطول الأمل) أو كما قال عليه الصلاة والسلام؛ وقد عاتب الله عز وجل على من دعاه حرصه إلى التكاثر وأنكر فعله فقال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾ الآية، وقال عليه الصلاة والسلام: "الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة... الحديث"، وقال عليه الصلاة والسلام في ذم الدنيا: " ولها يجمع من لا عقل له". وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى في ذم الدنيا، والتنفير، والتحذير من حبها عند قول الشيخ: " **من عيبها الشح كذاك البخل وحب دنياه...** البيت"، وهذا العيب الذي هو الحرص في البيت.

الثاني: الجمع؛ والمراد جمع الأموال وهو مذموم؛ لأن الغالب أن يكون جامع المال حريصا شحيحا مانعا للحقوق، وقد توعد الله تعالى جامع المال فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ الآية.

الجامع للدنيا لا غقل له. حكم بذلك سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما تقدم الآن.

الثالث: المنع، والمراد كل ما نهي عن منعه، فأعلاه الواجب، وأدناه ما

يرتفق به؛ وقد توعد الله من كان حاله المنع فقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾. قيل الزكاة، وقيل ما يتعاطاه الناس بينهم؛ كالفأس والدلو والآنية والمقص ونحوه، وقيل الماعون بلغة قريش: المال، وسئل عليه الصلاة والسلام عن ما لا يحل منعه فقال: "الماء، والنار، والملح". روته عائشة رضي الله تعالى عنها، وفي بعض الطرق زيادة الإبرة، وحكي عن بعض العرب أن الماعون الماء، وقيل الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: عارية القدر، والدلو، ونحوهما، وقيل الماعون: الركوة المفروضة، وأدناه عارية المتاع، وفي البخاري. الماعون: المعروف كله؛ وهذا هو المراد في البيت، والله سبحانه أعلم.

والتهاتر: ما يتعاطاه الناس في معاملاتهم من كثرة الكلام، والتشدق، واللغط؛ وهو حال الحريصين على التكاثر.

ثم ذكر رحمه الله تعالى أصل العيوب التي ذكرها في البيت المتقدم الآن فقال:

وذاك من جهل بحال الدنيا ... وما إليه أمرها في الأشيا

الجاهل بحال الدنيا من كونها حقيرة عند الله عز وجل فلا تزن عنده جناح بعوضة، وما يؤول إليه أمرها من الفناء والاضمحلال والتلاشي والزوال. يحرص على التكاثر من حطامها، والجمع لها، ومنع حقوق الله منها؛ ولو كان عالما بحالها، وما يؤول إليه أمرها. لم يحرص على جمعها، والتكاثر من حطامها، ولما أشغل بها قلبه إذ الشغل بجمعها، والتمسك بها شغل، وتمسك بخيال، وما يستضر به في الحال والمآل؛ فحق للعاقل الغنية عنها لا فيها، والشغل بغيرها لا بها؛ لأن مآل أمرها إلى الفناء، والزوال، والانقراض، والارتحال.

وقد كتب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إلى سلمان[1] رضي الله تعالى عنه: "إنما مثل الحياة الدنيا كمثل الحية لين لمسها قاتل سمها؛ فأعرض عنها، وعن ما يعجبك منها؛ لقلة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها؛ لما تيقنت من

(1) يقصد سلمان الفارسي الصحابي الجليل.

فراقها، وكن أسر ما تكون ما فيها. أحذر ما تكون منها؛ فإن صاحبها كلما إطمأن فيها إلى سرور أشخص إلى مكروه".

وقال بعض الحكماء: "دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها كشوب السمام، وفتنتها كالأمواج الطوام".

وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفنا ودار الغير

ولو أنك نلتها بحذافرها ... لمت ولم تقض منها وطر

يا من يؤمل طول البقا ... وطول الخلود عليه ضرر

إذا كبرت وبان الشباب ... فلا خير في العيش بعد الكبر

وأنشد أبو منصور الثعالبي رحمه الله تعالى في ذم الدنيا فقال:

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ... ولا تخطبون قتالة من تناكح

فليس يفي مرجوها بمخوفها ... ومكروهها إماتات راجح

لقد قال فيها الواصفون فأكثروا ... وعندي لها وصف لعمري صالح

سلاف قصاراها ذا عاق ومركب ... إذا استلذته فهو جامح

وشخص جميل يرقن الناس حسنه ... ولكن له أسرار سوء قبائح

وقال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: "إن الله وسم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريدين دونها، وليقبل المطيعون إليه بالأعراض، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون؛ وقيل أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيقي وتشددي على أوليائي، وترحبي، وتوسعي على أعدائي. تضيقي على أوليائي حتى لا يثقوا بك عني، وتوسعي على أعدائي حتى لا يشتغلوا بك عني؛ فلا يتفرغوا لذكري".

فالعاقل إذا علم هذا من حال الدنيا لم يحرص على جمع حطامها، ولا يتمسك بها، ولا يرغب في التكاثر من متاعها؛ ومن أبتلي بشيء من ذلك؛ فليعلم أنه عيب قادح في دينه، وعلة قاتلة له من حينه؛ فليبادر إلى نفي هذا العيب، ومداواة هذه العلة بما قاله الحكيم اللبيب.

وقد نبه عليه الشيخ؛ فقال:

دواؤه العلم بأن جمعه ... يبعده عما لديه ينفعه

مـــع أنـــه المعـــد للـــزوال والتـــرك والـــنقل والارتحـــال

ما ذكره الشيخ هنا من دواء عيب النفس المتقدم ذكره في البيت الذي قبل هذا لا يخالف فيه حكيم، ويوافق عليه كل من بمعاناة عيوب النفوس عليم. إذ لا شك أن من علم أن ما يجمعه من حطام الدنيا، ومتاعها معد للزوال، ولا بد له أن يتركه بعد موته، وأنه منتقل عنه إلى ما بعده، وعما قريب يوذن بارتحاله. لم يحرص على جمعه والتكاثر منه، وأعظم مصيبة فيما يجمعه، ويحرص عليه كونه سبب بعده من الله تعالى، ومما فيه نفعه في الدار الآخرة ف؛ العلم هذا كله ينفي عن العالم به علة الحرص، ويبرؤه من عيبه، وكل ما ينفي العلة فهو دواء لها. ثم نهى الشيخ رحمه الله تعالى من له همة عالية عن جمع حطام الدنيا، والحرص عليها، والتكاثر منها، والمنع لها بأن ما يحرص عليه وعلى التكاثر منه. مع ما فيه من الشقاء والفناء.

ثم قال رضي الله تعالى عنه:

لا خيـــر فـــيما آل للفـــنا ء مـــع كثـــرة الـــشقاء والعـــنا ء

الشيء إذا كان آيلا إلى الفناء، وشقاؤه وعناؤه كثيرا. لا خير فيه، والعاقل لا يحرص عليه، ولا يسعى في الاستكثار منه، ولا يشح به؛ فيمنعه من عبيد الله تعالى؛ فالدنيا لا بقاء لها، ومتاعها لا دوام له. قال بعض الحكماء: "إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغذاء يوم فلا تهلك نفسك في أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار".

وقال بعض الحكماء: "كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولم أكن فيها؛ فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل: إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية".

قال بعض الأئمة: "الدنيا سريعة الفناء. قريبة الانقضاء. تعد بالبقاء. ثم تخلف في الفناء. تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة؛ وهي سائرة سيرا عنيفا، ومرتحلة إرتحالا سريعا، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها؛ فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها؛ ومثالها الظل؛ فإنه متحرك في الحقيقة. ساكن في الظاهر. لا تدرك حقيقته بالبصر الظاهر؛ بل بالبصيرة الباطنة".

ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنشد فقال:

أحـــلام نـــوم أو كظـــل زائـــل إن اللبـــيب بمـــثلها لا يخـــدع

وكان الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه يتمثل ويقول:

يـا أهـل الـذات الدنـيا لا بقـاء لهـا إن اغتـــرارا بهـــا زائـــل حمـــق

وأنشد أعرابي:

ألا إنمـــا الدنـــيا كظـــل بنيـــته ولا بـــد يـــوما أن ظلـــك زائـــل

وأنشدوا:

وإن امـــرأ دنـــياه أكبـــر همـــه لمتمـــسك مـــنها بحـــبل غـــرور

مثال آخر:

الدنيا من حيث التغرير بخيالاتها. ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها. تشبه خيالات المنام وأضغاث أحلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون".

وقال يونس بن عبيد: [1]" ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب؛ فبينما هو كذلك. إذ تنبه؛ فكذلك الناس نيام؛ فإذا ماتوا انتبهوا؛ فإذا ليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به".

وهذه الأمثلة تزهد العاقل في الدنيا وزخرفها، ويعلم أنها للفناء؛ وهي دار شقاء وعناء؛ فلا يحرص عليها، ولا يسعى في التكاثر منها والجمع لها، ولما كان أمر الدنيا آيلا إلى الفناء، وفي جمعها والتكاثر منها الشقاء والعناء. تعجب ممن آثرها وترك الآخرة التي هي دار بقاء ونعيم لا يزول ولا يبيد؛ فقال رحمه الله تعالى:

ياعجـــبا لمؤثـــر دنـــياه وتـــارك إيـــثار أخـــراه

مـــع علمـــه بـــأن هـــذه فانـــيه وهـــذه دائمـــة وباقـــيه

المشار إليها بالفناء هي الدنيا، والمشار إليها بالدوام والبقاء هي الآخرة؛ فالعلم بفناء الدنيا، وزوالها، ونكد نعيمها، واضمحلالها يوجب عدم إيثارها،

(1) هو يونس بن عبيد. عرف بالصلاح والورع. توفي سنة 139 هجرية

والرغبة عنها لا فيها، والعلم بدوام الآخرة، وبقائها وصفو نعيمها من النكد، وحسن أحوالها يوجب الرغبة فيها والعمل لها لا الرغبة عنها.

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفي بعض مواعضه عليه الصلاة والسلام؛ " فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: "من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا، ولا عن الناس مهربا. من عرف الله تعالى فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها".

وقال بعض الحكماء: "إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة أو غذاء يوم؛ فلا تهلك نفسك في أكلة وصم عن الدنيا، وافطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار".

وقد تقدم هذا، وقال لقمان لابنه: "بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا".

قال رضي الله عنه:

من عيبها استحسان ما يرتكبه ... وأخذه بكل أمر يعجبه

ونقده لفعل من يخالفه ... حتى يكن لفعله يوالفه

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين ثلاثة عيوب من عيوب النفس.

الأول: استحسان ما يرتكبه يريد رضاه بأفعاله، وهذا ينشأ عن رضاه عن نفسه؛ فمن رضي عنها رضي بكل ما يصدر منها من الأفعال ولفظة " **ارتكب** " وقوعها غالبا في المكروهات؛ فإذا كان العبد يستحسن أفعاله؛ فذلك عيب من عيوب نفسه؛ فالواجب على العبد أن لا يرضى أبدا عن نفسه، ولا يستحسن شيئا منها، ويتهمها في جميع ذلك.

قال أبو حفص[1] رضي الله تعالى عنه: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها".

وقال أبو سليمان الداراني [2] رضي الله عنه: "ما رضيت عن نفسي طرفة عين".

وقال أيضا: "ما استحسنت من نفسي عملا فاحتسبه".

الثاني: أخذه بكل ما يعجبه، والغالب أنه لا يعجب العبد من الأعمال إلا ما فيه هوى وحظ نفس؛ فإذا كان العبد آخذا بكل ما يعجبه من الأعمال ويرضاه من الأحوال؛ فيكون مختارا لنفسه، وهذا يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ...﴾ الآية، وتقدم في كلام الشيخ قوله:

قبيحه في عينه قد حسنا وسوء فعله له قد زينا

وتقدم شيء من هذا المعنى عند كلام الشيخ في البيت المذكور.

الثالث: بعده لفعل من يخالفه إذا كان المخالف على الحق؛ وإنما بعد منه لثقله على النفس، فلا يزال يبعد من الحق حتى يألف فعله الذي يختاره لنفسه، وهذا كله من عيوب النفس، وسببه ما قال الشيخ رحمه الله تعال ورضي عنه.

وذاك من غفلته عن ربه ومن شهود نفسه وعجبه

الغفلة عن الرب جل جلاله، وعن ما اتصف به من الأوصاف الكاملة تحدث في نفس العبد عيوبا منها. ما ذكره في البيتين المتقدمين، وكذلك شهود العبد نفسه، ورؤيته لها بعين الرضى، وكذلك العجب؛ فهذه كلها أسباب تورث النفس عيوبا كثيرة، وعللا عديدة؛ فليسارع العبد إلى مداواة ذلك وإزالته بما ذكره الشيخ من الدواء. حيث قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

دواؤه اتهامه لنفسه وحسن ظنه بكل جنسه

---

(1) يقصد عمر بن مسلمة الحداد.

(2) هو أبو سليمان عبد الرحمان بن عطية الداراني نسبة لداران إحدى قرى دمشق. كان من كبار الزهاد. توفي سنة: 215 هجرية.

ورؤيــة الحــال بعــين الــنقص   وذكــر ذنــبه الــذي لا يحــصي

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين من الأدوية لعيوب النفس المذكورة قبل هذا أربعة أشياء:

الأول: إتهامه لنفسه. يريد استعمال النظر، والبحث على ما يبرئ النفس من عللها، وينفي عنها ما اتصفت به من العيوب القادحة فيها؛ فينظر إلى العيب والعلة، ويسلط عليها ما يضادها وينفيها.

الثاني: حسن ظنه بكل جنسه. يريد أن العبد يحسن الظن بكل أمثاله، وجميع أشكاله. بعد إقامة ميزان الشرع؛ فإذا وفى بذلك. وجب تحسين الظن فلا تقع مخالفة.

الثالث: رؤية الحال بعين النقص. يعني رؤية العبد النقص في أعماله وأحواله، وذلك ينفي عن النفس استحسان ما يرتكبه، وأخذه بما يعجبه، وشهود نفسه، وعجبه بما يصدر منها.

الرابع: ذكر ذنبه. إذ ذكره له يوجب احتقاره لنفسه، ولما يصدر منها من الطاعات. سيما إذا عظم ذنبه عنده عظمة لا تصده عن حسن الظن بالله؛ فعظمة الذنب تنفي عن العبد شهوده لنفسه وعجبه بما يصدر منها من الأعمال، وتتحلى به من الأحوال؛ فقد ظهر لك أيها العبد أن هذه الأربعة أشياء المذكورة أدوية لعيوب النفس المعدات لها.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

مــن عيــبها إكــرامه لنفــسه   وذلــك مــن نــسيانه لرمــسه

إكرام النفس يقتضي الرضى عنها، وذلك عيب من عيوب النفس، وإكرامه لها بإعطائه لها ما تهوى، وإسعافيه إياها فيما تميل إليه من الحظوظ والشهوات، وانقياده إليها في الجميع؛ فهذا كله من إكرامه لها؛ والنفس متى أكرمتها حقرتك، ومتى أسعفتها منعتك، ومتى انقدت إليها أهلكتك؛ فلا تبالي حينئذ في أي واد من أودية البلاء رمتك؛ فمن كان حظها الإكرام استعبدته طول الدوام.

وسبب إكرام العبد لنفسه نسيانه ليوم حلوله في رمسه وهو القبر، وما يكون فيه من السؤال وغير ذلك من الأهوال، ولو فكر في ذلك لنظر إلى نفسه بعين

الخلاص من تلك الأهوال، ولفكر فيما يكون به جوابه عند السؤال، وهذا هو إكرام النفس على الحقيقة. أما إكرامها بما قدمناه من إعطائها ما تهوى وما به ترضى، وغير ذلك مما يلائم الطبع؛ فليس هو بإكرام لها على الحقيقة، وإنما يرى هذا إكراما من لا عقل له كاملا، ولا نظر سديد يكون به الفلاح حاصلا.

ثم قال:

دواؤه بقلـــــة المــــــباله ... بـــشأنه حـــسا بكـــل حالـــه

هذا دواء عيب النفس السابق وهو - أي الدواء - قلة المبالاة بشأنه، وقوله: "**حسا** " يريد بوجود شأنه الحسي. أي فلا يبالي بشؤونه الصادرة عنه من حيث الحس؛ وإنما ينظر إليها من حيث معانيها؛ فالمبالاة إنما تكون من حيث المعاني. لا من حيث حسها، وجميع الأشياء الظاهرة تعتبر بهذا الاعتبار.

وقوله: "**بكل حاله** " الباء بمعنى " في". أي في كل حالة من أحوال العبد على اختلافها، وبكل اعتبار.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

فـابن نجـيد قـال مـن قـد كـرمت ... علـــيه نفـــسه فديــــنه أذت

قال ابن نجيد [1] في هذا البيت. يشير إلى ما قدمناه من أن النفس إذا كرمت أهلكت صاحبها، وآذته في دينه؛ فلا إلى الطاعة تسعفه، ولا إلى الاستقامة تنقاد له؛ وهذا هو حال النفس الأمارة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ومـــن تهـــن علـــيه ذاك المكـــرم ... فـــي ديـــنه إذ بـــصلاح يوســـم

يريد والله سبحانه أعلم: أن العبد إذا هان نفسه، وأذلها وحملها على طريق المجاهدة والرياضة؛ فذاك هو المكرم في دينه، ويوسم بصلاح حاله واستقامته؛ وعلامة ذلك إهانة نفسه، وإذلالها.

قال ذو النون: "علامة الإصابة مخالفة النفس والهوى؛ ومخالفتها

(1) هو أبو عمرو اسماعيل بن نجيد. كان كبير الشأن في مجاهدة النفس وعلوم القوم. صحب الحيري، ولقي الجنيد. سئل عن التصوف فقال: "الصبر تحت الأمر والنهي". توفي بمكة سنة: 366 هجرية.

ترك شهواتها".

وقيل: "إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها".

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها انتصاره لنفسه وذاك أصل في وجود نكسه

انتصار العبد لنفسه عيب من عيوب النفس العظيمة، ووصف من الأوصاف القبيحة الدميمة؛ وهو فرع عن الرضى عن النفس، ورؤيته لها بما يصدر منها، واستحسانه لذلك؛ وهذا كله أصل في وجود الانتكاس.

ويتولد عن الانتصار للنفس علل كثيرة، ومفاسد عديدة منها: العجب، وحب الرياسة، والشهرة بين الناس، واستمالة قلوب الخلق إليه؛ وإنما يحسن بالعبد إذا كان الحق معه أن يكون انتصاره لله عز وجل لا لنفسه وهواه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

دواؤه رؤيتها بالاحتقار وانها محقة بكل عار

فهذا دواء من أدوية عيب النفس الناشئ عن انتصار العبد لها، وهو رؤية العبد نفسه بعين الاحتقار؛ فيحتقر نفسه لاينتصر لها؛ بل يكون عليها، لكونها ملاحظة بعين الاحتقار؛ لما يصدر منها من قبيح الأفعال، وذميم الأحوال محفة بكل عار ينسب إليها، وبكل قبيح أفعال يسند إليها؛

لكونها كما قال الشيخ رحمه الله تعالى:

لأنها ظلومة غشومه غدارة مكارة مشومه

النفس بالأوصاف التي وصفها الشيخ في هذا البيت أوصاف لازمة لها ما دامت أمارة وظلومة، **وغشومة**. مبالغة في الظلم والغشم، وكذلك غدارة، ومكارة مبالغة في الغدر، والمكر.

والظلوم: الذي إتخذ الظلم عادة مستدامة.

والغشوم: الدائم الغشم، وهو الجهل الجائر.

والغدار: الدائم الغدر؛ وهو المخادع، وهو الذي يظهر النصح، ويبطن الغش.

والمكار: الدائم المكر؛ وهو الذي يوقع الناس في الورطات.

وكل هذه الأوصاف من أوصاف المنافقين. أما النفوس الكريمة فبريئة منها.

ومشؤومة: من الشؤم؛ وهي حالة يقارن من اتصف بها الرزايا، والبلايا.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى السبب الذي استحق به أن توصف بالظلم، وغيره من الأوصاف التي وصفها بها فقال:

ترى لها الحق بعين الباطل مشغولة باللهو والأباطل

قوله: "**ترى**". أي النفس، وقوله: "**لها الحق**". أي أن الحق سعيها في انتصارها وأنها مصيبة فيما وقع الانتصار بسببه، **والرؤية** هنا رؤية بصرية إلا أن هذه البصرة لا نظر لها مستقيما، ولا تنظر بعين الإصابة؛ ولهذا قال رحمه الله تعالى: "**بعين الباطل**"، ومن كان ينظر بعين الباطل فجميع ما ينظره باطل، ويظن أنه حق؛ والانتصارعلى هذا الوجه إنما هو انتصار على سبيل الغلط

وقد يقع الانتصار ممن يعلم أنه على خطإ وباطل؛ وهذه هي المغالطة، وهذا قبيح من الأول.

والغلط شأن النصارى، والمغالطة شأن اليهود، ولا يحسن بالمؤمن إتباع الفريقين فيما هو شأنها إذ ذاك لهو وباطل، والمنتصر لنفسه غالط في الحق فيه شائبة نصرانية، والمغالط فيه شائبة يهودية وقد قال تعالى ذاما لمن هذا سبيله: ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾، وما دامت النفس ترى الحق بعين الباطل؛ فهي مشغولة باللهو والأباطيل.

واللهو: ما يلهو النفس مما فيه هوى ويشغلها عما يعينها.

والباطل: ما خالف الحق، واللفظ هنا شامل لكل لهو وباطل.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ولم يكن خير الأنام ينتقم لنفسه لكن لفعل مجترم

المراد بالأنام الخلق، وخيرهم هو نبينا صلى الله عليه وسلم؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"، وقال: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة"، وسيد الناس خيرهم، وصح أنه عليه الصلاة والسلام ما انتقم لنفسه قط، ولا انتصر لها أبدا؛ وإنما انتقامه لله، وانتصاره لإقامة الدين ولإعلاء كلمة التوحيد؛ وهذا سبيل من

يرى الحق عين الحق، وينتصر لله على سبيل الصدق؛ وفيما وصفه به صلى الله عليه وسلم هند بنت أبي هالة: "لا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها".

فليكن المؤمن على سبيل نبينا عليه الصلاة والسلام. متى ما خالف وانتصر لنفسه، أو انتقم لها؛ فذلك عيب من عيوب النفس؛ فليجتهد في زواله والبراءة منه بما ذكره الشيخ من الدواء حسبما تقدم ذكره قبل هذا.

ثم قال رحمه الله تعالى:

مـــن عيـــبها قـــبول مـــدح الـــناس والـــشغل بالـــرزق مـــع الأنفـــاس

فهذان عيبان من عيوب النفس ذكرهما الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت:

الأول: قبول مدح الناس؛ وكونه عيبا لما فيه من رؤية النفس بعين الكمال والرضى عنها، ويحدث في النفس كبرا وعجبا وفتورا على العمل؛ فقبول مدح الناس عيب، وينشأ عنه علل.

قال بعض العلماء: "من فرح بمدح؛ فقد أمكن الشيطان أن يدخل في بطنه "

وقال زياد بن مسلم: "ليس أحد يسمع ثناء عليه إلا تراءى له الشيطان".

قال أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه: "وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق؛ وهم ممقوتون عند الخالق؛ فكذا اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق".

قال ابن عطاء الله في حكمه: "الذي يمدحونك بما يظنون فيك؛ فكن أنت ذاما لنفسك بما تعلمه منها".

وقال أيضا رحمه الله تعالى: "أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس".

قال بعضهم: "إذا قيل لك نعم الرجل أنت؛ فكان أحب إليك من أن يقول بئس الرجل أنت؛ فأنت والله بئس الرجل".

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: "ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه؛ لأن ذلك يؤديه إلى الحذر من غرورها وشرورها؛

فتصلح بذلك أعماله، وتصدق أحواله؛ وإلا فسدت عليه، واعتلت لدخول الآفات عليها، ولا يصدنه عن ذلك ثناء الناس عليه، ومدحهم له؛ لأنه يعلم من عيوب نفسه ما لا يعلمه غيره. ثم إنهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به؛ فينبغي أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها".

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى أميضا".

وقال عليه الصلاة والسلام لمادح رجل: "قطعت عنق صاحبك؛ لو سمعك ما أفلح".

ولهذا قال عمر رضي الله تعالى عنه: "المدح الذبح".

ومدح الجارود بمحضره رضي الله تعالى عنه فخفقه بالذرة وقال: "خشيت أن يخالط نفسك شيء " وقد تقدم هذا كله.

وقال عليه الصلاة والسلام: "احثوا التراب في وجوه المداحين". أشار عليه الصلاة والسلام إلى عدم الرضى بالمدح.

الثاني: الشغل بالرزق؛ فإن شغل العبد به عيب من عيوب النفس؛ لما فيه من عدم الثقة بالله عز وجل والتهمة له، وهذا قادح في اليقين، وموجب لخلل في الإيمان، وفساد حال العبد مع الله عز وجل؛ والواجب على العبد قوة يقينه في مولاه، وأن لا يتهمه في شيء ضمنه له، ووعده به، وأقسم عليه، وأكد الوعد بالقسم بأن واللام فقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝ ﴾؛ فأتى الله تعالى بالتمثيل بعد التأكيد كل ذلك تحقيق للوعد والخبر، وتسكين للنفس، ودفع لاهتمامها بالرزق وشغلها به؛ وليكن شغلها بما طلب منها لا بما ضمن لها.

قال تعالى مخاطبا لكليمه على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقًا ۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ ۗ وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝ ﴾.

وقوله: "مع الأنفاس " إشارة إلى استغراق الاوقات في الشغل بالرزق. ثم إن شغل العبد بذلك. إن كان بقلبه فمذموم، وأعظم في الذم الشغل بالقلب، والقالب؛ ولو كان بالقلب دون القالب؛ فلا مذمة فيها في ذلك إذا كانت أوقات

عبادته محفوظة عليه، وكانت أسبابه الي يشتغل بها يراها أسبابا عندها لا بها. نعم إلا إذا كان من أرباب التجريد.

ثم بين رحمه الله تعالى الذي ينشأ عنه العيبان المذكوران؛ فقال رحمه الله تعالى:

وذاك من غروره وغفلته عن ربه في فعلته وحالته

الإشارة بذلك إلى ما ذكر في البيت الذي قبل هذا من عيوب النفس، وهما قبول المدح، والشغل بالرزق فقال: "**ذلك من غروره وغفلته... البيت بكماله**"؛ فإذا اغتر العبد بحوله، وقوته التي لا تأثير لها في الكائنات، ولا يصدر عنها على الحقيقة شيء من المقدورات، وكان غافلا عن الله تعالى وغائبا عن شهود أفعاله، وآثار أسماء صفاته. نشأت عن ذلك علل وعيوب في النفس، وآفات منها: اهتمامه بالرزق، وشغله به، وتركه لما طلب منه؛ وإذا رأى العبد في نفسه هذه العيوب؛ فليبادر إلى زوالها بما ذكره الشيخ من الدواء.

قال رحمه الله تعالى:

دواؤه في الأول المراقبه وترك ما يرجوه من مصاحبه

قوله: في الأول". يريد العيب الأول من العيبين المذكورين في البيت السابق، وهو قبول مدح الناس. قال دواؤه المراقبة لأن من راقب الحق تعالى لم يشهد غيره، ولا يركن إليه، ولا يعول عليه في مدح أو ذم؛ فالمراقب قلبه مع مراقبه؛ فلا يشهد إلا هو، ولا يسمع إلا منه؛ فهو مشغول بحاله مع الله عز وجل، وينظر هل هو محبوب عنده، أو ممقوت مذموم؟؛ فلا يغتر بمدح الناس، ولا يقبله منهم؛ فالمراقبة تنفي عن النفس قبول مدح الناس الذي هو عيب من عيوبها؛ فلذلك كانت المراقبة دواء لهذا العيب.

سئل ابن عطاء الله: "ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات".

والكلام في هذه المراقبة طويل. محله غير هذا، وأتينا منه بما يحتاج إليه في هذا الموضع، وكذلك ترك ما يرجوه العبد من مصاحبته من وجود مدح أو ثناء منها.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب الثاني، فقال:

وللأخير قوة اليقين وثقة بالله في سكون

قوله: "وللأخير". أي العيب الثاني؛ وهو الشغل بالرزق.

وقال: دواؤه: قوة اليقين بالمولى جل جلاله، والثقة به، وعدم اتهامه له فيما ضمنه له ووعده به وأقسم عليه؛ كما سبق في الآية قبل هذا، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾؛ ومن أسمائه تعالى الرزاق؛ وكيف يتسمى تعالى بمالم يتصف بمعناه؛ فإذا قوي يقين العبد في مولاه عز وجل اطمأن قلبه، وسكنت نفسه؛ فلم تشتغل بطلب الرزق، ولا تتهم به؛ وكذلك ثقة العبد بمولاه تعالى في حالة سكونه؛ وتركه الأسباب ينفي عنه الاهتمام بالرزق والشغل به.

قال بعض المنقطعين: "كنت ذا صنعة جليلة؛ فأريد مني تركها، فحاك في صدري من أين المعاش؟؛ فهتف بي هاتف لا أراه. تنقطع إلي وتتهمني في رزقي على أن أخدمك وليا من أوليائي أو منافقا من أعدائي".

فانظر لهذا المنقطع كيف أدبه الله تعالى عند حضور الرزق بقلبه بقول الهاتف، وهذا من عناية الله تعالى به ورحمته له، وهكذا يفعل الله بأوليائه المنقطعين إليه الصادقين في أقوالهم وأفعالهم مع الله عز وجل.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى من كلام الأئمة ما ينتبه به العبد عما يقع في النفس من وسواس الشيطان من هم الرزق والاشتغال به؛ فقال رحمه الله تعالى:

قال الإمام حاتم الأصم حكاية هي لديه فهم

حاتم الأصم هو حاتم بن يوسف [1] من أكابر مشايخ خراسان، وكان تلميذ

---

(1) اشتهر بالورع والتقشف، وأطلق عليه لقب: "لقمان هذه الأمة. قدم بغداد وهو في طريقه إلى الحج أيام الإمام أحمد بن حنبل، واجتمع معه؛ وعن لقائه بالإمام أحمد حدث أبو جعفر الهروي قال: "كنت مع حاتم؛ وقد أراد الحج؛ فلما وصل إلى بغداد قال لي: ياأبا جعفر. أريد أن ألقى أحمد بن حنبل؛ فسألنا عن منزله، ومضينا إليه؛ فطرقت عليه الباب؛ فلما خرج قلت: ياأبا عبد الله. هذا أخوك حاتم؛ فسلم علي الإمام ورحب بي، وقال له بعد بشاشته به: أخبرني ياحاتم، فيم التخلص من الناس؟ قال حاتم. في ثلاث خصال. قال أحمد. وما هي؟ قال حاتم: أن تعطيهم مالك، ولا تأخذ من مالهم شيئا، وتقضي حقوقهم، ولا تستقضي منهم حقا لك، وتحتمل مكروههم، ولا تكره أحدا منهم على شيء؛ فأطرق أحمد بن حنبل. ثم =

شقيق، وهو أستاذ احمد بن حضرويه. قيل لم يكن أصم؛ وإنما تصامم مرة فسمي به. قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: "جاءت امرأة فسألت حاتما عن مسألة؛ فخرج منها في تلك الحالة صوت فخجلت؛ فقال حاتم: ارفعي صوتك؛ فأرى من نفسه أنه أصم؛ فسرت المرأة بذلك، وقالت لم يسمع الصوت؛ فغلب عليه اسم الصمم، والحكاية التي أسندها الشيخ إلى الإمام حاتم هي ما ذكره في هذه الأبيات؛

فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

يقول لي الشيطان كل يوم ... من أين تأكل ياضعيف القوم

من أين تلبس أي شيء تسكن ... أقول أكلي الموت لبسي الكفن

ومسكني القبر وذاك المنتهى ... عند ذوي الحزم وأرباب النهى

ضمن رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الحكاية التي أسندها قبل إلى حاتم الأصم، والحكاية اشتملت على مقالة الشيطان لحاتم الأصم، وما أجابه به؛ وذلك أن حاتم الأصم فيما نقله عنه محمد بن الليث عن حاصل اللفاف قال: "سمعت حاتم الأصم يقول: ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل وما تلبس وأين تسكن؟؛ ومراد الشيطان لعنه الله تعالى أن يشغل قلب حاتم عما هو بصدده من عبادة الله، والانقطاع إليه؛ فرماه بهذه الدواهي الثلاث النى هي المأكل والملبس والمسكن. إذ هذه الأمور هي الأكيدة عند الناس، وأكثر اهتمامهم بها، ولا بد لهم منها؛ فذكر له أمورا لا غناء له عنها، وكفى بهذه شاغلة للقلب، ومحركة للنفس. لكن لما كان حاتم رضي الله تعالى عنه صادقا في حاله مع الله عز وجل ألهمه جوابا مسكتا للشيطان تقوم له به عليه الحجة فلا يستطيع اللعين مدافعته ولا أن ينقض على حاتم حجته؛ فأجابه بأن قال: أكلي الموت، ولبسي الكفن، ومسكني القبر، ولما كانت الأمور التي ذكرها الشيطان لحاتم لا غناء عنها؛ فأجابه بما لا بد منها، وإطلاقه الأكل للموت مجازا لا حقيقة؛ وذلك لما كان الموت قاطعا للأكل؛ فكان بمنزلة المأكول الذي يحتاج معه أكل غيره، وأما لباس الكفن، ومسكن القبر

=

رفع رأسه وقال: إنها لشديدة؛ فقال حاتم: وليتك تسلم. توفي سنة 237 هجرية.

فحقيقة؛ وفي جواب حاتم، ومقالته هذه تسكين للنفس، وتسلية لها، وتزهيد في طلب الأشياء التي ذكرها له الشيطان؛ ليفتنه به، ويشغل قلبه بسببها، وحيرة النفس في الخوض في تحصيلها؛ وهكذا يكون جواب العبد الموفق للشيطان إذا تعرض له ووسوس قلبه بهذه الأمور التي هي المأكل والملبس والمسكن؛ فإذا عارض العبد الشيطان بما قاله حاتم الأصم لم يجد إليه سبيلا، وفي ذكر الموت، والسؤال، والقبر، وما فيه، وما بعده من الأهوال باعث على العمل، وترك كل شاغل وحتى الشغل بالمأكل والملبس والمسكن؛ فليجعل ذو اللب السليم والحزم الشديد أكله الموت ولباسه الكفن ومسكنه القبر؛ فإلى هذا المنتهى فليجعله المبتدا؛ وكذلك إذا وسوست النفس صاحبها، وعرض له شيءا من هذا المعنى؛ فليحاججها بما حاج به حاتم الأصم الشيطان.

قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله تعالى عنه: "كنت في بدايتي واقفا بين العشاءين أصلي، وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتني النفس فقالت لي: "السلام عليك فقلت لها وعليك السلام. قالت لي العشاء، فدهتني بداهية. ثم ألهمني الله تعالى أن قلت لها أتدري له موضعا، فقالت: لا، فقلت لها أي شيء هو أو متى هو؟ قالت: لا. قلت لها: أنا رب أو عبد؟ قالت: عبد. قلت لها فالعبد يقدر على شيء. ما هذا الكفر والشرك الذي أتيتني به. اهربي إلى خالقك، فاطلبي منه العشاء؛ لأنه خالقك والقادر على كل شيء؛ فيعطيك ويجيب لك ما طلبت؛ فتطعمي وتأكلي فما لك وإياي وما هذه الحيرة، فهربت إلى خالقها، فجاء عشاء متمكن كثير فأكلت. قال وكذا يحتج"؛ فإذا وقع الاحتجاج عليها بمثل هذا وعلى الشيطان بمثل ما حتج عليه به حاتم الأصم سلما ضرورة، واستراح المحتج عليهما من وساوسهما ومكائدهما، وتفرغ إلى ما يعنيه من أداء حقوق الربوبية.

ولهذا أمرك الشيخ أيها العبد بالاستراحة من تعب الأعداء الذين هم يشغلونك عن حقوق مولاك فقال:

فلتسترح من تعب الأعداء وكلما تعتاد من إغواء

أراد رحمه الله تعالى هنا بالاستراحة راحة القلب، وسكون النفس، واطمئنانها من تعب التدبير في حصول الرزق، والاهتمام به.

ومن هذا المعنى قول ابن عطاء الله: "أرح نفسك من التدبير... الحكمة بكمالها " [(1)]؛ والتعب هنا هو ما يجده القلب والنفس من الضيق والجهد والكدر عند التوجه إلى التفكر فيما توجه إليه؛ فإذا توجه القلب إلى التفكير في أمر المعاش، والتدبير في حصوله، ومدى أي وجه يحصل ذلك. يجد ضيقا وكدرا؛ فهذا هو المراد بالتعب، وسببه ما يلقيه الشيطان، والنفس من الوسوسة في شأن الرزق والاهتمام به؛ والمراد بالأعداء. الشيطان والنفس، وأضيف التعب إليهما؛ لكونه ينشأ عنهما، وما يعتاده الإنسان من الإغواء هو ما يكون من إغواء الشيطان ووسوسة النفس؛ فليسترحْ العبد من ذلك ليتفرغ إلى أداء حقوق مولاه عز وجل.

ثم قال رحنه الله تعالى:

من عيبها التكثير من ذنوب حتى يؤثر قسوة القلوب

هذا عيب من عيوب النفس ذكره الشيخ في هذا البيت، وهو التكثير من الذنوب، وذلك بأن يتكرر من العبد ذنب بعد آخر إلى أن تتكاثر ذنوبه، وتتعدد دسائسه فتأنس النفس بالقدوم على الذنوب، وتتجاسر على اجتراح السيئات ولا تبالي بأفعال المخالفات؛ فلا يزال العبد كذلك حتى يؤثر ذلك قسوة في قلبه، ويزداد بعدا من ربه عز وجل؛ فليتنزل منزلة البعد، أو يعامل بما يعامل به الأشقياء.

وسبب تكثير الذنوب عدم الخشية من الله تعالى، والجهل بعظمته، والاستخفاف بحقوق الربوبية، وعدم الصدق في العبودية فهذه كلها أسباب تجاسر العبد على القدوم على المعاصي، والمخالفات، واكتساب السيئات.

وأما قسوة القلب فسببها كثرة المعاصي والمخالفات. قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل إذا أذنب نكتت نكتة سوداء في قلبه. ثم كذلك حتى يتغطى؛ فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾".

فليحذر العبد أسباب الذنوب، وليجانب ما ينشأ عنه قسوة القلوب ومن كان

(1) الحكمة بكاملها: "ارح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك".

في نفسه هذا العيب الذي هو كثرة الذنوب؛ فليبادر إلى زواله بما ذكره الشيخ من الدواء حيث

قال رحمه الله تعالى:

دواؤه كثـــرة الاســـتغفار وتـــوبة تـــذهب بالإصـــرار

وصـــحبة الأخـــيار والـــصيام ثـــم حـــضور الذكـــر والقـــيام

فـــي آخـــر اللـــيل وبالأســـحار للذكـــر والـــدعا والاســـتغفار

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الثلاثة خمسة أدوية يداوى بها العيب المذكور في البيت قبل هذا وهوالتكثير من الذنوب.

الأول: كثرة الاستغفار. إذ هو مرهم جراحات الذنوب به تداوى كلومها. قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يارسول الله. إني ذرب اللسان؛ وأكثر ذلك على أهلي؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأين أنت من الاستغفار".

قال الشيخ الساحلي [1] رضي الله تعالى عنه: "انظر إلى اختصاص هذا الدواء بهذه العلة على لسان الطبيب الأكبر، وكونه صلى الله عليه وسلم لم يقل له: وأين أنت من التهليل، أو التسبيح، أو غير ذلك من باقي الأذكار؛ وإنما دله على ما يناسب حاله من الأذكار؛ وذلك دليل على استعمال الأذكار بحسب الأحوال". [2]

فإذ قد علمت أن ذكر الاستغفاردواء لعلة الذنوب، ويبرئ النفس من هذا العيب الذي هو من أعظم العيوب؛ فلا بد لهذا من الدواء من مقدار؛ فإن مقادير الأدوية معتبرة عند الحكماء، فالزيادة على المقدار مضر بالعليل مؤد إلى إتلافه

---

(1) هو محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن يوسف الأنصاري الساحلي. كان فقيها عابدا ناسكا صالحا متبتلا. توفي سنة 735 هجرية. من كلامه: "كل حقيقة لم تتقيد بالشريعة فباطلة، وكل شريعة لم تتقيد بحقيقة؛ فصاحبها محجوب.

(2) إذ لكل داء دواء؛ كما هو معهود عند ذوي الاختصاص. ممن اطلعوا على مكامن عيوب النفس؛ فأعدوا لكل داء دواء. حسب المقدار والمطلوب.

كالنقص منه؛ فلو قصد علاج مريض من علة فجرع من الدواء الخاص بعلته أكثر مما تحمله الطباع، ويقتضيه المزاج لعوجلت منيته، وقربت هلكته؛ وذلك مناف للحكمة. مناف للطب؛ فمن حسن التداوي حمل العليل على ما يقتضيه مزاجه، ويعطى من الدواء اللائق بعلته بحسب حاله في التقدير، فالنقص تفريط وتقصير والزيادة إسراف وإفراط وتنفير وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

فإذا علمت ذلك؛ فتقدير المقدار الذي يستعمله صاحب علة كثرة الذنوب من الدواء الذي هو الاستغفار راجع إلى الحكيم؛ وهو القدوة المربي العالم لعيوب النفوس، وعلاجها، وتباين الطباع، واختلافها؛ فيعطي لكل عليل من الدواء ما يبرئ علته، ومن المقدار ما يوافق حاله وطبيعته؛ وإنما أحلنا ذلك إلى الحكيم القدوة؛ لأن المقادير لا تنحصر لكثرة أحوال الناس، واختلاف طبائعهم؛ فإذا جعل الحكيم لعلة الذنوب عددا معلوما من الدواء الذي هو الاستغفار، فعلى العليل التزامه والقيام بشروطه وآدابه.

فالشروط خمسة:

الطهارة الكاملة عند التوجه إلى الذكر، وأن يكون الذاكر متوجها إلى القبلة، وأن يكون في مكان خال، ومدافعة الخواطر المغايرة لمعنى الذكر، وأن يقدم بين يدي ذكره مقصدا يرجع إليه معنى الذكر.

وآدابه خمسة: خلو البطن من الطعام، والجلوس على هيئة تقتضي الخضوع والانكسار والمذلة، وتغميض العينين لأن في تغميضهما عونا على جمع الفكرة، وحضور القلب واتخاذ سبحة لحصر العدد الذي التزمه، وأن لا يقطع الذكر في أثنائه بما ينافي الذكر.

فالأذكار المعدة لنفي علل النفس إذا استعملت على الوجه الذي ذكرناه، وعلى الوصف الذي رسمناه زالت العلل لا محالة، وكل عيب من عيوب النفس اعتقد برءه واضمحلاله.

الثاني: توبة تذهب بالإصرار؛ وهي التوبة النصوح التي أمر الله تعالى عباده المؤمنين؛ فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾؛ وهذه التوبة العامة

التي فرضها الله سبحانه على جميع المؤمنين.

ولا شك أن هذه التوبة من الأدوية التي يداوى بها جراحات الذنوب، وتطهر النفوس من النقائص والعيوب؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه".

والتوبة الرجوع عن المعاصي إلى الطاعات، وترك المخالفات، واستعمال الموافقات وإذا أرادنا أن نستعمل التوبة على طريق الاستشفاء بها من علل الذنوب، وأن تذهب بها عن النفس ما اتصفت به من عظيم العيوب؛ فلا بد أن تأتي بها مستوفاة بشروطها وآدابها. إذ استيفاء شروط الأدوية مشروط عند الحكماء، وهذا الحكم تستوي فيه أدوية العلل الظاهرة والعلل الباطنة؛ فكما أن الأطباء الذين هم يعالجون العلل الظاهرة أشترطوا في أدويتهم شروطا يكون قوام أدويتهم بها؛ فكذلك الحكماء الربانيون اشترطوا شروطا تكتمل بها أدويتهم التي يعالجون بها أمراض القلوب وعلل النفوس؛ وقد قلنا إن التوبة مما يداوى بها علة الذنوب؛ فلا بد إذا من شروطها ليصح الانتفاع بها فيما اعتدت له.

فشروطها أربعة: الإقلاع عن جميع الذنوب؛ لأن الإقلاع يضاد الإقامة التي تقتضي التكاثر مما أقلع عنه، والندم على ما فات، والعزم أن لا يعود؛ فينتفي الإصرار، وأن يقصد بالتوبة الرجوع إلى الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وآدابها أربعة: ترك صحبة العصاة الذين ألفهم على المعاصي، ومواصلة أهل الخير، واحتباب مواضع اللهو والسهو والغفلة فإن النفس تنبعث بذلك إلى الشهوات، وأن لا يذكر شيئا من لذة المعصية، ويجاهد نفسه في إصلاح ذلك وإخراجه من قلبه.

والإتيان بالتوبة بشروطها وآدابها تكون دواء كاملة التركيب من أجزائه

الثالث: صحبة الأخيار والصوام: لا شك أن صحبة الفريقين أو أحدهما دواء لعلة الذنوب؛ فمن صحب الأخيار تنزه عن اكتساب الذنوب، ومن صحب الصوام برئت نفسه من النقص والعيوب؛ وذلك لأن للصحبة أثرا، وللمخالطة والمعاشرة نبأ وخبر؛ فمن صحب الأخيار بهم اهتدى، ومن صحب الصوام بهم

اقتدى، ومن صحب الأشرار تردى وصار من أهل الظلم والعدى، ولهذا قيل:

فلا تصحب أخا الجهل إياك وإياه ... فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه ... وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

فالأخلاق تتأثر من الأخلاق والطباع تسرق من الطباع فليرغب العبد في صحبة ذوي الأخلاق الكريمة، والطباع السليمة، فيسير على سيرهم، ويهتدي بهديهم، ويتحلى بأحوالهم، ويتخلق بأخلاقهم؛ فإذا فعل ذلك كانت صحبته لهم دواء لعلة الذنوب، وصارفا لما اتصفت به نفسه من العيوب.

والمراد بالصحبة هنا الصحبة الخاصة، وقوة المداخلة، وطول المعاشرة التي تفيد الاقتداء بالمصحوب، وتحصل المطلوب والمرغوب من ترك أسباب الذنوب وموجبات الاتصاف بالعيوب، والمراد بالأخيار الذين اختارهم الحق سبحانه لولايته، والجلوس على بساط قربه في حضرة مناجاته، وجعلهم هداة للخلق، ودعاة للحق.

والمراد بالصوام: أي الذين صاموا الصوم الخالص بأهل التخصيص؛ فجميع جوارحهم محبوسة عما منعوا منه شرعا؛ فصحبة هؤلاء يكون بها الاهتداء، والنجاة من موارد الردى؛ ولهذا رغب أهل التوفيق في صحبتهم، واستعملوا أنفسهم في خدمتهم، وحرصوا على مخالطتهم، ومعاشرتهم؛ وليحصل لهم بذلك خير الدنيا والآخرة.

قال أبو العباس بن مسروق رحمه الله تعالى: "بلغني أن السري السقطي كان في السوق وكان من أصحاب معروف الكرخي فجاءه معروف يوما؛ ومعه صبي يتيم فقال أكس هذا اليتيم. قال سري فكسوته ففرح به معروف؛ فقال له: بغض الله إليك الدنيا، وأراحك مما أنت فيه؛ فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إلي من الدنيا؛ فكل ما أنا فيه من بركات معروف".

فانظر رحمك الله تعالى كيف حصل لسري بسبب صحبته لمعروف هذا الخير العظيم، وقد قيل: "اصحب من شئت مثله تعمل".

وعن عبد الرحمان بن أبي حاتم قال: بلغني أن بشرا بن الحارث الحافي

قال: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام؛ فقال لي: يابشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يارسول الله. قال: اتباعك لسنتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي. هو الذي بلغك منازل الأبرار".

وقضية الشيخ ابن عطاء الله مع شيخه الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنهما، وما استفاده منه من الخيرات بسبب صحبته وخدمته له مشهورة. انظرها في لطائف المنن، أو في ابن عباد عند قول الشيخ ابن عطاء الله في حكمه: "كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز "

والحكايات في هذا المعنى كثيرة؛ لو تتبعناها لطال الكلام؛ فاكتفيت بما ذكرنا منها ليكون العبد حريصا على صحبة الصالحين الأخيار، والصوام الأبرار؛ ولكن يلزم من صحبتهم التأديب بآدابهم، والامتثال لأوامرهم، والاحترام لهم، وكمال العقيدة فيهم، وحسن الظن بهم. إلى غير ذلك مما يلزمه من القيام بحقوقهم؛ فبهذا يحصل الانتفاع بهم، والله سبحانه الموفق للصواب.

وقد تقدم كلام في الصحبة، وما يحصل للصاحب من الانتفاع من مصحوبه عند قول الشيخ رحمه الله تعالى:

من صحبة الأخيار والأبرار ... بالاتباع وبالاهتمام

من عالم ذي ورع وذي تقى ... أو صالح في شأنه تحققا

الرابع: حضور الذكر: فإنه أيضا من الأدوية التي تنفي علة التكاثر من الذنب؛ لأن حضور العبد مجالس الذكر يذكره عظمة ربه، وشهود جلاله وجماله وأوصاف كماله؛ فالجلال يكسبه خوفا والجمال حياء؛ فلا يقرب ذنبا ولا يأتي عيبا، وفي الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها؛ فقيل له؛ فما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر". وعن جابر بن عبد الله قال: [1] " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: يأيها الناس ارتعوا في رياض الجنة. قلنا يارسول الله ما ريض الجنة؟ قال: مجالس الذكر".

---

(1) جابر بن عبد الله صحابي جليل من رواة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: "اغدوا وروحوا واذكروا؛ فمن يحب أن يرى منزلته عند الله؛ فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله منه".

وتأمل رحمك الله كيف جعل صلى الله عليه وسلم مجالس الذكر رياض الجنة، وذلك كما أن رياض الجنة لا يدخلها الشيطان، ولا تقع فيها معصية ولا حظ نفس؛ بل النفوس فيها مطمئنة؛ فكذلك مجالس الذكر لا يكون فيها شيء من النقائص والمخالفات؛ فكانت بذلك دافعة نافية للذنوب وأسبابها؛ كما ينفي الدواء العلة المضادة له.

الخامس: من أدوية علة الذنوب المبرئ لعيب النفس. القيام في آخر الليل؛ وفي الأسحار؛ للذكر والدعاء والاستغفار.

قيام العبد في آخر الليل وبالأسحار ذاكرا وداعيا ومستغفرا ينفي عنه الوقوع في الذنب والاتصاف بالعيب، والمراد بآخر الليل الثلث الأخير منه للحديث الوارد فيه وهو قوله عليه الصلاة والسلام: "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل... الحديث"، والمراد بالسحر السدس الأخير من الليل. قاله ابن زيد، ويروى أن أبواب الجنة تفتح سحر كل ليلة.

وخص هذان الوقتان بالذكر والدعاء والاستغفار.

* أما الذكر؛ فلخصوصيات وردت فيه منها ما رواه أبو الدرداء قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بخيرأعمالكم لكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها لدرجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم. قالوا ما ذاك يارسول الله؟ قال: ذكر الله"، ومنها ما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما. ثم عذر أهلها في حال العبد. غير الذكر؛ فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها فقال عز وجل ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾.

قال أبو بكر بن فورك رضي الله تعالى عنه: قياما بحق الذكر، وقعودا عن الدعوة فيه.

وقـال تعالـى ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذۡكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ **الآيـة**، أي بالليـل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، وفي الصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال.

وقال مجاهد رضي الله تعالى عنه: "الذكر الكثير لا تنساه أبدا".

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولـوا مجنون". وأعظم فوائد الذكر ومناقبه ذكر الله تعالى لذاكره. قال تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾؛ ومنها أن الذكر سلاح المؤمن به يقهر أعداءه؛ لأنه قيل إن ذكر الله سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم إذا ضل العدو؛ فإذا نزع بقلبه إلى الله يحيد عنه في الحال، كما يكرهه؛ ومن جهة ذلك الذنوب التي تبعده عن مولاه عز وجل.

وفوائد الذكر كثيرة أكثر من أن تحصى؛ فتبين من هذا أن الذكر مرهم لجراحات الذنوب، ومطهر للنفس من نقائص العيوب.

* وأما الدعاء فإنه أيضا من الأدوية التي تذهب علة الذنوب، وتطهر النفس من العيوب، وهو مطلوب في كل الأوقات؛ وخصوصا في الثلث الأخير من الليل للحديث المشهور: "ينزل ربنا... الحديث"، وفيه: "هل من داع فأستجيب له".

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الدعاء مخ العبادة".

والدعاء متروح أصحاب الفلوات، وملجأ المضطرين، ومعين ذوي المآرب؛ والداعي يناجي ربه، ومن ناجى ربه غفرت ذنوبه، وستر عيبه؛ فلهذا كان الدعاء من أدوية علة الذنوب، ومطهرا للنفس من العيوب.

وللدعاء شروط وآداب.

فشروطه أربعة: الصدق بمراقبة الظاهروالباطن، وتجنب الاعتداء في الدعاء، وافتتاح الدعاء بالحمد والثناء على الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإساءة الظن بالنفس وحسن الظن بالله إيقانا بالقبول والإجابة.

وآدابه أربعة: الطهارة الكاملة، وتقديم صلاة ركعتين، ونصب اليدين عند الرغبة، ودلالة الدعاء على المعنى الذي أراده وقصده.

وأما الاستغفار في الأسحار فالحديث المشهور: يتنزل ربنا... الحديث، وفيه: هل من مستغفر فأغفر له وتقدم الكلام في الاستغفار.

قال رحمه الله تعالى:

ولا يفيد فيه ذكر الجمع ما لم يكن ذاك بأهل الجمع

ذكر رحمه الله تعالى قبل هذا أن الذكر دواء لعلة الذنوب؛ ولما اتصفت به النفس من العيوب. ثم نفى في هذا الحديث الحكم الذي أوجبه للذكر عن ذكر الجمع؛ إلا إذا كان الجمع مع أهله؛ فما أوجبه للذكر من كونه دواء لعلة الذنوب؛ فهو ثابت له، والضمير في فيه في البيت على عيب النفس الذي هو التكاثر من الذنوب، وذاك إشارة إلى ذكر الجمع كأنه يقول: ولا ينفع دكر الجمع في التداوي به من علل النفس المذكور ما لم يكن الذكر مع أهل الجمع؛ وإنما نفى الإفادة عن ذكر الجمع إذا كان مع غير أهله؛ لأن فيه تفرقة وعدم وجدان للوجد الحقيقي، ولا يخلوا من الشوائب القادحة فيه؛ فصار دواء معتلا؛ والمعتل لا يزيل العلة؛ وإذا كان مع الجمع أهله. كان جامعا للهمم والقلوب، وموقضا للنفس من سنة الغفلة، ولا يشاب بقادح، وما كان كذلك يصح أن يكون دواؤه لعلة التكاثر من الذنوب وصارفا عن النفس ما اتصفت به من نقائص العيوب، والمراد بأهل الجمع أهل الصدق القائمين بشروطه وآدابه فشروطه سبعة:

الأول: أن يكون حال الاجتماع مصلحا لحال السالك تدعو إليه الضرورة من ترويح النفس من ضغطة المجاهدة، أو تنشيطها لما رأى ذلك.

الثاني: أن يكون في محل الاجتماع القدوة، أو من يقوم مقامه في ضبط أمور الجمع، وردهم إلى نظر واحد؛ لأن الأهواء إذا اختلفت كان عنها الشتات والفساد.

الثالث: أن يقدم بين يدي الاجتماع قصدا نافعا؛ فيقصد معاملة الله تعالى بالانقطاع مع صالحي إخوانه؛ كي يرحم بهم، ويرى أنهم القوم الذين لا يشقى جليسهم.

الرابع: لا يحمله غلبة النوم على تضييع شيء من لزومه، أو تقصير في فريضة لأن تجار الآخرة يصونون رؤوس أموالهم من الضياع.

قلت وقد رأينا كثيرا من جهلة فقراء هذا الزمان ومرابطيه يجتمعون للذكر

والسماع، فيقومون الليل كله؛ فإذا كان السحر رقدوا؛ فالنشيط منهم يقوم لصلاة الصبح كسلان لا يوفي بالقيام بفرضه، وربما رجع بعد صلاة الصبح ينام، ويترك العبادة فيما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وآخرون يستغرقهم النوم؛ فينامون عن صلاة الفريضة، ويصلونها في غير وقتها؛ فهذا هو الخسران المبين؛ فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾؛ فنعوذ بالله من الخذلان.

الخامس: أن يكونوا صنفا واحدا يجمعهم طريق واحد؛ لأن الباطن يسكن إلى مؤالفة الصنف؛ كما ينفر عن ملابسة غير الصنف.

السادس: ألا يمزجو ما اجتمعوا عليه من الذكر بما ينافر الذكر. من لغو، وهدر، وغير ذلك؛ مما يجر إلى الغفلة، ويدعو إلى الخسران.

السابع: استصحاب الطهارة حتى يكون جميع ما يلتمسون به من أعمال الخير صادرا عن أكمل الحالات، وأجمل الصفات، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أكره أن أذكر اسم ربي على غير طهارة".

وآدابه سبعة:

الأول: أن يكون الاجتماع للذكر ليلا؛ لما في الليل من الهدوء، والخلوة؛ ولأنه محل المناجاة والعبادات، وزمان الإجابة والقبول.

الثاني: ألا ينام بين الحاضرين. ذلك مما يكسل الذاكرين، ويذهب بنشاطهم.

الثالث: الابتداء بركعتين في موضع الاجتماع للذكر.

الرابع: خديم. يعينه القدوة يقوم بخدمة القوم؛ ليريحهم من شغب ذلك، ويتفرغون للذكر.

الخامس: التزام الأدب مع الله، ومع القوم الداكرين.

السادس: الابتداء بعد ركعتين بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. أقل ذلك مائة.

السابع: أن يكون لهم سماط يجتمعون عليه، وقد ورد في وصف الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا لا يتفرقون إلا عن ذوق، وليختموا الذكر بالصلاة

على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليكون ذلك بداية ونهاية.

فصل:

اعلم أن الأصل في اجتماع أهل هذا الطريق على بعض الأعمال الجهرية من صلاة وذكر وغير ذلك، وأن بعض مشايخ أهل هذا الطريق ربما ظهر لهم من بعض التلاميذ إفراط مجاهدة بإشداد في الأعمال، والانقطاع إلي المكابدة بإيثار الخلوة، والصوم في كل الأحوال حتى أضغط ذلك نفوسهم، وأحرق أكبادهم؛ فرأوا ترويحهم بشيء ترتاح أنفسهم به، ولا يخرجهم عن معنى العبادة فجمعوهم على الذكر أو على صلاة أو غير ذلك من العباداة.

قال رحمه اله تعالى:

ولا الصيام دون صمت واعتزال ولا القيام دون صدق وابتهال

هذا معطوف على قوله: "ولا يفيد فيه ذكر الجمع"؛ كأنه قال رحمه الله تعالى: ولا ينفع ذكر الجمع في التداوي به لعيب النفس المذكور، وكذلك لا ينفع الصوم في ذلك. إذا كان دون صمت واعتزال، ولا القيام دون صدق وابتهال؛ وإنما كان الأمر كذلك لنقص صوم من لم يصمت لسانه حين صيامه عن فضول الكلام الذي لا يعني، ولم يعتزل بقلبه وقالبه عن الخلق شغلا بالحق، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش"، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: "كم من صائم مفطر، وكم من مفطر صائم"، وكذلك قيام الليل دون صدق في العبودية لإظهار فقر العبد إلى ربه؛ فهو أيضا ناقص، وقد قدمنا أن من الحكمة أن يكون الدواء كامل الأجزاء؛ فإذا كمل حصل به الانتفاع، وكانت العلة بسببه أسرع إلى الزوال والاندفاع، وكمال الصيام حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، وجميع الجوارح عما منعوا منه شرعا مع الإمساك عن المأكولات والمشروبات والجماع ومقدماته، وكمال القيام وجود الصدق فيه والدعاء والابتهال والوقوف بباب الله تعالى بوصف العبودية تذلا للربوبية.

قال رحمه الله تعالى:

وقد شكا للمصطفى إنسان قسوة قلب شأنه العصيان

قال إدنه للذكر كي يزولا محله ويقتني قبولا

أشار رحمه الله تعالى في هاتين البيتين إلى الحديث الذي ذكره، وذلك أن رجلا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم شكى قسوة قلبه؛ فأمره عليه الصلاة والسلام بلزوم الذكر. إذ الذكر له فوائد منها أنه يلين القلب القاسي. قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾.

ولما كان الذكر يلين ويزيل قسوتها. أمره صلى الله عليه وسلم بالتزامه والدوام عليه؛ ومن فوائد الذكر قبول الحق عز وجل على الذاكر ومجالسته: "**أنا جليس من ذكرني**"؛ ولا تكون المجالسة إلا مع القرب، والقبول.

والاقتناء المذكور في البيت. معناه الاكتساب، **والقبول**: المواجهة، ونفي الأعراض.

قال رحمه الله تعالى:

وقال من أذنب ذنبا نكتا   في قلبه سواده وثبتا

القائل في قال: هو المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ وأشار رضي الله تعالى عنه في هذا البيت إلى ما قدمناه من رواية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل إذا أذنب نكتت نكتة سوداء في قلبه. ثم كذلك حتى يتغطى؛ فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

فإن يتب من ذاك أو يستغفر   زال الذي نكته أو يغفر

أشار رحمه الله تعالى بهذا البيت إلى ما روته عائشة رضي الله تعالى عنها. قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه".

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾.

والإشارة ب " ذلك " في البيت إلى الذنب؛ فالمعنى: أو يتب من ذلك

الذنب المتقدم ذكره، أو يستغفر منه؛ ومفهوم كلامه رضي الله تعالى عنه أن أحد الأمرين: إما التوبة أوالاستغفار كاف في إزالة النكتة، والمغفرة ورحمته تعالى وفضله أوسع من ذلك؛ وقد جاء أن العبد إذا أذنب وقال رب اغفر لي. يقول الله عز وجل للملائكة: "أويعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب. أشهدكم أني غفرت له".

ثم قال رحمه الله تعالى:

وإن يكن في غيه تمادى   فنكته يزيده اسودادا

حتى يصير القلب ليس يعرف   النكر والمعروف بل يجازف

الغي: هو الباطل؛ والمراد به هنا الذنوب والمعاصي، وجميع المخالفات؛ فإذا أذنب العبد ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه؛ فإن تاب واستغفر زالت تلك النكتة؛ وإن تمادى في المعاصي، والمخالفات زادت النكتة سوادا. حتى يتغطى القلب.

وقد روي هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما رواه عنه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه؛ وقد تقدم.

ولا يزال العبد يزيد في المعاصي ويقترف السيئات حتى يصير القلب بعيدا من الحق منحرفا عنه. ثم كذلك إلى أن يذهب منه نور الهدى، وتعلوه ظلمة المعاصي؛ فلا يميز حينئذ المنكر من المعروف، ولا يعرف الحق من الباطل. تلتبس عليه الأمور بسبب ما يعلوه من الظلمة، ويفقده من النور.

قال رحمه الله تعالى:

ثم تلا له إمام العرفين   ما قد أتى في سورة المطففين

من ذكر ران واقع في القلب   مكتسب من ارتكاب الذنب

سيد العارفين: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي أتى في سورة المطففين هو قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ وهذه الآية تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي شكى له قسوة القلب؛ فتلاها له عليه الصلاة والسلام؛ ليعلمه أن علة قسوة القلب، وسببها اكتساب الذنوب، واقراف السيئات؛ وهذا فيه تحذير من المعاصي، والمخالفات، واكتساب الذنوب، والسيئات؛ فبين صلى الله عليه وسلم العلة، وسببها، ودواء العلة؛ وهو الذكر كما سبق.

ثم قال رحمه الله تعالى:

مـــن عيـــبها ذكـــر رقـــيق العلـــم والخـــوض فـــيه بدقـــيق الفهـــم

كـــي يـــستميل أنفـــس الأغمـــار مكتـــسبا جهـــلا علـــى اســـتمرار

رقيق العلم: هي المسائل اللطيفة المتضمنة للمعاني الغريبة التي لا كبير حاجة إليها لعامة المؤمنين، ولا ينبني عليها حكم من أحكام الدين، ولا نقص فيه بسبب الجهل بها. إذ هي علوم علمها يجدي، وجهلها لا يردي؛ فإذا كان العبد يذكر رقيق العلم، ويخوض فيه بفهمه؛ لاستمالة أنفس العامة، ولكسب الجاه عند الناس؛ فذلك عند أهل الحق عيب من عيوب النفس قادح فيها، وعلة تذهب من الروح القوة وتنفيها، والشغل برقيق العلم والخوض فيه عند أهل السلوك من الشغل بما لا يعني؛ وهذا بالنظر إلى من له نصيب من فاخر العلوم، وعالم بما يحتاج إليه من ضروريات المسائل الدينية، وأقبح من هذا من كان جاهلا بأمور دينه. غير عالم بأحكامه، ويشتغل برقيق العلم ودقائقه؛ وقد روي أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: "جئتك لتعلمني غريب العلم، فقال له صلى الله عليه وسلم: ما فعلت في كبيره؟ " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

سمى الشيخ رحمه الله تعالى التفهم في رقيق العلم خوضا على جهة الذم والتنفير من الخوض في ذلك، **وقوله: "كي يستميل أنفس الأغمار**... البيت " بيان لعلة العيب.

والأغمار: جهلة الناس، وأضاف الاستمالة إلى الأنفس تنزيها للقلوب من أن تميل إلى مثل ذلك، **وكذلك قوله: أنفس الأغمار**. تنزيها لأنفس العلماء؛ فإن ذلك لا يميلها.

ولما ذكر رحمه الله تعالى العيب، وبين علته أخذ يذكر سببه فقال:

وذاك مـــــن إيـــــثاره دنــــياه وتـــركه مـــا يرتـــضي مـــولاه

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت سببين لعيب النفس المذكور في البيت الأول من البيتين المتقدمين:

الأول: إيثار العبد لدنياه؛ فإيثاره لها يحدث في النفس عيوبا. منها السعي فيما يميل النفوس إليه، والخوض في ذلك؛ ولكل فريق طريق في ذلك، فطريق

بعض الطلبة في استمالة النفوس إليهم لينالوا بذلك دنيا غيرهم بالتكلم في رقائق العلوم، والخوض فيها؛ والداعي لهم إلى ذلك. إيثارهم لدنياهم.

الثاني: ترك ما يرتضي المولى جل جلاله؛ وهو تعالى لا يرتضي إيثار العبد لدنياه، ولا السعي فيما يحصل متاع الدنيا، فترك مرضاة المولى نتيجة حب الدنيا وإيثارها؛ وقد تقدم قبل هذا كلام في ذم الدنيا، وذم طالبها والتنفير من حبها، والرغبة فيها، وما يزهد العبد فيها؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا اتمام الكلام في ذلك عند قول الشيخ: "وحب دنياه لذاك أصل".

وقد أخذ رحمه الله تعالى بذكر دواء العيب السابق؛ فقال:

دواؤه عملـــه بـــوعظه لينـــتفع بلفظـــه ولحظـــه

بـــأن يكـــون تاركـــا دنـــياه ومؤثـــرا فـــي حالـــه مـــولاه

التارك لدنياه، والمؤثر في جميع أحواله وشؤونه لمولاه. مواعظه لمن عمل بها نافعة، ورؤيته لعيوب النفس، وعللها دافعة. ألا ترى إلى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال بعض العلماء أنفع ما يكون للقلوب. آية قاطعة، أو موعظة نافعة، أو حجة أنوارها ساطعة".

وفي حكمنا: [1] " المجالس المحفوفة بالأنوار الربانية تنقل العبد من عالم البشرية إلى عالم الروحانية"؛ وفيها أيضا: "الدرجة العالية في جنة الدنيا حضور مجالس أتتها القلوب ميتة فتحيى". فمن كان كلامه بالله، ولله. أحيت القلوب مواعظه، وهذبت النفوس نصائحه، وأنعش الأرواح كلامه، ومن تكلم بنفسه لهواه لم ينتفع بكلامه، ولا يهتدى بمواعظه.

قيل لمحمد بن أحمد بن عباد القصار: [2]" ما بال كلام السلف أنفع من

(1) هذه العبارة التي تكررت غير ما مرة في هذا الشرح يؤكد أن للشيخ الخروبي كتابا اسمه: الحكم الكبرى. إلا أنني لم أعثر عليه ضمن مخطوطات المكتبة الوطنية بالرباط، والمكتبة الحسنية؛ وقد توجد نسخة منه بإحدى المكتبات العمومية أو الخاصة.

(2) هناك غير ما واحد عرف بلقب القصار؛ ولعله يقصد هنا الإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمان التونسي القصار. كان معاصرا لابن عرفة، وأخذ عنه ابن مرزوق الحفيد. توفي بعد سنة: 790 هجرية.

كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا بعد الإسلام، ونجاة النفوس، ورضاء الرحمان؛ ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا".

وفي حكمنا الكبرى: "من تكلم بالله، ولله يخرج كلامه كالرعد تصحبه البوارق الإلهية، وتعقبه الرحمة الربانية، ومن تكلم بنفسه لهواه يخرج كلامه كحجر النفط تصحبه النيران، ويعقبه الدخان". قال معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه: "كنت مارا بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس فقال في خلال كلامه: "من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بوجوه جميع الخلق، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتا ما؛ فوقع كلامه على قلبي، وأقبلت على الله، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضى، وذكرت هذا الكلام لمولاي؛ فقال: يكفيك هذا موعظة إن اتعظت.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ثم كذاك صحبة الأخيار إلا بالاحترام والإبرار

هذا معطوف على ما تقدم من دواء العيب السابق فقال: ثم كالدواء السابق صحبة الأخيار؛ فإن صحبتهم دواء لعيوب النفس لكن بشرط الاحترام لهم والبرور بهم، وتقدم الكلام ما المراد بالأخيار فاحترامهم واجب وبرورهم حتم لازم؛ فهذا لا يقع لمن صحبهم الانتفاع بهم.

قيل دواء القلوب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، وسماع مواعظ العلماء العاملين، وصحبة الصالحين ومجالستهم؛ وتقدم قبل هذا كلام في الصحبة.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

قد أمر الله المسيح المرتضى أن يبتدي بنفسه إن وعضا

ما قاله رضي الله تعالى عنه من أن الله تعالى أمر المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام أن يبتدئ بوعظ نفسه لم اقف على أصله، ولا من أين أخذه الشيخ رضي الله تعالى عنه، وذكره رحمه الله تعالى ليكون الوعاظ في مواعيظهم على السبيل الذي أمر الله تعالى به نبيه المسيح عليه الصلاة والسلام، وهو الطريق

المحمود؛ فإذا وعظ العبد نفسه، واتعظت وأثرت موعظته في نفسه؛ فيرجى النفع لغيره بموعظته، وإن لم تتأثر نفسه بموعظته، ولا انتفعت بها، فلا ينتفع غيره بها أصلا والعبد يستحيي من الله تعالى أن يعظ غيره ولا يعظ نفسه؛ وإلى هذا أشار الشيخ رحنه الله تعالى بقوله:

وإن تكن بوعظه متعظه أو لتتب فتستحي من العظه

يريد رحمه الله تعالى أن تكون النفس تتعظ بوعظ صاحبها لها؛ فغيره يتعظ بموعظته وينتفع بها؛ والأصل في ذلك وجود الصدق، وإخلاص العمل لله تعالى، وسلامة الصدور، وإرادة هداية عباده تعالى إلى بابه الكريم، وعدم رؤية النفس؛ فهذه كلها أسباب توجب قبول موعظة من اتصف بها كما أن عدمها توجب عدم القبول، أو يعظهم ولم يعظ نفسه، وقد ذم الله تعالى قوما كان حالهم أن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ فقال تعالى موبخا لهم: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

حسبما يذكر الشيخ هذه الآية بعد؛ فقال رحمه الله تعالى:

والمصطفى في ليلة الإسراء رأى الذي حل بالخطباء
شفاههم تقرض بالنيران للأمر بالبر بلا إتيان

أشار رحمه الله تعالى في هذين البيتين إلى ما خرجه الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني[1] في كتب رياض المتعلمين. قال حدثنا أبو بكر بن خالد حدثنا الحارث بن أبي أسامة حدثنا أبو النضر حدثنا محمد بن عبد الله بن علي بن زياد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار فقلت ياجبريل من هؤلاء؟ قال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب افلا يعقلون".

وعن محمد بن واسع بلغني أن ناسا من أهل الجنة اطلعوا على أناس من أهل النار فقالوا لهم: "قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها؛ فدخلنا الجنة. قالوا كنا

---

(1) أبو نعيم الأصبهاني هو صاحب الحلية، والطبقات. توفي سنة 430 هجرية

نأمركم بها، ونخالف إلى غيرها".

فهذا كله تنفير للوعاظ أن يعظوا الناس ويأمورهم بالبر، ولا يفعلونه؛ فالآية موبخة لمن كان هذا حاله.

ثم قال رضي الله تعالى عنه:

أتأمـــرون قـــد أتـــى فـــي البقـــره فـــــي آيـــــة زجـــــرة مذكـــــره

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله تعالى في البقرة: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ...﴾ الآية، وقد تقدمت، والبر في الآية المراد به الإيمان بمحمد صالى الله عليه وسلم، ويطلق ويعم جميع أنواع البر والطاعات، والمخاطب بالآية أخبار اليهود.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "كانوا يأمرون أتباعهم ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم يخالفونها في جحودهم منها صفة محمد صلى الله عليه وسلم"؛ وقيل: "كانت الأحبار إذا استرشدهم أحدهم من العرب في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم دلوه على ذلك وامتنعوا منه، فهم أمروا الناس بالبر، وتركوا أنفسهم، وتعم الآية كل من أمر بطاعة، وامتنع منها، وتقدم ما جاء من الوعيد في ذلك فالآية زاجرة عن الأمر بالمعروف. مع عدم إتيان الأمر إليه، ومذكرة للوعيد على ذلك.

قال رحمه الله تعالى:

مـــن عيـــبها ســـرورها والفـــرح وطلـــبها الـــراحة وهـــي تمـــرح

سرور النفس بما يحصل لها من أغراضها، وشهواتها وفرحها بذلك، ومرحها وطلبها للراحة عيب من عيوبها؛ وذلك دليل على عدم خوفها من خالقها، وعدم مراقبتها لجلاله عز وجل، ومشاهدتها لعظمته؛ ولو كانت مشاهدة للعظمة، ومراقبة للجلال لأكتسبت من ذلك هيبة وخوفا وحياء، وفي القرآن أن الله لا يحب الفرحين؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم دائم الأحزان والفكر في عظمة الله تعالى، ومعاني أسمائه وعظيم أفعاله.

هذا سيد البشر صلى الله عليه وسلم وأكرم الخلق عند الله تعالى؛ فكيف بمن سواه، وفي الخبر أن الله يحب كل قلب حزين؛ وفي التوراة إذا أحب الله عبدا

نصب في قلبه نائحة، وإذا بغض عبدا جعل في قلبه مزمارا.

قال بشر الحافي: [1] " الحزن ملك فإذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه أحد"؛ وقيل القلب إذا لم يسكن فيه حزن خرب؛ كما أن الدار إذا لم يسكن فيها ساكن تخرب، وقال ابن خفيف: "الحزن حصن النفس عن النهوض من الطرب"، وسمعت رابعة العدوية رجلا يقول: "واحزناه " فقالت: قل " واقلة حزناه. لو كنت محزونا لما يتهيأ لك أن تتنفس"، وقال سفيان بن عيينة: "لو أن محزونا بكى في أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه"، وكان داود الطائي الغالب عليه الحزن بالليل ويقول: "إلهي عطل علي الهموم وحال بيني وبين الرقاد"، وكان يقول: "كيف يتسلى من الحزن من يتجدد عليه المصائب في كل وقت".

وقيل الحزن يمنع من الطعام، والخوف يمنع من الذنوب.

قلت: والحزن سببه الخوف، وحيث وجد الخوف وجد الحزن، وكان بعضهم يقول للشمس إذا غربت: "هل طلعت اليوم على محزون؟"، وكان الحسن البصري ما يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة، وقال بعض السلف: "أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الهم والحزن"، وكان السلف يقولون: "إن على كل شيء زكاة، وزكاة العقل الحزن والقبض"؛ بما فيهما من الفوائد حسبما ذكرناه، ولأنهما أدعى إلى الأدب مع الله عز وجل، ويكون الفرح والبسط للنفس فيهما حظ، والقبض والحزن لا حظ للنفس فيه".

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه يقول: "القبض حق الحق منك، والبسط حظ العبد منه، ولا تكون بحظه منك أتم من أن تكون بحظك منه"؛ فالقبض والحزن يردانك إليه والبسط والفرح يردانك إلى نفسك، وما يردك إلى ربك خير مما يردك إلى نفسك، فرجوعك إلى ربك عبودية، ورجوعك إلى نفسك خروج

---

(1) من كبار أئمة الزهد والتصوف. كا يتكسب من عمل المغازل وبيعها. أفرد ابن الجوزي كتابا في مناقبه. تشفع الخليفة المأمون العباسي بأحمد بن حنبل في أن يأذن له بشر في زيارته فأبى. من أقواله: "فضل علي أحمد بن حنبل بثلاث: طلب الحلال لنفسه ولغيره، وأنا أطلبه لنفسي فقط، واتساعه في النكاح وضيقي عنه، وكونه نصب إماما للعامة. توفي ببغداد سنة: 227 هجرية.

عن العبودية.

وطلب الراحة في الدنيا والمرح علامة على فراغ القلب من التقوى، ودليل على نسيان الآخرة، ولا عيب أعظم من هذا؛ وكيف يسر ويفرح من الموت طالبه، والقبر ينتظره والسؤال في القبر وراءه والحساب والعقاب أمامه، ولا يعرف في الجنة مسكنه أو النار قراره، وهل يقابل عند لقاء الله برضاه، أو بسخطه.

ودخل المزني[1] على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: "أصبحت من الدنيا راحلا، وللإخوان مفارقا، ولسيء عملي ملاقيا، ولكأس المنية شاربا، وعلى ربي واردا، ولا أدري أروحي صائرة إلى الجنة فأهنيها. أم على النار فأعزيها".

وسئل بعض الزهاد كيف حالك؟ فقال: "كيف حال من يريد سفرا بلا زاد، ويسكن قبرا موحشا بلا مؤنس، ويقدم على ملك قادر بلا حجة؟ وكيف يطلب الراحة ممن تحمل الأمانة وطولب بالتكاليف الشرعية والأعمال الدينية؟ وكيف يمرح من لا يحق له أن يفرح، ولا يعرف إذا أصبح هل يمسي؟ وإذا أمسى هل يصبح؟".

ثم أخذ الشيخ رحمه الله تعالى يذكر سبب العيب المذكور؛ فقال:

وذاك من رضاه عنه أبدا وعدم اتهامه فيما بدا

الإشارة ب " ذاك " إلى عيب النفس. الذي هو سرورها وفرحها وطلبها الراحة ومرحها.

قال رحمه الله: سبب هذه. رضاه عن نفسه، وعدم إتهامه لها فيما يبدو منها من الأعمال، وتدعيه من الأحوال، ولا شك أن الرضى عن النفس يحدث فيها عيوبا كثيرة، وكذلك عدم اتهامه لها. وتقدم لنا الكلام في رضى العبد عن نفسه، وما ينشأ عنه من العلل؛ فانظره في محله.

ثم قال رحمه الله تعالى:

دواؤه استيقاظه من غفلته لأن ذاك هو أصل علته

---

(1) المزني هذا هو تلميذ الشافعي.

وذكـــــره تقـــــصيره وزلـــــته وكـــل نهـــي كـــان فـــيه عملـــه
وذكـــــر مـــا بـــين يديـــه آت مـــن أمـــر أخـــراه بـــلا انفـــلات

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الثلاثة ثلاثة أدوية لعيب النفس السابق.

الدواء الأول: استيقاظه من غفلته عن أمور توجب له الحزن والقبض لا السرور والفرح والمرح، وهي الموت المحتوم، وما بعده من الأحوال؛ كالسؤال والحساب والعقاب وجهل العاقبة، وغير ذلك مما يوجب يقظة القلب، وانتباه الروح وخمود النفس، فالغفلة عن الله تعالى وعن ما ذكرنا من أمور الآخرة هي أصل كل عيب وعلة وزوال الأصل يقضي بزوال ما تفرع عنه.

الثاني: ذكر تقصيره وارتكابه لما نهى الله عنه، وذكر هذه الأمور إنما هو مع اليقظة من الغفلة؛ فإذا تذكر العبد ذلك انقلب سروره حزنا، وبسطه قبضا، وفرحه إنكماشا، ولم يطلب الراحة بل يأخذ بالجد والتشمير في تدارك ما قصر فيه من العبادات، وتكبير ما اجترحه من السيئات.

الثالث: ذكر ما بين يديه آت من أمور الآخرة. التي من تذكرها لم يبق له سرور، ولا انبساط ولا مرح.

فهذه الأمور الثلاثة مذهبة لما تقدم من عيب النفس؛ فلذلك كانت أدوية لعيوبها مبعدة لها عن أسباب ذنوبها.

وقوله بلا انفلات: أي لا يمكن أحدا من العباد الانفلات من أمور الآخرة التي أخبر الله تعالى بها على ألسنة رسله على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قـال الرسـول هـذا سـجن المـؤمن وجـــنة الكافـــر طـــول الـــزمن

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"؛ وإنما كانت سجن المؤمن؛ لما يلقاه فيها من الشدائد والمصائب؛ ولما كلف فيها من التكاليف والمتاعب؛ فكانت بذلك سجنه؛ وإنما كانت جنة الكافر؛ لما يتهيأ له فيها من شهوات نفسه، ولذات الدنيا التي هي جنته؛ وإنما أصاب المؤمن في الدنيا الشدائد والمصائب؛ ليلا يركن إليها ويأنس بها، وإنما

هيأ للكافر في دنياه شهوات نفسه ولذاتها؛ ليركن إلى الدنيا ويكون أنسه بها لا بالله تعالى.

قال ابن عطاء الله في حكمه: "إنما جعلها حملا للأغيار، ومقعدا لوقوع الأكدار. تزهيدا لك فيها". وشأن الدنيا دائما لا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يقوم خيرها بشرها؛ وقد تقدم ما كتب به علي بن أبي طالب إلى سلمان رضي الله تعالى عنهما؛ وهذا علة مما يستدل به على أن الدنيا سجن المؤمن، والسجن محل الأغيار، ووقوع الأكدار، ولا يقع فيه فرح.

والإنسان كما نبه الشيخ على ذلك. حيث قال رضي الله تعالى عنه:

والسجن فاعلم ليس فيه فرح وإنما فيه الأذى والترح

الأمر كما قال رضي الله تعالى عنه ليس في السجن إلا الأذى؛ أي ما يتأذى به الإنسان في ظاهره وباطنه؛ فمن طلب فيه فرحا، فقد طلب في غير محله.

والترح: مقابل الفرح. كذلك المؤمن في الدنيا لا يلقى فيه إلا الاغترار والأكدار؛ وفي كلام الشيخ توطين للنفس على ما يلقاه العبد المؤمن في دار الدنيا من الأذى والأكدار، وأنواع المصائب والأغيار، وإياس لها من أن تطمع في شيء في غير محله.

وقال داود الإمام الطائي كلمة عظيمة الأنباء

قطع قلوب العارفين أبدا بذكرهم إحدى الخلودين غدا

داود الطائي[1] المذكور هنا هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي، وكان كثير الشأن من أكابر الأعيان، وكان شديد الخوف من الله تعالى، وكان يقول في الليل: "إلهي همك عطل علي الهموم وحال بيني وبين الرقاد " ووردت عليه عشرين دينارا[2] فأكلها في عشرين سنة، وقيل له: أما تشتهي الخبز؟ قال ما بين مضغ الخبر وأكل الفتيت قراءة خمسين آية"؛ ولما توفي رآه بعض الصالحين في المنام وهو يعدو؛

(1) هو داود بن نصير الطائي. أصله من خراسان. رحل إلى بغداد وجالس أبا حنيفة وغيره. ثم عاد إلى الكوفة واعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن توفي سنة: 162 هجرية. كان الثوري يعظمه، وكان ابن المبارك يقول: "ما الأمر إلا ما كان عليه داود".

(2) قيل ورثها عن أبيه.

فقال له مالك؟ فقال: الساعة تخلصت من السجن، فاستيقظ الرجل فارتفع البراح.
مات داود الطائي، وكان سبب توبته أنه كان يمر ببغداد يوما فنحاه المطرقون بين حميد الطوسي، فالتفت داود الطائي فرأى حميدا، فقال داود: "أف لدنيا سبقك بها حميد"؛ فلزم بيته في الجد والعبادة والحكايات عنه كثيرة.

ومن كلامه ما أسنده الشيخ إليه من القول وهو قوله: "قطع قلوب العارفين ذكرهم إحدى الخلودين. إما خلود في الجنة وإما خلود في النار، فليت شعري وكيف لا ينقطع قلب من لا يعرف من أي القبضتين هو، ولا من أي الفريقين، ولا في أي الدارين يكون".

فالعارفون أشداء الخوف من ذلك؛ لما لم يعلموا السابقة، ولم يعلموا العاقبة؛ وإنما خاف العارفون من ذلك؛ لشهودهم الجلال، ولم ييأسوا من الجمال، وهكذا حال العارفين؛ فهم أشد خشية من الله تعاى، وكلما زاد العبد معرفة كان أشد خوفا.

قال عليه الصلاة والسلام: "أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية"، وهكذا يكون حال العارفين بالله تعالى، والعالمين بصفات عظمته. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقال بشر للذي قد سأله ... ما لك مهموما جوابا أجمله
لأنني في حالتي مطلوب ... وذا جواب جامع مصيب

بشر المذكور هنا هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافي أصله من مرو وسكن بغداد ومات بها وهو ابن أخت علي بن خشرم، وسمي الحافي لأنه كان يمشي بلا نعل تواضعا. قال أبو علي الدقاق: "أتى بشر الحافي باب المعافى بن عمران فدق عليهم الباب؛ فقيل من؟ قال بشر الحافي، فقالت بنته من داخل الدار. لو اشتريت نعلا بدانقين لذهب عنك اسم الحافي".

وقال عبد الرحمان بن أبي حاتم: بلغني أن بشر بن الحارث الحافي قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال: يابشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، فقال: باتباعك لسنتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي. هو الذي بلغك منازل الأبرار".

ورئي رضي الله تعالى عنه في المنام بعد وفاته؛ فقيل له ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وقال لي: كل يا من لا يأكل، واشرب يا من لا يشرب.

وقيل إنه رئي بعد وفاته في المنام، فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة، وقال لي: يابشر لو سجدت على الحجر ما أديت شكر ما جعلته لك في قلوب عبادي.

وسبب توبته رضي الله تعالى عنه أنه أصاب في الطريق كاغدة عليها مكتوب اسم الله وطئتها الأقدام؛ فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية، فطيب بها الكاغدة، وجعلها في شق حائط؛ فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا قال له يابشر طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة.

والحكايات عنه رضي الله تعالى عنه كثيرة؛ فمن ذلك ما أسنده الشيخ إليه من القول، وهذا قوله للذي قال له: "ما لك مهموما؟؛ فأجابه رضي الله تعالى عنه: لأنني في حالتي مطلوب".

وجوابه هذا جامع لمعان كثيرة. مصيب فيه لمقاصد حميدة، والحالتان اللتان هما مطالب فيهما حالة المخالفة. مطالب فيها بالتوبة، وحالة الطاعة. مطالب فيها بالصدق والإخلاص، وحالة الإبتلاء. مطالب فيها بالصبر، وحالة النعمة. مطالب فيها بالشكر، وحالة البطالة مطالب فيها بالعمل، وحالة العمل مطالب فيها بالزيادة فيه، وحالة الجهل مطالب فيها بالتعلم؛ فإذا تعلم طولب بالعمل بما علم إلى غير ذلك من الحالات المتقابلة؛ فجوابه رضي الله تعالى عنه جامع لهذه المعاني كلها، ومصيب فيه لهذه المقاصد أجمعها.

ثم قال:

من عيبها اتباعه هواها وسعيه لما به رضاها

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين منن عيوب النفس.

الأول: اتباع العبد هوى نفسه؛ وقد نهى الله تعالى عن اتباع الهوى فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وقد عد متبع الهوى من الحمقاء، وكل من اتبع هوى نفسه فهو منقاد إليها مملوك لها ولهواه. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ...﴾ الآية.

واتباع العبد هواها فرع عن رضاه عنها، وقد علمت ما في الرضى عن النفس؛ فانظره فيما تقدم في هذا التأليف.

الثاني: سعي العبد لما فيه رضى نفسه؛ فإنه سعي لغير الله تعالى، ومخالفة الحق. إذ النفس لا ترضى إلا بما هو باطل، ولا عيب أعظم من هذين الأمرين الذين هما اتباع هوى النفس، والسعي فيما رضي بمخالفة هوى النفس أولى من اتباع هواها، والسعي في رضى المولى جل جلاله أحق من السعي في رضى النفس.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الناشئ عنه العيبان المذكوران؛ فقال:

وذاك من جهل بها وبالمآل وأصله إهمالها بكل حال

ذكر في هذا البيت سبب العيبين المذكورين في البيت الذي قبل هذا وأصلهما؛ فالسبب جهل العبد المتبع لهوى نفسه بها، وبما يؤول إليه أمره. إن اتبع هوى نفسه. إذ لو كان عالما بها، وأنها أمارة بالسوء، ولا تهوى إلا ما كان مخالفا للحق، ولا ترضى إلا بما هو باطل مسخط لله عز وجل لما اتبع هواها، وكذلك لو علم مآله إن اتبع هواها، وسعى في رضاها، وأن أمره يؤول إلى الندامة حيث لا تنفعه، وأنه مؤاخذ بذلك، ومعاقب عليه، ومحاسب به، ومبعد من الله سبحانه بسببه، والأصل إهمال العبد تأديب نفسه، ورياضتها وتذكيرها بالوعيد؛ وبما ينفرها من أن تهوى وترضى بمخالفته الحق، وبما يسخط مولاها عز وجل، ويبعدها منه؛ فمن أهملها في جميع أحوالها؛ فإهماله لها أصل يتفرع عنه عيوب وعلل.

ثم أخذ رحمه الله تعالى بذكر الدواء؛ فقال:

دواؤه إيثاره مولاه وشغله بكل ما يرضاه

وتهمة النفس على الدوام وقهرها في سائر الأيام

ذكر رحمه الله تعالى ورضي عنه في هذين البيتين لعيبي النفس المذكورين أربعة أدوية:

الأول: إيثار العبد مولاه عز وجل باتباعه مرضاته دون اتباعه هوى نفسه، والسعي فيما يرضاه سبحانه دون السعي فيما يرضيها؛ فإيثار المولى والشغل فيما يرضى. دواء لعيوب النفس، وشاف لها من عللها، والحامل للعبد على إيثاره مولاه، وشغله بما يرضاه ثلاثة أشياء:

* الحياء من الله عز وجل؛ وهذا حال المقربين، فهم يستحيون من الله تعالى أن يؤثروا غيره عليه.

* الثاني صدق المحبة للمولى تعالى؛ فالمحبون الصادقون في المحبة يمنعهم صدقهم أن يوثروا غير محبوبهم. إذ هذا قادح في حالهم، وهذا حال المحبين.

* الثالث: الخوف؛ وهو حال عوام المؤمنين، فخوفهم من الله تعالى يمنعهم من أن يوثروا غيره.

الثاني: شغل العبد بما يرضي الحق سبحانه، وتقدم الكلام عليه مع الأول، والمراد بالشغل شغل القلب والجوارح بمرضاة الله تعالى؛ فالداعي للقلب إلى شغله بمرضاة الله صدق المحبة ومعرفة العظمة، والداعي للجوارح لذلك ميلها إلى ما مال إليه القلب. إذ هو الأمير المطاع والملك المتبع. وإلى هذاه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجسد مضغة... الحديث".

الثالث: تهمة العبد نفسه على الدوام فيما تدعيه من الأحوال؛ وفيما يصدر منها من الأقوال والأفعال؛ فإذا اتهمها لم يتبع هواها.

قال أبو حفص رضي الله تعالى عنه:: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها".

وقال ابن عطاء الله: "النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب؛ فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بزهده عن سوء المخالفة؛ فمن أطلق عنانها؛ فهو شريكها معها في فسادها".

الرابع: قهرها في سائر الأيام؛ وقد تقدم كلام أبي حفص رضي الله تعالى عنه؛ فالعبد مطالب بقهر نفسه في سائر أيامه، وفي كل أوقاته؛ فمهما رفع عنها عصاة التأديب في وقت ما استخفته، وأطلقت عنانها في ميدان المخالفة؛ فمن قهرها فقد أحكمها، ومن راضها فقد ألجمها، ومن أهملها فقد أهلكها وإلى العدو أسلمها. قال بعضهم: "من لجم طوارق نفسه أفل شوارق نفسه".

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى الموجب الذي أوجب جهادها

وقهرها؛ فقال:

لأنهــــا أمـــــارة ذات هـــــوى موثـــرة لكــــل غيـــر وســـوى

الأمارة: هي التي تأمر بالمخالفات، وتنفر من الطاعات.

وقال الجنيد رضي الله تعالى عنه: "الأمارة هي الداعية إلى المهالك. المعينة للأعداء. المتبعة للهوى. المتصفة بأصناف الأسواء؛ وما دامت أمارة هي ذات هوى موثرة لكي غي وسوء".

وقد تقدم تعريف الغي؛ والمراد ب " السوى". الأغيار؛ وإيثار الغي دوام ارتكابه، وإيثار الأغيار دوام العود إليها، وشغله بها عن الله تعالى.

وهذه النفس الأمارة المتصفة بهذه الأوصاف يعسر عليها مخالفة هواها كما أشار الشيخ إلى ذلك بأن قال:

وقـــد روي عمـــن عـــرف بالغـــار نحـــت الجـــبال قـــال بالأظفـــار

أيـــسر مـــــن خلافهـــا هــــواها مهمـى يكـن قـد حـل فـي قـواها

المعروف بالغار هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، والراوي عنه المقالة المذكورة هنا بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

والمقالة هي قوله رضي الله تعالى عنه: "لرد أمس بالحبال، وربط الشمس بالعقال، ونقل ماء البحار، ونحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن"، وهذه المقالة تدل على استصعاب مخالفة الهوى إذا تمكن في النفس الأمارة"، وهذا هو المراد بقوله مهما يكن قد حل في قواها يعني إذا تمكن وصار الهوى طبعا لها وغريزة.

قال سهل بن عبد الله: "ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس".

قال بعض العارفين: "منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة".

ثم ذكر رحمه الله تعالى ما جاء في سورة الجاثية من إنكار على من اتبع هواه وتوبيخه لذلك؛ فقال:

أفـــرايت قـــد أتـــى فـــي الجاثـــيه إشـــارة إلـــى مـــا ذكـــرنا كافـــيه

الذي أتى في الجاثية قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ...﴾ **الآية**؛ فهذه الآية كافية

لما ذكره رحمه الله تعالى من أمر النفس الأمارة، وذم من اتبع هواها، وسعى لما به رضاها. مع ما جاء في ذلك من كلام الناس، وحكايات عنهم؛ وقد تقدم ذلك فانظره في محله.

ولا شيء للعبد في ترك الهوى، والعدول عن سعيه لنفسه بما ترضى أنفع من اعتصامه بالله عز وجل؛ كما قال الشيخ رضي الله تعالى عنه:

فلتعتصم بالله من هواكا ولتحترز من شر ما اعتراكا

لما كان الاعتصام بالله تعالى أنفع لك أيها العبد المبتلى باتباع الهوى، والسعي للنفس بما ترضى من جميع الأسباب العملية. أمرك الشيخ بذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، **وقال تعالى:** ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

والاعتصام بالله عروة وحصن لارتقاء جنة بها من كل سوء يتقى، ومن الأسواء.

هواك: الذي يضلك عن سبيل الله، **والشر:** الذي يعتريك؛ وهو السعي فيما به النفس رضى.

قال رضي الله تعالى عنه:

من عيبها الإيثار للمعاشره وصحبة الأقران والمظاهره

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس:

الأول: إيثار العبد المعاشرة: والمراد المخالطة التي تردي ولا تجدي؛ فإن إيثارها تحدث في النفس عيوبا وعللا.

قال الثوري: "من عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راآهم، ومن راآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا؛ فلهذا آثر القوم العزلة. إذ هي أسلم للقلب من العلل، وأبعد للنفس من العيب المخل، وجاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق[1] فلما أراد أن يرجع قال له أوصني. قال: "وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة،

(1) هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذي. له مؤلفات في رياضة النفس ومجاهدتها.

وشرهما في الكثرة والاختلاط".

وقال ذو النون المصري: "لم أر شيئا أبعث غلى الإخلاص من الخلوة".

وقيل: "من آثر العزلة حصل العز له".

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: "مكابدة العزلة أيسر من مداواة الخلطة".

وقال مكحول[1]: "إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة السلامة".

وقال يحيى بن معاذ [2]: "الوحدة جليس الصديقين".

وقال ابن عطاء الله في حكمه " ما نفع القلب شيء من عزلة يدخل بها ميدان فكرة".

الثاني: صحبة الأقران والمظاهرة؛ والأقران هم الأمثال. يقال: فلان قرين فلان أي مثله في الحال؛ فصحبة الأمثال توجب المساواة في الحال، وعدم الزيادة من صالح الأعمال، وربما أوجبت نقصا ورجوعا القهقرا، وهذا من أعظم عيوب النفس، وأكبر العلل.

قال ابن عطاء الله في حكمه: "لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله".

قال سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: "احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبارة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين".

وقد تقدم كلام في الصحبة عند قول الشيخ:

وصحبة الأخيار والأبرار بالاتباع وبالائتمار

وقد أطلنا الكلام في أمر الصحبة في كتابنا: "كفاية المريد وحلية العبيد "[3].

والمظاهرة: المعاونة؛ والمراد بها هنا ما يكون من التعاون بين الأقران فيما للنفس فيه هوى وحظ، وهو عيب من عيوب النفس قادح في الدين؛ فلهذا نهى الله تعالى عنه فقال جل من قائل: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى

(1) هو مكحول الدمشقي. من كبار الزهاد.

(2) هو أبو زكرياء يحيى بن معاذ الرازي. الواعظ. الزاهد. من نيسابور. توفي سنة 258 هجرية.

(3) شرح فيه أصول الطريق للشيخ أحمد زروق.؛ الذي حقق من طرف الأستاذ محمد طيب، ونشر من طرف دار الكتب العلمية.

ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى السبب الذي ينشأ عنه العيب المذكور وهو إيثار المعاشرة وصحبة الأقران والمظاهرة فقال:

وذاك من أنس بهذا العالم وفقد ذكر للفراق اللازم

المراد بهذا العالم عالم الملك الذي هومستوطن الأرواح الآرضية، والأنفس الأمارة الشهوانية، والأجساد الطينية، فما دامت الأرواح والأنفس مستوطنة فيه، ومتعلقة به ومتعشقة فيه، ومائلة إليه وتأنس به؛ فإنها توثر معاشرة أهل هذا العالم، ويقوي ذلك نسيانها للفراق اللازم بسبب الموت الذي هو مفرق الجموع، وماحي الأصول والفروع، وهذا وصف الحمقاء. أما العقلاء فآثروا الله على سواه، ولم يوثروا المعاشرة إلا ما كان للآخرة، ولم يصحبوا من الأقران إلا من أعان على طاعة الرحمان.

دواؤه العلم بأن الصاحب مفارق وزائل وذاهب

علم العبد بأن كل صاحب لا بد له أن يفارقه، وعما قريب زائل وذاهب. ينفي عنه إيثاره لمعاشرته، واستئناسه بمصاحبته؛ وإذا كان ولا بد من فراق الصاحب، فالعاقل ما كان آخرا يجعله أولا، وفي هذا راحته من الأسف وحزن الفراق، وقد سلى جبريل عليه الصلاة والسلام نبينا صلى الله عليه وسلم بما ينف الاسم عن الصاحب، وذكره بأنه مفارق زائل، وذاهب بمقالة ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

قد قال جبريل لخير المرسلين ثلاثة لكل لب يستبين

عش الذي شئت فإنك ميت وحب من شئت فليس يثبت

واعمل بما شئت به تجازى إذ كل شخص فعله مجازى

الثلاثة التي قالها جبريل عليه الصلاة والسلام لنبينا صلى الله عليه وسلم التي ذكرها بعد هذا في البيتين الأخيرين من هذه الثلاثة الأبيات.

الأول: عش ما شئت فإنك ميت؛ وهو يقين لا شك فيه، والحكم عام لكل أحد. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، **وقال تعالى:** ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛

فكل حي من الخلق لا بد له من الموت حتما، ولو عاش زمنا طويلا، ولنا [1]في هذا المعنى:

فليس المرء في الدنيا بخالد ... ولو كان المعمر كالمعالق
إذ لا بد من موت قريب ... فأين الأولون من الخلائق
فنمرود ثم قيصر ثم كسرى ... فأين هم وثمت أين طارق
أبادهم الزمان مع الليالي ... كأنهم الهبا تحت المطابق
ففيهم ياأخي عضة إلينا ... فسابقينا اتعاضا لكل لاحق

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "عش ما شئت فأنت ميت " تسلية للنفوس عن الدنيا، وتزهيد فيها، وعدم الاعتداد بها، وترك السعي لها، والشغل بها، والعمل للآخرة، والاستعداد والسعي إليها وأخذ الزاد ليوم الميعاد.

ومن كلام الصديق رضي الله تعالى عنه: "كم من امرئ مصبح في أهله، والموت أقرب إليه من شرك نعله".

الثاني: قوله: "حب من شئت فليس يثبت". هذا بمعنى قوله عليه الصلاة والسلام: "اصحب من شئت فأنت مفارقه"؛ وفي هذا تسلية للعبد عن مفارقة الأصحاب والخلان والآباء والأبناء والإخوان، وعدم الاعتداد بهم، والاستناد إليهم، وتعلق القلب بهم، والاستئناس بموالفتهم؛ فيبني أمره معهم على الفراق، وما يكون من الاجتماع معهم غير ثابت، ولا باق؛ فليكن استئناس العبد بربه، وركونه إليه وتعلقه وأنسه به على بساط مراقبته في خضرة شهوده؛ لأنه تعالى غير مفارق لعبده على كل حال، وغيرمولاك تعالى لا بد لك أيها العبد من مفارقته، وأن تفقده من بعد مصاحبته

وأنشدوا في هذا المعنى:

أحباؤنا فارقتمونا فأوحشت ... قلوب لنا من بعدكم وديار
فكم تذاكرنا مصارع من مضى ... فجاءت دموع للفراق غزار
قضوا وقضيتم ثم تقضي فلا بقى ... لحي وكاسات المنون تدار

---

(1) الضمير يعود على الشيخ الخروبي، وهذا دال على أن له شعرا في التصوف.

وكـــنا وإيـــاكم نـــزور مقابـــرا ومـــتم فـــزرناكم وســـوف نـــزار
سـقت ديمـة الرضـوان ريـا تـربكم وسـاحت لهـا مـن سـاحتيه بحـار

وأنشدوا أيضا:

معـــارف فـــي الثـــرى هجـــوع فالقلـــب مـــن بعـــدهم صـــدوع
تكـــدرت بعـــدهم حياتـــي فأوحـــشت مـــنهم الـــربوع
وكانـــوا ســـروري ونـــور عينـــي فمـــا لهـــا بعـــدهم هجـــوع
ماتـــوا فماتـــت لـــذة عيـــشي وبالأســـى ذابـــت الـــضلوع
يـــا نفـــس كـــم جمـــوع وصـــل فـــرقها الـــردى ولوعـــي
يـــا نفـــس للمـــوت فاســـتعدي فالمـــوت إتـــيانه ســـريع
فـــلا ملـــك ولا شـــريف فـــي الدهـــر يبقـــى ولا رضـــيع
ولا ســـعيد ولا شـــقي ولا عـــصي ولا مطـــيع
يـــانفس إن الأصـــول ماتـــت فمـــا عـــسى تثـــبت الفـــروع

وقال مالك بن دينار: "اتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار والتفكير في الموت والاعتبار؛ فتمنيت من يخبرني عنهم بخبر، أو من يقص لي من آثارهم بعض أثر؛ فقلت:

بلـــسان أجرانـــي مـــا قدحـــه زنـــاد شـــجاني مـــن الفكـــر
أتـــيت القـــبور فناديـــتها فـــأين المعظـــم والمحتقـــر
وأيـــن المعـــز بـــسلطانه وأيـــن المـــذل إذا مـــا أئتمـــر
وأيـــن العزيـــز إذا مـــا جـــرى وأيـــن المولـــى إذا مـــا افتخـــر

قال: فنوديت من القبور؛ وأنا بالوجد مغمور:

وماتـــوا جمـــيعا ومـــات تفانـــوا جمـــيعا فـــلا مخبـــر
عزيـــز مطـــاع إذا مـــا أمـــر وصـــاروا إلـــى ملـــك قـــادر
فـــتمحو محاســـن تلـــك الـــصور تـــروح وتغـــدو بـــنات الثـــرى
فـــيا ســـائلي عـــن أنـــاس مـــضوا أمـــا لـــك فـــيما مـــضى معتبـــر

قد علمت أيها المعتبر أن الموت يفرق الإخوان والأصحاب، وذاهب بالكل

تحت أطباق التراب، فلا يثبت معك أخ ولا صاحب، ولا يدوم معك أحد من الأقارب، ولا من الأباعد الأجانب.

الثالث: قوله: "اعمل ما شئت به تجازى " وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾؛ **ومنه قوله تعالى:** ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾، **ومنه قوله سبحانه:** ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾، وفي هذا ترغيب في عمل الصالحات، وترهيب من اكتساب السيئات.

وقوله: "إذ كل شخص فعله مجازى". إشارة إلى ما ذكرناه من الآيات القرآنية.

وبما ذكرناه تبين ما تضمنته أقوال جبريل عليه الصلاة والسلام لنبينا صلى الله عليه وسلم من المواعظ الحسنة، والفوائد المستحسنة ما تستبين لكل ذي عقل سليم، ولكل قلب غير سقيم.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قال الحكيم حكمة مصداقه ... في المال والخلطة والصداقه[1]

كل عدو غير من صافيت ... والمال حسرة سوى من واسيت

والخلطة التخليط منافيها ... ما لم تكن مداريا سفيها

فلتقتصد في صحبة الأخيار ... ولتحترز من صحبة الأشرار

الحكيم: هو الذي حكم أقواله وأفعاله؛ فأقواله حكم تتضمن فوائد عديدة، وأفعاله كلها صالحة سديدة، وآراؤه مباركة رشيدة. هذا هو الحكيم.

والحكمة المصداقة التي قالها هذا الحكيم المذكور هنا هي ما ضمنها الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الأبيات.

---

(1) المقصود بالحكيم هنا هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين المعروف بالحكيم الترمذي. كان عالما بالحديث، وأصول الدين، ومن كبار الصوفية. له كتب كثيرة منها: علل الشريعة، وختم الولاية، ونوادرالأصول في أحاديث الرسول...، والحكمة التي قالها. هي نتيجته تجربته الخاصة، وما لقيه من ظلم في حياته. توفي سنة: 320 هجرية.

ومصداقة: معناه صادقة لا اختلاف عند الحكماء في صدقها، وأن الأمر كما قال هذا الحكيم رحمه الله تعالى؛ فقال:

المال والخلطة والصداقة. كل عدو. ثم استثنى من ذلك ما يذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى.

فأما المال؛ فعدو لصاحبه، وفتنة. قل تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، وكونه عدوا؛ لأنه جالب للهموم، ومكثر للأعداء، ومشغل لصاحبه عما طولب به من عبادة مولاه عز وجل، ويطول حساب صاحبه بسببه، ولأنه مبخلة ومجبنة؛ فالكثير لا يؤدي حق الله فيه. مع ما ينشأ بسببه من الكبر والفخر والتعجب والحرص، وطول الأمل وشغل القلب والقالب، والشح به. مع علل كثيرة غير هذه.

ولا ينجو من هذه العلل من أهل الأموال إلا من عصمه الله تعالى - وهم قليل - فالمال إذا نشأت عنه هذه العلل، فلا شك أنه عدو، وهو أيضا حسرة لصاحبه عند فقده في هذه الدار بسبب الرزايا التي تصيب العبد في ماله، وكذلك عند الموت؛ فغالب أحوال أهل الأموات أن يفتنوا عند الموت، ويتحسروا عليه في الدار الآخرة أعظم حسرة لصاحبه. حيث لم يؤد حق الله فيه، ويواصل القربى، والمسكين، وابن السبيل، واليتامى، والأرامل، وذوي الحاجة.

قال رحمه الله تعالى: "سوى من واسيت"؛ فهذا مستثنى من المال الذي يكون حسرة لصاحبه؛ فالمال إذا واسى منه صاحبه القربى، وذوي الحاجة، وأدى منه حق الله تعالى. لا يكون حسرة لصاحبه في الدنيا، ولا في الآخرة، وأما الخلطة بالناس؛ فجالبة للعداوة والملامة، وكل من خالطهم قل أن يخرج منهم على سلامة، وأنشد بعضهم:

من خالط الناس لم تسلم ديانته ... ولم يزل بين تحريك وتسكين [1]

---

(1) لما أراد الشيخ أحمد زروق مغادرة مصر أواخر سنة 886 هجرية أوصاه شيخه الحضرمي بقوله:

عش خامل الذكر بين الناس وارض به ... فذاك أسلم للدنيا وللدين

من خالط الناس لم تسلم ديانته ... ولم يزل بين تحريك وتسكين

والمخالطة لا تسلم من التخليط القادح في الدين المسقط للهمة والمروءة بين المسلمين. ما لم يكن لمداراة السفهاء؛ إذ في مداراتهم للإعراض، ودفع ما انطوت عليه قلوبهم من الأمراض، ولم يزل شأن العقلاء وأهل المروءة مداراة السفهاء؛ وأما الصداقة إذا كانت على غير أساس التقوى، فالغالب أن آخرها عداوة، ولهذا قال الحكماء: "لا ينبغي للإنسان أن يكشف لصديقه أسراره ولا يذكر له أخباره. إلا إذا صدقت الصداقة، وأسست على تقوى الله عز وجل، وكانت لله؛ فحينئذ يكشف له ذلك".

وإلى هذا أشار بقوله: "غير من قد صافيته"؛ وقد قيل: "احذر عدوك مرة، واحذر صديقك مرارا"؛ وإنما كان الخوف من الصديق أشد من العدو؛ لاطلاع صديقك على عوراتك. ما لم يطلع عليه عدوك.

وفي كلام الحكيم تحذير من حب المال لما فيه من الآفات، ومن الخلطة للأشرار؛ لما فيها من التخليط الناشيء عنه آفات، ومن الصداقة التي أسست على غير أساس التقوى؛ وإنما سيق هذا الكلام المسند إلى الحكيم المذكور هنا لبعض مناسبة فيه لقول جبريل عليه الصلاة والسلام: "حب من شئت فليس يثبت".

وقوله رحمه الله تعالى: "فلتقتصد في صحبة الأخيار"؛ فالاقتصاد في الشيء سلوك الوسط فيه من غير تفريط، ولا إفراط؛ فليكن العبد في صحبته للأخيار على هذا الوجه، فلا إفراط في صحبته لهم إلى كشف الأسرار التي هي من وراء أستار، والاطلاع على ما سبيله أن يخفى ولا يذكر، ولا تفريط يؤدي إلى تضييع حقوق الصحبة والتقصير فيها؛ فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ولتحرز من صحبة الأشرار: لما كانت صحبة الأشرار تردي، ولا تجدي، ويحصل لمن صحبهم الندامة والخسران وسوء العاقبة والحرمان. أمر بالتحرز منها؛ فمن صحب الأخيار انتظم في سلكهم، ومن صحب الأشرار حصل في شركهم؛ وقد تقدم أن للصحبة أثرا، فقد قيل: "من تخلق بحالة لم يخل حاضروه منها، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة. هذا في الحضور والمجالسة؛ فما ظنك بالصحبة والمؤانسة، ومن جلس مع الحداد إن لم يحرقه بناره علق به من دخانه".

قال سهل بن عبد الله: "احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين".

والقول الجامع في ذلك ما قاله ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه: "لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله".

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها استناسه بطاعته ورؤيته للأعمال من بضاعته

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيت عيبين من عيوب النفس:

الأول: استئناس العبد بطاعته؛ فاستئناسه بها استئناس بالأغيار وركون إليها، وربما دعاه ذلك إلى الوقوف عندها والقنوع بها؛ وهذه كلها علل قاطعة، وحجب مانعة؛ فالطاعات وسائل لا مقاصد؛ فمن أنس بها ووجد حلاوتها. حجب بها عن النفوذ، ومنع من الوصول إلى المقصود.

ولهذا قال الواسطي[1]: "استحلاء الطاعات سموم قاتلة".

قال في لطائف المنن: "وصدق الواسطي رضي الله عنه".

"... وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها؛ فيؤتك صدق الإخلاص في نهوضك فيها، وتحب دوامها. لا قياما بالوفاء، ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة؛ فتكون في الظاهر قائما لله، وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك".

والاستئناس بالطاعة، ووجود حلاوتها أمران متلازمان؛ والذي يجب على العبد أن يكون أنسه بالله تعالى، ولذاته بمناجاته وسروره بشهوده عز وجل.

الثاني: رؤية العبد أعماله من بضاعته؛ وهذا حال من أضاف أعماله إليه، وكان مشاهدا لها، ومعتمدا عليها، وطالب الأعواض عليها، وهذه كلها أحوال ذميمة عند أهل الإخلاص والصدق في العبودية؛ لما فيها من سوء الأدب مع الربوبية،

(1) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي نسبة إلى واسط بالعراق. صحب الجنيد، والنوري. كان عالما بالأصول وعلوم الظاهر. مع تمكنه في علم التصوف. هاجر من العراق وطاف في أراضٍ كثيرة إلى أن استقر به المقام بمرو إلى أن توفي بها سنة: 331 هجرية.

والذي يجب على العبد أن لا يرى أعماله، ولا ينسبها إليه، ولا يطلب عليها عوضا، ولا يقصد بها عرضا.

ثم أخذ رحمه الله تعالى يذكر أسباب العيبين المذكورين؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

وذاك من فقدانه البصيره وعدم التحقيق في السريره

الإشارة بـ"ذلك" إلى العيبين المذكورين؛ وهما الاستئناس بالطاعة، ورؤية الأعمال من البضاعة؛ فقال رحمه الله تعالى: سبب ذلك فقدان البصيرة التي هي ناظرة القلب، وعدم التحقيق في السريرة التي هي الباطن؛ فإذا فقد العبد بصيرته، ولم يتحقق في باطنه بحقائق التوحيد التي تنتفي معه الإثنية، ولم يبق معه لغيره أثر بالكلية. رأى جميع أعمال الطاعات ليست منه على الحقيقة، وإنما هي من الله سبحانه. إذ هي خلقه. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

وهنا أخذ رحمه الله تعالى يذكر العيبين السابقين؛ فقال

دواؤه نظره لعلله وذكر ما ارتكبه من زلله

حتى يرى احتقار ما لديه فلا يعول دائما عليه

وينتظر التوفيق من مولاه وليشتغل بشغل ما أولاه

ويترك الأعواضا والأغراضا ويكتسب عن نفسه إعراضا

إذا كان العبد تاظرا للعلل الفادحة في أعمال طاعته، وذاكرا لزلله وخطاياه. انتفى عنه الاستيناس بالطاعات، ولم ير عمله من جملة البضاعات. إذ الناظر للعلل والذاكر للزلل؛ فحاله يقتضي أن يحتقر ما لديه من الطاعات، ولا يعول على ما فعله من الأعمال الصالحات؛ لوجود العلل فيها، وارتكاب ذنب وزلل يفسدها وينفيها. ثم إن العبد لآ يزال ناظرا لعلله، وذاكرا لزلله إلى أن يتحقق أن ما اهتدى إليه من صالح الأعمال. أن ذلك من توفيق مولاه ذي الجلال؛ فيشتغل حينئذ بما كلفه وما أولاه، ويستعين على ما فيه رضاه ويمنعه الحياء أن يطلب على عمله الأعواض أو يقصد به الأغراض؛ فإن خطر بباله شيء من ذلك؛ فليرجع عن نفسه بالملامة، ويعرض عنها كل الإعراض. وهذه الأمور المذكورة ضمنها الشيخ رحمه الله تعالى في الأبيات السابقة الآن.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها تمكينها من الهوى حتى يعوق العبد عما قد نوى

ذكر رحمه الله تعالى عيبا من عيوب النفس؛ وهو تمكينها من الهوى تمكينا يعوق العبد عما قد نواه. مما يخالف هوى نفسه، ويمنعه من القيام عما فيه رضى ربه، وهذا حال الهوى فإنه أشد عائق، وأعظم قاطع وحاجب، ولا شيء أعظم من الهوى إذا تمكن؛ فيعسر زواله حينئذ.

وقد تقدم قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله: "لرد أمس بالحبال، وربط الشمس بالعقال، ونقل ماء البحار، ونحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن".

ثم ذكر رحمه الله تعالى سبب تمكن الهوى؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

وذاك من غفلته وهفوته وفقده استيقاظه في حالته

الإشارة بذلك إلى عيب النفس المذكور قبيل، وهو تمكين النفس من الهوى فقال رحمه الله تعالى: يكون ذلك من غفلة الإنسان عن مدافعة الهوى وهفوته عن مجانبته وعدم استيقاظه من سنة الغفلة، والغفلة أشد من الهفوة؛ لأن الغفلة لا انتباه معها، وليس كذلك الهفوة. إذ قد يكون معها بعض شعور؛ فإذا توالت غفلة العبد وهفوته، ولم يستيقظ منها في الحالة تمكن الهوى من قلبه حتى يعوقه عما نواه من مخالفة الهوى، والسعي في مرضاة المولى.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب المذكور؛ فقال:

دواؤه في منعها مرادها وتركه لما له استعدادها

وأخذها بالحزم والإكراه مع اجتناب جملة الملاهي

ذكر رحمه الله تعالى لعيب النفس المذكور - وهو تمكنها من الهوى - أربعة أدوية تنفي عنها ذلك العيب.

الأول: منعها مرادها. إذ هي لا تريد إلا ما وافق هواها، ولا تميل إلا إلى ما يبعدها عن مولاها؛ فإذا منعت مما تريد وقوبلت بالحرب الشديد لم يتمكن منها الهوى، ويعود ما كان لها داء دواء. وقد سئل الجنيد رضي الله عنه؛ فقيل له: "متى يكون داء النفس دواؤها؟ فأجاب رحمه الله تعالى. بأن قال: "إذا خالفت النفس

هواها كان دؤها دواؤها".

وقال سهل بن عبد الله: "ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى".

الثاني: ترك العبد لما له استعدادها؛ وهو لا يستعد إلا لمالها فيه هوى وغرض فاسد؛ فينبغي للعبد الناظر في نجاة نفسه الباحث على خلاصها أن يترك كلما استعدت له، ولا يميل إلى شيء من ذلك أبدا؛ كما سينبه الشيخ بعد هذا إن شاء الله تعالى، وهذا الدواء هو قريب من معنى الأول.

الدواء الثالث: أخذها بالحزم والإكراه. الحزم: إفراغ القوة في الأمور، وعدم التراخي فيه، وهكذا يكون العبد في مجاهدة نفسه، وإخراجها عن مألوفها، ومنعها من معتادها.

والاكراه: عدم المطاوعة؛ فإكراه النفس حملها على أمر لم تطاوعك عليه، ولا تسعف فيه.

الرابع: اجتناب جميع الملاهي التي تلهي العبد عما يعنيه وكلف به؛ فالنفس تميل إلى ذلك؛ لما لها فيه من الحظ والهوى؛ فجنبها مواضع الملاهي ومقاربة أهلها، فإن لم تجنبها لذلك، فلا تامن من تمكن الهوى.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قال أبو حفص هو الحداد ... كلمة لمثلنا تراد
مهما تمل لأمر خذ خلافه ... لأنها موضع كل آفه

أبو حفص هذا هو: عمر بن سالم الحداد. من قرية يقال لها كردباذ على باب مدينة نيسابور على طريق بخارى. أحد الأئمة والسادات. مات سنة نيف وستين ومائتين رحمه الله تعالى ورضي عنه، ونقلت عنه حكايات كثيرة منها: ما ذكره الشيخ عنه هنا؛ وهو أن النفس مهما مالت إلى أمر من الأمور؛ فليأخذ العبد خلافه. إذ هي لا تميل بطبعها النفساني إلا إلى ما له هواها، ولها فيه حظ وشهوة، وما كان كذلك، فلا خير فيه، وليس لعاقل أن يصطفيه.

قال صاحب البردة رحمه الله تعالى:

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

فمخالفة النفس والهوى أصل من أصول الطريق، وهو شأن أهل الصدق والتحقيق؛ فمن خالف نفسه وجد أنسه، ومن خالف هواه صادف طريق هداه.

وقوله: "**لأنها موضع كل آفة** " جواب لسؤال مقدر؛ وكأن قائلا قال له: لأي شيء أمرت بأخذ خلاف ما تميل إليه النفس؟؛ فأجاب بأن قال: لأنها موضع كل آفة تقبل على كل أمر مكروه شرعا، وطبعا كريما؛ فالنفس أهل لذلك كله؛ فمن خالفها يعلم من آفاتها كلها.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الأمن من الوسواس وغفلة عما له من بأس

السواس: اسم من أسماء الشيطان. سمي بالمصدر؛ كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد ذو الوسواس؛ فالوسوسة الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلي. والوسواس يكون من شيطان الجن، ومن الإنس. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝ ﴾؛ وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الوسواس؛ فقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾ الخ؛ فالأمن من الوسواس الذي أمر عليه الصلاة والسلام بالاستعاذة منه عيب من عيوب النفس، وكذلك الغفلة عما للوسواس من البأس؛ فمن غفل عن بأسه الشديد، ولم يدافعه في كل يوم جديد؛ فذلك من علامة الشقاء؛ كما نبه الشيخ على ذلك فقال:

إذ أخذه به بلا انتهاء وذاك من علامة الشقاء

إذا أمن العبد من الوسواس، وغفل عن مدافعته لما به من البأس، وكان آخذا به مع الأنفاس. كان ذلك علامة على الشقاء؛ والعياذ بالله تعالى.

ثم أخذ رحمه الله تعالى يذكر دواء العيب المذكور؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه بصحة الإيمان كما أتى في محكم القرآن

صحة إيمان العبد بالله، وبما جاءت به رسله صلى الله عليه وسلم أجمعين من العقائد التعبدية، والأمور الأخروية. ينفي عنه علة الوسواس؛ لأن القلب المغمور بنور الإيمان لا يجد الشيطان إليه سبيلا. إذ من صح إيمانه، وأشرقت أنوار الإيمان باطنه ثبت قدمه في مركز العبودية.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾؛ وقد قال تعالى مخبرا عن الشيطان حيث قال: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ وهم الذين خلص إيمانهم من الشرك والشك وخلصت أعمالهم من الشوائب القادحة فيها وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: "كما أتى في محكم القرآن).

قال أبو سليمان: [1] " إذا خلص العبد انقطعت الوساوس والرياء".

فصحة الإيمان مانع من الشيطان ووسوسته، وكذلك التوكل والإخلاص؛ فمن صح توكله على الله عز وجل، وإخلاصه منعه من الضلال ومتابعة الشيطان؛ كما نبه الشيخ رحمه الله حيث قال:

إذ منع المولى الكريم ذو العلا من الضلال مؤمنا توكلا

الذاهل الغافل قد يكون الذهول من الضلال؛ فإذا ضل العبد طريق الرشد، واتبع طريق الغي. ذهل عن الحق. حتى إذا صح إيمان العبد، وتحقق العبد في مقام التوكل منعه تعالى من الضلال، وأذهب عنه الذهول الكائن منه. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وجعل الغي لمن تولى شيطانه بشركه فزلى

وصار في عبادة الشيطان مع ظنه عبادة الرحمان

لما ذكر رحمه الله تعالى قبل هذا فعله عز وجل مع من توكل عليه. ذكر فعله بمن تولى الشيطان بسبب شركه، وصار من حزبه، وزل قدمه عن طريق الهوى، وكان عابدا للشيطان لكونه من حزبه، وتابعا لخطواته؛ وهو مع ذلك يظن أنه في عبادة الله؛ فقال:

"**جعل الغي سبيله**"؛ والغي: الضلال؛ فهكذا يفعل الله بحزب الشيطان، و﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

(1) يقصد الداراني.

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى أرشد إلى الاعتصام بالله سبحانه من الشرك، والزلل، ومن الوقوع في الغي المانع لصالح العمل؛ فقال:

فلتعتصم بالله من وسواس مجانبا لجملة الأدناس

والاعتصام بالله تعالى: حفظه من الوقوع في الغي، والزلل، والوسواس، ومجنب للعبد من جملة الأدناس.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والمراد بالأدناس: المعاصي، والمخالفات لأنها تدنس العبد.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الإظهار للخشوع وبالصلاح الظاهر الموضوع

دون تحقق وذا نفاق صاحبه ليس له خلاق

الخشوع: قال بعضهم هو الخوف الدائم اللازم للقلب.

وسئل الجنيد رضي الله تعالى عنه عن الخشوع فقال: "تذلل القلوب لعلام الغيوب".

وقيل: "الخشوع إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق".

وقيل الخشوع: "مقدمات غلبات الهيبة".

وقيل: "الخشوع ذبول يرد على القلب عند اطلاع القلب".

وقيل: "الخشوع ذوبان القلب وانكماش. عند تجلي سلطان الحقيقة".

واتفقوا على أن محله القلب؛ لأنه من أعمال القلوب، ويظهر أثره في الظواهر؛ فإذا كان العبد يظهر خشوعه؛ فيتحلى به في ظاهره، ولم يتحقق به في باطنه؛ فهو عيب من عيوب النفس، ويعدونه من النفاق، وصاحبه من الذين لا خلاق لهم، وكذلك صلاح الظاهر دون الباطن؛ فهو أيضامن عيوب النفس، وحال من لا خلاق له.

قال السري[1]: "من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى".

(1) هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي. خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ معروف الكرخي. كان وحيد زمانه في علوم القوم - وهو أول من تكلم بها في بغداد - والورع والتقوى. كان إذا ذكر في مجلس أحمد بن حنبل يقول: "ذلك الشيخ الذي يعرف بطيب الريح، ونظافة
=

ورأى بعضهم رجلا منقبض الظاهر منكسر الشاهد قد زوى منكبه؛ فقال: يا أبا فلان الخشوع ههنا، وأشار إلى صدره. لا هاهنا، وأشارإلى منكبيه.

والصلاح الموضوع: هو المتروك الذي لا يعتد به لخلل فيه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

دواؤه في الصدق والإخلاص وتركه لجملة المعاصي

الصدق والإخلاص دواءان يدفعان عن النفس ما يلتبس به من عيبها الذي هو إظهار الخشوع دون تحقق به في الباطن، ويدفعان علة إظهار الصلاح في الظاهر. مع فساد الباطن، وكذلك ترك جميع المعاصي والمخالفات، ففعله في العلة والعيب ما يفعله الصدق والإخلاص.

والصدق: عبارة عن إفراد الوجهة إلى الله تعالى، والتنزه عن طلب الأعواض، وقصد الأغراض؛ وقيل الصدق موافقة السر النطق، وقيل الصدق صحة التوحيد مع القصد.

والإخلاص: عبارة عن تخليص الأعمال من الشوائب القادحة فيها، ولا يشترط فيه ترك الأعواض على الأعمال؛ فهذا الفرق بين الإخلاص والصدق.

وقال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: "الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه، والصدق لايتم إلا بالإخلاص والمداومة عليه".

وقيل الإخلاص: افراد الحق في الطاعة، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر، وقيل الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص"، وقيل: "الإخلاص أن يستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن"؛ وقيل: "الإخلاص ما حفظ من العدو أن يفسده"، وقيل: "الإخلاص أن لا يشهد عملك إلا الله تعالى"، وقيل: "الإخلاص ما أريد به الحق، وقصد به الصدق"، وقيل: "الإغماض عن رؤية الأعمال".

وقال رويم: [1] " الإخلاص من العمل هو الذي لا يريد صاحبه عوضا من

=

الثوب، وشدة الورع". توفي سنة 253 هجرية.

(1) هو أبو محمد رويم بن أحمد. من جملة مشايخ بغداد وفقهائها. توفي سنة: 303 هجرية.

الناس، ولا حظا من الملكين".

ومما ذكرنا من معنى الإخلاص يتبين أنهما يدفعان عيب النفس الذي هو إظهار الخشوع والصلاح دون تحقق فيها.

ثم ذكر رحمه الله تعالى حال من تشبه بما ليس فيه، وتحلى بحال حاله لا يقتضيه؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

إذ من تشبه بما لا يملك كلابس لثوب زور يشرك

جاء بمعناه الرسول الصادق فاعمل به إن كنت عبدا صادق

من أظهر من نفسه الخشوع، ولم يتحقق بمعناه في باطنه؛ فقد تشبه بما لا يملك، وهو شبيه بلابس ثوب من زور؛ فالظاهر أنه يملكه، وهو في الحقيقة لغيره، وهذا الحكم يجري في كل من أظهر حالا، ولم يتحقق بمعناه في الباطن، وهو نوع من أنواع النفاق.

وقوله: **"جاء بمعناه الرسول الصادق... البيت"**. قال حدثتني فاطمة عن أسماء أن امرأة قالت: يارسول الله إن لي ضرة؛ فهل علي جناح إن تشبهت من زوجي غير الذي يعطيني، فقال المتشبه بما لم يعط، كلابس ثوبي زور".

وقد بوب البخاري على هذا الحديث؛ فقال: "باب المتشبه بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضرة"؛ وظاهر هذا النهي. أن يظهر الإنسان من حاله ما لا يتحلى به في باطنه، ومن ذلك ما ذكر في البيت السابق من تشبه بما لا يملك من الخشوع، وهو من الشرك الخفي وغليه الإشارة بقوله في البيت: "وهو يشرك".

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها قلة الاعتبار بحلم مولانا عن الأوزار

إذا لم يعتبر العبد ما عامله به جل وعز من عظيم حلمه، وكريم عفوه؛ عما اقترفه من الأوزار، وما فعله من الذنوب العظام الكبار؛ فذلك عيب من عيوب النفس، وسببه ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

وذا من اغتراره بحلمه وفقده نظره لعلمه

الاغترار بالحلم ينشأ عنه فقد النظر للعلم؛ وذاك داع إلى غلبة الجمال الذي هو سبب عدم حفظ الأدب، والذي يجب على العبد أن لا يغتر بحلم الله تعالى؛

وليكن مراعيا في جميع أحواله جلال الحق جل جلاله، وجماله؛ فلا جلاله يغلب على جماله، ولا جماله يغلب على جلاله؛ فالجمال يشهده حلمه، والجلال يشهده عدله.

فشهود العبد للوصفين، وتقلبه بين الحالين. يحول بينه وبين الأمر المؤدي إلى الخسران، والإياس المؤدي إلى الكفران؛ ولهذا قرن الله تعالى في كتابه العزيز بين ما يدل العبد على حلمه، وما يدل على عدله؛ فقال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ ؛ وكذلك لا يزال العبد معتقدا أن الله تعالى عالم بجميع أفعاله مطلع على جميع أحواله مراقب له في جميع أعماله؛ وإذا كان كذلك لم يفقد نظره لعلمه تعالى ولا يغتر بحلمه.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب المذكور؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه خشيته لربه لكي ينال من عظيم قربه
وأن يرى تأخيره إمهال ولا يظن أنه إهمال

الخشية من الله عز وجل تمنع العبد من الورود على سيء الأعمال، ومن التحلي بدميم الأحوال؛ فإذا رأى العبد في نفسه عيبا من العيوب، أو جرأة على اكتساب الذنوب؛ فليلزم الخشية من ربه التي هي سبب اختصاصه وقربه، ومتى ما أتى عيبا، أو افترق ذنبا، فلا يظن أن الله تعالى أهمله؛ بل يعتقد أن الله عز وجل أمهله إلى أجل معلوم، وأخره إلى سؤال حساب محتوم؛ كما نبه على ذلك الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

لا بد من سؤاله في الحافره وبعده جزاؤه في الآخره

"لا بد " كلمة تقتضي لزوم ما وقعت عليه، وتأكيد وقوعه؛ وهي هنا متأكدة لسؤال في الحافرة عما عمل خيرا كان أو شرا، وبعد ذلك جزاؤه في الآخرة عن فعله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا

كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾؛ فإذا علم العبد ذلك أورثه خشية من ربه، وخوفا من جزائه على ما اكتسبه من ذنبه، وسعى فيما ينتظم به في ديوان أهل قربه.

والحافرة: لفظة توقعها العرب على أول أمر رجع إليه من آخره. يقال: عاد فلان في الحافرة إذا ارتكس في حال من الأحوال ومنه قول الشاعر:

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وزور

وقال مجاهد والخليل الأرض، وفاعلة بمعنى مفعولة؛ وقيل هو على النسب أي ذات حفر، والمراد القبور لأنها حفرة للموتى.

والمراد بها هنا في كلام الشيخ القبور كأنه قال: لا بد من سؤاله في القبر، وبعد ذلك وقوع الحساب في الدار الآخرة، والجزاء؛ فمن الناس من يجازى بذنبه، ومنهم من يعفو عنه بفضله؛ كما أشار إلى ذلك الشيخ رحمه الله تعالى فقال:

فإن يكن بذنبه يجازى فويله وكل شر حازا

وإن يكن يرحمه مولاه ففضله وجوده أولاه

قوله: "فإن يكن بذنبه يجازى... البيت". هو تقريع لمن قابلهم تعالى بعدله.

وقوله: "وإن يكن يرحمه مولاه... البيت" تهنية لمن واجههم تعالى بفضله، ولا شك أن من جوزي بذنبه. حاز جميع أنواع الشرور، وكان حظه الويل والثبور، ومن واجهه تعالى بفضله؛ فقد رحمه مولاه، وفضل وجوده أولاه؛ فالمجازات بالذنب عدل، والموالاة بالفضل والجود منة وفضل؛ فحق العبد أن يخاف عدله تعالى، ويرجو فضله؛ كما نبه الشيخ على ذلك؛ فقال رحمه الله تعالى:

فليخف العبد قيام العدل وليرتجي أيضا نوال الفضل

إنما أمر رحمه الله تعالى بالخوف من قيام العدل؛ لما في الخوف من حفظ رتبة الأدب، والعدل على القيام بالحقوق اللازمة للعبد؛ ولهذا كان الخوف غالب أحوال المريدين، وسبيل السالكين، ومنتهى أمل العارفين.

قال أبو حفص: "الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه"؛ وقد تقدم كلام في الخوف فانظره؛ وإنما أمر برجاء نوال الفضل؛ لما في ذلك من حسن الظن بالله تعالى.

وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال ربكم عز وجل: عبدي متى ما عبدتني ورجوتني، ولم تشرك بي شيئا غفرت لك ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوبا. استقبلتك مثلهن مغفرة فأغفر لك ولا أبالي".

ولا بد وأن يكون هذا الرجاء مقارنا بالعمل.

قال ابن عطاء الله: "الرجا ما قارنه عمل، وإلا فمو منية".

قال معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه: "طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق".

وقد قيل: "من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح؛ فكذلك فلزعم أن طلب الربح في القفر، وقدح النار من البحر صحيح".

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: "إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة. يقول أحدهم أحسن الظن بربي. كذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل، وتلى قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾".

وكان يقول رضي الله تعالى عنه: "عباد الله اتقوا هذه الأماني، فإنها أردية النوكى. يحلون فيها، والله ما أتى الله عبدا بأمانيه خيرا من الدنيا، ولا في الآخرة"،

وكتب أبو عمر السنهوري [1] إلى بعض إخوانه: "أما بعد؛ فإنك قد أصبحت تؤمل طول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك؛ وإنما تضرب حديدا باردا".

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني".

---

(1) هو الشيخ نور الدين أبو عمر علي بن عبد الله السنهوري. قال عنه الشيخ أحمد زروق: "كان شيخنا السنهوري فقيها صالحا قدوة محققا ناصحا حافظا عارفا بالنحو والأصول... قرأت عليه الإرشاد.... توفي سنة 889هجرية.

ثم إن الحق تعالى إن قابل العبد بعدله؛ فلا صغيرة، وإن واجهه بفضله لا كبيرة؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك فقال:

إذ لا صغيرة إن أتاك العدل ولا كبيرة إن أتاك الفضل

العدل من صفات الجلال؛ فإذا تجلى الحق جل جلاله على عبده بصفات جلاله وقابله بعدله؛ فصغير الذنب كبير، وهذا فعله تعالى لمن أبغضه، وإن تجلى عليه بصفات جماله، وواجهه بفضله؛ فكبير الذنب صغير، وهذا فعله تعالى بمن أحبه؛ وكلام الشيخ في هذا البيت يعني كلام ابن عطاء الله في حكمه حيث قال: "لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله".

قال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: "إن وضع عليهم عدله؛ لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله، لم تبق لهم سيئة"؛ ومن دعائه رضي الله تعالى عنه: "إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي، وإن مقتني، لم تقبل حسناتي".

وما أحسن قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي [1] رضي الله تعالى عنه في دعائه ومناجاته: "واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك".

وفي مناجاة ابن عطاء الله التي ختم بها حكمه: "إلهي كم من طاعة بنيتها، وحالة شيدتها. هدم اعتمادي عليها عدلك؛ بل أقالني منها فضلك".

ثم أتى الشيخ رحمه الله تعالى بما ينتبه إليه العبد أن الإمهال ليس بإهمال؛ فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وقال شاعر مقالا حسنا لما ذكرنا موضحا مبينا

قد غرها إمهال خالقها لها لا تحسبن إمهالها إهمالها

لما كان الحق جل جلاله لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب. أمهل العصاة من الخلق إلى يوم لا ريب فيه؛ فإمهاله لخلقه ليس بإهمال، والنفس الأمارة قد تغتر بالإمهال؛ فتحسبه إهمالا؛ وهذا من غلطها، وباطل حسبانها.

---

(1) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الزروالي الغماري الحسني الشاذلي. شيخ الطريقة الشاذلية. توفي سنة: 656 هجرية؛ وهو أكبر من أن يعرف. للشيخ أحمد زروق شروح على أحزابه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية واعلم أن إمهال الله لخلقه لأمرين: إما مكر واستدراج، وإما لمستعتب رجاع.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إفشاء سر الصاحب وهي خيانة وترك واجب

الصاحب أمين على سر صاحبه؛ فحفظ الأمانة واجب، وصيانة السر من حقوق الصاحب؛ فمن أفشى سر صاحبه الذي أمنه عليه؛ فقد خانه، وترك الواجب عليه؛ وهذا عيب من عيوب النفس، وعلة فيها.

وسبب ذلك ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى:

وذاك من خساسة ونقض فاعله المذموم وهو يغضي

لا شك أن إفشاء سر الصاحب دليل على خساسة فاعل ذلك ونقصه. إذ الوفاء يقتضي حفظ الأسرار؛ ولهذا قيل: "قلوب الأحرار قبور الأسرار؛ فما أفشى السر كريم ولا أباح به حليم". **وحفظ السر من شأن أهل الكمال وأقوياء الرجال.**

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب المذكور؛ فقال:

دواؤه رجوعه لنفسه فما يرد لها يرد لجنسه

إذ ذاك شرط المؤمنين قد أتى وصح في معنى حديث ثبتا

رجوع العبد لنفسه، وما يريده لها من الخير يحبه لجنسه من المؤمنين. ينفي عنه إفشاء سر صاحبه؛ لأنه كما لا يريد إفشاء سره. كذلك لا يريد إفشاء سر غيره؛ ومن شروط كمال الإيمان أن يحب المؤمن لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه، وجاء في هذا حديث عنه صلى الله عليه وسلم: "لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه". أو كما قال عليه الصلاة والسلام وضابط هذا أن ينظر الإنسان في نفسه، فما يحبه لها يحبه لصاحبه، ولجميع المؤمنين، وما يكرهه لها. يكرهه لهم.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها رضاه عنها في العمل وعدم ازدياده بما فعل

رضى العبد عن نفسه؛ فيما يصدر منها من قول، أو عمل. عيب من عيوب النفس، وكذلك عدم الزيادة فيما فعله من الطاعات، وصنعه من العبادات؛ وقد تقدم الكلام في الرضى عن النفس، وما ينشأ عنه من العلل؛ فانظره في محله.

وقد قيل: "عدم الزيادة في العمل الصالح من العقوبات المعجلة".

وهي عند أهل السلوك وقفة، والوقفة عندهم حرام؛ وهي أيضا من مبادئ الحجاب، وسلم إلى القطيعة.

قال بعضهم: "من لم يكن في زيادة؛ فهو في نقصان، ومن كان في نقصان، فالموت خير له".

ثم ذكر رحمه الله تعالى سبب عدم الزيادة في العمل؛ فقال:

وذاك من همته الخسيسه   وتركه للحالة النفيسه

الهمة الخسيسة هي التي ترضى بأسافل الأمور دون أعاليها؛ فتنحط عن الرتبة العلية، وتقنع بالرتبة الدنية؛ ولذلك كانت لا تطلب الزيادة في أعمال الطاعات، ولا تحرص على الترقي إلى أعلى الدرجات؛ وهذه الهمة هي همة ذوي الأرواح الأرضية، والنفوس الحيوانية.

ودواء هذه العلة ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

دواؤه في طلب الزياده   بالبحث والحرص والاستفاده

طلب الزيادة من الأعمال الصالحات، والبحث والحرص على الأسباب والوسائل التي تقتضي الترقي إلى أعالي الدرجات، ورفيع المنازل، والمقامات. ينفي عن النفس ما تجده من الكسل الحامل على عدم الزيادة من العمل؛ وكذلك طلب الفائدة الدينية، والبحث والحرص على إقامة الوظائف الشرعية يزيل عن الهمة خساستها، ولا تترك الحالة النفيسة لنفاستها.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

قال علي [1] المرتضى العدنان   من لم يزد فهو في نقصان

ما ذكره الشيخ من قول علي المرتضى رضي الله عنه هو ما قدمناه آنفا من

---

(1) يقصد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكرم وجهه، وهو غني عن التعريف.

أن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان... إلخ.

ولا شك أن النفس إذا سمح لها في عدم الزيادة مالت إلى النقص. ثم إلى الترك بالكلية، وهذا من حيلها وخدعها، والحزم أولى، وإلزامها الثبات على العمل أجمل لها.

ولذلك قال رحمه الله تعالى:

قالوا ثبات المرء في أعماله زيادة لديه في أفعاله
لأن ما أتى به من الغد مضعف لما مضى من عدد

ثبات المرء في أعماله يقتضي تجددها ما دام ثابت فيها؛ وإذا تجددت الأعمال حصلت الزيادة فيها وتضعفت.

وبيان ذلك أن الإنسان إذا عمل عملا اليوم مثلا، وثبت عليه إلى غد. ثم عمله من الغد، وثبت فيه إلى بعد غد، وعمله أيضا؛ فكان العمل الثاني في اليوم الثاني زيادة في عمله الأول مضعفا له، والعمل الثالث في اليوم الثالث زيادة في عمله الثاني ومضعف له، وهكذا ما دام الثبات في الأعمال وتجددها؛ فتحصل فيها الزيادة؛ كما أشار إليه في البيت الأول بقوله: "ثبات المرء في أعماله زيادة في أفعاله"، ويحصل أيضا تضعيف العمل بإعادة ما فعله اليوم من الغد كما أشار إليه في البيت الثاني بقوله:

لأن ما أتى به من الغد مضعف لما مضى من عدد

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها احتقاره للمسلمين وكبره على جميع العالمين

يريد ما يمكن أن يتكبر عليه من العالمين؛ فهو عموم أريد به الخصوص. إذ من العالمين ما لا يمكن، ولا يصح أن يتكبر عليه، ولا يحتقر، والتكبر واحتقار المسلمين خصلتان مذمومتان ما تخلق بها كريم، ولا اتصف بهما عفيف في الناس عظيم، والتكبر واحتقار المسلمين نتيجة الكبر.

روى ابن القاسم [1] عن مالك أنه قال: "بلغني أن أول معصية كانت الحسد

(1) هو أشهر تلامذة الإمام مالك، ومن كان له الفضل في نشر مذهبه الفقهي بمصر وشمال افريقيا بعد ذلك؛ فكل من أتى من فقهاء المذهب المالكي فهم عالة عليه، وعليه عولوا في فقههم =

والكبر. حسد إبليس آدم وتكبر، وقد ذم الله الكبر، ومن اتصف به، وكفى به ذما".

ولقد استعاذ كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

وما زال أهل التقى، والفضلاء الحق يصرون على سلامة قلوبهم من العلل، وتطهير أنفسهم من العيوب، وأسباب الزلل. يحذرون من الكبر؛ لأنه من أعظم عيوب النفس، ومن أشد أمراض القلوب، وأعظم حاجب، وقاطع عن الله عز وجل، ومانع من الدخول إلى حضرته العلية.

قال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري [1] رحمه الله تعالى في قصيدته:

إياك والكبر فيه أعظم الزلل

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه المنهاج: "ليست هذه الخصلة". يريد رحمه الله تعالى الكبر بمنزلة سائر الخصال التي تقدح في عمل، وتضر بأصل، وتقدح في الدين والاعتقاد. إذا قويت وغلبت لا تدارك، والعياذ بالله تعالى.

ثم أقل ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات:

أحدها: حرمان الحق، وعمى القلب عن نعرفة آيات الله تعالى، وفهم أحكام الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

والثانية: المقت والبغض من الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: "يا رب من أبغض خلقك إليك؟ قال: من تكبر قلبه، وغلظ لسانه، وضيق عينه، وبخلت يداه، وساءت خلقه".

=

وفتاويهم.

(1) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري. صاحب المنظومة الشهيرة في العقيدة. قال عنه الشيخ أحمد زروق: "كان شيخنا هذا من أعظم الناس اتباعا للسنة وأكبرهم حالا في الورع"؛ كما أثنى عليه السنوسي. توفي سنة: 884 هجرية.

الثالثة: الخزي والنكال في الدنيا.

قال حاتم[1] رحمه الله تعالى: "اجتنب الموت على ثلاثة: الكبر، والحرص، والخيلاء؛ فإن المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه، والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحرجه إلى كسرة أو شربة، ولا يجد لها مساغا، والمختال لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره".

وقيل: "من تكبر بغير حق أورثه الله ذلا بحق".

والرابعة: النار والعذاب في العقبى. على ما روي أن الله تعالى يقول: "الكبر ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني في واحد منهما أدخلته نار جهنم".

والمعنى أن العظمة، والكبرياء من الصفات التي تختص به، ولا تنبغي لأحد غيره؛ كما أن رداء الأنس إزاره يختص بهما لا يشارك فيهما؛ وإن خصلة تفوتك معرفة الحق، وفهم آيات الله تعالى، وأحكامه التي هي أصل الأمر كله. ثم تثمر لك المقت من الله تعالى، والخزي في الدنيا، والنار في الآخرة. لا يسع لعاقل أن يغفل عن نفسه؛ فلا يصلحها بإزالتها بالحذر، والتحرز، والاستعاذة بالله عز وجل من ذلك".

وحقيقة الكبر رؤية شفوف النفس على خلق الله تعالى، وينشأ عن هذا احتقار المسلمين؛ فالكبر أصل ينشأ عنه خبائث كثيرة، وهوس الصفات القلبية يظهر أثرها في الظواهر، كالخيلاء، والغلظة، والفضاضة، والغضب، ونحو ذلك؛ فمن اجتنب الأصل اجتنب الفروع.

ولما ذكر رحمه الله تعالى عيبي النفس المذكورين في البيت السابق. أخذ يذكر سببها؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

وذاك من جهالة بالنفس وسوء فعل موجب للبس

الإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره من عيوب النفس؛ وهو احتقار المسلمين الناشئ عن وصف الخيلاء، والتجبر؛ فليبادر إلى زوال ذلك بالدواء الذي ذكره

(1) يقصد حاتم الأصم.

الشيخ رحمه الله تعالى

قال:

دواؤه الـــــرجوع للتواضـــــع ثـــم احتـــرام مـــذنب وطايـــع

ذكر رحمه الله تعالى لعيبي النفس السابقين دواءين:

* **الأول: الرجوع إلى وصف التواضع**؛ فإن الرجوع إليه ينفي عن النفس علة الكبر، واحتقار المسلمين. إذ من اتصف بوصف، وتحلى به عن ضده، والتواضع من أخلاق المؤمنين، وأوصاف المتقين، والتواضع وصف يلابس القلب، ويكسبه ذلا وافتقارا، وانكسارا واحتقارا للنفس؛ وهذه أوصاف العبد؛ كما أن الكبرياء من أوصاف الربوبية.

والتواضع الحقيقي ما قاله ابن عطاء الله في حكمه: "هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته، وتجلي صفاته".

قال ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه: "من أراد التواضع؛ فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى؛ فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرق التواضع فيه لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى".

وفي كتاب عوارف المعارف [1]: "إن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب؛ فتلين وتنطبع للحق وللخلق يمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها، واعلم أن الحق تعالى لا يتجلى لشيء إلا إلا خضع له وتذلل؛ فشهود عظمة الله تعالى وكبرياءه. يذهب عن النفس وصف الكبر، ويذيب القلب؛ وقد ينشأ التواضع عن شهود العبد ذميم صفاته، وسوء أعماله؛ فيكسبه ذلك ذلا وافتقارا وتواضعا وانكسارا، والأول أتم وأثبت في النفس، وأكثر تمكنا في القلب، وأبلغ في التداوي به من علة الكبر".

وقد ذكرالناس حكايات عن قوم تحققت أحوالهم في مقام التواضع، فمن

(1) كتاب عوارف المعارف هو للسهروردي المتوفى سنة 632 هجرية، وهو من أجل كتب التصوف.

ذلك ما حكاه صاحب كتاب عوارف المعارف قال: "رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام، وقد بعث بعض أبناء الدنيا طعاما على رؤوس الأسارى من الإفرنج في قيودهم؛ فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ. قال للخادم أحضر الأسارى حتى يقعدون على السفرة مع الفقراء؛ فجاؤوا بهم وأقعدوهم على السفرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجادته، ومشى إليهم وقعد بينهم، كالواحد معهم، وظهر لنا على وجهه ماء نزل؛ فأظنه من التواضع لله تعالى، والانكسار في نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه، وعلمه، وعمله".

وأغرب من هذا ما ذكره صاحب بغية الطالب ومنية الراغب أبو الحسن علي بن عتيق بن مومن القرطبي رحمه الله تعالى عن أبيه " أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمان بن مفيد - وكان من الفقهاء العلماء - يوما وهو يمشي في يوم شات كثير الطين، فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها. قال: فرأيته قد لصق بالحائط، وعمل للكلب طريقا، ووقف ينتظره ليجوز وحينئذ يمشي هو؛ فلما قرب منه الكلب قال: رأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه، وزال أسفل، وترك الكلب يمشي فوقه. قال فلما جازه الكلب وصلت إليه؛ فوجدته وكله كآبة، فقلت له: ياسيدي إني رأيتك صنعت الآن شيئا استغربته. كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟؛ فقال لي: بعد أن عملت له طريقا تحتي تفكرت وقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه؛ بل هو والله أرفع مني، وأولى بالكرامة؛ لأني عصيت الله تعالى، وأنا كثير الذنوب، والكلب لا ذنب له؛ فنزلت له عن موضعي، وتركته يمشي عليها، وأنا الآن أخاف المقت من الله تعالى. إلا أن يعفو عني لأني رفعت نفسي على من هو خير مني".

وقال أبو سليمان [1] رضي الله تعالى عنه: "لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كالنخامى عند نفسي ما قدروا عليه".

والكلام والحكايات في هذا المعنى كثيرة، فاقتنع بما ذكر إذ فيه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(1) يقصد أبا سليمان الداراني.

* **الثاني**: احترام عبيد الله المذنب منهم، والطائع؛ فإن المحترم لهم. دل احترامه لهم على تواضعه لهم.

روي أن أبا ذر، وبلالا رضي الله تعالى عنهما وقعت بينهما مشاجرة فعير أبو ذر بلالا بالأسود؛ فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية. ما علمت أنه بقي فيك من كبر الجاهلية شيء"، أو كما قال عليه الصلاة والسلام؛ فألقى أبو ذر نفسه على الأرض، وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلالا خده بقدمه؛ ففعل بلالا ذلك. رضي الله تعالى عنهم؛ فهذا من تواضع أبي ذر، واحترامه لبلال؛ وهكذا يكون حال المؤمنين بعضهم مع بعض، واقتدوا في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن التواضع حاله وأخلاقه بلغ فيه الغاية القصوى. انظر الشفا لعياض، وتبعه على ذلك أصحابه الكرام، وتبعهم أفاضل هذه الأمة والحكايات عنهم في ذلك كثيرة. انظر رسالة القشري في باب الخشوع والتواضع تقف على ذلك.

ثم بين رحمه الله تعالى أن التواضع، والاحترام إنما ذلك لمن يدين بالإسلام، وتعزز بدين الإيمان؛ فقال رحمه الله تعالى:

من كل من يدين بالإسلام كان كبيرا أو بلا احتلام.

ذكر في هذا البيت من يصح أن يحترم، ويتواضع له، وهو كل من تدين بدين الإسلام كبيرا كان أو صغيرا. مذنبا كان أو طائعا. حرا كان أو عبدا؛ فاحترام الكبير، والمطيع، والحر، والتواضع لهم من حيث هم؛ وللمذنب، والصغير، والعبيد من حيث أنت أيها المحترم، ولا يصح أن يعامل الكافر بما يعامل به المسلم من الاحترام، والتواضع؛ لأن الله تعالى يقول في وصف المؤمنين: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾. إلا من يرجى خيره من الكفار، ويطمع في إسلامه؛ فليعامل بما يعامل به المؤلفة قلوبهم. ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وربنا نبيه قد أمره بالعفو والغفران والمشاوره

أخذ يذكر في هذا البيت ما هو من نتائج التواضع لعبيد الله عز وجل؛ فمن ذلك العفو.

قد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ

وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾»، ومن ذلك الاستغفار للمؤمنين. قد أمر الله تعالى نبيه به؛ فقال تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾؛ فأمره بالمشاورة؛ وإنما تكون فيما لا ينزل عليه فيه وحي، وهذا كله من نتائج التواضع، وناشئ عنه، وهو أيضا من تأديبات الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ ومما جبله الله تعالى عليه من مكارم الأخلاق؛ فليكن المؤمن آخذا بما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام. سالكا في ذلك سبيله، وسبيل أصحابه الكرام، ومن تبعهم من السادات العظام قادة الإسلام، ولتكن المشاورة في الأمور مع ذوي العقول الراجحة السليمة الذين يوثق برأيهم، ويعمل على مشاورتهم، وقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وشاور بعضهم بعضا، وما زال الناس يفعلون ذلك؛ فما ندم من استخار، ولا أخطأ من استشار، وما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم يتوجه إلينا.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

ونظر الرسول نحو الكعبه ... معظما لما لها من حرمه

فقال ما للمؤمنين أعظم ... عند الإله حرمة وأكرم

ذكر رحمه الله تعالى في البيت الأول نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم للكعبة، وتعظيمه لها مقدمة لما ذكره في البيت الثاني من عظيم حرمة المؤمنين عند الله تعالى، وعظيم كرامتهم لديه؛ وأن الكعبة؛ وإن كانت معظمة عند الله عز وجل ومحترمة لديه؛ فالمؤمنون أعظم عنده تعالى حرمة وأكرم وفائدة. ذكر ذلك أعلام.

لذا فإن التواضع للمؤمنين، والعفو عليهم، والاستغفار لهم، والاستشارة معهم، وخفض الجناح لهم، وتعظيم حرمتهم، وإكرامهم أمور استعملت لمستحقيها؛ والفاعل ذلك فعله لأهله، ووضع الأشياء في محلها. إذ من عظمه الله تعالى واجب تعظيمه، ومن أكرمه لازم إكرامه.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى السبب الذي من أجله كان المؤمنون به أعظم حرمة عند الله، وأكرم لديه؛ فقال معللا:

إذ حرم الله لديك واحده ... والمؤمنون باثنتين زائده

إذ هنا تعليلية، و"**حرم**" منادى حذف منه حرف النداء، و"**اسم الجلالة** " مضاف إليه؛ كأنه قال: "ياحرم الله".

و"**لديك** " بمعنى عندك، و"**واحدة**". يريد الحرمة التي أوجبها الله تعالى على المؤمنين لبيته الحرام؛ فحرمتها باعتبار ذاتها؛ وذلك من وجوه:

الأول: أنها أول بيت وضع للناس.

الثاني: حيث جعلها الله تعالى بيته، وأضافه إليه.

الثالث: أنها مأوى رسله عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: "**والمؤمنون باثنتين زائدة** " أي أن المؤمنين يزيدون على الكعبة بحرمتين ذكرهما فقال:

دمـــا ومـــالا ثـــم ظـــن ســـوء فانظـــر لهـــذا وبخيـــر فأتـــو

أشار في هذا البيت إلى ما حرم الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: "من أن المؤمن دمه، وماله، وعرضه حرام".

وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه خطب ذات يوم بالناس فقال في خطبته: "أي يوم هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم. فال الراوي فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال أليس يوم النحر؟ قلنا بلى. ثم قال أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس شهر ذي الحجة؟ قلنا بلى. ثم قال: أي بلد هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال أليس بالبلد الحرام؟ قلنا بلى يارسول الله، فقال: إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا. في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ قالها ثلاثا"؛ أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فإلى هذه الأشياء الثلاثة المذكورة في الحديث تحريمها أشار الشيخ رحمه الله تعالى في في هذا البيت. ثم قال:

وكـــن لبيـــبا حازمـــا يقظانـــا ولا تكـــن فـــرعون أو شـــيطانا

جمع الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت بين أمر، ونهي وهو نوع من أنواع الطباق؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾؛ فأمر الشيخ المخاطب

وهو غير معين عنده، وإنما أراد من يحسن أن يخاطب بهذا الخطاب؛ بأن يكون يقضانا.

واللبيب: هو الكيس الذي ليس بغبي، **واليقظان:** هو المتنبه الذي ليس بغافل.

ولما كان المتصف بهذين الوصفين يعلم مضاره؛ فيتجنبها، ومنافعه؛ فيأتيها. أمر الشيخ بالاتصاف بها؛ فمن جملة المنافع احترام المؤمنين في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، والتواضع لهم؛ ومن جملة المضار التخلق بالأخلاق الفرعونية التي منها الكبر، والفضاضة، والغلظة المنافية للتواضع، وكذلك التخلق بأخلاق الشياطين الداعية إلى الشرور، وفعل كل منكر؛ ولهذا نهى عن التخلق بها.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الكسل والقعود عن أمر مولى فضله ممدود

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس:

الأول: الكسل؛ وهي حالة تلابس القلب. تسلبه وصف النشاط؛ وينشأ عن ذلك ركود الهمة، والتقاعد عن أداء الواجبات، والتراخي في أداء المفروضات؛ وقد ذم الله قوما وصفوا به؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ الآية؛ فالكسل مذموم، وصاحبه ملوم، وهو من أوصاف المنافقين، كما ذكر الله تعالى في الآية، وقد قال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله تعالى في قصيدته:

واعلم بأن عيوب النفس مهلكة أقلها ميلها للعجز والكسل

فعده الله تعالى من العيوب المهلكة؛ وتنشأ عنها أمراض توهن القلب، وتضعف الروح؛ وتقدم ذكر الكسل عند قوله: "**من عيبها الكسل والتواني**"، وتقدم أيضا كلامنا عليه.

الثاني: القعود: يريد التقاعد عن الطاعات، وعدم النشاط إلى أداء الواجبات، وهو مسبب عن الكسل، وناشيء عنه؛ وأي عيب أعظم من الكسل، والقعود عن أداء حقوق المولى المعبود. من فضله ممدود. عم كل موجود.

ثم ذكر رحمه الله تعالى السبب الذي ينشأ عنه العيبين المذكورين؛ فقال رحمه الله تعالى:

وذاك مـــن جهـــل بمـــا لديـــه وفقـــــده تـــــوجها إلـــــيه

ذاك: إشارة إلى العينين المذكورين في البيت الذي قبل هذا، وهما الكسل، والقعود عن أمر المولى جل جلاله؛ فذكر أنهما ينشآن عن جهل العبد بما عنده من آثار فعل مولاه. الذي أمده به، وأنواع نعمه التي أنعم بها عليه؛ ولما جهل ذلك فقد التوجه إليه تعالى، وأعرض عن الله عز وجل، وترك ما أمره به من أداء حقوقه؛ وإن أتى بشيء من ذلك كان على تكاسل، وتقاعد، وعدم نشاط؛ فنسأل الله الإقالة من أسباب الإعراض، وموجبات العيوب، والأمراض بمنه، وكرمه.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيبين المذكورين؛ فقال:

دواؤه نظـــــــــره لـــــــــربه لتنـــشط الـــنفس بذكـــر قـــربه

إذا كان العبد ناظرا لربه، ومتوجها إليه بسره وقلبه، وعلم قربه منه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد. نشطت نفسه لأداء حقوقه. قياما بأوصاف ربوبيته تعالى؛ فاستشعار القرب منشط لفعل القرب؛ فكلما زاد العبد معرفة بالله، وتحققا في مقام قربه. زاد نشاطا في أداء حقوقه، ومحبة لإجابة داعي المولى تبارك وتعالى؛ كما أن من أعرض عن الله تعالى، وجهل العظمة، ولم يعرفه حق المعرفة. تهاون بأداء الحقوق، وتكاسل عنها؛ كما أشار إلى ذلك الشيخ رحمه الله تعالى بما ذكره من قول ابن نجيد؛ فقال:

فـــابن نجـــيد قـــال قـــولا حـــسنا مـــــتجها محققـــــا مبيـــــنا

تهـــاون العـــبد بأمـــر ربـــه لفقـــده عـــرفانه مـــن قلـــبه

ابن نجيد المذكور هنا هو اسماعيل ابن نجيد وكنيته أبو عمرو، وصحب أبا عثمان، ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن وهو آخر من مات من أصحاب أبي عثمان في سنة وستين وثلاثمائة، وله مقالات في طريق القوم حسنة؛ فمنها مقالته التي ذكرها الشيخ وهو قوله:

تهـــاون العـــبد بأمـــر ربـــه لفقـــده عـــرفانه مـــن قلـــبه

وهذه مقالة حسنة المباني. متجهة محققة المعاني. مبنية لا خفاء فيها.

ولا شك أن العبد إذا خلى قلبه من معرفة الله تعالى، وفقد ذلك من قلبه. تهاون بأمر ربه؛ لأن القيام بالأمر بحسب معرفة الأمر، وما هو عليه من أوصاف العظمة، والكبرياء.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إظهار فعل الخير وفعله بعكسه في السر

فإذا كان العبد يظهر فعل الخير من التنسك، والتعبد، والصلاح، وغير ذلك من أفعال الخير، وكان في باطنه على غير ذلك؛ فهو عيب من عيوب النفس العظيمة، ومن أخلاقها، وأحوالها الذميمة؛ وهذا الوصف من أوصاف المنافقين.

وقد ذم الله تعالى قوما كان حالهم مخالفة الظواهر البواطن؛ فقال تعال: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ...﴾ الآية.

والمؤمنون حالتهم بخلاف ذلك؛ فبواطنهم منطوية على ما ظهر في ظواهرهم من الصلاح، والخير؛ ولربما كان ما انطوت عليه بواطنهم من الخير، والصلاح أتم مما يظهر على ظواهرهم. كل ذلك خوفا من الوقوع في الرياء الذي هو الشرك الأصغر.

روى عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يؤمر يوم القيامة بناس إلى الجنة. حتى إذا دنوا منها، ونظروا إليها واستنشقوا رائحتها، وما أعد الله لأهلها. نودوا: أن اصرفوهم؛ فلا نصيب لهم فيها. قال فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها؛ فيقولون ياربنا، لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا. قال ذلك أردت بكم. كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم. هبتم الناس، ولم تهابوني. أجللتم الناس، ولم تجلوني، وتركتم للناس، ولم تتركوا لي؛ فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب".

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾، وهو الرجل تمر به المرأة؛ فيري القوم أنه يغض بصره؛ فإذا غفلوا نظر إليها، ويود أنه يطلع على عورتها، ويقدر عليها؛ فهذا كله يتناول من كان

يظهر فعل الخير، وفعله في السر بعكس ما كان يظهر.

ثم ذكر رحمه الله تعالى سبب العيب المذكور؛ فقال:

وذاك من غلبة الرياء وحبه للمدح والثناء

الإشارة بذاك إلى ما ذكر من عيب النفس؛ فذكر أن سببه غلبة الرياء، وحبه المدح من الناس. والثناء منهم، ولا شك أن من أحب ذلك من الناس توجه إليهم بالأسباب التي يمدحونه، ويثنون عليه من أجلها؛ وهذا حال من أقبل على الخلق، وأعرض عن الخالق، فصير أعماله لأجل من أقبل عليهم؛ فهو من الذين اتخذوا من دون الله أربابا، فهم فيه متشاكسون.

وقد تقدم كلام في الرياء وحب المدح والثناء عند قوله رحمه الله تعالى:

من عيبها إظهاره للطاعه وحبه لرؤية الجماعه

لفعله مزينا إياه لأجل تعظيم الذي يراه

فانظره هناك؛ فإنه عجيب مناسب لهذا المحل.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء العيب المذكور فقال:

دواؤه إصلاح السريره وتوبة يمحو بها الجريره

والعلم أن ربه يراه في كل حال دائما ينهاه

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين أدوية ثلاثة لعيب النفس المذكور. الذي هو إظهار فعل الخير، وسريرته مخالفة لذلك الدواء.

الأول: إصلاح السريرة؛ والمراد بالسريرة هنا القلب؛ فإنه قد يعبر عنه بالسريرة تارة، وتارة يعبر عنها بالباطن بضرب من المجاز؛ وإصلاحه بتصفيته من الأخلاق الذميمة، ومن كل شائبة قادحة في الأعمال، وقادحة في التوحيد؛ فإذا أصلح العبد سريرته طهرت من جميع الشوائب، والقوادح في توحيده، وفي أعماله، وأحواله، ومن ذلك الرياء.

الثاني: توبة يمحو بها الجريرة؛ والمراد هنا التوبة النصوح؛ والرياء، وتوابعه هي من الجريرة التي تمحو بها التوبة، وقد تقدم لنا الكلام في التوبة، وشروطها، وآدابها عند قول الشيخ في دواء عيب النفس الذي هو التكثير من الذنوب.

دواؤه كثرة الاستغفار وتوبة تذهب بالإصرار

فانظر هنالك.

الثالث: علم العبد بأن ربه تعالى يراه، ومراقب له في جميع أحواله، وحركاته، وسكناته؛ فإذا علم العبد ذلك راقب مولاه، وأقبل عليه و، أعرض عمن سواه؛ فتكون أحواله مراقبة الله تعالى، وكل مناف لعلة؛ فهو دواء لها، فصح بهذا ما ذكره الشيخ من أن إصلاح السريرة، والتوبة، والعلم بأن الله تعالى مطلع على عبده، ومراقب له. أدوية لعيب النفس الذي هو الرياء.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قال الرسول وهو قول ظاهر كفى الفتى شرا بقلب فاجر
وهو يرى خشية رب الناس للخلق بالرياء والالتباس

القلب الفاجر هو الخلي من معرفة الله تعالى. المحجوب عن شهود عظمته وكبريائه. المشحون بالخبائث، وأنواع الشرور. المتخلق بالأخلاق الإبليسية؛ فكفى بالعبد شرا أن يكون قلبه بهذه الأوصاف؛ كما قال صلى الله عليه وسلم. حسبما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى.

وأتى بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ليبين ما وصف الشر؛ لمن كان قلبه على الوصف المذكور، وذكر أيضا من أفعال العبد ما يدل على استحقاقه بوصف الشر، وهو أن يظهر للخلق الخشية رياء وإبلاسا.

ثم أتى رحمه الله بقول أبي عثمان الحيري مقويا لمعنى ما ذكره من إثبات الشر لذوي القلب الفاجر المرائي بأفعاله؛ فقال:

قال أبو عثمان أعني الحيري خشوع ظاهر مع الفجور
لباطن يورث الإصرارا فيطمس الأضواء والأفكارا

أبو عثمان الحيري هذا هو سعيد بن اسماعيل، وأبو عثمان كنيته. كان من الري. صحب شاه الكرماني، ويحيى بن معاذ الرازي. ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد، وأقام عنده وتخرج به وزوجه أبو حفص ابنته. عاش بعد أبي حفص نيفا وثلاثين سنة، ومات وعمره مائة سنة. توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين، وكان رحمه الله تعالى من أكابر هذه الطريقة صاحب مقام وحال، وله مقالات حسنة في طريق القوم منها مقالته التي أسندها الشيخ هنا وهو قوله: "خشوع

ظاهر مع الفجور. يورث الإصرار..".

لا شك أن من أظهر الخشوع، وأبطن الفجور؛ فإن ذلك يورث أضرارا في الباطن. ثم ذكر من ذلك الأضرار طمس الأضواء والأفكار، والمراد بالأضواء هنا نور المعرفة الداعية إلى إخلاص الأعمال، وتصفية الأحوال من الشوائب والأكدار.

ثم ذكر رحمه الله تعالى ما ينشأ عن الرياء الباعث على إظهار الخشوع مع الفجور؛ فقال:

وذاك محض الخبث والنفاق يضر في الدين وفي الأخلاق

ذاك: إشارة إلى إظهار الخشوع مع الفجور؛ فقال هو محض الخبث، والنفاق.

والمحض: الخالص الذي لا شوب فيه، **والخبث** هنا المراد به الباطل الذي لا خير فيه، **والنفاق** عبارة عن مخالفة الباطن للظاهر؛ فإظهار الخشوع مع الفجور، فهو باطل محض، ونفاق خالص، وكلاهما مضر في الدين والأخلاق؛ فالضر في الدين لخروجه عن سنن المهتدين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى، والضرر في الأخلاق؛ لعدم اتصافها بالحميدة. إذ ليس من الديانة الإيمانية الرياء في الأعمال، وليس من الأخلاق الحميدة الاتصاف بوصف النفاق.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها تضييعه أوقاته بالخوض في الدنيا وما قد فاته

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبا من عيوب النفس، وهو أن يضع العبد أوقاته، ولا يتدارك ما قد فاته من أداء الواجبات، ونوافل الخيرات، وأنواع الرغبات شغلا بدنياه، وخوضا في أمورها؛ فالشغل بأمور الدنيا عن حقوق المولى شغل بما لا يعني، وترك لما له قيمة لما ليس له قيمة وتضييع الأوقات خسارة لا خلف لها، وندامة لا تدارك لها، وليس من شأن العقلاء تضييع الأوقات النفيسة بالخوض في أمور خسيسة.

ومن حكمنا الصغرى: "يابن آدم أوقاتك أجزاؤك. كلما مضى لك وقت مضى منك جزء". وبيان ذلك أن الإنسان كائن. جزئ أجزاء، ووزعت اجزاؤه على أوقاته؛ فكل وقت من أوقات عمر الإنسان مضى. مضى معه الجزء الذي وزع عليه،

وكما أن جزء الإنسان لا قيمة له لأنه جزء من عظيم؛ فكذلك أوقات عمره لا قيمة لها، والعزيز لا يصرف إلا في عزيز، وهي حقوق المولى جل جلاله.

واعلم أن العمر مسافة السفر؛ فسنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وشهواته، وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله سبحانه وتعالى في دار السلام مع الملك الكبير، والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأغلال، والأنكال، والعذاب الأليم؛ وأول منازل هذا السفر المهد، وآخره اللحد، والموطن الجنة، أو النار.

ومتى ما ضيع العبد أوقاته؛ فدليل على جهالته بعزازة الوقت؛ كما أشار الشيخ غلى ذلك؛ فقال:

وذاك من جهالة بالوقت أو ما له من عزة وثبت

الإشارة ب " **ذاك** " إلى تضييع الوقت؛ فمن ضيعها بالخوض فيها بأمور دنياه؛ فهو جاهل بها، وبعزازتها؛ فصرفها فيما هو ليس بعزيز من الاشتغال بأمور دنياه عن أداء حقوق الربوبية، والقيام بالتكاليف الشرعية.

قال ابن عطاء الله في حكمه: "ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل منه لا قيمة له".

قال الجنيد رضي الله تعالى عنه: "الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت، وكل جزء يحصل للعبد من العمر غير خال من عمل صالح؛ فيتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى. لا قيمة لما يتوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة".

ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف رضي الله تعالى عنهم لأنفاسهم، ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم، وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة، والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: "بقية عمر المرء ما لها ثمن. يدرك فيها ما فات، ويحيي ما مات".

وقد نظمه بعض الناس:

بقية العمر عندي ما لها ثمن وإن غدا خير محبوب من الثمن

يستدرك المرء فيها ما أفات ويحيي ما أمات ويمحو السوء بالحسن

وفي الخبر: "ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة".

ويقال إن العبد تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء؛ لما كان أودع خزائنه من ساعاته في الدنيا من الحسنات؛ فيسره ذلك ويغتبط به؛ فإذا مرت به في الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزائن فرغ لا عطاء فيها، ولا جزاء عليها؛ فيسوؤه ذلك، ويتحسر كيف فاته لم يدخر فيها شيئا؛ فيرى جزاءه مذخور. ثم يلقى في نفسه الرضى والسكون".

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى دواء عيب النفس المذكور الذي هو تضييع الأوقات بالخوض في الدنيا؛ فقال:

دواؤه اهتمامه بوقته وذكره فيه هجوم موته

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت دواءين لعيب النفس المذكور؛ وهو تضييعها للوقت بالخوض في الدنيا.

الأول: اهتمام العبد بوقته فيما يصرفه من الأعمال؛ فإذا اهتم به وعلم عزازته لم يصرفه إلا فيما هو أعز، وهي الأعمال الصالحات التي بها الفوز في الدنيا والآخرة، وينال بها رضى المولى عز وجل.

قال الحسن البصري رضي الله تعالى عنه: "أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم". يقول: "كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه؛ فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه".

فعلى العبد اهتمامه بوقته، ومراعاته له فيما ذا يصرفه، وليذكر هجوم الموت فيه، وهو الدواء.

الثاني؛ فإذا جوز هجوم الموت في الوقت الذي هو فيه. تعين عليه صرفه فيما يرضي الله تعالى. حرصا على أن يلقاه على حالة يرضاها منه، ويرضى عليه بها، وهذا هو فائدة العمر، والمراد من الحياة.

ولذلك كان الوقت أعز شيء يكون، كما أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى ذلك؛ فقال:

أعــز شـــيء وقتــنا متـــى ذهـــب بغيـــر شـــغل فاتـــنا مـــنه الأرب

ضمير الجمع الذي اضيف إليه الوقت واقع على العبيد، وإضافة الوقت إليهم من إضافة الشيء إلى ملابس له، والوقت أعز شيء عند عبيد الله؛ لما فيه من قضاء مآربهم الأخروية؛ فأما الدنيوية بحسب التبع، ومتى ذهب الوقت بغير شغل صالح؛ فقد فات منه الأرب: أي المقصد المطلوب، وهو أداء حقوق الله عز وجل، والقيام بالتكاليف الشرعية، والأعمال الدينية التي ينال العبد بها رضى مولاه عز وجل، وينال بها الفوز الأكبر، والملك الأعظم.

ومتى فات العبد هذا المقصد، والنوال الأعظم فيعود عليه حسرة؛ كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى حيث قال:

ثــم يعــود حــسرة فــي الآخــره وظلمــة فــي القلــب ثــم الحافــره

الحسرة التي تعود على العبد في الآخرة بسبب تضييع أوقاته باشتغاله بدنياه؛ لما يفوته من النعيم المقيم، والثواب العظيم. حسبما ذكرناه مما جاء في الخبر: "ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة"؛ ولما تقدم أيضا من أن العبد إذا مرت به في الدنيا ساعة لا يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزائن فرغا لا عطاء فيها، ولا جزاء؛ فيسوؤه ذلك، ويتحسر كيف فاته لم يدخر فيه شيئا.

هذا ما ينشأ عن تضييع الأوقات والاشتغال بأمر الدنيا والخوض فيها من ظلمة القلب، والحافرة؛ وقد تقدم ما المراد بالحافرة عند قوله: "لا بد من سؤال في الحافرة"؛ فانظره هناك.

ثم قال رحمه الله تعالى:

والــنفس إن لــم تــشتغل بالخيــر أشــغلت المــرء بكـــل شـــر

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت حال النفس، وهي إن لم يشغلها صاحبها أشغلته بكل شر؛ وهذا حالها ما دامت نفسا، ومن الخير شغلها بالأعمال الصالحات، والنظر في الأمور الآخرة، ومن الشر الخوض في الدنيا حتى تضيع

أوقاته في ذلك؛ فمن لم يشغل نفسه بما يعينها، وما طلب منها، وأمر به. أشغلته بما لا يعني، ونهي عنه؛ فالعاقل من أشغل نفسه بما فيه فلاحها وصلاحها قبل أن تشغله بما فيه هلاكها وضررها، وليبن أمره على مخالفتها، وعدم قبول نصحها؛ وليتهمها في جميع الأمور، وليحذرها كل الحذر؛ كما قال الشيخ رحمه الله تعالى:

فليحذرن النفس أتم الحذر   في كل وقت وزمان يجري

النفس التي أمر الشيخ رحمه الله تعالى بالحذر منها هي الأمارة، وكذلك اللوامة. إلا أن الحذر من الأولى يكون أكثر وأشد.

وإنما أمر رحمه الله تعالى بالحذر من النفس لما فيها من الشر، والميل إلى كل محظور. هذا شأنها دائما وحالها أبدا؛ فلا عاصم منها إلا من رحم الله تعالى.

والحذر من النفس: عدم الاطمئنان والركون إليها، والتجنب منها، وتوقع المكروه منها والاستعداد لمدافعته لها.

وفي قوله: "ثم الحذر". إشارة إلى استفراغ الجهد في الحذر منها.

وقوله: "في كل وقت وزمان يجري". يريد دوام الحذر في كل الأوقات، وجميع الأنفاس. إذ النفس لا تزال أبدا ترمي صاحبها بخواطر السوء، وسهام المخالفات؛ فلذلك وجب إدامة الحذر منها.

قال الجنيد رحمه الله تعالى، ورضي عنه: "النفس الأمارة بالسوء هي الداعية إلى المهالك. المعينة للأعداء. المتبعة للهوى، والمتضمنة بأصناف الأسواء".

وقال أبو حفص: "من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضى عن نفسه والكريم ابن الكريم يقول: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله تعالى:

واعلم بأن عيوب النفس مهلكة   في أقلها ميلها للعجز والكسل

وحالنا كيف الله للنفس واحدة   لأن علتها أربت على العلل

فنسأل الله عونا فهو ملجأنا   وعلى نفوس قست للخير لم تمل

والحاصل أن النفس شأنها عظيم، ومكرها شديد؛ فالكيس من أخذ حذره منها، والعاقل من لم يرض في كل أحوالها عنها؛ فقال رحمه الله تعالى:

من عيبها شدته في غضبه وذاك أمر آيل لعطبه

هذا عيب من عيوب النفس ذكره الشيخ هنا رحمه الله تعالى، وهو شدته في غضبه؛ فإن شدة الغضب ينشأ عن قوة النفس التي لا رياضة لها، وعن ضعف العقل الحاجز لها عن ذلك.

والغضب هو قوة تنبعث عن غليان دم القلب. هذا أحد ما قيل فيه؛ وهو من أخلاق الجبابرة والفراعنة؛ فمن كان حاله شدة الغضب؛ ففيه أخلاق فرعونية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمسترشد استرشده: "لا تغضب"؛ وإنما نهاه عليه الصلاة والسلام عن الغضب؛ لما فيه من الشرور، وارتكاب الأمر المحظور، وأمر الغاضب آيل إلى العطب كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى، وأيضا فإن الغضب مفتاح نصر النفس؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك فقال:

لأنه مفتاح نصر نفسه وبعده عن ضبطه لحسه

الأمر كما ذكر رحمه الله تعالى؛ لأن من غضب لغير الله؛ فقد فتح بابا لنصر نفسه، وكان بمنزل عن ضبطه لحسه: أي عن ملاكه لنفسه؛ لضعف روحانيته، وقوة نفسانيته؛ فغلب عليه الجهل، وعدم فائدة العقل، وما غضب حليم، ولا بخل كريم، ومن كمل عقله وقوت روحانيته ملك نفسه عن الغضب؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "ليس القوي - أو قال الشديد - بالصرعة، وإنما القوي (أو الشديد) من ملك نفسه عند الغضب " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم ذكر رحمه الله تعالى أصل الغضب الذي ينشأ عنه فقال:

وأصله من عزة في النفس ورؤية الحق لها في الجنس

الضمير في قوله و"**أصله** " واقع على الغضب؛ فأخبر رحمه الله تعالى أن أصل الغضب عزة في النفس، وكذلك رؤية الحق لها بين أبناء جنسها؛ فكلا الأمرين باعث للعبد على انتصاره لنفسه، ومثير لغضبه على من خالفه، وفي ذلك عطبه، ودليل على عدم ملاكه لنفسه، وعدم ضبطه لحسه. وإذا علمت أيها العبد الأصل الذي ينشأ عنه الغضب، فلزمك حسم ذلك الأصل؛ لتنقطع عنك فروعه، وحسمه باستبداله بضده؛

فتستبدل عزة النفس بذلها، ورؤية الحق لها بإيحائه لغيرها، فلا ترى لها فعلا حسنا، ولا تقيم لها عند انتصارها لنفسها وزنا، ولا تزال حاطا لها عن رتبة الكمال، ومبينا لها في كل حال من الأحوال، وإن خالطها شيء من هذا العيب المذكور؛ فعليك بمعاناته بالدواء المزيل لها، وهو ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى حيث قال:

دواؤه استعماله وصف الرضى ورده النفس لأحكام القضا

إذا كان العبد راضيا بما يصدر له من عبيد الله، وسلك في ذلك على سبيل توحيد الأفعال، فلم ير فاعلا غير الله تعالى، ورد نفسه إلى أحكام القضاء، وأن ما صدر من العبيد هو قضاء قضاه سبحانه، وأجرى ذلك على أيديهم، وألسنتهم. لم يغضب، ولا يحزن على شيء صدر له من العبيد؛ لنسبة ذلك عنده إلى من أجراه على أيديهم، وأطلق ألسنتهم به؛ وبهذا النظر ينتفي عن النفس علة الغضب، وتكون مع الله، ومع عبيد الله سالكة مسلك الأدب، وتكون مع جميع الخلق على السبيل الذي ذكره الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

حتى تلين لجميع الخلق وتنطبع إلى اتباع الحق

ما ذكره في هذا البيت من لين النفس لجميع الخلق، وانطباعها إلى اتباع الحق. هو نتيجة استعمال الرضى، وثمرة رد النفس لأحكام القضاء؛ وإذا كانت النفس تلين لجميع الخلق؛ فدليل على اكتمال رياضتها، وتمام تهذيبها، بما نالته من استعمال وصف الرضى، وإذا كانت تنطبع إلى اتباع الحق فدليل على صفائها من كدرات الأهواء؛ فلما تصفت أنابت، وإلى الحق استجابت.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وغضب المرء لغير ربه من نفخة الشيطان في قلبه

الغضب تارة يكون لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وتعديت حدوده، كغضبه صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان يغضب لله تعالى. لا لنفيدسه؛ وهذا الغضب محمود، وصاحبه مثاب عليه؛ وينشأ عن قوة الإيمان، وخالص التوحيد، وتارة يكون لحظ نفس وهوى؛ وهذا هو المذموم المعدود من عيوب النفس، وهو الذي نبه الشيخ عليه بقوله: "من نفخة الشيطان في القلب".

ومما يشهد لما قاله الشيخ أن الغضب لغير الله تعالى من الشيطان ما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا اشتد غضبه؛ فقال أما إنه لو استعاذ من الشيطان

لذهب عنه ما يجده من الغضب، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قال الرسول للذي أتاه لا تغضبن عندما استوصاه

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى ما قدمناه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لمن أتاه مسترشدا، فقال له: "لا تغضب". يريد الغضب لغير الله تعالى.

واعلم أن الغضب يخرج العبد عن ملاك نفسه، ويبعده عن ضبطه لحسه، ويوقعه في مهوات الزلل، ويدعوه إلى سيئ العمل، وتنشأ عنه أفعال دنيئة، وأحوال سيئة رديئة تفضي بالعبد إلى الهلاك، وتجره إلى الاستهلاك؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

إذ غضب العبد إلى الهلاك يجره بقصد الاستهلاك

لا شك أن الغضب يجر صاحبه إلى هلاكه في دينه ودنياه. إذ لعله يفعل في حالة غضبه فعلا يكون فيه هلاك في الدين، وهلاك في الدنيا، وقل أن يسلم العبد من ذلك؛ فمن غضب عطب؛ فالغضب ينشأ عنه العطب، ويقل معه الأدب، ولا ينال العلا قط من كان طبعه الغضب، وما بلغ صاحب غضب أربا، ولا قط حصل له مطلب؛ فعلى العبد المؤمن أن يجانبه؛ وليتق عواقبه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الكذب في الأخبار وذاك من خساسة وعار

الكذب عيب من عيوب النفس العظيمة، وهي من الأخلاق الخسيسة الذميمة. لا يتصف به حسيب، ولا يتخلق به كريم؛ والكذب محرم في جميع الأديان، وعلى كل إنسان، وصاحبه ملعون على كل لسان؛ فما كذب عفيف، ولا اتصف به شريف؛ وقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم من أخلاق المنافقين؛ فقال: "المنافق إذا حدث كذب".

وقد ورد النهي عن الكذب في الكتاب العزيز، وفي الأحاديث النبوية، ووقع التحذير منه؛ فمن لم يحذره، ولم ينزه نفسه عنه؛ فيسمى عند الله كذابا؛ كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يزال العبد يصدق حتى يسمى عند الله صديقا، ولا يزال يكذب حتى يسمى عند الله كذابا".

وممن كانت نفسه متصفة بهذا العيب الذي هو الكذب؛ فليبادر إلى زواله

بالدواء الذي ذكره الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

دواؤه العلم بقبح الكذب وأنه موصل للعطب

في الدين والدنيا وعند الناس بالذل والصغار والإلباس

الكذب قبيح في نفسه، وينشأ عنه مفاسد وأمور ذميمة منها: أنه يوصل صاحبها للعطب في الدين والدنيا، ويكون موصوفا عند الناس بالذل، والصغار، والإبلاس، وغير ذلك من الأوصاف الذميمة، والأحوال المكروهة الخسيسة؛ وإذا حصل للعبد العلم بقبح الكذب، وما ينشأ عنه من الأمور الذميمة التي ذكرنا، فوجب عليه تجنبه والبعد منه؛ ليسلم من آفاته والوقوع في محظوراته؛ وهذا نعت العقلاء، وشأن النبلاء؛ وإذا حصل من العلم بقبح الشيء تجنبه؛ فقد حصلت ثمرة العلم، وحصل التداوي به من عيب النفس الذي هو الكذب الناشيء عنه هذه المفاسد المذكورة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقد يرد لطلب التباهي ورفضه بقصد وجه الله

وترك قصد الناس بالكلام إذ قد أتى عن سيد الأنام

الصدق يهدي لعظيم البر والبر يهدي لجنان فادر

وكذب يهدي إلى الفجور وذاك باب الويل والثبور

قوله: "وقد يرد لطلب التباهي": يريد الكذب؛ فإنه قد يراد به التباهي بين الأقران، والفخر بين أبناء الزمان في الأمور المباحة؛ وغاية هذا الكذب أن يكون مكروها، وهو بعيد من أحوال أهل الصدق، وكرام السجية، وهذا الكذب لا يبلغ حكمه حكم الكذب المحرم الذي ينشأ عنه مفاسد، ويوقع صاحبه في المعاطب والمآثم.

وقوله: "ورفضه بقصد وجه الله". يريد رفض الكذب؛ فيقصد العبد برفضه وجه الله تعالى، وفرارا مما نهاه عنه؛ فيترك المكروه منه ليلا يقع في الكذب المحرم. إذ الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقوله: "وترك قصد الناس بالكلام"؛ فيتركه أيضا لقصد وجه الله تعالى، ويريد بالكلام الخوض فيما لا يعني.

وقوله: "إذ قد أتى عن سيد الأنام الصدق يهدي لعظيم البر... إلخ.

هذا ترغيب في الصدق وحض عليه؛ كما رهب من الكذب ونفر منه بقوله: "وكذب يهدي إلى الفجور... إلخ".

وذكر رحمه الله تعالى أن الكذب هو باب الويل، **والويل**. قيل: إنه واد في جهنم؛ **والثبور**: الخسران؛ فالكذب باب لهما. عصمنا الله من ذلك بفضله وكرمه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الشح كذاك البخل — وحب دنياه لذاك أصل

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس، وهما الشح، والبخل؛ فالمتصف بهما مذموم، والمتخلق بهما ملوم؛ فما شح كريم، ولا بخل عظيم، وليس الشح من أوصاف المؤمنين، ولا البخل من أخلاق المتقين.

وقد أخبر الله تعالى بفلاح من وقي شح نفسه فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من البخل لما فيه من نقص الحال، وقدح في وصف الكمال.

ومن كلام الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله تعالى في قصيدته:

عليك بالجود لا تبخل بمكرمة — فالبخل والجبن بئس الوصف للرجل

ومن كلام سيدي ابراهيم التازي [1]رحمه الله تعالى:

وكل بخيل فهو عنهم بمعزل — فما يعبأ الرب الكريم ببخال

وظاهر كلام الشيخ رحمه الله تعالى أن الشح، والبخل وصفان متغايران لأنه قال: "من عيبها الشح كذاك البخل " فشبه البخل بالشح، ومن المعلوم أن المشبه غير المشبه به. لكن ابن مالك رحمه الله تعالى فسر الشح بالبخل؛ فقال في لاميته في تصريف الأفعال: "وشح أي بخل".

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن العباس التلمساني [2] في شرح لامية ابن

---

(1) هو ابراهيم بن محمد بن علي التازي. كان من أهل الورع والزهد. له قصائد في التصوف، وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. أخذ عنهم جماعة منهم: الحافظ التنسي، والإمام السنوسي، والإمام أحمد زروق. ترجم له ابن صعد في كراستين. توفي سنة: 866 هجرية.

(2) هو أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني. تتلمذ عليه القلصادي أحد أساتذة الشيخ أحمد =

مالك: "وفسر الناظم الشح بالبخل، ولعله لضيق النظم".

وجعل رحمه الله تعالى الشح البخل مع حرص، وفي هذا إشارة إلى أن التفرقة بين الشح، والبخل من حيث إن أحدهما أعم من الآخر، ولعل الشيخ جعلهما وصفان نظرا إلى هذا المعنى، وبالجملة؛ فإن الشح، والبخل من أعظم عيوب النفس.

ومما جاء في الترهيب من البخل قوله عليه الصلاة والسلام: "البخيل بعيد من الله تعالى. بعيد من الناس. قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل".

وجاء في الترهيب من الشح، والبخل غير هذا؛ فانظر في كتب المواعظ تقف عليه.

وضد الشح، والبخل. الجود، والسخاء؛ وهما حالا نبينا صلى الله عليه وسلم، وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتبعهم على ذلك الصحابة الكرام، وصالحوا هذه الأمة؛ فقد حكى عنهم في ذلك العجب العجاب، ولم يكتفوا بالجود بالأموال. حتى سخوا وجادوا بأنفسهم؛ فبذلوها في سبيل الله عز وجل.

وأصل الجود حقارة الدنيا وبغضها، والعلم بأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، والاعتماد على الله تعالى، والنظر إلى ما في خزائنه؛ وغير ذلك من الأسباب الموجبة لسخاء النفس، والتحلي بوصف الجود.

وقوله: "وحب دنياه لذاك أصل". إعلام بالأصل الذي ينشأ عنه الشح، والبخل، والإشارة بذلك إليهما؛ كأنه يقول رحمه الله تعالى: أصل الشح، والبخل حب الدنيا. الذي هو رأس كل خطيئة كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن حكمنا الصغرى: "حب الدنيا سبب انحطاط الفقير عن الدرجة العليا".

ولما كان حب الدنيا أضر شيء على العباد. بالغ القرآن في ذمها، وجاءت آيات في وصفها ونعتها؛ فقال عز من قائل: ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

=

زروق. توفي سنة: 847 هجرية.

أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على نقصها، وسوء حالها، وأما الأحاديث النبوية، والآثار في ذمها، والتحذير منها كثيرة. منها:

قوله صلى الله عليه وسلم: "حب الدنيا رأس كل خطيئة".

ومر صلى الله عليه وسلم بشاة ميتة؛ فقال: "أترون هذه الشاة هينة على صاحبها؟ قالوا: نعم؛ فقال: والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله عز وجل من هذه الشاة على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء".

وقال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا ملعونة. ملعون ما فيها إلا ما كان منها لله تعالى".

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى".

ووقف صلى الله عليه وسلم على مزبلة؛ فقال: "هلموا إلى الدنيا، وأخذ خرقا بالية على تلك المزبلة، وعظاما قد نخرت؛ فقال: هذه الدنيا، وهذه إشارة إلى زينتها. ستخلق مثل تلك الخرق والأجسام التي تواريها ستصير عظاما بالية".

وقال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له"،.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أصبح والدنيا أكبر همه؛ فليس من الله، وألزم الله قلبه أربع خصال: هما لاينقطع أبدا، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا، وفقرا لا يبلغ غناء أبدا".

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليجئن أقوام يوم القيامة، وأعمالهم كجبال تهامة؛ فيرمى بهم في النار. قالوا يارسول الله. كانوا يصلون؟ قال: نعم. إنهم كانوا يصلون، ويصومون، ويأخذون هيئة من الليل؛ فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه".

وقال زيد بن أرقم: "كنا مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه؛ فدعا بشراب؛

فأتي بماء وعسل؛ فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه؛ وسكتوا، وما سكت. ثم عاد وبكى. حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مساءلته. قال: ثم مسح عينه؛ فقالوا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرأيته يدفع عن نفسه شيئا، ولم أر معه أحدا؛ فقلت: يارسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟؛ فقال: هذه الدنيا مثلت لي؛ فقلت لها إليك عني. ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك".

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: "لا تتخذوا الدنيا ربا؛ فتتخذكم الدنيا عبيدا أكثر، وأكثركم عند من لا يضيعكم، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة " وقال أيضا: "يامعشر الحواريين إني كببت لكم الدنيا على وجهها، فلا تغشوها بعدي؛ فإن من خبث الدنيا أن الله تعالى عصي فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها. ألا فاعبروا الدنيا، ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا".

وقال داود بن هلال: "مكتوب في صحف ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم. يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم. إني قذفت في قلوبهم بغضك، والصدود عنك، وما خلقت خلقا أهون علي منك. كل شأنك حقير صغير، وإلى الفناء يصير. قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم أحد لك، وإن بخل بك صاحبك، وشح عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضى، ومن ضمائرهم على الصدق والاستقامة. طوبى لهم. نالهم عندي من الجزاء - إذا عادوا إلي من قبورهم - النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي".

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام " لا يستقم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء، والنار في إناء واحد".

وروي أن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام اشتد عليه الريح والمطر والرعد والبرق يوما؛ فجعل يطلب شيئا يأوي إليه؛ فرفعت إليه خيمة فأتاها؛ فإذا فيها امرأة فحاد عنها؛ فإذا هو بكهف في جبل؛ فأتاه؛ فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال:

إلهي جعلت لكل شيء مأوى، ولـم تجعل لي مأوى؛ فأوحى الله تعالى: مأواك في مستقر من رحمتي؛ لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي؛ ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام. يوم منها كعمر الدنيا، وللآمرن مناديا ينادي. أين الزهاد في الدنيا. زوروا عرس الزاهد عيسى ابن مريم".

وقيل: أوحى الله إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: "ياموسى ما لك ولدار الظالمين؟ إنها ليست لك بدار. أخرج منها همتك، وفارقها بعقلك؛ فبئست الدار هي. إلا لعامل يعمل فيها؛ فنعمت الدار".

وقيل: "مر عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بقرية؛ فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق؛ فقال: يامعشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا من سخطة، ولو ماتوا من غير ذلك؛ لتدافنوا؛ فقالوا ياروح الله وددنا أنا علمنا خبرهم؛ فسأل ربه، فأوحى إليه تعالى إليه. إذا كان الليل فنادهم يجيبونك؛ فلما كان الليل أشرف على نشز من الأرض ثم نادى: ياأهل القرية، فأجابه مجيب: لبيك ياروح الله؛ فقال: ما حالكم، وما قصتكم؟ قال: بتنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية. قال وكيف ذاك؟ قال بحب الدنيا، وطاعتنا أهل المعاصي. قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا، وإذا أدبرت حزنا وبكينا. قال: فما بال أصحابك لا يجيبونني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد. قال: وكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم؛ فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم؛ فأنا معلق على شفير جهنم؛ فلا أدري أننجوا منها أم أكبكب فيها؟؛ فقال المسيح للحواريين لأكل خبز الشعير بالملح الحريش، ولبس المسوح، والنوم على المزابل كثير. مع عافية في الدنيا والآخرة".

والكلام في ذم الدنيا، والتحذير منها، والترهيب من حبها، والترغيب في الإعراض عنها، والزهد فيها أكثر من أن تحصى؛ وقد تقدم شيء من الكلام على حقارتها عند الله تعالى، والترغيب في الإعراض عنها، والزهد فيها، والتحذير من حبها عند قول الشيخ رحمه الله تعالى قبل هذا:

وذاك من جهل بحال الدنيا وما إليه أمرها في الأشيا

وعند قوله أيضا:

لا خيـــر فـــيما آل للفـــناء ... مـــع كثـــرة الـــشقاء والعـــناء

وعند قوله:

ياعجـــبا لمؤثـــر دنـــياه ... وتاركـــا إيـــثاره أخـــراه

مـــع علمـــه بـــأن هـــذه فانـــيه ... وهـــذه دائمـــة وباقـــيه

فانظر ما قدمناه من الكلام على حال الدنيا عند هذه الأبيات، واضممه إلى هذا فيكون لك فيه مقنع في الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، وإخراج حبها من قلبك.

وقد ضرب الناس للدنيا أمثلة منها أن الدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها تشبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها؛ فإذا وقفوا على باطنها، وكشفوا القناع عن وجهها تبينت لهم قبائحها فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها؛ فالدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر؛ وإذا كانت بهذه الحال وعلى قبيح ما ذكر فيها من الأمثال؛ فكيف يسوغ لعاقل حبها، والشح، والبخل بها؛ فهذا بعيد عن العقلاء، ومن أحوال النبلاء.

ومن كان محبا لها شحيحا بخيلا بها؛ فذاك عيب من عيوب نفسه؛ فليبادر إلى نفي هذا العيب بما ذكره الشيخ من الدواء. حيث قال رحمه الله تعالى:

دواؤه العلـــم بأصـــل الدنـــيا ... وأنهـــا قلـــيلة فـــي المحـــيا

فانـــية حلالهـــا حـــساب ... زائلـــة حـــرامها عقـــاب

هذا دواء ذكره الشيخ رحمه الله تعالى دافع لعيب النفس المذكور الذي هو الشح، والبخل، ومخرج لحب الدنيا من القلب؛ ولا شك أن من علم أصول الدنيا، وأنها قليلة فانية. لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن ما حصل منها، وكان حلالا عليه الحساب، وما كان حراما؛ فعليه العقاب لا يشح بها، ولا يبخل، ولا يسكن حبها في قلبه، ولا يشغله طلبها عما كلف العبد من عبادة ربه؛ بل يكون لها تاركا، وعنها معرضا، ولها باذلا؛ وهذا فعل الأكياس من الناس أهل العقول السليمة الراجحة الذين عرفوا الآخرة؛ فطلبوها، ورغبوا فيها، وعرفوا الدنيا فتركوها، وأعرضوا عنها.

وأنشد بعضهم معرفا بحال الدنيا فقال:

حلـــول الـــشيب ويحكـــم نذيـــر ... يخبـــر أنـــه قـــرب المـــسير

فـــلا تغـــرنكم الدنـــيا بـــوعد فـــإن وعـــدها كـــذب وزور
ألـــم يكـــن تملكهـــا أنـــاس ألـــيس بهـــا فنـــي خلـــق كثيـــر
تملـــوا بـــرهة فـــيها فأمـــسوا ولـــيس لهـــم مـــن الدنـــيا مجيـــر
أبـــادتهم وأفنـــتهم جمـــيعا فـــلا ملـــك يـــئوب ولا وزيـــر
تـــشتت شـــملهم بعـــد اجـــتماع فلـــم يـــبق الجلـــيل ولا الحقيـــر
وزال نعـــيمهم عـــنها فأضـــحوا والقـــبور لهـــم قـــصور

فلما كان هذا نعتها. لم يطمئنوا إليها، ولم يبخلوا بها؛ لحقارتها عندهم، وإهانتها؛ ولعلمهم أن البخل عيب من عيوب النفس، ومصيبة، ورذيلة قبيحة ذميمة؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

وبخلـــه مـــصيبة عظـــيمه رذيلـــة قبـــيحة ذمـــيمه

لا شك أن البخل وصف ذميم قبيح رذيل. من اتصف به كان رذيلا ذميما، والمبتلى به ابتلي بمصيبة تضره في دينه ودنياه.

* أما في دينه؛ فلعدم فلاحه؛ لأن الله عز وجل إنما شهد بالفلاح لمن وقى شح نفسه؛ فقال: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؛ فدل هذا على أن من لم يوق شح نفسه، فليس بمفلح؛ * وأما مضرته في الدنيا؛ لحقارته بين أمثاله، وانسفال منصبه بين أشكاله؛ لأن البخيل مذموم، وبين الناس ملوم، والبخل مرض من أمراض القلب، وجالب لما سخط الرب، وينشأ عن أسباب كثيرة. منها خوف الفقر؛ كما نبه الشيخ رضي الله تعالى عنه عن ذلك؛ بأن قال:

منـــشأه الأصـــلي خـــوف الفقـــر وضـــعف إيمـــان بأصـــل الأمـــر
وتهمـــة لقـــسمة الأرزاق دون رضـــى بالـــواحد الخـــلاق

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين سببين من الأسباب التي ينشأ عنها البخل.

الأول: خوف الفقر؛ فخوفه أصل ينشأ عنه فروع. منها البخل؛ لأن البخيل الحامل له على البخل أمور منها خوف الفقر.

الثاني: ضعف الإيمان بأصل الأمر. الذي هو ما سبق في الأزل، وما حكم به الحاكم المختار الفعال لما يريد؛ فإن الفقر، والغنا أمران سبق بهما الكتاب؛ فلا

البخل ينجي من الفقر، ويكون به الغنى، ولا الجود يكون منه الفقر، وينفي الغنى. لكن ضعف الإيمان بما سبق به القضاء، وجرى به القلم، والشك فيما قدره الحق سبحانه، وبه حكم. أوقع في النفس أن البخل يكون به الغنى، والجود يكون منه الفقر؛ ولو قوي إيمانه بما جرى به القضاء؛ لتحقق أن الجود لا ينشأ عنه فقر، والغنى لا يكون بسبب البخل، وينشأ عن ضعف الإيمان. التهمة في قسمة الأرزاق. إذ الحق سبحانه قسم أرزاق العباد؛ وهم في الأرحام، وقدر آجالهم؛ كما جاء في قول الملك: "فما الرزق؟؛ فما الأجل؟"، وينشأ عن ذلك كله عدم الرضى بقسمة الواحد الخلاق؛ فانظر رحمنا الله، وإياك. ما ذا ينشأ عن البخل من الأمور الذميمة، وبهذا كان مصيبة عظيمة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

إذ منعه للحاضر الموجود ... من سوء ظن كان بالمعبود

إذا ساء ظن العبد بمولاه تعالى، واتهمه في وعده الصادق حيث قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ...﴾ الآية؛ فوعد الله بالخلف لما أنفقه العبد في طاعته؛ فسوء ظن العبد بمولاه تعالى مانع له من الجود بالحاضر الموجود، ولو حسن ظنه بالله تعالى، وصدق بما وعده به من الخلف لجاد بالحاضر الموجود، ووعد بالغائب المفقود؛ وهكذا كان صلى الله عليه وسلم فإنه كان يجود بالحاضر، ويعد طالبيه بالغائب.

روي أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل سأله؛ فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي؛ فإذا جاءنا شيء قضيناه؛ فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه؛ فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ فقال رجل من الأنصار: يارسول الله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرف البشر في وجهه.

ومن هذا المعنى ما ذكره الشيخ في هذا البيت؛ فقال رحمه الله تعالى:

قال الرسول أنفقن بلالا ... ولا تخف من ربنا إقلالا

هذه مقالة قالها صلى الله عليه وسلم لبلال رضي الله تعالى عنه. دله صلى الله عليه وسلم على الجود، وأمره بالإنفاق، ولا يخشى الفقر الناشئ عنه

البخل؛ وحاله صلى الله عليه وسلم الجود؛ فكان يأمر أصحابه به؛ فكان عليه الصلاة والسلام يعطي الموجود، ويعد بالمفقود، وقد تقدم قوله للرجل الذي سأله فقال له: ابتع علي؛ فإذا جاءني شيء قضيناه، وربما استسلف هو صلى الله عليه وسلم وأعطى لطالبه؛ كما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه. أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله؛ فاستسلف له رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف وسق؛ فجاءه الرجل يتقاضاه فأعطاه وسقا، وقال: "نصفه قضاء، ونصفه نائل"؛ وهذا غاية في الجود، وحال من لا يخشى الفقر، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم في الجود الغاية، وبلغ في مراتبه النهاية؛ فليقتد به المؤمنون؛ وليتحل بأوصافه المتقون.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقـال كـل زلـة وإثـم ... مـن حـب دنـيانا فكـن ذا فهـم

القائل هو النبي صلى الله عليه وسلم، وأشارالشيخ رحمه الله تعالى إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "حب الدنيا رأس كل خطيئة"؛ ومن الخطيئات التي حب الدنيا رأسها البخل. إذ هو ناشئ عن حب الدنيا؛ فحب الدنيا أصل البخل كما تقدم في كلام الشيخ حيث قال:

مـن عيـبها الـشح كـذاك الـبخل ... وحـب دنـيا ولـذاك أصـل

ثم قال رحمه الله تعالى:

بـأن تـرى فـي حلـبة الـسباق ... بالقـسط فـي الإعطـاء والإنفـاق

إذ لـيس فـي الإسـراف والافـتقار ... خيـر ولا بـر ولا عـرف جـار

قوله: "بأن ترى في حلبة السباق". هو من تمام قوله: "فكن ذا فهم". أي كن ذا فهم؛ بأن ترى في حلبة السباق، والسباق هم السابقون في الأحوال الكمالية، والاتصاف بالأوصاف الزكية التي منها العدل في الإعطاء والإنفاق؛ وقد قال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾؛ أي الذين قصدوا العدل في أمورهم، وهو ما بين السرف، والاقتار؛ وقد مدح الله عز وجل الذين نهجوا هذا المنهج القويم وسلكوا هذا الصراط المستقيم؛ فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾؛ فالإسراف إفراط، والإقتار تفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وليس في الإسراف، والإقتار خير يرتجى في العاجل، ولا ثواب في

الأجل، وليس هو عرف جار بين أهل العدل الأفاضل، وما كان لا خير فيه عاجلا، ولا ثواب آجلا؛ فليتجنبه من كان عاقلا.

ثم قال رضي الله تعالى عنه:

من عيبها في حالها بعد الأمل وذاك من نسيانها قرب الأجل

إذا نسيت النفس قرب أجلها. بعد أملها، وهذا عيب معروف من عيوبها، ووصف ذميم قادح في حالها، وموجب لنفي كمالها؛ لأن بعد الأمل عائق عن كل خير، وجالب لكل فتنة، وهو يقسي القلب، وينسي الآخرة.

قال مولانا سنحانه: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾؛ فإنك أيها العبد. إن بعد أملك. قلت طاعتك، وكثرت معصيتك، وإذا نسيت قرب الأجل. تأخرت توبتك؛ وأي حال أسوأ من هذه الحال؛ وأي عيب للنفس، وآفة أعظم من هذه.

وفي حكمنا الصغرى: "أوهام طول الآمال مانعة لبروز صور الأعمال".

فالعاقل لا يبعد أمله، ولا ينسى قرب أجله؛ فيقصر الأمل، وعدم نسيان قرب الأجل ينهض الإنسان إلى العمل، ومن أبتلي بهذه العلة العظيمة، واتصفت نفسه بهذا العيب العظيم؛ فليبادر إلى نفيه بالدواء الذي ذكره الشيخ؛ فقال:

دواؤه دوام ذكر الموت والجد والتشمير خوف الفوت

ذكر الموت، وقرب الأجل. ينفي عن النفس بعد الأمل، ويبعث على الجد، والتشمير في العمل، ومن ذكر الموت شمر وجد في العمل خوف الفوت.

روى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يارسول الله؛ فقال: قصروا آمالكم، وثبتوا آجالكم، واستحيوا من الله حق الحياء".

فإن قصرت أيها العبد أملك، وثبت أجلك، وقربت من نفسك موتك، وتذكرت حال أقرانك الذين عاجلهم الموت في وقت لم يحتسبوا، وحذرت نفسك الغرور، وأكثرت عليها من نحو هذه الأذكار، وواضبت على ذلك بالإعادة والتكرار؛ فإنه يقصر أملك بإذن الله تعالى، وترى نفسك حينئذ تبادر إلى الطاعات، وتعجل توبتك؛ فتسقط معصيتك، وتزهد في الدنيا، وفي طلبها؛ فيخف حسابك، وتبعتك، ويقع قلبك في ذكر الآخرة، وما هو إلا من نفس إلى نفس تصير إليها وتعانيها.

واعلم أن مضمون قصر الأمل. ذكر الموت، وحصن حصينه. ذكر فجئته، وأخذه على غرة. قال هرم بن حيان [1] لأويس القرني [2] أوصني. قال: "توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينك إذا قمت، وادع الله تعالى أن يصلح قلبك"، وأوصاه مرة أخرى فقال: "عليك بذكر الموت؛ فلا يفارقن قلبك ما بقيت".

وقال الحسن: "ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حذرا من الموت. حزينا من أجله".

وأنشد بعضهم:

ألا رب ذي آجال قد حضر ... كثير التمني قليل الحذر
يجرعه الجهل كأس المنى ... ويحمله فوق ظهر الغرور
وينسى المنون وريب المنون ... وينسى الخطوب وينسى القبر
وكم من ملوك عهدناهم ... تفانوا ونحن معا في الأثر
أخيي أضعت أمورا أراك ... لنفسك فيها قليل النظر
تؤمل في الأرض طول الخلود ... وعمرك يزداد فيه قصر

وقال آخر:

أرى المشيب في العذار قد ألم ... كأن موتي عن قريب قد هجم
خط المشيب أسطرا في هامتي ... فراعني خطه وما رقم
هل الفتى إذا انقضى شبابه ... إلا كزرع هاج سوف ينحطم
شاب الفؤاد قبل شيب لمتي ... واعتراني ضعف القوى مثل الصمم
ويحي من توبيخ ربي غدا ... ويحي من الألم الشديد إذ أصوم

وفي أويس رضي الله تعالى عنه قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن

---

(1) هرم بن حيان العبدي. ذكره ابن سعد في الطبقات الأولى من التابعين والفقهاء المحدثين. توفي سنة: 46 هجرية.

(2) أويس بن عامر بن مالك القرني. من كبار زهاد التابعين. أصله من اليمن. شهد معركة صفين مع علي رضي الله تعالى عنه؛ ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها سنة 37 هجرية، وقيل قتل يوم نهاوند.

من مراد. ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة. هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره؛ فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل".

وعن حذيفة: [1] " ما من صباح ولا مساء إلا ومنادي ينادي أيها الناس. الرحيل. الرحيل؛ فتذكر أيها العبد الموت، وقصر أملك؛ وإياك وطول الأمل".

قال عبد الحق في الحاكمة [2]: "والناس في طول الأمل وقصره على أحوال مختلفة؛ فمنهم من طول في أمله زاد في كسله، ودخل الهوى في عمله، وآخر قد قصر أمله، وجعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته".

ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله وبهاءه؛ فانظر رحمك الله تعالى أي الرجلين تريد أن تكون؛ وأي العملين تريد أن تعمل؛ وبأي الرداء تريد أن تشتمل؛ فلست تلبس هنا إلا ما لبسته هنا، ولا تحشر هناك إلا ما كنت فيه هنا، وأنشدوا في المعنى:

يامن يؤمل لا تركن إلى الأمل وبادر الخير واغنم فسحة الأجل

واذكر وقوفك في الحشر مكتئبا مما تقدم من جرم ومن زلل

واحذر إذا وضع الميزان من عمل يقضي عليك بأنواع من الحلل

والنار لا تنس ما فيها لمن سلفت منه المعاصي ولم يندم ولم يزل

شراب من فيها الصديد ومن زقومها أكلهم ياقبح ذا الأكل

فحاذرن من عذاب الله واكتسبن أجرا ولا تمللن من صالح العمل

وقال آخر:

تولى العمر وانتقص الشباب فما يرجى لغائبه إياب

فحتى متى التعلل بالأماني وفيم الحرص ويلك والطلاب

أمنت حوادث الأيام جهلا وطاب لك الذي لا يستطاب

فأنفقت الحياة على أمور تمر بنا كما مر السحاب

(1) هو حذيفة بن قتادة المرعشي، وهو من كبار الزهاد الصوفية صحب الثوري. توفي سنة 207 هجرية.

(2) هو عبد الحق بن سعيد بن محمد المكناسي. له تقييد على فتوى الإمام ابن عربي المسمى الحاكمة. سماه الخارمة على الرسالة الحاكمة. توفي بعد سنة 761 هجرية.

قال أبو بكر التيمي رحمه الله تعالى: "بينما هشام بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتي بحجر مكتوب باللسان العجمي، فطلب من يقرأه؛ فأتي بوهب بن منبه فقرأه؛ فإذا فيه: يابن آدم لو رأيت قريب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة في عملك، ولقصرت في جرمك وحيلك، وابتغيت الزيادة في عملك؛ وإنما يلقاك غدا ندمك. لو قد زلت بك قدمك، وأسلمت أهلك وحشمك. يفارقك الولد والقريب، ويرفضك الولد والنسيب؛ فلا أنت لدنياك عائد، ولا في حسناتك زائد؛ فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة".

قال بعض العلماء؛ ومثل المتسوف. الطويل الأمل، والموفق الذي استشعر قرب الأجل إلا كملك كتب إى رجل من عبيده يقول له افعل كذا وكذا، وأصلح كذا وكذا، وانتظر رسولي فلانا؛ فإني سأبعثك لك؛ ليأتيني بك وإياك ثم إياك أن يأتيك إلا وقد فرغت من أشغالك، وتخلصت من أعمالك، وأخذت ما تحتاج إليه في سفرك، وإن لم تفعل ما أمرتك به. حللت بك عقابي، وأحللت عليك سخطي وعذابي، وأمرته أن يأتيني بك. مغلولة يداك. مقيدة رجلاك. مشمتا بك عداك. مسحوبا إلى دار خزي وهوان، وما أعددته لمن عصاني.

وإن هو وجدك قد فرغت من أعمالك، وقضيت جميع أشغالك. أتى بك مكرما مرفعا مرفها إلى دار رضواني وكرامتي، وما أعددته من الكرامة لمن امتثل وعمل بطاعتي، واحذر أن يخدعك فلان، أوفلانة عن امتثال أمري، والاشتغال بطاعتي، وكتب إلى رجل آخر بمثل ذلك؛ فأما الرجل الأول؛ فكان مخدوعا من قبل النفس والشيطان؛ فقال هذا كتاب الملك، فأمرني فيه بكذا وكذا، وذكر لي أن رسوله يأتيني؛ ليحملني إليه،، ولم يبين لي الوقت الذي يبعثه إلى فيه ولعل رسوله لا يأتيني إلا بعد خمسين سنة أو أكثر؛ فأنا على مهل، وسأنظر فيما أمرني، ولم يقع كتاب الملك منه بذلك الموقع؛

فاغتر بسوف، وقال والله لقد أتى كتابه إلى خلق كثير بمثل ما أتاني ولم يأتهم رسوله إلا بعد سنين كثيرة وأنا واحد منهم، ولعل رسوله يتأخر عني كما تأخر عنهم.

ثم أقبل على أشغال نفسه بما لا يحتاج إليه، وترك أوامر الملك، وأعرض

عنها، وكلما خلت سنة قال: أنا مشغول في هذه السنة، وسأنظر في السنة المقبلة، والمسافة أمامي طويلة. ثم جعل كلما دخلت سنة سوف وقال: سأنظر؛ فبينما هو على ذلك من تسويفه، واغتراره بطول أمله. إذ فاجأه رسول الملك في صورة المغضب؛ فكسر بابه، وهتك حجابه، وحصل معه في جوف بيته، وقال له أجب الملك؛ فقال له الرجل: والله لقد جاءني كتاب الملك، فسوفت ولم أفعل ما أمرني به؛ فقال له الرسول: ويلك؛ وما الذي أبطأ بك عن امتثال ما أمرك به الملك؟ قال لم أكن أرى أنك تأتيني في هذا الوقت؛ فقال له: ويلك ومن أين لك هذا الظن؟ قال ظننت ذلك ظنا، وطمعت، وسولت لي نفسي، ومنتني، وخدعني الشيطان والنفس؛ فانخدعت؛ فقال له: ويلك ألم يحذرك الملك في كتابه منها، وأمرك أن لا تسمع لهما قولا؟ قال: بلى والله؛ لقد جاءني هذا في كتابه، ولكن خدعت وفتنت؛ فافتتنت؛ فقال له: ويلك. غرك الغرور. أجب الملك لا أم لك. قد حل بك الهوان، وأحاطت بك الأعوان، وسترى من العذاب ألوانا بعد ألوان بطاعتك للنفس والشيطان؛ فقال له: أنشدك بحق الملك إلا ما تركتني حتى أفعل ما أمرني به الملك فقال: هيهات. ليس إلى ذلك من سبيل. ثم دفعه دفعة ألقاه على وجهه. ثم جمع يديه مغلولتين إلى عنقه، وانطلق به يجره على وجهه، وأحاطت به الزبانية من كل جهاته. قد اشتد غضبهم لغضب الملك، فلا يمرون به على محفل إلا وأخبروهم بعصيانه، وموجبات هوانه؛ فلا تسأل عن سوء حاله، وشدة ما يلقاه من أنكاله، ووبال سوء عصيانه. يقصر اللسان عن وصف ما يلقاه من العذاب بسبب المخالفة والعصيان.

وأما الآخر الموفق الذي كتب إليه الملك بمثل ما كتب به إلى هذا البائس. لما جاءه كتاب الملك أخذه بكلتا يديه، وقبله وفرح به، وجعل يقرؤه ويتصفحه، ويتدبره ويعظمه، ويقول: أرى الملك قد كتب إلي أن إعمل كذا وكذا؛ ومن أين سبقت لي هذه السابقة عند الملك، ومن الذي عنا بي عنده، ومن الذي أنزلني عنده هذه المنزلة. حتى جعلني من خدامه، والقائمين بأمره، والناظرين في أعماله، والله إن هذه لسعادة ونعمة لا أقدر على التمام بشكرها، والله إن هذه لعناية. الحمد لله رب العالمين. ثم نظر في الكتاب فقال: وإن الملك يقول لي في كتابه؛ وانتظر رسولي فإني سأبعثه لك؛ ليأتيني بك، وأراه لم يجد لي وقت إتيانه إلي، ولعل لا

أفرغ من كتابه. إلا ورسوله قد أتاني، ونزل علي. والله لا قدمت شغلا على شغل الملك، ولا أنظر في شيء إلا بعد فراغي مما أمرني به الملك، وأعد زادا، ومركوبا أركب عليه إذا جائني رسوله؛ ليحملني إليه. ثم لما فرغ من قراءة الكتاب سارع إلى أشغال الملك، وامتثل ما في كتابه بفرح وسرور، واشتياق إلى زيارة الملك. إذ قدم عليه رسوله؛ فلما أخذ في أشغال الملك. جاءه فلان، وفلانة؛ وقالا له: هون عليك الأمر؛ ولم هذه المسارعة كلها؟ وفيم هذه المبادرة؟؛ فقال له: ويلك. اذهب عني ألا ترى كتاب الملك بما جاءني به؛ فقال: نعم رأيته، ولكنه لم يعين لك وقت مجيء الرسول. جاء كتابه إلى فلان بهذا الذي جاءك، وقد بقي منتظرا الرسول أكثر من سبعين سنة، وفلان، وفلان، وأنت واحد منهم؛ فلم هذه العجلة؟ فقال له: ويلك أتدلني على الغرور. أما ترى أنت فلانا قد جاءه كتاب الملك بهذا الذي جاءني، وجاءه الرسول بأثر مجيء الكتاب، وفلان كذلك، وفلان كذلك، وكذلك ممن لا يحصى كثرة؛ فدعني من غرورك وشرك. ثم أقبل على ما أمره به الملك وامتثل بقدر وسعه وطاقته، وأعد ما ينبغي من الزاد لسفره، وجعل ينتظر الرسول أن يأتيه، ويفرح بالسفر إلى حضرة الملك لما يؤمله من فضل الملك وإحسانه. حسبما وعد به في كتابه؛ فبينما هو كذلك مشغول بخدمة الملك؛ وإذا هو برسول الملك قد أتاه بخلع الملك، وبأنواع التحف، والهدايا والبشرى برضى الملك عنه؛ فسلم عليه، وبشره بإقبال الملك عليه، وأن له عنده المنزلة الرفيعة، وأنه محبوب عند أهل حضرته، وأنهم منتظرون لقدومه، وقال له: أجب على بركة الله سبحانه الملك، وارتحل إليه مكرما معظما. قال نعم. قال: الساعة. قال: الساعة. قال بسم الله؛ فخلع عليه خلعة الأولياء، وكساه كسوة الأصفياء، وأعطاه مركوبا يليق به، ويحمل لمثله، وانطلق به في حبور ومنتقل إلى جنة مشتملة على ما لا تكيفه العقول من أنواع الخيرات، والحور والقصور.

فانظر رحمك الله ما يفعل طول الأمل بصاحبه وما فعل قصر الأمل بصاحبه.

وذكر أبو الفرج الجوزي[1] في كتابه روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق أنه: "ما من يوم تطلع شمسه إلا وملك ينادي ياأبناء الأربعين. هذا وقت

(1) أبو الفرج الجوزي هوالإمام الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي. أشهر من أن يعرف.

الزاد. أذهانكم حاضرة، وأعضاؤكم قوية شداد. ياأبناء الخمسين. قد دنا الأخذ والحصاد. ياأبناء الستين سيتم العقاب، وغفلتم عن رد الجواب، فما لكم من نصير. ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾".

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين".

وقد أكثر الناس من التحذير من طول الأمل؛ لأن به يقع التسويف في العمل فرحم الله امرءا قصر في أمله قبل حلول أجله.

والدواء النافع لعلة طول الأمل ذكر الموت؛ كما أن عدم ذكره ينشأ عنه طول الأمل، والتسويف في العمل.

ومن حكمنا الصغرى: "استبعاد حضور الأجل يكسل عن النهوض إلى الأعمال".

قال رحمه الله تعالى:

فمن مشى في غبرة الآمال ... عثاره في شرك الآجال

غبرة الآمال عبارة عما يعلوا القلب من ظلم الأوهام؛ فالقلب الغافل تعتيريه أوهام؛ فيغلب عليه ظلمتها، فيرى ما هو أقرب إليه من شراك نعله. بعيدا، وهو الموت، ويطول أمله؛ فيكون مدة كونه حيا غافلا عن الموت. أمله طويل، وأجله عنده بعيد؛ فهو كسائر في غبرة الآمال، وهذا لا بد من عثاره في شرك الآجال؛ كأن الموت نصب له شركا فبينما هو سائر في ظلمة وهمه المعبر عنها بغبرة الآمال. إلا وقد وقع في شراك الموت، وأنشد بعضهم محذرا من الوقوع في شرك الموت؛ فقال:

ألا أيها المغرور ما لك تلعب ... تأملت آمالا وموتك يقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد ... سفينته الدنيا وإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعا ... عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم ... وأمهم الثكلى تنوح وتندب
وأقبل بالأكفان نحوه قاصدا ... وحث عليك التراب والعين تسكب

قال سحيم مولى أبي تميم: "جلست إلى عامر بن عبد الله [1] وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي؛ فقال: أرحني من حاجتك فأنا أبادر فقلت ما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله تعالى؛ فقمت عنه".

واعلم أن طويل الأمل ركب الغرور، ومشى في غبرة تثور، وقصير الأمل ركب فرسا من الخيل العتاق، وسار مع حلبة السباق؛ فإذا انكشف الغبار. يعلم من الراكب على فرس، ومن على حمار؛ كما نبه الشيخ على ذلك حيث قال:

وستری إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار؟

قوله رحمه الله تعالى: "وسترى إذا انجلى الغبار... إلخ"، وهو خطاب لمن تعتريه أوهام طول الأمل؛ فطال أمله، وقل عمله؛ فرسم في ديوان أهل البطالة، فتخلف عن الرفاق، ولم يحسب من السباق، وانجلاء الغبار هنا عبارة عن زوال الأوهام التي تعتري العبد في هذه الديار التي يمكن فيها طروء الوهم على العباد، وغلبته عليهم.

وزوال الأوهام إنما يكون في الدار الآخرة. حيث يعاين العباد الحق، ويشرفون على حقائق الأمور؛ فلا وهم، ولا خيال؛ وإنما حقائق الأمور؛ فتظهر للعباد أتم ظهور.

وقوله: **"أفرس تحتك أم حمار"**. يريد فتعلم إذا زالت لك الأوهام، وانكشفت لك حقائق الأمور. أن تكون من السباق، أو ممن خلفه الرفاق؛ فراكب الفرس كناية عن السابق في الأعمال الذي لم يطل أمله، واستحضر حلول أجله؛ فجد في العمل، ولم يغتر بطول الأمل، وراكب الحمار كناية عمن تكاسل في العمل بما اغتر به من طول الأمل.

ثم قال عفا الله تعالى عنه:

وقال بعض سلف الأنام ... قولا صحيحا واضح الأحكام

أحب ربي إنه لا يومن ... بكل حال فاحذره تامنوا

وآمن المكر كذاك خاسر ... وخائف المكر لبيب ظافر

---

(1) هو أبو عبد الله عامر بن عبد الله البصري. كان أعبد أهل زمانه. رآه كعب الأحبار فقال: "هذا راهب هذه الأمة".

سلف الأنام: من تقدم منهم، وتقدم الكلام ما المراد بالأنام؛ فقيل الإنس والجن، وقيل ما على الأرض من الخلق، وقيل الخلق مطلقا، والقول الصحيح هو السالم مما يقدح في صحبته.

والواضح: هو الذي لا خفاء فيه؛ ولما كان واضحا في نفسه فما يترتب عليه من الأحكام واضحة أيضا.

قوله في البيت الثاني: "أحب ربي إنه لا يومن... إلخ". هو القول الواضح الأحكام المسند إلى بعض السلف، والمعنى أن الله سبحانه طلب من العباد أن لا يامنوا مكره.

ومعنى: "بكل حال". يريد في حالة الرجاء، وفي حالة الخوف، وفي حالة الطاعة، وفي حالة المخالفة؛ فلا يحسن بالعاقل أن يأمن مكر الله. إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون؛ كما نبه الشيخ على ذلك بقوله: "**وآمن المكر كذاك خاسر**"، وقوله: "**فاحذروه تامنوا**".

لأن من كان حاله الحذر من عقاب الله تعالى الغالب سلامته، وأنه يامن مما كان منه حذرا. إذ الحذر يمنعه من مخالفة ربه؛ وقد قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾، والحذر هو الذي يخاف مكر الله؛ فهو لبيب حاضر؛ أي غير غافل عن أسباب العقاب، وموجبات العذاب.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت".

وقوله رحمه الله تعالى: "أحب ربي". هكذا في النسخة التي شرحنا كلامه منها، ولو قال أخاف ربي لكان أوجه وأولى فتأمل ذلك؛ لأن الخوف مانع من الأمن.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها اغترارها بالمدح بغير حق وهو عين الذبح

هذا عيب من عيوب النفس ذكره في هذا البيت، وهو اغترارها بالمدح بغير حق؛ فالمدح من حيث هو مدح مذموم، وإن كان بحق؛ لما فيه من الآفات والعلل التي تسري منها للمادح والممدوح. وتقدم الكلام في ذلك وبيان العلل عند قول

الشيخ رحمه الله تعالى:

"من عيبها تجاوز الحدود لزائد المدح... إلخ البيت"؛

وهذا إذا كان المدح بحق، وأعظم من ذلك إذا كان بغير حق.

وقوله: "وهو عين الذبح". أشار إلى قول سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: "المدح الذبح"؛ وفي قول عمر هذا إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام لمن مدح رجلا عنده: "قطعت عنق أخيك"، وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى أميضا"، ونزل المدح بهذه المنزلة إذ في كل منهما الهلاك؛ ففي الذبح هلاك الجسوم الظاهرة، وإتلافها، وفي المدح هلاك الرسوم الباطنة وإتلافها؛ وما يؤدي إلى هلاك الباطن؛ وإتلافه وفساده أعظم ضررا مما فيه هلاك الظاهر وإتلافه وفساده، وما كان أعظم فسادا؛ فليحذره العاقل أكثر من غيره.

ثم نبه الشيخ رحمه الله تعالى على موجب العيب المذكور؛ فقال:

وذاك من سخف ومن حماقه يزري بمن قبله وذاقه

الإشارة بذاك إلى العيب المتقدم ذكره؛ وهو الاغترار بالمدح من غير حق؛ فقال: موجب ذلك السخف والحماقة والسخف.

والسخافة: دناءة العقل، **والحمق**: معلوم. يقال حمق الرجل وانحمق واستحمق.

فمن مدح بغير حق، واغتر بذلك؛ فهو سخيف العقل أحمق زرا به سخفه وحمقه حتى قبل المديح بغير حق، وذاق طعمه، وتلذذ به.

ثم ذكر رحمه الله تعالى الدواء الذي ينفي العيب المذكور؛ فقال:

دواؤه العلم بأن مدحهم ليس يفيد وكذاك ذمهم

مدح الخلق لا يوجب كمال الممدوح، ولا فائدة فيه، وكذلك ذمهم؛ فإذا علم العبد هذا لا يغتر بمدحهم، ولا يكترث بذمهم؛ وإنما يرجع في ذلك إلى علم الله تعالى فيه؛ فالممدوح من حسنت أحواله مع الله تعالى، وكان مستقيما مع مولاه، وكان الشرع شاهدا بكماله، والمذموم من كانت أحواله على العكس من هذا، والعبد أعلم بنفسه من غيره. إذ لا يعلم غير العبد ما لا يعلمه هو من نفسه؛

فمن ترك يقين ما عنده لظن الناس فيه، فهو جاهل؛ كما نبه الشيخ على ذلك بأن قال رحمه الله تعالى:

وأجهل الناس الذي يترك ما علمه لأجل ما وهما

أشار الشيخ في هذا البيت إلى قول ابن عطاء الله في حكمه: "أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس"، وقال أيضا رحمه الله تعالى: "الناس يمدحونك بما يظنون فيك؛ فكن أنت ذاما لنفسك بما تعلم منها".

وتقدم لنا كلام في هذا المعنى عند قول الشيخ: "من عيبها قبول مدح الناس " فانظره هنالك.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وليستح العبد من مولاه مهما مدح بغير ما أتاه

وليتوجه بالثناء الأكمل على الذي ستره في الزلل

العبد مأمور بالحياء من الله عز وجل. إذا مدح بغير ما آتاه من أوصاف الكمال التي توجب له المدح. لكن إذا مدح؛ فليعلم أن ذلك من منة الله تعالى عليه. حيث ستر القبيح، وأظهر الجميل؛ فيجب عليه حينئذ التوجه إلى الله عز وجل بالثناء الأكمل. حيث ستر زلله التي توجب مذمته؛ فالعبد دائر بين أمرين واجبين:

* الحياء من المولى. حيث مدح، وليس هو للمدح أهلا.

* وثناء على الله. حيث ستر قبيح أفعاله، وأظهر للخلق كمال أحواله.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ومن يكن يغتر بالأمداح فما له في الدين من فلاح

في هذا البيت تحذير من الاغترار بالأمداح، وإعلام بأن المغتر بذلك لم يفلح في دينه بسبب ما ينشأ من اغتراره بالمدح من العلل والآفات التي ينشأ عنها فساد دينه، وقد تقدم قبل هذا بيان العلل والآفات التي تقدح في حال الممدوح والمادح، وسواء كان المدح بحق أو بغير حق؛ فكلا الأمرين

ذميم، والثاني أعظم في الذم وأقوى في جلب العلل والآفات؛ فاعلم ذلك.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الحرص وثم الحسد كلاهما من ربنا مبعد

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس.

الأول: الحرص. وهو قوة الطلب لتحصيل أمر؛ فإن كان خيرا كان من القلب، وإن كان شرا كان من النفس، والحرص يكون في الخير، ومنه: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾، ويكون في الشر ومنه: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾، والمراد في هذا البيت الحرص على تحصيل متاع الدنيا وجمع حطامها، وهذا من القسم الثاني؛ فإذا وجد الإنسان من نفسه وجود الحرص على الدنيا، وقوة الطلب لها؛ فليعلم أن ذلك عيب من عيوب النفس قائم به قادح في كماله، ومانع له من صلاح حاله.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "أخوف ما أخاف على أمتي الحرص وطول الأمل)؛ أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وسببه طول الأمل وحب الدنيا، وقد تقدم ما ينشأ عن طول الأمل، وحب الدنيا من فساد الحال، وسوء المآل والحرص لا يسلم من آفات تقدح في دينه ومروءته، وتحطه عن درجة الكمال منها الرغبة في تحصيل الدنيا، ولو من وجه غير جائز شرعا؛ فلا يبالي في تحصيل ذلك من حلال أو من حرام، ومنها التملق لأهل الدنيا والذلة لهم، والاضطرار إلى مخالطتهم، ومخالطة الأضداد واستعمال غير المعتاد، واستغراق أوقاته النفيسة في تحصيل أمور خسيسة إلى غير ذلك من العلل القادحة في كماله، والمفاسد التي تقدح في دينه.

الثاني: الحسد؛ وهو عيب عظيم من عيوب النفس، وحقيقة الحسد. قال القرافي وغيره: "هو تمني زوال النعمة على الغير"، وقال الغزالي: "هو إرادة زوال نعم الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيه صلاح؛ فإن لم ترد زوالها له، ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة".

وعلى هذا يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين... الخبر " أي لا غبطة إلا في ذلك فعبر عن الغبطة بالحسد إتساعا لمقاربتهما؛ فإن لم يكن فيها صلاح وأردت زوالها عنه؛ فذلك غيرة. قال: "ويكفي في معرفة كونها صلاحا غلبة الظن؛ فإن وقع الشك فالتحريم احتياطا"، وقال بعضهم: "الحسد السرور بمصيبة نالت مسلما، والحزن على نعمة نالته".

قال القرافي: "ثم الحسد حسدان: تمني زوال النعمة، وتحويلها للحاسد، وتمني زوالها من غير طلب حصولها للحاسد؛ وهذا أشر الحاسدين؛ لأنه طلب المفسدة الصرفة من غير معارض عادي طبيعي".

وحكم الحسد في الشريعة التحريم، وحكم الغبطة الإباحة، لعدم تعلقه بمفسدة البتة، ودليل تحريم الحسد الكتاب، والسنة، والإجماع.

فالكتاب قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي لا تتمنوا زواله؛ لأن قرينة النهي تدل على هذا الحذف.

وأما السنة، فقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا".

وأجمعت الأمة على تحريمه.

ويقال إن الحسد أول معصية عصي الله تعالى بها. حسد إبليس آدم؛ فلم يسجد له.

وقد قيل في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾. أن ما بطن هو الحسد. وفي بعض الكتب: "الحاسد عدو نعمتي".

وقيل: أثر الحسد يتبين فيك. قبل أن يتبين في عدوك"؛ ولهذا قيل: "كفى بالحسد ما أعد له. بدأ بصاحبه فقتله".

وفي بعض الآثار: "إن في السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس؛ فيقول قف: أنا موكل بالحسد أضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد".

وقال معاوية: "كل إنسان أقدر أن أراضيه إلا الحاسد؛ فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة".

وقال عمر بن عبد العزيز: "ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد. في غم دائم، ونفس متتابع " وقيل: "من علامة الحاسد أن يتملق إذا شهد، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت". وقيل: "إن الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له. بخيل بما لا يملكه".

وقيل رأى موسى عليه الصلاة والسلام رجلا عند العرش؛ فغبطه، فقال: ما

صفته؟ قال: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله".

وقوله: "كلاهما من ربنا مبعد". كلاهما: يريد الحرص والحسد؛ فإنهما يبعدان من اتصف بهما من الله أي من رضاه.

ولما ذكر رحمه الله تعالى الحرص والحسد؛ وأعلم أنهما عيبان من عيوب النفس. أخذ يذكر أصلهما الذي يتولدان عنه فقال:

أصلهما ضعف قوى الإيمان والبعد عن مناهج الإحسان

ضعف الإيمان والبعد عن مناهج الإحسان تنشأ عنهما مفاسد في الدين، ووهن في اليقين منها:

الحرص: ولو قوي إيمان العبد بالرزق المقسوم أنه لا يفوته، وما لم يقسمه له لم يدركه أبدا. لم يحرص على تحصيل ما قسم له، ولا يسعى في تحصيل ما لم يقسم له، ويستعمل الأسباب على الوجه الذي أمر به شرعا. معتقدا أن الأسباب عندها لا بها.

ومنها الحسد؛ فإنه أيضا ينشأ عن ضعف الإيمان، والبعد عن مناهج الإحسان. إذ قوة الإيمان، والثبات على مناهج الإحسان يحققان للعبد ثبات ما له من الرزق قسم؛ فيرتفع الحرص وعدم إفادة الحسد في زوال ما به المولى أنعم؛ فيرتفع الحسد.

ثم أخذ الشيخ يذكر الدواء المزيل للعيبين المذكورين؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه العلم بأن الحرصا مؤثر في منتهاه نقصا

إذا علم العبد أن منتهى الحرص النقص. أقلع عنه، فينتفي الحرص؛ فبذلك كان العلم بوجود النقص إذا وجد الحرص. دواء له، وكل ما نفى العلة كان دواء لها؛ والمراد بالنقص هنا. عدم الشيء الذي يحرص عليه.

وقد قيل: "الحريص ملوم، ومن الرزق محروم، وبين الناس مذموم".

واعلم أن الحرص عناء لا يفيد غناء.

ومن حكمنا الصغرى: "العناء لا يضمن الغنى".

وإذا علمت الداء، وعلمت الدواء؛ فقد قال الحكماء: "إن الدواء لا يفيد في

زوال الداء. إلا مع قطع مواده، والتحفظ من أصوله وأسبابه".

وقد تقدم أصل العيبين المذكورين الذي ينشأ عنه العيب المذكور، وهو ضعف قوى الإيمان، والبعد عن مناهج الإحسان؛ فليبادر العبد إلى ما يقوي إيمانه، ويحققه في مناهج الإحسان؛ وكذلك يحسم الأسباب التي ينشأ عنها الحرص؛ فإذا انحسمت الأصول، والأسباب. كان له في ذلك عونا على إفادة الدواء، وانتفاء الداء؛ وعلى هذا الوجه يكون معاناة الحكماء للأمراض المتمكنة، والعلل المزمنة؛ وبالله سبحانه التوفيق.

ثم قال رحمه الله تعالى:

مع أنه لا يجلب الأرزاقا وليس يرضي فعله الخلاقا

الضمير في أنه عائد على الحرص. يريد أن الحرص لا يجلب الأرزاق؛ فإنه لا يقرب بعيدا، ولا يبعد قريبا، وإنما هو عناء لا يفيد غناء؛ كما تقدم، والخلاق سبحانه لا يرضى من العبد الحرص؛ لما فيه من استشعار الحريص أن جلب الرزق بحوله وقوته؛ وليس الأمر كذلك، وإنما الرزق مقسوم ومكتوب، وكذلك الأجل؛ كما أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى ذلك؛ فقال:

وجاء في الحديث كتب رزقنا وأجل وعمل في خلقنا

كذا الشقاوة مع السعاده فما يفيد النقص والزياده

أشار رحمه الله تعالى في هذين البيتين إلى ما جاء في الحديث الصحيح عن سليمان الأعمش قال: "سمعت زيد بن وهب عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما. ثم علقة مثل ذلك. ثم يبعث الله إليه ملكا؛ فيؤمر بأربع: برزقه، وأجله، وشقي، أو سعيد... الحديث بطوله".

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وكل الله جل ثناؤه بالرحم ملك؛ فيقول يارب نطفة. أي رب علقة. أي رب مضغة؛ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال يارب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟؛ فيكتب ذلك في بطن أمه".

وفي بعض الروايات: "ما الرزق، وما الأجل، وما العمل؟".

وإذا كان الرزق مقسما، والأجل محتوما، والعمل مرسوما؛ فليس الحرص بنافع، ولا لحلول الأجل دافع، وليس للعمل تأثير في تواصل، أو تقاطع؛ بل الأمور تتوقف على السابقة الأزلية، والمشيئة الربانية.

ثم أخذ رحمه الله تعالى يذكر دواء الحسد؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

ثم دواء الحسد المشؤوم بكثرة الدعاء للمظلوم

والعلم أنه عدو النعمه إذ قصده به حلول النقمه

وصف رحمه الله تعالى الحسد بالشؤم؛ لما فيه من سيء الحال، والمآل.

* أما في الحال؛ لما قدمنا من أن أثر الحسد يظهر في الحاسد قبل المحسود، ولما يترتب على صاحب الحسد من اللوم والذم. إلى غير ذلك من الأشياء الموجبة بكونه مشوما.

* وأما في المآل؛ فلما يلزم عليه من عقوبة الله تعالى لكونه أول معصية عصي الله تعالى بها، ولأنه سبب رد الأعمال، وعدم قبولها؛ كما تقدم أن في السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس؛ فيقول: قف أنا ملك موكل على الحسد أضرب به وجه صاحبه؛ فإنه حاسد. ولا شؤم أعظم من هذا، وذكر رحمه الله تعالى للحسد دوائين.

الأول: كثرة الدعاء للمظلوم. المراد بالمظلوم المحسود؛ وكونه مظلوما؛ لجور الحاسد عليه بتمنيه زوال ما أنعم الله تعالى به عليه، وكفارة هذا الذنب كثرة الدعاء لذي النعمة، ولا شك أن وجود الدعاء من العبد لذي النعمة يرفع عن الداعي علة الحسد، ويدفع عنه عيبه.

الثاني: علم الحاسد أنه عدو النعمة؛ بكونه يريد زوالها عن من أراد الله تعالى أن ينعم عليه، ولا تقتصر عداوة هذا على النعمة فقط؛ بل هو عدو النعمة، وعدو المنعم، وعدو المنعم عليه؛ وإذا علم العبد أنه بهذه المنزلة من العداوة. أقلع عنها بتركه موجبها.

وقوله: "**إذ قصده به حلول النقمة**". هذا تعليل لقصد الحاسد بحسده. إذ الضمير في " به " عائد على الحسد، وتقدم لنا أن الحسد على رأي بعضهم السرور بمصيبة نالت مسلما، والحزن على نعمة نالته؛ فقصد الحاسد على هذا حلول

النقمة، وزوال النعمة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وكـــونه يـــريد أن يحكـــم علـــى قـــسمة مـــولاه الـــدائم ذي العُـــلَا

هذا معطوف على قوله: "إذ قصده"؛ كأنه قال قصد الحاسد بحسده حلول النقمة، والحكم على قسمة المولى جل وعلا، ويحتمل أن يكون قوله: "وكونه... إلخ " معطوف على قوله: "والعلم أنه عدو النعمة"؛ كأنه يقول: دواء الحسد كثرة الدعاء والعلم بأنه عدو النعمة، والعلم بأنه يريد أن يحكم على قسمة مولاه؛ فيكون هذا دواء ثالثا.

ومريد الحكم على قسمة المولى جل جلاله أرزاقه لعباده جور في الحكم، وتعاظم في الظلم؛ فيتوجه إليه العتاب من رب الأرباب: "عبدي أنت ظالم بحسدك لمن أظهرت عليه نعمتي، ولم ترض بقسمتي؛ فلأمنعنك في الدنيا بلوغ قصدك، ولأردن في الآخرة عملك".

وكفى بهذا زجرا عن الحسد، ودواء لما في القلب منه وجد. سيما مع أنه مؤثر في الحاسد دور المحسود، وأنه وصف من أوصاف اليهود؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى عليه؛ فقال:

وأنهـــا مـــن صـــفة الـــيهود مـــع ارتفـــاع رتـــبة المحـــسود
هـــذا مـــع ابـــتلائه بالكمـــد وغيـــره مـــن تابعـــات الحـــسد

قوله: "وإنها " يريد هفوة الحسد. قال إنها من صفة اليهود؛ لأن الحسد من أخلاقهم، وغالب أحوالهم؛ فلا تجد يهوديا. إلا وقد أبتلي به. يظهر ذلك من أحوالهم مع نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فإن نبوءته عندهم ثابتة، ورسالته محققة لا يشكون فيها. تحققوا ذلك من التوراة؛ ومما جاءهم به، وأظهره لهم من المعجزات. لكن حملهم على إنكار نبوءته عليه الصلاة والسلام الحسد.

قـــال الله تعالـــى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾؛ فجحودهم على وجه الحسد، ولاتصافهم بالحسد أدلة كثيرة.

وقوله في البيت الثاني: "هذا". إشارة إلى ما قدمه من العلل الناشئة عن الحسد، والآفات الدينية، والدنيوية التي تصيب الحاسد؛ فكأنه يقول رحمه الله

تعالى: زد إلى ما ذكرناه في الحسد من العلل والآفات. ابتلاء الحاسد بالكمد الذي يصيبه من الحسد؛ بكونه لا يبلغ قصده، وأن أثره يظهر فيه قبل المحسود فلا يصل للحاسد من حسده إلا الغم الدائم، والهم اللازم، والذنب الكبير؛ كما نبه الشيخ على ذلك حيث قال رحمه الله تعالى:

فلا وصول منه للمحسود إلا اجتماع الغم والذنوب

الضمير منه عائد على على ما قصده الحاسد من زوال النعمة على المحسود، ونزول النقمة به، وغير ذلك مما تضمنه مقصد الحاسد.

قال رحمه الله تعالى: فلا يصل شيء من ذلك للمحسود. إلا اجتماع الغم والذنوب؛ أي للحاسد، وإنما لم يصرح به لأن السياق معرف. إذ لا يصح حصول الغم، والذنوب للمحسود؛ لأنه مظلوم؛ بل الغم والذنب يصلان للحاسد.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الإصرار والمجاهره مع رجاء رحمة ومغفره

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس.

الأول: الإصرار. يريد على الذنب، والإصرار على الذنب الإقامة عليه، ونية العود إليه، وعدم الرجوع عنه، والتوبة منه؛ فإذا كان العبد مصرا على الذنب؛ فليعلم أن ذلك عيب من عيوب نفسه القاطعة له عن مرضات ربه.

روي: "لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار".

وروي: "ما أصر من استغفر".

فإذا كان ما أصر من استغفر؛ فكذلك ما استغفر من أصر، وقد مدح الله تعالى قوما استغفروا من الذنب، ولم يصروا عليه؛ فقال تعال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

ثم وعدهم الله بالمغفرة، والجنة؛ فقال عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ...﴾ الآية؛ وإذا كان هذا جزاء من استغفر، ولم يصر؛ فجزاء من أصر؛ ولم يستغفر الحرمان مما وعد به من استغفر، ولم يصر.

الثاني: المجاهرة بالذنب؛ فإن المجاهر به بارز لله بالمحاربة، وجاهر بالعداوة؛ والحامل على ذلك عدم الخوف من عقاب الله؛ وعدم الحياء منه تعالى.

وإذا كان العبد مأمورا بالحياء من الناس؛ فأحرى من الله تعالى.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر".

وأعظم من الذنب رجاء المغفرة والرحمة مع الإصرار على الذنب، والمجاهرة به؛ وهذا الرجاء غير نافع، وليس بحقيقي؛ وإنما الرجاء ما قارنه عمل؛ كما قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في حكمه: "الرجاء ما قارنه عمل؛ وإلا فهو أمنية".

فالرجاء الحقيقي الذي يبعث صاحبه على الاجتهاد في الأعمال الصالحة، والكاذب الذي يفتر صاحبه على العمل، ويجريه على المعاصي والذنوب، وهذا ليس برجاء عند العلماء؛ ولكنه أمنية واغترار؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

وذا غرور ظاهر وجهل ... ليس له في الصالحات أصل

الإشارة بذا إلى رجاء الرحمة والمغفرة. مع الإصرار على الذنب؛ والمجاهرة بهذا غرور ظاهر لا خفاء فيه، وجهل بالله تعالى وبعظيم صفاته وأفعاله.

قال معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه: "طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق".

وقالوا: "من قال إن الرجاء مع الإصرار صحيح؛ فكذلك فليزعم أن لا ريح في الفقر، وقدح النار في البحر صحيح".

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: "إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة. يقول أحدهم: أحسن الظن بربي. كذب؛ لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل" وتلى قوله عز وجل: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وكان يقول رضي الله تعالى عنه: "عباد الله: اتقوا هذه الأماني؛ فإنها أودية

النوكى يحلون فيها، والله ما أتى الله عبدا بأمانيه خير في الدنيا، ولا في الآخرة "

وكتب ابن عمير المنصوري إلى بعض إخوانه: "أما بعد؛ فقد أصبحت تؤمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك؛ وإنما تضرب في حديد بارد، ومن كان حاله هكذا؛ فقد ذمه مولانا جل وعز، كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

قد ذم ربي من طريقه اقتفى وكان خلفا فاسدا ما خلفا

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ...﴾ الآية، والخلف الردي من الناس، ويدخل فيهم من أصر على الذنب، وجاهر به، ورجا مغفرة الله تعالى ورحمته.

وهؤلاء هم الذين أراد الشيخ بقوله: "**من طريقه اقتفى**". يريد اقتفى طريق المعاصي، وعمل عملا فاسدا ورجى مغفرة الله تعالى ورحمته.

ثم شرع الشيخ الآن يذكر دواء العيبين المذكورين؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه العلم بأن الغفران والعفو والرحمة لأهل الإحسان

إذا علم العبد بأن الغفران والرحمة والعفو لأهل الإحسان. رغب في دخوله في زمرة أهل الإحسان؛ ليناله من العفو والرحمة والغفران ما نالهم، وأقلع عن اكتساب المعاصي، فلم يعص ربه سرا ولا جهرا، وما كان سببا في الإقلاع من الذنب؛ فهو دواء له.

والمراد في البيت بأهل الإحسان الذين أحسنوا العمل وأقلعوا عن المعاصي والزلل.

ويستفيد العبد العلم بأن مغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته لمن أحسن عمله من قوله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ...﴾ الآية بكمالها، ومن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ...﴾ الآية.

وإلى هاتين الآيتين أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله:

في آل عمران ولم يصروا شرط لدى المستغفرين ذكروا

وسورة الأعراف فيها الرحمه سابقة الإحسان خذها حكمه

قوله: "ولم يصروا شرط لدى المستغفرين". هذا مفهوم الآية لأنه تعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ...﴾ الآية. ثم قال: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾؛ فشرط مع الاستغفار عدم الإصرار على الذنب المستغفر منه، وقد تقدم أن في مقابلة " ما أصر من استغفر " فكذلك " ما استغفرمن أصر".

وقوله: "وسورة الأعراف فيها الرحمة سابقة الإحسان". يشير رحمه الله تعالى إلى تقدم الرحمة في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ على قوله: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ الآية.

وقد تقدم أن المراد بالإحسان: حسن العمل، والتقوى من الأعمال الحسنة.

وقوله: "خذها حكمة": أي خذ الفائدة التي افدتكها في الآيتين من أن عدم الإصرار شرط عند المستغفرين في إفادة الاستغفار الفائدة المطلوبة، وكون الرحمة سابقة الإحسان. خذ ذلك حكمة، والحكمة: وضع الشيء في محله؛ ومن فهم الآيتين على مقتضاهما، فقد وضع الشيء في محله.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه.

قال أبو حفص وبالإصرار تهاون العبد بقدر البار

فعل المعاصي والإصرار عليها سبب ذلك التهاون بقدر عظمة الباري جل جلاله، وعدم الحياء منه، وفقدان الخوف من عقابه؛ ولو كان العبد معظما لباريه خائفا من عقابه راعيا لثوابه. امتلأ قلبه حياء وهيبة من الله تعالى لم يعصه.

وفي بعض مخاطبات لنا: "ما عرفني من نساني وما عظمني من عصاني".

وأبو حفص المذكور. هو أبو حفص عمر بن سالم الحداد من قرية يقال لها كوداباذا. على باب مدينة نيسابور، وعلى طريق بخارى. أحد الأئمة العظام، والسادات الكرام. مات سنة نيف وستين ومائتين، وله كلام في طريق القوم وحكايات حكيت عنه. انظرها في رسالة القشري.

ثم قال رحمه الله تعالى:

مـــن عيــبها أن لا تجـيب طــوعا لطاعــــة ولا تلقـــي ســــمعا

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبين من عيوب النفس.

الأول: ألا تجيب داعي الله طوعا.

والثاني: ألا تلقي إلى المواعظ سمعا، وهو وصف النفس الآبية التي قال الله فـــيها: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾، والواجب على من كانت نفسه متصفة بهذا العيب أن يجاهدها حق المجاهدة، ويريضها أتم رياضة؛ حتى تجيب داعي الله طوعا، وتلقي إلى نداء الحق سمعا، وتتخذ الإجابة لداعي الله طبعا.

ولهذا العيب المذكور أصل ينشأ عنه، ويتفرع منه. ذكره الشيخ رحمه الله تعالى؛ بأن قال:

وذاك مـــن دعـــوى لـــديها كامـــنه حتـــى غـــدت ذات اغتـــرار آمـــنه

إذا كانت الدعاوى الباطلة في النفس كامنة، واغترت؛ فكانت بذلك من مكر الله آمنة. ينشأ عن ذلك عيوب في النفس. عن الله قاطعة، وأمراض من صحة الأعمال واستقامتها مانعة.

وللعيب الناشئ عن الدعاوى والاغترار. دواء ينفعه، ويضاد المرض ويبريه. ذكره الشيخ رحمه الله تعالى:

دواؤه بالجـــــوع والاســـــفار والجهــد فــي الليل وفــي النهار

حتــــى يـــصير إلفهـــا بكــــره وذاك للطـــوع حقـــيقا ينهـــي

ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من الأدوية للعيب السابق؛ لا شك أنه من ذلك المرض نافع؛ ولذلك العيب رافع.

أما الجوع؛ فلما فيه من كسر النفس، وإذلالها، وإخراجها عن مألوفاتها الطبيعية وشهواتها؛ والجوع سبب عظيم لتسخير النفوس وترييضها وتزكيتها، وقد تقدم لنا قبل هذا؛ لما في الجوع من الفوائد الجليلة التي يكون فيها صلاح الظاهر، وطهارة الباطن؛ فانظره فيما سبق.

وأما الأسفار؛ ففيه تعب النفس وجهدها؛ وقل أن يتهيأ لها فيه ما تطلبه من شهواتها، وفيه غربتها من أوطانها، ومفارقة عشيرتها وخلانها؛ وفي ذلك انحطاطها

وانكسارها؛ فلذلك كان دواء لها من العيوب والأمراض، ومخرجا لها عما تميل إليه من الشهوات والأغراض.

وقوله: "والجهد في الليل والنهار". يريد اتعابها في الأعمال الصالحة، فلا يزال يجهدها في ذلك حتى تألف إلى الأعمال بكره، وهذا في بداية أمرها. لكن في تمكينها يعود الكره طوعا؛ فتصير أعمالها على سبيل الطوع، وفي نهايتها تكره البطالة؛ كما كانت قبل تكره الأعمال، وتعود الوحشة أنسا، والبعد قربا، والتفريق جمعا؛ وهكذا يزاول الحكيم نفسه الأبية حتى تعود طاهرة زكية. تفر من البطالة، وتنشط إلى العمل؛ ولما ذكر رحمه الله تعالى الدواء الذي ينفي العيب المذكور جاء بكلام بعض أهل هذه الطريقة ما يشهد لصحة دعواه؛ فقال رحمه الله تعالى:

قد قال طيفور هو البسطام أشد ما لقيت في أيام
للنفس لما لم تجب للطاعه طوعا بترك الماء والمجاعه
حولا من الزمان باستيفاء فهذه أحوال ذوي الولاء

طيفور المذكور هنا هو ابن عيسى البسطامي وكنيته أبو زيد، وكان ثالث اخوته وكانوا زهادا عبادا، وأبو يزيد كان أجلهم حالا. قيل مات سنة احدى وستين ومائتين، وقيل أربع وثلاثين ومائتين؛ والمقالة التي أسند الشيخ إليه أنه قيل له: "ما أشد ما لقيت في الله؟؛ فقال: لا يمكن وصفه؛ فقيل له أهون ما لقيت نفسك منك؟؛ فقال: أما هذا؛ فنعم. دعوتها إلى شيء من الطاعات، فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة"، والحكايات عنه في هذا المعنى كثيرة اقتصرت على ما يحتاج إليه في هذا المحل؛ وهكذا يفعل بالنفوس الآبية التي لم تجب للطاعة طوعا؛ فهكذا أحوال المريدين والسالكين والأولياء والصالحين، وهكذا طريقهم في رياضة النفوس كما نبه الشيخ على ذلك؛ فقال رحمه الله تعالى:

وهكذا طريقهم فلتسلك وتقتني من التقى ولتترك
دعواك والإشراف للمراتب معتبرا ما لك من مصائب

الإشارة بقوله: "هكذا " إلى ما ذكر من حال أبي يزيد طيفور رضي الله عنه مع نفسه، فطريق القوم على ذلك المنهاج؛ لذا أمرك الشيخ بأن تسلك على سبيلهم، وتتبع طريقهم في مجاهداتهم لأنفسهم وترييضها، وتقتني من التقى ما يبلغك إلى

منازلهم، وترقى به إلى مقاماتهم، وتتحلى بأحوالهم، وأمرك أيضا بترك دعواك الذي هو أصل عيب نفسك، وسبب دائك، وأن تمنع نفسك من الاستشراف إلى المراتب العلية التي لا تستحقها، ولست من أهلها ناظرا إلى عظيم ذنبك، وسوء أدبك مع ربك، ومالك من المصائب التي تستوجب بها الإبعاد، ولا تبلغ بسببها المراد؛ وإنما تذكر العبد الموفق ذنوبه، واستحضر عيوبه، واستحيى من ربه أن يطلب منه مطالب الرجال، أو يطمع أن يرقيه. مع وجود ذنبه، وكثرة عيبه إلى مقامات أهل الكمال.

ثم قال رحمه الله تعالى؛ فقال:

من عيبها الجمع معا والمنع   وذاك ضر ما لديه نفع

الجمع لحطام الدنيا، والرغبة فيها، والمنع لها لمستحقها. عيبان من عيوب النفس القادحة في كمالها. الضارة لها في حالها، ومآلها؛ وهذا الجمع المراد به هنا أن يكون من وجه مباح؛ فهذا هو المذموم عند أهل الطريق؛ لأن ذلك قادح في حالهم، وموذن بعدم كمالهم، ومخالف لما هم بصدده من طلب الآخرة، ورفض الدنيا، وعدم الميل إليها، وإلى متاعها، وترك زينتها.

أما جمعها من غير الوجه المباح؛ فهذا هو أعظم عيبا، وأشد بعدا من الله تعالى، وأبعد من أحوال أهل التوفيق، وليس من شان أهل الطريق، وهو محرم في الدين، وعيب في حق عوام المؤمنين؛ فكيف بالجماعة الذين حسنات من دونهم في الحال، والمقال سيئات لهم، وقد ذم الله عز وجل جامع المال فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا ﴾، وعنه صلى الله عليه وسلم: "دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له".

والجمع مذموم على كل حال، وأما المنع فالمراد به هنا منع غير الواجب. من صلة ذي رحم، ومواساة مسكين، وصدقة على فقير، وغير ذلك من أوجه المندوبات. أما منع ما وجب في المال؛ فليس هو المقصود هنا. إذ الخطاب في هذا إنما هو لأهل الطريق الذين اهتموا برياضة نفوسهم، ومعاناتها ومداواة عللها وأمراضها، وطهارتها من عيوبها. أما منع الواجب فليس هو المقصود هنا إذ ذاك.

إنما يخاطب به عوام المؤمنين، وهو مذموم في حقهم، والمنع كله مذموم، وصاحبه ملوم على كل وجه، وبكل اعتبار، وقد ذم الله تعالى المانع فقال تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الآية والجمع والمنع كلاهما ضرر في الدنيا والآخرة لا نفع فيهما دنيا وأخرى؛ ولهذين العيبين المذكورين في البيت اللذين هما الجمع والمنع. أصول ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

وأصله البخل وخوف الفقر وحب دنيا ما لها من خير

ضمن رحمه الله تعالى في هذا البيت للعيبين المذكورين أصولا ثلاثة:

الأول: البخل، فهو أصل للمنع، وكذلك خوف الفقر، **وهو الأصل الثاني**، وهو أيضا أصل الجميع.

الثالث: حب الدنيا. وهو أصل الجميع.

أما البخل لا شك أنه أصل المنع، وهو عيب في نفسه. ينشأ عنه عيوب منها المنع، وقد استعاذ منه صلى الله عليه وسلم بقوله: "اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل "[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ الآية.

وتقدم الكلام في ذم البخل عند قول الشيخ: "من عيبها الشح كذاك البخل..."؛ وأما خوف الفقر؛ فهو أصل للجمع والمنع، وقد استعاذ منه عليه الصلاة والسلام، وخوف الفقر عيب في نفسه وتنشأ منه عيوب منها الجمع والمنع. مع أن الخائف من الفقر غير واثق بمولاه جل وعز، ولا عامل على واسع فضله وعظيم كرمه، وأما حب الدنيا فهو أيضا أصل الجمع، وحامل أيضا على المنع، وهو عيب من عيوب النفس، وتنشأ عنه عيوب كثيرة، وأمراض عديدة، وقد تقدم الكلام على ذم حب الدنيا، وما ينشأ عنها من المفاسد الفادحة في الدين والدنيا؛ فانظر ذلك عند قول الشيخ: "وحب دنياه لذاك أصل"؛ ولما ذكر رحمه الله تعالى العيبين المذكورين اللذين هما الجمع والمنع، وذكر عللهما. أخذ يذكر الدواء الذي ينفي العيبين،

(1) ولقد ضمنه الشيخ أحمد زروق وظيفته.

ويطهر النفس منهما؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه استـــشعاره قـــرب الأجـــل وأن مالـــــه لغيـــــره انـــــتقل

إذا استشعر العبد قرب أجله، وأن ماله ينتقل لغيره. لا يحرص على جمع، ولا يمنع حق الله منه، وهذا من فوائد قصر الأمل، واستشعار قرب الأجل. كما أن طول الأمل باعث على الحرص، والجمع مع المنع سيما إذا اقترن بذلك حب الدنيا، وميل القلب إلى زهرتها، وزخاريفها الباطلة، ونظارتها العارية. التي لا بد من زوالها، وتغير أحوالها؛ فيجب على العاقل أن يستشعر ذلك، وأن ما يجمعه من متاع الدنيا منتقل إلى غيره؛ فينتفع به دونه؛ كما نبه الشيخ على ذلك. حيث قال رحمه الله تعالى:

فيـــــنفع الغيـــــر ولا يـــــنفعه إذ كـــــان فـــــي حـــــياته يمـــــنعه

ما يجمعه الإنسان في حياته، ويخلفه بعد موته ينتفع به غيره دونه،؛ فيكون منعه لما يجمعه سعيا لغيره لا له؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت"، ويروى فأمضيت، فجعل صلى الله عليه وسلم ما يتصدق به العبد باقيا، وما أكله فانيا؛ وقيل إن رجلا كانت له شاة فذبحها، وتصدق بها إلا يديها؛ فقال له صلى الله عليه وسلم: "ما فعلتم بشاتكم؟ فقال الرجل: يارسول الله ذهبت كلها إلا يديها، فقال له عليه الصلاة والسلام: بل لبثت كلها إلا يديها"؛ فجعل ما تصدق به من الشاة ثابتا، وما بقي منها هل هو له؛ فيأكله، فيفنيه؟ أو يتصدق به فيبقيه؟ أو يخلفه بعده فيكون لغيره؟

وقد نبه الشيخ على هذا المعنى حسبما يأتي ذكره بعيد هذا، وأعظم ما في الحال أن ما يجمعه العبد من المال، ويمنع حق الله فيه. ثم يجعله بعده لغيره هو المحاسب عليه؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك بأن قال:

مـــــع أنـــــه محاســـــب علـــــيه مطالـــــب بحقـــــه لديـــــه

من جملة ما يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة ما يجمعه من متاع الدنيا؛ فيسأل عنه مما ذا اكتسبه، وعلى ما أنفق منه؛ فيما ذا أنفقه؛ فيسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، وما يخلفه من ذلك يسئل عنه؛ فيكون عليه غرمه، وللغير غنمه. ثم أتى الشيخ رحمه الله تعالى بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم مشيرا به إلى ما قدمناه آنفا من أن ما قدمته من مالك لك، وما تركته مخلفا عنك؛ فهو لغيرك؛ فقال

رحمه الله تعالى:

قــال الرســول كلمــا قدمــتا مالــك والغيــر لمــن تــركتا
ولــك مــا لبــست أو أبليــته أو الــذي أكلــت أو أفنيــته
ثــم الــذي صــدقته أمــضيته وعــند ربــنا غــدا وجدتــه

ضمن رحمه الله تعالى في هذه الأبيات الثلاثة ما تقدم من قوله عليه الصلاة والسلام: "ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت"، ويروى فأمضيت. أما ما خلفته بعدك فهو لغيرك له غنمه، وعليك غرمه، فخير مالك ما تصدقت به، واحتسبت أجره ربك، فإن الله يجزي المتصدقين، وجاء في الصدقة ثواب عظيم، وأجر كبير. انظر ذلك في كتب الوعظ؛ وما ذكر كله ترغيب في الجود والصدقة والإثار، ومواساة الفقراء والمساكين، ومواصلة ذوي الأرحام، وترهيب وتحذيرمن البخل والمنع.

ثم قال رحمه الله تعالى:

فاختــر لنفــسك علــى بــصيره ولا تكــن ممــن يــسيء مــصيره

ضمن رحمه الله تعالى في هذا البيت أمرا، ونهيا؛ فأمرك بأن تنظر لنفسك على بصيرة، فإن أهل البصائر ينظرون بنور الله، والأمر الذي تنظر فيه لنفسك أن تتصق به، فتبقيه، أو تلبسه؛ فتفنيه، أو تأكله؛ فتفنيه، ولا شك أن ذا البصيرة يختار ما يبقى على ما يبلى ويفنى، ونهاك عن أن تكون ممن يسيء مصيره، وهو المانع لحق الله تعالى في ماله؛ فعليه يحاسب، ويعاقب والغير به ينتفع ويتمتع، وهذا نظر من لا بصيرة له؛ فساء مصيره، وأوقعه في الخسران والهلاك تدبيره.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

مــن عيــبها الــصحبة للمخالفــين وأهــل الأغــراض مــن الموالفــين

المراد بالمخالفين هنا. الذين يخالفون المريد في مقصده وإرادته وأحواله، فصحبة المريد؛ لمن خالفه في ذلك. يعد عند المريدين عيب من عيوب النفس، وكذلك صحبة أهل الأغراض الفاسدة، والمقاصد السيئة، والأحوال الذميمة. الذين ألفوا الفساد، وربوا على الطبع المعتاد، والفهم هو على هذه الحال؛ وإنما عد صحبة هؤلاء من عيوب النفس؛ لما يسري من طبعهم الفاسد إلى المريد. إذ الطباع

تسرق الطباع، والنفس تميل بطبعها إلى ما يوافق هواها، ويقربها إلى نيل أغراضها، وشهواتها؛ فهي أيضا تتأثر بما فيه فسادها أكثر مما تتأثر بما فيه صلاحها.

ثم قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

وذاك من بقية النزوع لفعلهم وطلب الرجوع

الإشارة بذلك إلى صحبة المخالفين وأهل الأغراض؛ فإن ذلك من نزوع النفس لفعلهم الفاسد الذميم، وطلبا منها للرجوع إلى ما كانت عليه قبل الإرادة من الاعوجاج في العهد القديم، وقد تقدم أن النفس تميل بطبعها إلى ما يوافق هواها، وما يقربها إلى نيل أغراضها وشهواتها، وذلك من نزوعها إلى ما كانت عليه، ورجوعها وميلها إليه.

وللعيب المذكور الذي هو صحبة المخالفين، وأهل الأغراض دواء ذكره الشيخ رحمه الله تعالى فقال:

دواؤه صحبة أهل الطاعه والتابعين الحق والجماعه

العيب إنما ينتفي بما يضاده وينفيه، والمرض إنما يداوى بما يذهبه ويبريه؛ فصحبة أهل الطاعة التابعين للحق والجماعة. دواء ينفي عيب صحبة المخالفين للحق. أهل الأغراض المنحرفين عن طريق الصدق، وأهل الطاعة هم الذين أطاعوا الله تعالى في السر والعلانية؛ فلا يتركون أمرا، ولا يقربون نهيا، والحق المراد به: الكتاب، والسنة.

والجماعة: هم أهل السنة الذين سلكوا على المنهج المحمدي القويم، والصراط المستقيم، ولا شك أن صحبة هؤلاء دواء لما ذكر من العيب، وتحفظ من صحبهم في الشهادة والغيب، فمهمى أحبهم لا يحرم من خير الدارين، ويكون بصحبتهم من خير الفريقين، وكذلك من أحبهم؛ فمن أحب قوما كان معهم، وحب الأولياء ولاية.

ومن كلام الشيخ سيدي ابراهيم التازي رضي الله تعالى عنه، وقد قال: "حب الأولياء ولاية"، وتقدم لنا كلام في سوء الصحبة، وما ينشأ عنها من العيوب والمفاسد عند كلام الشيخ رحمه الله تعالى على صحبة كل غافل ولاه، وصحبة ذوي التقصير، وكل راض عن نفسه.

وفي حكم ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: "لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله".

وإذ نهاك رحمه الله تعالى عن صحبة من هذه أوصافه؛ لما فيها من المفاسد والعلل؛ فكأنه أمرك بصحبة من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله؛ لما فيها من المصالح والدلالة على صالح الأعمال

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وكل من يصحب غير جنسه فجاهل تالله قدر نفسه

المراد بغير الجنس. من لا يوافقك على طاعة ربك، ولا يبصرك بعيوب نفسك، ولا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، وشأنه اتباع الهوى، وسلوك الإغواء؛ فمن كان هذا حاله؛ فهو من غير جنس أهل التوفيق، وحاله مخالفة لأحوال ارباب الطريق؛ فمن صحبه، فهو جاهل قدر نفسه. حيث قارنها بمن ضره أقرب إليه من نفعه؛ فبئس العشير.

والوحدة خير من جليس السوء؛ كما قال الشيخ رحمه الله تعالى:

أفضل للمرء جلوس وحده ولا يكون جليس سوء عنده

لا شك أن الوحدة أفضل من جليس السوء. يشغلك بما لا يعني عما يعني، ويميلك إلى طريق الاعوجاج، وينتهج بك أسوأ منهاج، والطباع تسرق الطباع.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "المرء مع جليسه، فمن صحب الأخيار كان منهم، ومن صحب الأشرار كان منهم".

قال الشيخ رحمه الله تعالى أولا:

وصحبة المجتهد النحرير تزيد في الجد وفي التشمير

وقال في الثاني:

إذ صحبة الراضي تزيد في الرضى وترفع العبد إلى سوء القضا

يريد الراضي عن نفسه، وبالجملة فالأصحاب ثلاثة:

- صاحب، كالقوت لا يستغنى عنه، وصحبته بهذا خير من الوحدة، وهو الذي ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله.

- وصاحب؛ كالدواء لا تحتاج إليه إلا عند الحاجة، وهو الذي لا تستفيد

منه حسن التدبير فيما أشكل عليك من الأمور التي يخفى عنك عواقبها.

- وصاحب كالداء، وهو الذي لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، ولا يحصل لك من صحبته إلا البعد من الله تعالى، والخروج عن نهج الاستقامة.

ثم قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

ومشبه القوم فذاك منهم ومكثر السواد عد فيهم

أشار الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى ما يقال: "من تشبه بقوم فهو منهم، ومن كثر سواد قوم فهو منهم"؛ ولهذا استحسن التشبه بالفقراء، والتزيي بزيهم في الظاهر. لعل بركة ذلك أن يوفق إلى التحلي بما تحلوا به في الباطن، والتشبه بأهل الفلاح فلاح، والتخلق بأخلاق الصالحين صلاح. من كلام الشيخ سيدي إبراهيم التازي.

ونص على مدح التشبه بشممهم أبو مدين الغوث.(1)

ثم قال رحمه الله تعالى:

هذا الذي ذكرت في الحديث عن سيد الخلق فخذ حديثي

قوله: "هذا الذي ذكرت " يريد في البيت الذي قبل هذا، وهو قوله: "ومشبه القوم... إلخ، وقوله في الحديث أي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أراد الشيخ رحمه الله تعالى بقوله سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، والخلق هنا بمعنى المخلوق واللفظ جامع لجميع أهل الأرض والسماء، وإنما كان سيدهم لأنه خيرهم وأفضلهم، وقوله: "فخذ حديثي " أي فخذ ما ألقيته لك من كلامي.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وقيل إن صحبة الأشرار تقضي بسوء الظن في الأخبار

---

(1) هو أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي الأصل. تلميذ أبو يعزى ووارث سره كان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث وأفراد الأولياء وصدور الأبدال. جمع الحقيقة والشريعة، ودعا للحق. حج وأخذ الطريقة الصوفية بعرفة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني. توفي سنة 594 هجرية بتلمسان، ودفن برابطة العباد هناك.

وله قصيدة رائعة، مطلعها:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم وخلّ حظك مهما قدّموك ورا

إذا خالط الخير الأشرار ساء الظن به بمخالطته لهم. إذ من كثر سواد قوم عد منهم، ولذلك وقع النهي عن مخالطة الأخيار للأشرار كي لا يسيء ظن الناس به، فيعرض عن نفسه لسوء الظن ويعرض غيره للقول فيه فيكون متسببا في تعريض الناس للقول فيه؛ فهو بذلك أثم ويأثم غيره بسببه؛ فهو بذلك ضال مضل.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وقيل مهمى بعد الفؤاد عن ربه عارضه الفساد

الفؤاد عبارة عن القلب، ومنه: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾، وكذا: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ...﴾ الآية، ومن إنشاد بعض العرب:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وإذا بعد القلب عن الله تعالى عارضه الفساد، وإذا فسد فسد الجسد كله؛ فبصلاح القلب يصلح جميع الجسد وبفساده فساده؛ إذ هو الملك المطاع والإمام المتبع؛ فإذا أعرض القلب عن ربه كان سببا في إعراض الجسد كله، وهذا من الفساد العارض له، وأوجه الفساد كثيرة سببها بعد القلب عن الله بميله إلى الهوى، وانصرافه عن طريق الهدى.

ثم قال رحمه الله تعالى:

بمقت كل عابد أواه فاستوجب المقت بعدل الله

المقت البغض من أجل ذنب، أو ريبة، أو دناءة يصنعها الممقوت، والعابد الأواه لا ذنب له يستوجب به المقت؛ فلذلك عوقب ماقته بمقت الله تعالى عدلا منه جل وعز، فعاقب على الذنب بمثله. قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ...﴾ الآية، فهذا هو العدل، وقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

والحق سبحانه يفعل ما يشاء نعمة منه وفضلا، وكل نقمة منه عدل: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وعسكر أبو تراب النخشبي قال كلاما حسنا في المذهب

القلب مهما ألف الإعراضا — عن ربه يواقع الإعراضا
اعراض أهل الحق والعنايه — والصدق والإخلاص والولايه
وذاك باب الهلك في الوجود — بوعد ربي الواحد المعبود
إذ من قد أذى وليه قد حاربه — ومن يطق ذلك أو يقاربه

عسكر المذكور هنا. ابن حصين النخشبي، وأبو تراب كنيته. صحب حاتم الأصم، وأبا حاتم العطار البصري. مات رحمه الله تعالى سنة خمس وأربعين ومائتين.

وقال الجلا: "صحبت ستمائة شيخ ما لقيت منهم مثل أربعة. أولهم أبو تراب النخشبي".

وقوله: "قال كلاما حسنا في المذهب. يريد مذهب أهل هذا الطريق الذي تمذهبوا به في سلوكهم، وإرادتهم من رياضتهم نفوسهم، ومجاهدتها وحملها على الطريق الجادة، واخراجها عن هواها، وطبعها البشري.

ولأبي تراب كلام كثير في هذا الطريق، وحكي عنه حكايات كثيرة منها قوله: "القلب مهما ألف الإعراض... إلخ. هذا هو قول أبي تراب الذي أسنده إليه بقوله: "كلاما حسنا"، ووصفه بكونه حسنا لموافقته الصواب وجريه على منهج أولي الألباب ولا شك أن القلب إذا ألف الإعراض عن ربه واقع إعراض أهل الجد والعناية والإخلاص والولاية ووقوعه في ذلك يكون سببا لفتح باب الهلاك لنفسه، وبادر بحرب من الله لأن الله عز وجل يقول: "من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة"، وهذا وعيد شديد كاف في التنفير من التعرض لأولياء الله تعالى أهل الصدق والإخلاص أعاذنا الله تعالى من ذلك بمنه وكرمه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها استرساله في الغفله — وتركه العمل حال المهله

ذكر الشيخ رضي الله تعالى عنه عيبين عظيمين من عيوب النفس.

الأول: الاسترسال في الغفلة عن الله تعالى؛ بترك ذكره وعدم الوقوف عند نهيه وأمره؛ فالقلب معرض عن الفكر في أوصاف الألوهية، واللسان صامت عن الذكر قياما بحق الربوبية، والجوارح مصروفة عن القيام بالوظائف الشرعية؛ فهذه

هي الغفلة الموجبة لبعد العبد عن مولاه، وخسرانه لتضييعه لما فيه رضاه، والاسترسال في هذه الغفلة عيب من عيوب النفس عظيم، ووصف لمن اتصف به ذميم.

الثاني: ترك العمل الصالح حال المهلة وليس هذا من وصف العقلاء ولا من أحوال النبلاء الذين أخذوا في العمل بالجد والتشمير ولا سمحوا لأنفسهم في قليل ولا كثير.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: "اغتنم خمسا قبل خمس. حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سفرك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك"؛ فالعاقل لا يغفل عن أداء حقوق مولاه ولا يترك العمل حالة مهملة تابعا لهواه.

ولهذين العيبين المذكورين أسباب ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

وذاك من نقصان ما لديه ... من اليقين والذي إليه

إذا نقص يقين العبد بما وصل إليه من نعيم مولاه العظيمة وما لديه من مواهبه الجليلة التي توجب للعبد عدم غفلته عن أداء حقوق المولى الكريم والقيام بشكر الرب العظيم على ما لديه من النعم وما وصل إليه من الفضل والكرم. استرسل في ميدان الغفلة وترك العمل حال المهلة، وهما العيبان المذكوران؛ وللاسترسال في الغفلة، وترك العمل أسباب غير ما ذكره الشيخ منها:

غلبة الهوى، ومنها عدم النظر في عظيم أوصاف المولى، وعدم التفكر في عظيم أفعاله، ومنها الغفلة عما لله من الحقوق الواجبة والعبادة اللازمة، ومنها استغراق العبد في العالم الأدنى وانصراف همته إليه، وميله إليه، وشغله به. إلى غير ذلك من الأسباب التي تنشأ عنها الغفلة والاسترسال فيها، وكما أن للعيبين المذكورين أسباب ينشآن عنها وتقويهما؛ فكذلك لهما دواء ينفيهما.

ذكره الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

دواؤه في ذاك المراقبه ... والجد والتشمير والمطالبه

وكونه محاسبا لنفسه ... وذاكرا يوم حلول رمسه

وسامعا أخبار أهل الجد ... لتنهض الهمة عند القصد

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الأبيات أدوية لعيبي النفس المذكورين. الذين هما: الاسترسال في الغفلة، وترك العمل حال المهلة.

الدواء الأول: المراقبة: وهي حال القلوب المتيقظة، والنفوس الريقة. إذ المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا أصل كل خير للعبد، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة. إلا بعد فراغه من المحاسبة؛ فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن ما بينه وبين الله تعالى، وحفظ مع الله الأنفاس، وراقب الله سبحانه في عموم أحواله؛ فيعلم أن الله سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب يعلم أحواله، ويرى أحواله. قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾؛ فإذا تحقق العبد في هذا المقام، وعلم أن الله تعالى مراقبا له على الدوام راقب مولاه فتنتفي الغفلة وترك العمل، وكل ناف لشيء؛ فهو مضاد له ودواء له.

قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي[1] رحمه الله تعالى ورضي عنه: (والمراقبة تمكن في الروح باطلاع الله عليه؛ فيلازم الوجهة يرتقب كشف الحجاب عن وجه القلب؛ لتتصل المراقبة بالمراقبة، ولا طمع في هذه المراقبة لمن بقيت عليه بقية من هوى نفسه؛ لأن سببها مراعة القلب، وحفظ الأنفاس مع الله تعالى، ولهذه المراقبة شروط وآداب).

أما شروطها فأربعة:

الأول: القيام بجميع حقوق الله تعالى سرا وإعلانا. خالصا من الأوهام. صادقا في الاحترام. سالما من الدعوى، فحرام على من يلمح بارقا من بروق الهوى بعين الطبع أن يسطع له بروق الأسرار؛ لأنه قد غير محل الاطلاع.

الثاني: استرسال الروح في تلمح عالمه إعراضا عما سوى الله تعالى.

الثالث: إقامة رسوم الشريعة أحسن إقامة.

الرابع: التجافي عن الإشارات الواردة عليه في مراقبته، والإعراض عن تلمح لائح، ولحظ لامع أو طالع لن ذلك شغل شاغل عن المقصود.

---

(1) هو محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن يوسف الأنصاري الساحلي. كان راسخ القدم في الولاية، والزهد. توفي سنة 735 هجرية.

وأما آدابها فأربعة أيضا:

أولا: قوة المباحثة في تصفية الروح بشدة عزم، وحسن هدى. حالا وقصدا. عدولا عن بقايا الأوهام بعد

الثاني: الإعراض عن عالم الحس جملة من غير تفصيل. مستعينا على ذلك بالخلوات، والسهر والجوع من غير هلكة، وتواصل الصمت إلا ذكر الله تعالى.

الثالث: الكتم لما يظهر ويلوح له من بادي الأسرار؛ ومع تنزه الروح عن الالتفات بشيء مما وقع فيه الكلم. علما بأن المطلوب وراء ذلك كله.

الرابع: ملازمة الانكسار، والخضوع بحفظ الأدب في الحضرة القدسية، وحفظ الأدب من شيم عبيد الحضرة، والخضوع من صفات من خرج عن الأكوان.

الدواء الثاني: الجد والتشمير، والمطالبة.

الجد: عبارة عن قوة الهمة في الطلب واستفراغ الجهد في العمل بصدق توجه وإخلاص قصد. **والتشمير**: عبارة عن نزع ثياب الكسل ولبس درع المبادرة إلى العمل.

والمطالبة: المراد مطالبته النفس بترك التسويف بسوف، وعسى، ولعل، والمبادرة إلى العمل، ولا شك أن هذا صارف للاسترسال في الغفلة وقاطع لترك العمل حال المهلة.

الثالث: كون العبد محاسبا لنفسه صباحا ومساء؛ فإذا علمت أن عليها رقيبا يحاسبها نهضت إلى العمل وقطعت عقال الكسل فلا تركن إلى الغفلة ولا تترك العمل حال المهلة.

الرابع: أن يكون العبد ذاكرا حلول رمسه؛ فإذا تذكر ذلك. قصر أمله، واستحضر أجله، ونهض إلى العمل، ولم يسوفه بسوف، ولعل.

الخامس: سماع أخبار أهل الجد لتنهض الهمة عند القصد.

ثم قال رحمه الله تعالى:

لأن حس القلب بالتذكار ... يصير للأعمال والأذكار

إذا أحس القلب بالتذكار. نهض إلى الأعمال والأذكار؛ وهذا حال القلب الموصوف بالحياة التي تنفعه المواعظ والتذكير، وتزجره عن الغفلة وترك عمل

الزواجر والتنفير، والقلب الميت حال صاحبه على غير ذلك؛ كما قال الشيخ رحمه الله تعالى:

وميت القلب فلا ينفعه   فكر ولا ذكر ولا يجمعه

إنما كان القلب الميت لا ينتفع بفكر ولا ذكر، ولا يجمعه ذلك من تفريقه؛ لعدم إحساسه وانسداد مجاري المنافع، وفقد القوة الجالبة.

ولهذا قال: "أهل القلوب الميتة": ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾... الآية.

وقال تعالى في وصفهم: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾. ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها التجريد عن تكسب   والترك للأعمال والتسبب

لكي يقال إنه توكّلا   مع أنه لحكم ذاك أهملا

إذ يطلب الرزق بالاستشراف   ويسخط الآبي بلا إنصاف

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة عيبين من عيوب النفس القادحة فيها، وهو التجريد عن التكسب، وترك العمل والتسبب.

ثم ذكر في البيت الثاني علتين من العلل القادحة في التجريد.

ثم ذكر في البيت الثالث ما ينشأ عن التجريد الكائن من غير أهله من العلل القادحة في المتجرد. ولنتكلم الآن عن حقيقة التجريد.

فاعلم أن التجريد الحقيقي عبارة عن ترك العمل والأسباب. مع خلو الباطن عن النظر فيها، والتفكر في الاشتغال بها؛ فالظاهر خال عن العمل، والباطن عنه بمعزل؛ فهذا هو التجريد الكامل، ولا يصح إلا بأهله الذين أقامهم الحق تعالى في مقام التجريد، وأهلهم إليه، وقواهم عليه؛ فظواهرهم خالية من السبب، وبواطنهم لا تميل إلى سؤال ولا طلب؛ فهم بالله واثقون وعليه متوكلون، وقلوبهم بربهم مطمئنة. وثوقا به، وتوكلا عليه؛ فالتجريد لمن حاله هذا. غير قادح فيه، ولا يعد عيبا من عيوب النفس؛ لأنه أقامه الحق تعالى فيه، وأهله إليه، وعلامة ذلك سكون باطنه،

وعدم استشرافه إلى ما بأيدي الخلق، وهذا مطالب بالثبات في التجريد، ومهمى أراد الخروج منه إلى التسبب؛ فذلك انحطاط عن الهمة العلية؛ كما قال الشيخ ابن عطاء الله في حكمه.

وأما التجريد غير الحقيقي؛ فهو الصادر من غير أهله الذين يقيمه الحق تعالى في مقام التجريد، ولا أهلهم له، والدليل على أنهم ليسوا من أهل التجريد، ولا أقامهم الله تعالى الحق فيه. وجود العلل القادحة في المتجرد؛ وفي تجريده.

فالقادحة في نفسه عدم سكون باطنة عن حصول الرزق، واستشرافه إلى ما في أيدي الخلق والوجود، والاضطراب والتفكير في أوجه الأسباب، وعدم استقامة أحواله في حال تجريده، وعدم قيامه بالوظائف الشرعية، ولزوم الوظائف الدينية.

وأما القادحة في التجريد فعدم موافاة الباطن على الظاهر في حالة التجريد؛ فالظاهر متجرد، والباطن معلق بالأسباب. مع ما أشار الشيخ من قوله في البيت الثاني: "لكي يقال إنه توكلا"؛ فإذا كان قصد المتجرد بتجريده أن ينسب إلى التوكل، وأن يقال متجردا؛ فذلك علة في المتجرد، وفي تجريده، وهذا التجريد هو الذي يعد عيبا من عيوب النفس، وهو المراد في البيت الأول.

وميل العبد إلى هذا التجريد، وترك السبب من الشهوة الخفية.

وقوله في البيت الثاني: "مع أنه لحكم ذاك أهملا".

يريد أهمل المتجرد حكم التجريد الذي هو وجود الأهلية، والتحقق فيه بالباطن والظاهر، وعدم الاستشراف إلى ما بأيدي الخلق. مع سكون الباطن إلى غير ذلك من الأحكام.

وقوله في البيت الثالث. " إذ يطلب الرزق بالاستشراف". هذا بيان لما ينشأ عن التجريد الكائن من غير أهله من العلة القادحة في التجريد، والمتجرد؛ وذلك كون العبد يتجرد بظاهره عن الأسباب؛ وقلبه مستشرف إلى ما في أيدي الخلق من الأرزاق، ومن كان هذا حاله فليس بمتجرد على الحقيقة. إذ كان دخوله في التجريد بنفسه لا بربه، والتسبب إلى هذا أولى له وأسلم.

وقوله: "ويسخط الآبي بلا إنصاف". نبه بقوله هذا على علة قادحة في المتجرد، وفي تجريده، ويسندل به على عدم تحققه في مقام التجريد، وذلك أن

يوجد من مدعي التجريد التسخط على من أبى أن يعطيه ما كان مستشرفا إليه، ويمنه ما كان معولا عليه، والمتسخط على الآبي غير منصف له؛ لأن المنع والعطاء ليس هو منه في الحقيقة. إذ المانع والمعطي هو الله تعالى، ولو أنصف المتسخط لعذر الآبي. من حيث إنه متصرف فيه، وليس بيده عطاء، ولا منع، ولا ضرر، ولا نفع.

ووجود التسخط من المتجرد دليل على رؤية الأكوان، ووقوفه معها، واعتماده عليها؛ وهذا مخالف لأحوال أهل التجريد. إذ هم من أهل التمكين أرباب النهاية.

وقد أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى عدم كمال مدعي التجريد الذي يسخط الآبي، ويستشرف إلى طلب الرزق من الخلق؛ فقال رحمه الله تعالى:

وذاك من جهل وسوء تدبير   وعدم التفويض في الأمور

الإشارة بذلك إلى ما ذكره قبل هذا من العلل القادحة في حال المتجرد، وفي تجريده كطلب الرزق، والاستشراف إلى ما في أيدي الخلق، وتسخط الآبي، وغير ذلك من العلل.

أعلم رحمه الله تعالى أن تلك العلل إنما وجدت في حال المتجرد. من جهله بأحكام التجريد، ومن سوء تدبيره. حيث وضع قدمه في مقام التجريد، وليس هو من أهله، ولا معرفة له بأحكامه؛ أو عرفها وأهملها، ومن عدم تفويضه في الأمور لربه؛ ليختار له أي مقام شاء، ويقيمه في أي مقام أراد. إذ هو سبحانه أعلم بعواقب الأمور، ومصالح عبيده؛ ولو علم هذا العبد أوصاف الربوبية، ومقام العبودية، وحسن تدبيره، وفوض إلى الله تعالى في جميع أموره لأقامه فيما يرضاه له من حيث يرضاه له من تجريد أو أسباب.

وقد يختار الله لعبيده الأسباب؛ لفوائد. منها ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى:

إذ قد أتى في ذاك نص معربا   أطيب ما يأكل العبد مما اكتسبا

أو كما قال عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا كان أكثر أهل الورع لا يأكلون إلا من كد اليمين، وما عرف فيه الحبيب، ويسلكون في الأسباب ما كان محمودا شرعا، وطبعا، ومباحا أصلا، وفرعا، وطرقهم في ذلك مختلفة.

وليس السبب مما يقدح به العجب؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على

ذلك؛ فقال:

مع أن هذا ليس فيه عجب ولا رياء يقتضيه الكسب

الإشارة بهذا. إلى التكسب، ومحاولة الأسباب.

قال رحمه الله تعالى: "ليس في ذلك عجب"؛ لأن الشرع أذن به، وفعله الأكابر، والأفاضل، والمتلبس به لا يدخله عجب؛ لأنه تلبس بما تلبس به المؤمنون، وتستر به. كي لا يقال إنه من المتوكلين.

ومن نظر في سير الناس علم ذلك، وكذلك الكسب لا يطرقه الرياء، كالتجريد. إذ قد يعرض للنفس فيه علل وآفات تفسد عليه تجريده.

نعم إلا إذا كان المتجرد من أهله، وأراد به استفادة خير، ولم يهمل أحكامه التي بها يكون إحكامه، وكان مقتفيا في تجريده بأهل الصفة رضي الله تعالى عنهم؛ فالتجريد خير له.

وقد نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك فقال:

ومن يكن من حاله التجريد وهو به للخير يستفيد

مع انقطاع نفسه عن غير فحكمه فيه دوام الأمر

كحال أهل الصفة الكرام السادة الأئمة الأعلام

من تحقق في مقام التجريد، وتخلق به ظاهرا وباطنا، وقصد به طريق الخير واستفادته، وانقطعت نفسه عما في ايدي الغير من الخلق، واكتفى في طلب رزقه من الملك الحق الذي يغني بلا سبب، ولم يحوج من توكل عليه إلى طلب؛ فحكمه الاستدامة على تجريده؛ وليعلم أن الله عز وجل أسلكه به مسلك خواص عبيده، وحلاه بحلى أصفيائه الكرام؛ وهم أهل الصفة السادات الأئمة الأعلام أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

والخبر المذكور الذي يستفيده أهل التجريد هو الانقطاع إلى الله تعالى بالظاهر والباطن، والفراغ من شواغل الأسباب اعتمادا على الكريم الوهاب جل جلاله وتقدست أسماؤه.

وقد وقع الترغيب من الشيخ رحمه الله تعالى إلى كل من الفريقين أهل الأسباب، وأهل التجريد؛

* فأهل الأسباب رغبهم في ذلك بقوله: "ليس فيه عجب ولا رياء".

* وأهل التجريد رغبهم فيه بكونه حال أهل الصفة الكرام السادة الأئمة الأعلام.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها القيام بالدعاوي وترك ما بها من المساوي

مع الفرار من علوم الظاهر وترك ما تحضى به السرائر

من أعظم عيوب النفس قيامها بالدعاوى، وترك ما تفعله من المساوئ، وإن اقترن بذلك فرارها من العلوم الظاهرة التي بها صلاح الظواهر، وفقدت ما تحضى به السرائر من العلوم الباطنة التي هي علوم الحقائق الإحسانية؛ فهو أعظم عيبا، وأكبر ذنبا.

وما اجتمعت هذه العيوب في عبد إلا وغلظ حجابه الحاجب له عن قربه من ربه، والمبعد له منه، ولم يكن من حزبه.

ومعنى القيام بالدعاوى: أن يدعي العبد المراتب العلية، والأحوال السنية، وفهم الحقائق الإحسانية، والأسرار، والمعارف الربانية؛ وليس بأهل لها، ولا شم رائحة منها، وكيف تصح هذه الدعوى لمن ادعاها، ولا حاول العلوم الظاهرة، ولا عاداها، ولا حافظ على العلوم الشرعية، ولا راعاها.

كلا والله إنه لكاذب في دعواه. غير صادق فيما ادعاه؛ فدعواه مردودة عليه، والخطأ أو الغلط منسوب إليه؛ فيا عجبا كيف يدعي الأحوال الإحسانية، ولم يتحقق في مقام الإسلام. أم كيف يدعي الخصوصية والاختصاص من هو غارق في بحر الآثام؛ ولا تقبل الدعاوى ممن ترك نفسه مقيمة على المساوئ، وأهل الصدق رضي الله تعالى عنهم لا يقبلون دعوى ممن ظهر منه أدنى مخالفة للآداب الشرعية؛ فكيف بالمساؤئ.

قال أبو نصر السراج [1]: "سمعت طيفور البسطامي يقول. سمعت المعروف بعمر البسطامي يقول. سمعت أبي يقول. قال أبو زيد: قم بنا ننظر إلى هذا الرجل

(1) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي. الملقب بطاووس الفقراء. ساح وتجول، ودخل بغداد ودمشق والقاهرة.... له كتاب " اللمع " في التصوف. توفي سنة: 378 هجرية.

الذي قد شهر نفسه بالولاية؛ وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد؛ فمضينا؛ فلما خرج من بيته ودخل المسجد. رمى بصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو زيد، ولم يسلم عليه؛ وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه".

فانظر رحمك الله كيف لم يقبل أبو زيد رضي الله تعالى عنه دعوى من أخل بأدب من آداب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فكيف تقبل دعوى من أقام على المساوئ، وكذلك لا تقبل دعوى من فرعن العلوم الظاهرة الشرعية التي هي أساس الدين، وأصل من أصول الطريقة؛ وكذلك التارك لما تحضى به السرائر من الوظائف الشرعية، والآداب النبوية، وتصحيح العقائد الإيمانية، والتحقيق في المقامات الإحسانية؛ فالأترك لهذه لا تقبل دعواه، ولا يسلم له فيما ادعاه.

وقد ظهر في زماننا هذا دجالون، ولم يتحققوا في مقام الإسلام، ولا بينوا أمرهم على سبيل سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وادعوا المراتب العلية، والمقامات الإحسانية، وربما بعظهم القطبانية. قاتلهم الله؛ وقد شهدنا في هذا الزمان من يدعي الفقر والإرادة، ورفض العلوم الظاهرة الشرعية، ونبذ وراء ظهره الأدب الدينية، وأفضى بهم ذلك إلى معاداة العلماء، والإنكار عليهم. يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون. ألم يعلموا أن علماء الإسلام هم القداة إلى الله تعالى، وحراس الشريعة يدعون الخلق إلى الصراط المستقيم؛ فيحفظون لنا الدين، ودونوا الدواوين فجزاهم الله عنا خيرا آمين. اللهم انفعنا بمحبتهم واحشرنا في زمرتهم آمين آمين آمين. [1].

ولما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى عيوب النفس المتقدمة. أخذ يذكر أصلها الذي ينشأ عنها العيوب؛ فقال رضي الله تعالى:

وذاك من جهل الفتى بالدين وفقده التحقيق باليقين

الإشارة بذلك إلى ما قدمه من عيوب النفس التي هي المقام بالدعاوى، وترك ما تلبس به صاحب الدعوى من المساوئ. مع الفرار من العلم الظاهر، وترك

(1) إذا كان الشيخ الخروبي قد تمسك بتعاليم شيخه أحمد زروق؛ فإن الفقرة السابقة أكبر دليل على ذلك.

ما تحضى به السرائر.

قال رحمه الله تعالى: أصل هذه العيوب. جهل من تلبس بها بأمور الدين، وفقده التحقيق باليقين؛ فلما جهل ما يصح به دينه من العلوم الظاهرة الشرعية؛ وفقد ما يكمل به دينه من التحقيق بالقين الناشئ عن معرفة ما تصح به عقائده من العقائد الإيمانية؛ فلما جهل ذلك، ولم يعلم من هنالك. غلب عليه الوهم، فظن أن ما قامت من الأمور الوهمية حقائق، وهي في الحقيقة دعاوى، وما هو بجهله حسنات، وهي سيئات، ولو كان عالما بأمور الدين. محققا في مقامه موقنا؛ لما صدرت منه دعاوى، ولرأى مساوءه مساوئ.

ثم ذكر رحمه الله تعالى ما يعالج به تلك العيوب من الدواء؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه العلـــم بـــأن الدعـــوى تفـضي إلـى مـصيبة وبلـوى

وأن رب الخلـــق بالظواهـــر أمـــرنا حقـــا وبالـــسرائر

إذا علم العبد بأن الدعوى الباطلة الناشئة عن جهل في الدين، وعدم تحقق في مقام اليقين تفضي بصاحبها إلى مصيبة في دينه ودنياه، وبلوى تحيط به من جانبيه ومن أسفله وأعلاه. تجنبها ولم يدعيها وتبرأ منها ولم يدعيها، وكذلك أن الله عز وجل أمرنا بإصلاح الظواهر بالعلوم الشرعية، وبطهارة السرائر وتصفيتها من كدرات الأوهام بتصحيح العقائد الإيمانية؛ فإذا علم العبد ذلك اشتغل بإصلاح ظاهره، وبطهارة باطنه عن الدعوى التي تفضي به إلى المصيبة والبلوى.

وإذ قد علمنا أن الحق تعالى أمرنا بالعلوم التي بها صلاح ظواهرنا، وبالعلوم التي بها طهارة بواطننا، وصلاح سرائرنا. وجب علينا تعلمها، والاشتغال بها شغلا عن القيام بالدعاوى الباطلة الناشئة عن الأوهام الكاذبة، فلا تصح استقامة دون العلمين، ولا يستغني بأحد العلمين عن الآخر؛ بل لا بد من تعلم الاثنين.

وقد نبه الشيخ على هذا. حيث قال رحمه الله تعالى:

فلـــيس هـــذا نافـــع بـــلا ذا ولا يقـــوم هـــذا بـــدون هـــذا

الإشارة ب " هذا " الأول في البيت وب " هذا " الثاني فيه إلى علم الظاهر الذي به صلاح الظواهر، وإلى علم الباطن الذي به طهارة البواطن؛ فلما أمرنا الله

تعالى بالاستقامة ظاهرا وباطنا. كان لا بد من وجود العلم الظاهر الذي به صلاح الظاهر واستقامته، ومن العلم الباطن الذي به طهارة الباطن واستقامته؛ وقد رغب الشارع عليه الصلاة والسلام في تعلم العلمين، وبتعلمهما يكون الكمال دون مين.

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

والعلم قال المصطفى فريضه وهو لديه حضرة عريضه

يشير في هذا البيت إلى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، وما كان فرضا؛ فلا بد من الإتيان به. إذ في فعله الثواب، وفي تركه العقاب، وحد الفرض منه ما تصح به قواعد الإسلام، والزائد على ذلك مرغب فيه، وقد يتعين على بعض الناس من العلوم ما هو مندوب في حق غيره؛ كمن فيهّ أهلية للقيام بوظيف من الوظائف الشرعية.

قال مالك بن أنس رضي الله تعالى عنهما: "طلب العلم فريضة؛ كفريضة الجهاد لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾؛ فجعل ذلك فرضا يحمله الخاص عن العام إلا ما لا يسع جهله من اللوازم. من صفة الوضوء، والطهر، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج؛ ففرض على من لزمه على ذلك معرفته.

وقد سئل مالك رضي الله تعالى عنه عن طلب العلم أفريضة؟؛ فقال: "أما على كل الناس فلا"، وذكر عن سحنون أنه قال: "من كان فيه موضع لرجاء الإمامة؛ فواجب عليه قوة الطلب أو كلاما هذا معناه".

والصحيح عند الأصوليين أن الواجب ينقسم إلى قسمين:

* واجب عيني - وهو ما يتعلق بأحكام العبادات والمعاملات - وهو واجب على كل مسلم مكلف، ويأثم كل مسلم بجهله وعدم تعلمه.

* وواجب كفائي؛ كتعلم الصناعات، ويسقط عن الأمة إذا تعلمه البعض؛ فإن جهله الجميع أثمت الأمة كلها بجهله.

وقوله: "وهو لديه": أي مكانة العلم عند المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: "حضرة عريضة". الحضرة مأخوذة من المحاضرة، والمراد بها هنا، والله تعالى أعلم المكانة إذ مكانة العالم عظيمة عند الله تعالى. قال سبحانه: ﴿ نَرْفَعُ

دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾. قالوا بالعلم في الدنيا.

قال ابن عيينة رضي الله تعالى: "ينبغي أن يرفع أهل العلم في المجالس كلها".

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾. جاء في التفسير أنه الفقه في الدين.

وعنه عليه الصلاة والسلام: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".

ووصف بالعرض تعظيما لها، وخص العرض تبعا لقوله تعالى في تعظيم أمر الجنة: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ... ﴾ الآية، و"عرضها كعرض السماوات والأرض".

أخذ الشيخ رحمه الله تعالى يأمرك بطلب العلم الذي به صلاح الظاهر والباطن؛ ليرقيك إلى مكانة العلماء التي هي حضرة عظيمة؛ فقال رحمه الله تعالى:

فلتطلب العلم بطول الدهر علم الحلال واتباع الأمر

حثك رحمه الله تبارك وتعالى؛ بأن تطلب العلم على الدوام طول الليالي والأيام، وعلى مد الشهور والأعوام. مع أن من طلبه في زمان طويل لا يحصل له منه إلا القليل؛ وإن أعطيته كلك أنالك بعضه، وقد نقل عن كثير من العلماء رضي الله تعالى عن جميعهم أنهم رحلوا في طلب العلم إلى أماكن بعيدة، وأقاموا في طلبه مدة مديدة [1]، والعلم لا يأتي إلا بالعناية والمباحثة والملازمة مع هداية الله تعالى وتوفيقه.

قال ابن المسيب [2]: "إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد".

فبذلك ساد أهل عصره، وكان يسمى سيد التابعين.

وقال مالك: "أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلي إلى منزل ابن هرمز،

---

(1) وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيخ أحمد زروق؛ فقد أنفق حياته كلها في طلب العلم وتحصيله والزيادة منه على الدوام.

(2) هو أبو محمد سعيد بن المسيب من كبار التابعين. عالم أهل المدينة وأحد فقهائها السبعة. اشتهر بفقهه وزهده وورعه. روى عن كبار الصحابة

وأقيم عنده إلى صلاة الظهر. مع ملازمته لغيره وكثرة عنايته".

وقال مالك: "أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلي إلى منزل ابن هرمز، وأقيم عنده إلى صلاة الظهر. مع ملازمته لغيره وكثرة عنايته".

ولذلك فاز أهل عصره، ويسمى إمام دار الهجرة، وأقام ابن القاسم متغربا عن وطنه في رحلته إلى مالك عشرين سنة، ولم يرجع حتى مات، ورحل أيضا سحنون إلى ابن القاسم حتى هذب المدونة، والمختلطة.

وللناس في هذا المعنى أخبار في رحلتهم، وغربتهم في طلب العلم؛ فلتنظر في كتب المعتنين بذلك.

وقوله: "على الحلال": أي على معرفة ما يحل؛ وبمعرفته تعرف ما يحرم، وهي الاستقامة؛ فمن حصل العلم وعمل به، فقد استقام؛ كما نبه الشيخ على ذلك بقوله رحمه الله تعالى:

فإن تقم بذاك كنت مستقيم ويفتح الله بفضله العظيم

الإشارة ب " ذاك " إلى طلب تحصيل ما يستقيم به الظاهر والباطن من العلم؛ فإذا حصله العبد، وعمل بمقتضاه حصلت له الاستقامة في دينه، وكان على بينة من ربه، وإذا استقام العبد يفتح الله العلي عليه أبواب فضله وينشر عليه من رحمته، وأمن خوفه وأذهب عنه حزن الدنيا والآخرة، وأدخله الجنة بفضله، وجعله من أهل ولايته؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ الآية.

ثم ذكر رحمه الله تعالى ما يوطن قلب طالب العلم على دوام الطلب، واحتمال النصب، والتعب؛ فقال:

فالعلم بحر ما له نهايه ولا إلى آخره من غايه

يشير بهذا البيت إلى كثرة العلوم ووسعها، وأن العبد لو طلبه طول الدهر وأجهد في طلبه نفسه كل الجهد، وسهر الليالي، وصرف في طلبه العلم عمره على التوالي؛ لم يبلغ له نهاية، ولا يصل إلى غايته. إذ هو بحر زاخر لا أول له ولا آخر.

ولذا جاء الشيخ رحمه الله تعالى بقوله:

إذ جاء فوق كل ذي علم عليم ومنتهى العلم إلى الله العظيم

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾. كل هذا؛ ليلا يرى العالم الكبير الجامع النحرير أنه حصل على العلوم؛ فلم يحتج إلى زيادة في الطلب، ويريح نفسه عن الكد في طلبه، ومن التعب؛ فأخبر تعالى أن العالم؛ وإن بلغ في العلوم ما بلغ؛ فهناك عالم فوقه؛ فليطلب الزيادة، ولا يقصر طول عمره في طلب الإفادة؛ ومع هذا كله؛ فليعلم أن منتهى العلم إلى الله تعالى، فلا نهاية لمعلوماته؛ كما لا غاية لعلمه.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها استعظامه عطاه ومنه على الذي أعطاه

استعظام العبد لما صدر منه من العطاء لعباد الله تعالى، ومنه على الذي أعطاه من رزق الله تعالى عيب من عيوب النفس يذهب حسناته؛ كذهاب أمس.

وقد خاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام بأن لا يستكثر العطاء، ولا يمنن على الذي أعطاه فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾.

وقد وعد الله تعالى المتقين في سبيل الله. ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى بالوعد الحسن، والثواب الجزيل؛ فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ الآية؛ فالمن بالعطاء كلا عطاء، ومن من بما أعطى؛ فقد أخطأ، وليس المن من أخلاق الكرماء، ولا من حال أهل الفضل العظماء؛ فالنفس الكريمة لا تمن بما أعطت على من أعطت، ولا تستكثر ما به سخت؛ لتعظيمها لحرمة عبيد الله، ولعلمها أن ما بيديها من مال الله؛ بخلاف من استعظم العطاء ومن؛ فإنه توهم أن ما بيده مال له، وملك له.

فهذا هو السبب الذي نشأ عنه ذلك العيب المذكور؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى بقوله:

وذاك من رؤيته لملكه وبخله الذي قضى بهلكه

إذا رأى العبد أن ما بيده ملك له بخل به، فلم تسخ نفسه بالعطاء. حتى إذا أعطى استعظم العطاء، ومن به أعطى وهذا الوصف يقضي بهلاك صاحبه. إذ منه على أخيه لم يقم بواجبه، ويحسن أن يقال للمان المستكثر: "ما لك لست له مالك؛ فإن ظننت ذلك فأنت بلا شك هالك".

ولهذا العيب دواء ذكره الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

دواؤه رؤية من الله بكل ما يعطي بلا تناهي

إذا رأى العبد ما أعطاه مولاه عز وجل من العطايا الجزيلة التي لا نهاية لها منة الله تعالى عليه بذلك من غير حول من العبد ولا قوة؛ وإنما ذلك من فضل المولى وإحسانه وجوده وامتنانه. عامل العبد بما عامله الله تعالى به؛ فيعطي ولا يستكثر، ولا يمن ولا يفتخر، وهذا يكون حال العبد مع العباد، ويسلك في ذلك سبيل أهل الرشاد فإذا سلك هذا المسلك الرشيد ولم يمن بما أعطى لإخوانه من العبيد. انتفت عنه علة المن والاستعظام، وبرئ من هذا العيب الذي هو من عيوب النفس العظام، وليستعن العبد أيضا على نفي هذا العيب؛ بأن يعلم أن ما بيده من مال الله تعالى؛ فهو عليه أمين، وله عليه حافظ؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

وإنما هو أمين حافظ في ماله الذي يحافظ

إذا تحقق العبد أن ما بيده من مال هو مال الله تعالى. جعله بيده عارية، وهو في المال بمنزلة الأمين على مال سيده، والحافظ لمال مالكه، وأنه ينتظر العزل في كل وقت. راعى في ذلك المال حق عبيد الله تعالى، فلم يبخل بالعطاء، وإذا أعطى لم يستكثر العطاء، ولا يمن به على من أعطى. إذ لا يمن العبد بما يعطي من مال غيره، ولا يستعظم ما خرج من غير خزائنه؛ وإنما هو واسطة أجرى المولى العطاء على يديه ليوصله لمن أراد المولى أن يوصله إليه؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك فقال:

يوصل الأمر على ما أمرا حسبما قسم أو ما قدرا

هذا وصف الأمين وهو أن يوصل ما أمره به سيده لمن أمره أن يوصله إليه على الوجه الذي أمره به، وحسبما قسم السيد أو قدر من غير تعد ولا مخالفة أمر؛

وبهذا كان أمينا؛ ووصف بالأمانة؛ فالعطاء من السيد، والأمين واسطة، وهو على ما صدر على يديه من العطاء مشكور، والمنع من السيد، والواسطة معذور. إذ الشريعة تراعي الوسائط والأسباب.

وقد كان صلى الله عليه وسلم أمينا. أمنه الله تعالى على جميع الكائنات؛ فهو الأمين على الإطلاق.

قال تعالى: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ الآية.

ولما قال له عليه الصلاة والسلام بعض الأعراب: "يامحمد: أعطني من مال الله"، فقال صلى الله عليه وسلم مجيبا له: "المال مال الله، وأنا عبد الله؛ ومن أسمائه القاسم".

ولما علم صلى الله عليه وسلم أنه أمين على الكونين، وأن الملك لله جاد بالكونين ولم يمنن، ولم يستكثر.

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

وقال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾.

ثم قال رحمه الله تعالى:

والفخر لا يصلح بالتوصيل ... ولا بقسم واجب التحصيل

ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت من أن الموصل لا يصلح له أن يفتخر بما وصله؛ مما أمر بتوصيله؛ لمن قسم له، وكذلك القاسم. هذا بالنظر إلى الموصل نفسه، والقاسم فإنه مأمور بتوصيل ما وصل لمن قسم له، فلا يحسن منه أن يفتخر بما وصل من مال غيره لعلمه أن ما وصله ليس له منه شيء. لكن الموصل له يشكر من وصل له شيء على يديه.

قال عليه الصلاة والسلام: "لا يشكر الله من لم يشكر الناس".

هذا حكم الشريعة؛ وأما الحقيقة، فالشكر للمالك لا للموصل.

ثم قال رحمه الله تعالى:

إذ كل ما يملكه من فضله ... ثم له انتزاعه بعدله

هذا التعليل راجع إلى ما يملكه العبد من مال الله تعالى، وما يوصله من ذاك المال إلى عبد آخر؛ وأنه لا يحسن له أن يفتخر بما وصل لغيره من ذلك المال الذي بيده عارية، وإنما ملكه الله تعالى فضلا منه عز وجل. ثم أراد انتزاعه منه حكم بالعدل: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ فيجب على من ملكه الله تعالى شيئا أن يلاحظ ذلك، ولا يضف إلى نفسه شيئا مما بيده؛ لأنه عبد لا يملك شيئا،

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

ومن يكن لا يملك الأمورا كيف يرى ببذلها سرورا

من لا يملك من الأمور شيئا؛ فمن حقه ألا يسر بما حصل منها في يده؛ لعلمه أن ما نزل منها بيده لا يقتضي ملكه له؛ فإن سر بذلك كان سروره بزائل لا يملكه.

ولذا استفهم الشيخ رحمه الله تعالى متعجبا من سروره. ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إظهاره للفقر مع كفاية ورزق يجري

ذكر رحمه الله تعالى في هذا البيت عيبا من عيوب النفس؛ وهو أن يظهر العبد الفقر، ومعه كفاية من رزقه، ومن رزق الكفاية؛ فقد أعطي خيرا كثيرا؛ لأن الله تعالى اختار له ما اختاره لوسط خلقه وما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم وطلبه لنفسه وآله؛ فقال: "اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا". قال ابن عطاء الله في حكمه: "من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك". وعن سعد بن أبي وقاص[1] قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي".

وفي حديث أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما طلعت الشمس إلا بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم. ما قل وكفى. خير مما كثر وألهى".

---

(1) هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين عينهم عمر رضي الله تعالى عنهما للخلافة من بعده. شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتح العراق فولاه عمر ولايتها. كان مجاب الدعوة. توفي سنة: 55 هجرية

قالوا: ووجدان الكفاية في الرزق، وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة؛ فإذا لم يقنع العبد بذلك؛ فدليل على وجود العيب في نفسه. أصله ما قال الشيخ رحمه الله تعالى:

وذلـــك مـــن جملـــة وحـــشته وفقـــه يقيـــنه مـــع همـــته

الطمع في الخلق خسة العقل، وفقد اليقين. مع عدم الهمة العلية. كل ذلك عيوب في النفس. قادحة فيها، وينشأ عنها من العيوب إظهار العبد الفقر؛ فيتحلى بحلية الفقراء؛ ليعطي شيئا لا يكون له به الغناء.

وهذه حالة أهل الطمع الأخساء الذين لا يقين لهم ولا علو همة، وقد كان أهل التوفيق حالهم غير هذا. حسبما يذكر ذلك الشيخ رحمه الله تعالى بعد هذا.

ثم قال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه اظهـــــــاره الكفايـــــــه مـــع قلـــة وصـــبره بالغايـــه

فـــابن نجـــيد قـــال فـــي التـــصوف قـــولا صـــحيحا ظاهـــر التـــصرف

ابن نجيد هذا هو: أبو عمر اسماعيل بن نجيد. صاحب أبا عثمان، ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن وآخر من مات من أصحاب أبي عثمان في سنة ست وستين وثلاثمائة، وله لسان في التصوف، وقد نقلت عنه مغالاة منها ما أسنده الشيخ رحمه الله تعالى، وهو قوله:

كـــان الـــذي يـــدخل فـــي الطـــريقه يبنـــي علـــى الحـــق والحقـــيقه

فيفتقـــر بعـــد الغنـــى ويـــستتر بفقـــره فـــي الحـــال كـــي لا يـــشتهر

ما قاله الشيخ ابن نجيد رحمه الله تعالى صحيح ظاهر التصرف؛ أي لا معارض يعارضه؛ فيبطل معناه؛ وذلك أن الناس إذا دخل أحدهم منهم في طريق التصوف يبني أمره على قاعدتي جريان الشرع على ظاهره، والحقيقة في باطنه؛ فيجمع بينهما، وهذه طريق اولياء الله العظام العلماء الأعلام الذين سلكوا مسلك الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، واقتدوا بأصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان.

ومن أحوالهم رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يوثرون الفقر على الغنى؛ فافتقروا بعد غناهم، وستروا مع ذلك حالهم، فتلبسوا بالحالة التي كانوا عليها في حالة الفناء كي لا يشتهروا بين الناس بحالة الفقر وصيانة لأنفسهم من لباس ثياب

الطمع القادح في حالهم المحط لهم عن درجة كمالهم، وقد مدح الله تعالى قوما كان هذا حالهم؛ فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ...﴾ الآية. وقد نقل عن جم غفير، وعدد كثير من السلف الصالح أنهم كانوا؛ كما قال ابن نجيد رضي الله تعالى وعنهم أجمعين، واليوم في زماننا هذا. انعكس الحال؛ كما ذكر الشيخ.

ثم قال رحمه الله تعالى:

واليوم صار الحال عكس الحال ... إذ يظهر الفقر كثير المال

لما كثر الطمع، وقل الورع، وضعف اليقين، وسفلت الهمم. انعكس حال الناس، وصار الغني يظهر الفقر والإفلاس؛ ومن كان حاله هكذا؛ فقد تمذهب بسوء المذاهب، وعرض نفسه لأعظم المصائب، وأشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى ذلك فقال:

وهذه مصيبة عظيمه ... قبيحة رذيلة ذميمه

قد جمعت مع النفاق الريا ... إيثاره الدنيا وحب الأغنيا

الإشارة بهذه إلى إظهار الفقر مع الغنى، فقال رحمه الله تعالى منفرا من هذا الوصف الذميم، ومحذرا من هذا الفعل القبيح العظيم؛ فهذه الحال أو الخصلة الذميمة. قد ابتلي صاحبها بمصيبة عظيمة، ووصفها بكونها عظيمة؛ لما فيها من الضرر دنيا وأخرى.

أما في الدنيا: الزلة بين أقرانه، وحقارته بين إخوانه إلى غير ذلك من الأوصاف الذميمة. تحط بين الناس مكانته، وتذهب مروءته وصيانته.

وأما في الآخرة؛ فلما ذكره في البيت الثاني من الجمع بين النفاق، والرياء، وإيثاره الدنيا، وحب الأغنياء، وهذا فيه نقص في الدين، وضعف في اليقين.

وحالة النفاق فيمن أظهر الفقر، وكان غنيا ظاهرة؛ لأنه خالف ظاهره باطنه، وهذه حالة المنافقين ووصفهم.

وأما كونه مرائيا فلإظهاره حالة، وحقيقتة غيرها.

وأما إيثاره الدنيا فلأنه طالب لها، وراغب فيها حتى أفرط في الطلب من

غير وجه يباح له الطلب عليه.

وأما حب الأغنياء؛ فلأنه محتاج إلى ما في ايديهم، وطامع وراغب فيه، واحتياجه إليهم صيره محبا لهم ومعظما؛ ومن أحب أحدا لغناه، أو عظمه لذلك؛ فقد أحب وعظم من لم يعظمه الله تعالى، وهذا كله ضرر في الآخرة على من كان حاله كذلك، وبهذا كانت مصيبته عظيمة قبيحة رذيلة ذميمة. تضعف اليقين، وتذهب بالدين؛ كما أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى ذلك؛ فقال:

وثلث الدين بذاك يذهب إذ التزين عليه يغلب

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى ما قيل: "من تواضع للغني لأجل غناه ذهب ثلث دينه"؛ أو كما قيل، والمرائي الموثر للدنيا المحب للأغنياء لا بد له من التزين لأرباب الدنيا، ومراءات الأغنياء؛ لينال منهم مقاصده ويحصل فوائده، ولم يلتفت إلى نقص دينه، ولا إلى ضعف يقينه. إذ حب الشيء يعمي ويهم.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها رؤيته لفضله على قرين صاحب من أهله

إذا كان العبد يرى لنفسه الفضل على أقرانه، ويزكي نفسه بين إخوانه؛ فذاك دليل على رضاء عن نفسه، وقد علمت ما في الرضى عن النفس من الأمور الذميمة، والأمراض والعيوب العظيمة. التي توثر القلب علة، وتحدث في الدين قلة.

وتقدم لنا الكلام في ذم الرضى عن النفس، وما ينشأ عنه من العلل والعيوب؛ وأنه من أسباب المعاصي والذنوب.

والحاصل أن من كان يرى الفضل على أبناء جنسه؛ فليعلم أن ذلك عيب من عيوب نفسه؛ فالعاقل لا يرى لنفسه فضلا، ولا يثبت لها كمالا أصلا، ولا فصلا.

قال أبو سليمان الداراني [1]: "لو اجتمع الناس على أن يضعوني؛ كإيضاعي عن نفسي لما قدروا على ذلك".

وقيل: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

وقال شعيب: بينما أنا في الطواف. إذ لكزني إنسان بمرفقه فالتفت فإذا هو

---

(1) هو أبو سليمان عبد الرحمان بن عطية الداراني. من كبار الصوفية. توفي سنة: 215 هجرية.

الفضيل، فقال: ياأبا صالح: "إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر مني ومنك، فبئس ما ظننت".

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى أصل العيب السابق؛ فقال:

وذاك من جهالة بالأصل وخسة لاحقة في الفصل

أصل استعظام العبد لنفسه، ورؤيته لفضله على غيره. جهالته بأصله، وما لحقه من خسة العقل في فصله؛ ولو علم أصله وطلب فصله. لم ير لنفسه فضلا، ولم يكن لأن ينسب لهما كمالا أصلا، وكيف يرى الفضل لنفسه من كان أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة، وهو بين هذين ظرف للعذرة. وقد بلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فصا بألف درهم فأرسل إليه: "أن إذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع ألف بطن، واتخذ خاتما من درهم، واجعل فصه حديدا، واكتب عليه: رحم الله من عرف قدر نفسه".

وقيل إن محمد بن واسع رأى ابنه عبد الله يمشي مشيا لا يحمدها فقال له: "أتدري بكم اشتريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك لا أكثر الله في الإسلام مثله، وأنت تمشي هذه المشية"؛ فعرف محمد بن واسع ابنه أصله، ومنه يعرف الفصل؛ فإذا عرف ذلك نظر إلى أصله وفصله؛ فلم ير الفضل لنفسه.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى دواء العيب السابق؛ فقال:

دواؤه رؤيته لنفسه بذنبه وعيبه ولبسه

ثم شهود الفضل للإخوان بموجبات ظاهر الإيمان

ذكر رحمه الله تعالى في هذين البيتين دواء من الأدوية التي يداوى بها عيب النفس الذي هو رؤية العبد الفضل لنفسه.

الدواء الأول: أن يرى العبد نفسه، وما اقترفه من المعاصي والذنوب، وما تلبست به من كثرة العيوب؛ فإذا رأى نفسه بهذا النظر، ونظر في عيوبها واعتبر. لم ير لها فضلا، ولم تكن عنده للخير أهلا، وتقدمت حكاية الفضيل بن عياض مع أبي صالح؛ وهما في الطواف.

وقيل لأبي زيد رضي الله تعالى عنه: "متى يكون الرجل متواضعا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاما، ولا حالا، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه".

الدواء الثاني: شهود الفضل للإخوان؛ بما أوجبته الأخوة الإيمانية، والروابط الإسلامية؛ فيرى لهم الفضل بذلك وفاء بالحقوق التي أوجبها الإيمان، والحرم التي اقتضاها الإسلام، وأعلم أن عدم
الوفاء بالحقوق من أعظم العقوق.

ثم ذكر الشيخ ما يصح به كمال ذلك الشهود؛ فقال رحمه الله تعالى:

ولا يصح ذاك دون نظره لجملة الخلق بما في خبره

مع أنهم أفضل منه أبدا من كان منهم صالحا ومن عدا

إذا حصل العلم للعبد بأن جميع الخلق من المؤمنين - من كان منهم صالحا اهتدى، أو مسيئا تجاوز الحدود واعتدى - أفضل منه؛ فبذلك يصح له كمال شهود الفضل للإخوان، ويصح له الوفاء بحقوق إخوة الإيمان، وروابط الإسلام، وهذا هو التواضع الحقيقي الذي لا يخالطه كبر.

قال رحمه الله تعالى:

فمن رأى لنفسه فضيله فهو الذي في نفسه رذيله

رؤية العبد لنفسه فضيلة على غيره من خلق الله تعالى شاهدة بأن في نفسه رذيلة موهنة لدينه موجبة لنقص في يقينه، وهو وصف لئام الناس الذين لا عقل لهم وافرا، ولا حسب، ولا نسب ظاهرا؛ وأهل الفضل يرون الفضل لغيرهم لا لهم، وهذا خير لا بأس به، ونظر سديد لا قدح فيه؛

كما نبه الشيخ على ذلك؛ فقال رحمه الله تعالى:

ومن يرى الفضل لكل الناس فذاك خير ما به من بأس

لا شك أن من يرى الفضل لكل الناس. محسنهم ومسيئهم. صغيرهم وكبيرهم. حرهم وعبدهم. ذكرهم وأنثاه؛ فهو خير لا بأس به، ونظره ذلك دليل على اتضاعه عند نفسه، وبراءته من عيب نفسه، وخروجه من دائرة حسه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ونحو هذا قولة الشجري العالم المقدم الزكي[1]

---

(1) هو أبو عبد الله الشجري. من كبار مشايخ خراسان. صحب أبا حفص الحداد. قطع البادية مرارا على التوكل.

مـــا لـــم تـــر لنفـــسك الفـــضيله فلـــك فـــضل واعكـــس الـــرذيله

شبه رحمه الله تعالى ما تقدم من كلامه؛ فذم من يرى الفضل لنفسه، ومدح من يرى الفضل لغيره بمقالة الشجري الذي وصفه بالعالم، والتقدمة فيه، وأنه زكي؛ ومقالته التي أضافها إليه هي قوله: "مالم تر لنفسك فضيلة فلك فضل.".

ثم قال: "واعكس الرذيلة"؛ ومراده بالعكس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثبوت رؤية العبد الفضل لنفسه دون غيره؛ فهذه رذيلة، والفضيلة عدم رؤية العبد الفضل لنفسه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

مـــن عيـــبها اســـتجلابه للفـــرح باللهـــو واللعـــب ثـــم المـــرح

ذكر رحمه اله تعالى في هذا البيت عيب من عيوب النفس المبعد عن الله تعالى الموجب لعدم همته؛ وهو استجلاب الفرح بما يتعاطاه من اللهو واللعب والمرح.

وقد عتب الله تعالى على من اشتغل بذلك فقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...﴾ الآية، ونفى محبته تعالى عمن آثر الفرح؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾.

والمرح: أن ترتع النفس في تيه اللهو، وتسرح في ميدان اللعب؛ وهذا حال أهل القلوب المريضة، والأنفس المعيبة. حاشى أهل اليقظة ذوي القلوب الزكية، والأنفس المرضية.

ثم ذكر رحمه الله تعالى سبب أعيب النفس المذكور؛ فقال:

وذاك مـــن جهـــل بحـــال الـــوقت وتـــرك خـــوف موجـــبات المقـــت

جهالة العبد بحال الوقت، وعدم خوفه من موجبات المقت يحمله على إيثار الفرح، والاشتغال باللهو واللعب ومرح النفس.

والمراد بالوقت: الزمان الذي هو ظرف الأنكاد والأغيار. ما دام العبد في هذه الدار؛ وإذا كان حال الوقت هكذا، فكيف يصفو للعبد فيه أو يطيب له وقت؛ أم كيف لا يخاف موجبات المقت من الله تعالى. لكن الجهل عماية، وأمن من موجبات المقت غواية.

ثم أخذ رحمه الله تعالى يذكر دواء هذا العيب المذكور؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه العلم بأن الله لا يحب من يفرح أو قد شغلا
ومن صفات المصطفى المختار دوام حزنه مع الأذكار

جمع الشيخ رحمه الله تعالى في هذين البيتين بين ترهيب من دوام الفرح، وترغيب في دوام الحزن والترهيب من دوام الفرح قوله في البيت الأول: "إن الله لا يحب من يفرح"؛ فأشار رحمه الله تعالى إلى قوله تعالى وعز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾؛ ففي هذه الآية زاجر شاف، وترهيب كاف من إيثار الفرح الذي هو عيب النفس؛ وكيف لا يكون عيبا، وهو موجب لنفي محبة الله تعالى عمن جعله حالا من أحواله، وشغلا من أشغاله، والترغيب في دوام الحزن قوله في البيت الثاني:

ومن صفات المصطفى المختار دوام حزنه مع الأفكار

فأشار رحمه الله تعالى إلى ما روي عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما. قال سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصافا - قلت صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: "كان متواصل الأحزان. دائم الفكرة. ليست له راحة. طويل السكوت. لا يتكلم في غير حاجة... الحديث".

فإذا علم العبد أن الفرح موجب لنفي محبة الله تعالى، وأن الحزن من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. آثر الحزن على الفرح، ورغب في ذلك. من هذا؛ فتخلق بالمرغوب فيه، ويتخلى عن المرغوب عنه؛ فبذلك كان حصول العلم بأن الله لا يحب الفرحين، وأن الحزن من صفات سيد المرسلين دواء لعيب النفس الذي هو استجلاب العبد الفرح.

ثم أتى الشيخ رحمه الله تعالى بما يقوي الترغيب في الحزن؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

وفي الحديث قد أتى عن ربنا بأنه يحب قلبا حزنا

أشار رحمه الله تعالى في هذا البيت إلى ما جاء في الخبر أن الله يحب كل قلب حزين؛ وفي التوراة: "إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبدا جعل في قليه مزمارا".

ولهذا آثر القوم الحزن على الفرح، والقبض على المرح؛ وكان الحزن من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أوصاف أصاحبه الكرام، ومن تبعهم بإحسان؛ وكان صاحب الحزن يقطع من طريق الحق في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه سنين، وقول مالك بن دينار الآتي في هذا البيت يشهد لما قلناه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

قال ابن دينار اللبيب مالك كلمة نافعة للسالك

إن لم يكن في القلب حزن خربا مثل خراب البيت مهما خربا

مالك بن دينار[1] هذا من أكابر المشايخ، ومن أهل العلم الراسخ؛ والقول الذي أسنده الشيخ إلى ابن دينار يشير به إلى ما قيل: "القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب؛ كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب".

قال بشر بن الحارث [2]: "الحزن ملك؛ فإذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه أحد"، والحكايات في هذا المعنى كثيرة. انظر رسالة القشيري في باب الحزن.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها رؤيته لصبره مع أنه من موجبات شكره

رؤية العبد لصبره، وأنه معدود من الصابرين عيب من عيوب نفسه؛ إذا رمته لصبره، وأنه معدود من أهله. دليل على رضاه عن نفسه، وأنها من الصابرين؛ فإذا رؤية العبد لصبره عجب يستدعي عيبا مثله؛ فيترك العيب، وإذا تركب عيب النفس غلظ حجابها الحاجب لها عن الله تعالى، وعظيم مرضها الموهن لها؛ وفي ذلك من الأضرار ما لا يخفى.

وأيضا مما يحقق أن رؤية العبد لصبره عيب من عيوب النفس. أن رؤية العبد لصبره يقتضي شعوره بنزول موجبه به، والصبر عند الناس من موجبات

---

(1) هو أبو يحيى مالك بن دينار. كان من كبار علماء التابعين، وزهادهم. كان لا يأكل إلا من عمل يده. توفي سنة 127 هجرية

(2) يقصد بشر بن الحارث الحافي. أصله من مرو. من كبار زهاد الصوفية. توفي سنة: 227 هجرية.

الشكر؛ وهي النعمة؛ فاستشعار العبد بنزول، موجب الصبر. استشعار غير مصيب فيه؛ لأنه أنزل النقمة التي يصبر عليها منزلة النعمة التي يشكر عليها؛ وهذا إنما يصدر من الأنفس المعيبة الآيبة المريضة.

ولما ذكر رحمه الله تعالى عيب النفس السابق. أخذ يذكر في الأصل الذي ينشأ عنه ذلك العيب، والسبب الذي عنه يحدث؛ فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

وذاك من غلظة في نفسه   وعدم المحاذرة من لبسه

وجود الغلظة في النفس. موجب لغباوتها، وعدم فطنتها، وعدم حذرها من التباس الأمور، وعدم الحذر موجب للوقوع في الغلط في الأمور والتباسها؛ فلذلك التبس الأمر على الرائي لصبره؛ فظن أنه من موجبات النقم؛ وهو عند أهل الحق من موجبالت الشكر.

ثم أخذ رحمه الله تعالى دواء عيب النفس المذكور؛ فقال:

دواؤه رؤيته للرحمه   في كل نعمة أو نقمه

هذا الدواء الذي ذكره الشيخ رحمه الله تعالى في هذا البيت - للعيب الذي أعد - له دافع، وصارف له، ونافع. إذا قصد به الاستشفاء من العيب المذكور، وإزالة العيب والأثر؛ وذاك أن العبد إذا رأى ما يصل إليه من أثر رحمة مولاه في حال النعمة والنقمة. على أن ما ينزله به مولاه عز وجل؛ فهي نعم في طي نقم، ومنح في طي المحن؛ فيجعل في مكان صبره شكرا، وإن صبر فصبره نعمة أخرى توجب للمولى عليه شكرا؛ فلا يرى لنفسه صبرا. إذ هو من النعم التي يقتضي المولى منه عليه شكرا؛ فافهم ما أقوله، وحقق مضمنه، ومحصوله.

ثم ذكر رحمه الله تعالى ما تتنبه أن أثر رحمته لا يفقده العبد على كل حال في حال النعمة، وفي حال النقمة، فقال رضي الله تعالى عنه:

إذ لطفه ملازم للقدر   كما أتى عن ربنا في الخبر

وأنه لا يقضي للعبد قضا   إلا وفيه خيره كما مضى

لطف المولى جل وعز لا يفارق عبده في كل ما قضى عليه وفي كل قدر قدره.

قال ابن عطاء الله: "من ظن انفكاك لطفه عن قدره؛ فذلك لقصور نظره".

فالعبد في كل أحواله محفوف برحمته مولاه. منوط به فيما قدره عليه وقضاه؛ فلا يقضي على العبد قضاء إلا وفيه خير له؛ فهو ملائم، وإن كان مؤلما في الظاهر.

وجاء في هذا المعنى حديث يخبر فيه عن الرب جل جلاله.

وفي القرآن: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ...﴾ **الآية.**

فكل أحوال العبد المؤمن خير. إذ هو مظهر الأسماء الجلالية، والجمالية؛ وكفى بهذا نعمة. حيث جعله تعالى مظهرا لأسمائه.

والدليل على هذا ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من مقالة أبي عثمان، وهو قوله:

قال أبو عثمان كل الخلق   مع الإله في مقام الصدق

أعني به الصدق بحال الشكر   وهم يظنونه مقام الصبر

أبو عثمان المذكور هنا هو: أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري. أقام بنيسابور، وكان من الذي صحب شاه الكرماني، ويحيى بن معاذ الرازي. ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد، وأقام عنده، وتخرج به، وزوجه ابنته. مات رحمه الله تعالى سنة ثمان وتسعين ومائتين. عاش بعد أبي حفص نيفا وثلاثين سنة.

وله كلام في طريق القوم منها ما أسنده إليه الشيخ هنا وهو: "الخلق كلهم في مقام الصدق مع الله تعالى". يريد - والله سبحانه أعلم - ما ذكره الشيخ من أنهم في مقام الشكر. إذ كل ما ينزله تعالى من نعمة أو نقمة؛ فهي رحمة منه تعالى بهم، وملطوف بهم في الحالتين؛ لأنه تعالى أراد أن يتعرف إليهم بالسراء والضراء.

ففي السراء؛ ليدخلهم عليه من باب الشكر، وفي الضراء؛ ليدخلهم عليه من باب الصبر.

وفي تعرفه تعالى إليهم في الحالتين، وإدخالهم عليه من البابين. رحمة لهم، ونعمة عليهم؛ فهم في ذلك كله على كل حال بحال الشكر، ويظنون أنهم في إحدى الحالتين أنهم بحال الصبر.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها الترخيص والتأويل وترك ما يهدي له الدليل

إذا كان العبد يأخذ في أموره بالرخص والتأويلات الضعيفة، والأقوال الشاذة، ويترك ما هدى إليه الدليل الأعظم الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم من مشاهير أحاديثه وصحاحها؛ فذلك عيب من عيوب النفس يميله عن جادة الطريق، ومنهاج أهل الصدق، وارباب التحقيق؛ وهذا بالنظر إلى عامة المؤمنين؛ وهو في حق خواصهم أقبح من قبيحهم.

إذ لا يسمح للخاصة في الأخذ في جميع أمورهم العادية والعبادية بالرخص والتأويل الذي يوجب نقصا في كمال العبادات، وانحطاطا عن الهمة العلية فيما يتعاطاه من العادات؛ وليس هذا من شأن السالكين، ولا من أحوال المريدين، ولا من صفات خواص المؤمنين.

وقد قالوا: "من أنواع سوء أدب المريد المفضي إلى عطبه. نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة "

فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة المبعد عن محل القربة.

ولهذا قالوا: "إذا رأيت المريد انحط عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة؛ فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله، وفسخ عقده بينه وبين الله".

وقال ابن حبيب رضي الله تعالى عنه: [(1)]" الإرادة استدامة الفكر وترك الراحة".

وليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس في قبول الرخص.

قال يوسف بن الحسين [(2)] رضي الله تعالى عنه: "إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء".

وقال أبو اسحاق ابراهيم بن شيبان[(3)]: "من أراد أن يتعطل ويتبطل؛ فليلزم

---

(1) لعله يقصد حبيب العجمي.

(2) هو يوسف بن الحسن الرازي. شيخ الري في وقته. صحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد الخراز. توفي سنة: 304 هجرية.

(3) لعله يقصد أبا اسحاق ابراهيم بن أدهم.

الرخص"؛ ويعني بالرخصة ما كان مضادا لحال المريد. من تناول الشبهات، واللذات، والميل إلى المألوفات، والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات، والتأويلات؛ فإن حال المريد يقتضي مباينة هذا كله، وإن كان بعض ذلك مباحا في رخصة الشرع لعامة الناس.

وها هو الشيخ رضي الله تعالى عنه يذكر السبب الذي ينشأ عنه هذا العيب؛ فقال:

وذاك من مجازفات الحق وعدم الحق بحال الصدق

المجازفة: أخذ الشيء بلا قياس، والمراد بها هنا صدور أعمال العبد مجازفة. من غير تثبت، ولا تحرير في العمل؛ فتتشعب عليه الطرق، وتشتبه عليه المناهج، ويكون ذلك سببا لأخذه بالرخص والتأويل، ويترك ما يهدي إليه الدليل؛ وكذا إذا عدم العامل حال الصدق في معاملته الحق؛ فهذا أيضا سبب للأخذ في الأعمال بالرخص والتأويل.

وللعيب المذكور دواء. ذكره الشيخ رحمه الله تعالى. حيث قال:

دواؤه في ذا بالانتباه وترك كل موجب اشتباه

لما أتى فيه من التحذير وأخذه بأوثق الأمور

إذا انتبه العبد من غفلته، وترك كل موجب يقتضي اشتباه الأمور لما فقد من يقضته، واستشعر ما أتى من التحذير من الأخذ بالرخص، والتنفير من كل تأويل يحدث في العمل الخلل والنقص، وأخذ بأوثق الأمور، وبنى عمله على القول المشهور. برئ من عيب الأخذ بالرخص والتأويل، ولم يترك ماهدى إليه الدليل.

وبهذا بان لك أن ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من الدواء نافع يبرئ عيب النفس، ولما ينشأ عنه من المرض قالع.

ثم أراد الشيخ أن ينبهك على أن الأخذ بالرخص والتأويل [1]، وترك ما يهدي إليه الدليل أنه من شهوة نفسك الأمارة، وميلها إلى اللعب، وحال النقص المؤدي إليها إلى الخسارة؛ فقال:

(1) المقصود بالترخص هنا الميل للتساهل في أمور الدين، وليس الرخص الشرعية التي قال عنها الرسول الكريم: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه؛ كما يحب أن تؤتى عزائمه.

إذ ذاك من شهوته ولعبه ونقصه في حاله ومذهبه

الإشارة بذاك إلى عيب النفس المذكور. الذي هو الأخذ بالرخص وما عطف عليه.

قال رحمه الله تعالى: "ذلك العيب من شهوته"؛ فهي التي أمالته إلى التحلي بذلك العيب من شهوته، ومن لعبه بأمور الدين قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...﴾ الآية؛ ومن نقصه في حاله ومذهبه، ولو تخلى عن الشهوات؛ لما أخذ بالرخص في المعاملات، ولو تنزه عن اللعب في أمور الدين لما أخذ فيه بأضعف التأويلات، ولو كان كاملا في حاله ومذهبه لما تغير ورده في مشربه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

من عيبها إغضاؤه عن نفسه في عثرة وزلة لأنسه
براحة في تركه لعتبها وذلة عند شعور عيبها

الإغضاء: هو انحناء الطرف، وميله عن النظر إلى الشيء، والمراد به هنا عدم نظر العبد في نفسه، وما يصدر منها من عثرة وزلة؛ والمانع للعبد من نظره إلى ذلك أنسه بالراحة من شغله بأمور نفسه ومحاسبتها والنظر في عيوبها وأمراضها المانعة لها من القرب من ربها، وإلحاحه عن الترقي إلى المعالم القدسية، والكشف عن الحقائق الإحسانية.

فإذا كان العبد يجد من نفسه هذا الإغضاء، ويرضى منها بما به ترضى؛ فذلك عيب من عيوب النفس أصله ما ذكره الشيخ بقوله رحمه الله تعالى:

وذاك أصله الرضى عن نفسه في يومه وغده وأمسه

إذا كان العبد راضيا عن نفسه في كل الأوقات، ولم يعاتبها على ما يصدر منها من المخالفات، وتجترحه من السيئات. نشأ عن ذلك إغضاء عن عيوبها، وترك مناقشتها عما يصدر منها من ذنوبها؛ وهذا أحد الخصال الذميمة الناشئة عن الرضى عن النفس.

وقد تقدم الكلام على ذلك، وتقدم لنا أن أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس؛ ومن رضي في كل الأوقات عن نفسه؛ فهو فاقد أنسه، ومحصور في دائرة حسه؛ ومن وجد في نفسه هذا العيب المذكور؛ فليسارع إلى نفيه بما ذكره

الشيخ من الدواء؛ فقال رحمه الله تعالى:

دواؤه تـــدارك الـــزلات بـــتوبة لجملـــة العثـــرات

جعل الله التوبة النصوح مرهما لجراحات الذنوب، ودواء صارفا لجميع العيوب، ومكفرة للزلات، وسببا للإقالة من العثرات؛ ولذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ...﴾ **الآية، وقال عز وجل:** ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: "التائب من الذنب كمن لا ذنب عليه".

فواجب على كل عبد التوبة من ذنبه على الفور. إذ بتأخيرها يتضاعف الذنب، ويعظم العيب؛ وقد تقدم قول الشيخ رحمه الله تعالى:

دواؤه إصـــلاح الـــسريره وتـــوبة يمحـــوا بهـــا الجريـــره

وتقدم قبل هذا الكلام في التوبة، وشروطها، وآدابها؛ فانظر ذلك فيما تقدم.

ثم قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

قـــال أبـــو عـــثمان للمـــريدين بلـــية تـــرديهم مـــريدين

إغـــضاؤهم عـــن عثـــرات تقـــع وتـــركهم دواء ذاك أفظـــع

لأنـــه تعـــتاده الـــنفوس فيحـــصل الـــضر بـــه والـــبؤس

أبو عثمان المذكور هنا تقدم ذكره، والتعريف به؛ وقوله الذي أسنده الشيخ إليه رحمه الله تعالى هو قوله: "**إغضاؤه عن عثرات تقع**... إلخ". كلامه وخطابه هذا خاطب به المريدين أهل الإرادة على إختلاف إرادتهم، وتباين مقاصدهم؛ فقد جمع الكل في هذا الخطاب.

والضمير في " **إغضاؤهم** " واقع على المريدين؛ والمراد أن المريدين لا يحسن منهم الإغضاء عن العثرات، والإقامة على الزلات التي تقع منهم، ولا يحسن منهم ترك التوبة منها. إذ حالهم لا يقتضي ذلك؛ ووقوع الذنب منهم عظيم حتى إذا وقع منهم ذنب، أو ظهر لهم في أنفسهم عيب أسرعوا إلى التوبة من الذنب، وإلى مداواة العيب؛ وإن تركوا استعمال الدواء كان الداء أقطع، والزيادة في العيب أسرع؛ لأن الذنب والعيب تسرع إليهما النفوس، ويحصل من الإقامة عليها الضر، والبؤس.

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى على أن مقالة أبي عثمان إنما صدرت منه

للمريدين بنية تردهم مريدين: أي يتحققون في مقام الإرادة، ولا يحصل لهم ذلك إلا بعدم إغضائهم عن العثرات، ومعاناة أنفسهم؛ مما اتصفت به من العيوب، ودوام التوبة من الذنوب.

ثم قال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

من عيبها اغترارها بالخارق وبمنامه المصيب الصادق

الخالق جل جلاله وصف نفسه بالرحمة، وواسع المغفرة؛ ليلا يقنط العباد من رحمته. لكن وإن وصف تعالى نفسه بالرحمة فاقتضى من عبيده الوقوف عند أوامره ونواهيه، والمسارعة إلى ما يرضيه، والوقوف عند حدوده، والوفاء بعهوده؛ فإذا خالف العبد أوامر ربه، وكان مطيعا للشيطان، ومن حزبه؛ فلا ينبغي له الاغترار بما وصف به الخالق نفسه من واسع المغفرة، ولا بمعنى ما دل عليه اسمه الرحمان. مع أنه تعالى ما وصف نفسه بجمال. إلا قرنه بجلال فقال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝ ﴾، **وقال تعالى:** ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾.

وكذلك لا يغتر بما يراه في منامه من حسن المرائي. إذ قد يرى في منامه ما يدل على قربه، وهو بعيد ناء، وهذه أحوال الحمقاء الذين لا حظ لهم من التقوى.

والرؤية الصالحة تسر ولا تغتر، ولا تنفع ولا تضر؛ وتأمل ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بما رأى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما في منامه الرؤية المشهورة، فقال عليه الصلاة والسلام: "نعم العبد عبد الله؛ لو كان يقوم من الليل " أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فدله على العمل وخصه عليه وسلم بكله إلى رؤيته الصالحة.

والمغتر بمنامه الصادق، وبما وصف به نفسه الخالق مغرور؛ وقلبه من خوف الله خال غير معمور.

وقد أشار الشيخ رضي الله تعالى عنه إلى ذلك؛ فقال:

وذا غرور ما له حقيقه إهماله من أدب الطريقه

الإشارة ب " ذا " إلى الاغترار بالخالق، وبالمنام المصيب الصادق. قال رحمه الله تعالى: "ذاك غرور ما له حقيقة"؛ لأنه قد يرى العاصي ما يسره، ويرى

المطيع ما يضره؛ وهذا لا حقيقة له؛ وإنما الحقيقة ما يعمله في يقظته من خير يثاب عليه، أو شر يعاقب عليه.

وإهمال الاغترار بالله تعالى، وبما وصف به تعالى نفسه من الرحمة والمغفرة، والاغترار بالرؤية الصالحة. من أدب الطريقة. يريد طريقة أهل التحقيق من السالكين، والمريدين؛ فالاغترار بالله وارتجاء الرحمة والمغفرة منه. إنما يكون مع وجود العمل، وترك المعاصي والزلل.

قال ابن عطاء الله: "الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية".

وقال معروف الكرخي: "طلب الجنة بلا عمل. ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب. نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق".

وقد قيل: "من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح؛ فكذلك فليزعم أن الربح مع القفر، وقدح النار من البحر صحيح".

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: "إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة. يقول أحدهم أحسن الظن بربي. كذب. لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل". وتلى قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وكان يقول: "عباد الله. اتقوا هذه الأماني؛ فإنها أودية النوكا، والله ما أتى الله عبدا بأمانيه خيرا في الدنيا، ولا في الآخرة".

وكتب أبو عمير المنصوري [1] إلى بعض إخوانه: "أما بعد؛ فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك وإنما تضرب حديدا باردا".

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني".

وهذا كله تقدم لنا عند قول الشيخ رحمه الله:

فليخف العبد قيام العدل   وليرتج أيضا نوال الفضل

(1) لعله وقع تصحيف في ذكر الاسم.

وإنما أعدناه هنا؛ لشدة ميل النفس إلى الاعتزاز بجمال الحق تعالى، وعدم الخوف من جلاله؛ وظن الجهلة من الناس أن الاغترار بالله ناج من عقاب الله. كلا والله إن ربك لشديد العقاب، وأنه لغفور رحيم. ثم قال رحمه الله تعالى:

فمن يكن يعتمد الكرامه فعن قريب تعره الندامه

ومن يكن يعتبر المنامات فهو الذي تفوته المقامات

مطلق الكرامة. أهل الصدق لا يعتبرونها، ولا يعتمدون عليها، ولا يقفون عندها. إذ الوقوف عندها حجاب، والاعتداد بها، والاعتماد عليها خطأ غير صواب؛ فمن اعتمد عليها ندم، ومن لم يعول عليها نجا وسلم، وقد يرزق الكرامة من لا تكمل له الاستقامة؛ ولذا قيل: "الاستقامة أعظم كرامة"؛ وليس مطلب العارفين وجود الكرامة، وإنما مطلبهم على الله الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: "إنما هما كرامتان جامعتان محيكتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء، والمتابعة، ومجانبة الدعاوى، والمخادعة؛ فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما؛ فهو عبد مفتر كذاب ذو خطإ في العلم والعمل بالصواب؛ كمن أكرم بشهود الملك على نعمة الرضى؛ فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب، وخلع المرضى، وكل كرامة لا يصحبها الرضى عن الله تعالى، ومن الله تعالى؛ فصاحبها مستدرج مغرور، أو ناقص، أو هالك مثبور.

وقال سيدي أبو العباس المرسي [1] رضي الله تعالى عنه: "ليس الشأن من تطوى له الأرض؛ فإذا هو بمكة، أو غيرها من البلدان. إنما الشأن من تطوى له أوصاف نفسه؛ فإذا هو عند ربه".

وذكر عند سهيل بن عبد الله [2] رضي الله تعالى عنه الكرامات فقال: "أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك؛ بخلق محمود".

وقيل لأبي المرتعش رضي الله تعالى عنه: "إن فلان يمشي على الماء، فقال:

---

(1) هو أبو العباس أحمد بن عمر الأندلسي الأنصاري المرسي الإسكندري. وارث سر الشاذلي، وأستاذ ابن عطاء الله. توفي سنة 686 هجرية؛ وهو أشهر من أن يعرف به.

(2) يقصد سهيل التستري.

عندي من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الماء، وفي الهواء".

فانظر رحمك الله تعالى إلى أحوال أهل الصدق الذين عاملوا الحق بالحق. كيف لا يعتمدون على الكرامات، وكذلك لا يعتبرون المنامات خوفا من الندامة، والميل عن طريق الاستقامة، وأن همتهم المقامات العلية، والترقي في الحضرة القدسية.

ثم ذكر رحمه الله تعالى دواء عيب النفس السابق؛ فقال:

دواؤه في ذلك الإعراض   وترك ما تدعو إليه الأغراض

وخوفه من كونه استدراجا   يكسبه وجوده اعوجاجا

ما ذكره الشيخ من الدواء لعيب النفس المذكور لا شك أنه من المرض نافع؛ وللعيب قاطع.

الدواء الأول: الإعراض بالقلب عما يبدو للعبد من أنواع الكرامات، أو ما يراه من صالح الرؤية في جميع الأوقات؛ فالعاقل لا يسكن إلى ذلك. إذ السكون إليه فتنة.

قال الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، ورضي عنه: "ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها. إلا ونادته هواتف الحقيقة. الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات. إلا ونادته حقائقها. إنما نحن فتنة فلا تكفر".

ويحسن أن تذكر هنا ما قاله الشيخ الششتري فيما نظمه في هذا المعنى. حيث قال:

فلا تلتفت في السر غيرا وكل ما   سوى الله غير واتخذ ذكره حصنا

وكل مقام لا تقم فيه إنه   حجاب يحد السير واستجد العونا

ومهما ترى كل المراتب تجتنى   عليك فحل عنها وعن مثلها حلنا

وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب   فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

الثاني: ترك ما تدعو إليه الأغراض النفسانية. التي منها الاعتماد على الكرامة، واعتبارالمنامة.

الثالث: الخوف من أن تكون الكرامة والمنامة استدراجا؛ فإذا اعتمد عليه

واعتبره ووقف عنده يكسبه اعوجاجا.

ثم ما يحذرك به من الاعتماد على الكرامة، ومن اعتبار المنامة؛ فقال رحمه الله تعالى، ورضي عنه:

قال الجنيد العالم الزكي ألطف ما يخدع به الولي
كرامة ومثلها معونه إذ قد يرى بكلها شؤونه

السيد الجنيد: هو أبو القاسم بن محمد. سيد الطائفة، وإمامهم. أصله من نهاوند ومنشأه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريري. كان رضي الله تعالى عنه فقيها على مذهب أبي ثور. صحب السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب. مات سنة سبع وتسعين ومائتين، وله في التصوف لسان عظيم، ورقي في المقامات الإحسانية المقام العالي الكريم، وحكيت عنه حكايات في التصوف عجيبة، وحقائق غريبة. منها ما أسنده إليه الشيخ هنا رحمهما الله تعالى، وهو قوله:

"**ألطف ما يخادع به الولي كرامة أو معونة**"؛ والمراد بالمعونة الرؤية الصالحة، وإنما كانت هذه الخدعة لطيفة؛ لأنه قد يرى أن الكرامة من استقامته، والرؤية من حسن أحواله؛ فإن ركن إلى كرامته، أو اعتبر ما يراه في نومته، ووقف عند ذلك، فكانت الكرامة والرؤية خدعة انخدع بها، والواجب على الولي أن لا يركن إلى ما لا نهاية له ولا تمام.

وقوله: "**إذ قد يرى بكلها شؤونه**". الضمير في كلها يعود إلى الكرامات والمنامات؛ فالولي قد يرى أن حصول الكرامة له، ورؤيته الصالحة بها تتم شؤونه، فيقف عندها أنسا بها، وركونا إليها.

ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

من عيبها إيثاره للأغنيا وحبهم دون الثقاة الأوليا

إيثار حب الأغنياء، والميل إلى أهل الدنيا عيب عظيم من عيوب النفس، وكذلك من لم يتق صحبة أهل العتو؛ فهو أيضا عيب من عيوب النفس، وحب الأغنياء، وإيثارهم على الفقراء ليس من شأن أهل التوفيق، ولا من أحوال أهل الطريق؛ بل من شأنهم حب الفقراء، وإيثارهم على الأغنياء والأمراء.

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصبر نفسه مع فقراء الصحابة؛ كعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسليمان الفارسي، وخباب بن مسعود، وبلال، ونحوهم من الفقراء؛ وهم المراد بقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ...﴾ الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إليهم، ويجالسهم، وقال: "الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه".

وروي أنه قال لهم: "مرحبا بالذين عاتبني ربي بهم".

والآية تدل على حب الفقراء، وإيثارهم على الأغنياء؛ وقد فعل ذلك عليه الصلاة والسلام، وقد نهى تعالى عن أن يطيع الأغنياء فقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾؛ فهذه الآية تقتضي عدم حب الأغنياء، وعدم إيثارهم على الفقراء، واتقاء أهل العداء.

ولإيثار الأغنياء وحبهم دون الفقراء أصل ذكره الشيخ رحمه الله تعالى؛ فقال:

وذاك من حب الذي عندهم ... وهو بالأطماع قد يتهم

ويحظى بالذل وبكل منقصه ... ولم تزل عيشته منغصه

حب ما في أيدي الأغنياء من متاع الدنيا باعث على حبهم، وإيثارهم على الفقراء، ومن أحب الأغنياء، وآثرهم ومال إليهم يتهم بطمعه فيما في أيديهم، وقد علمت ما في الطمع من الرذائل والذل الحاصل، والحرمان المتواصل. هذا مع وصفه بكل منقصة في دينه، وتنقص في همته، ونقص يقينه.

ولما ذكر رحمه الله تعالى أصل العيب، وسببه أخذ يذكر الدواء الذي به يداوى ذلك العيب؛ فقال رضي الله تعالى عنه:

دواؤه جلوسه للفقرا ... وتركه لذكر شأن الأمرا

وعلمه بأن حب الأغنيا ... من طمع في نفسه قد خفيا

وحب دنيا ما لها من حاصل ... إذ إن محبوب الحبيب فاضل

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الأبيات ثلاثة أدوية لعيب النفس المذكور؛

وقيل الدواء.

الأول: جلوس العبد للفقراء. إذ جلوسه معهم يقع له بهم الأنس، والألفة بما يشهد فيهم من التواضع، وطيب النفس والذل والقناعة، وغير ذلك من أحوال الفقراء. التي اكتسبوها من حالة فقرهم؛ فترتاض بذلك نفسه، ويكسبها وحشة من جلوس الأغنياء؛ لما يعلمه ويشهده من أحوالهم المضادة لأحوال الفقراء؛ فبهذا كان الجلوس مع الفقراء دواء ينفي عن النفس العيب الذي هو إيثار الأغنياء.

الثاني: تركه لذكر شأن الأمراء؛ لأن من ترك ذكر شيء. دل تركه لذكره على عدم حبه له، وإيثاره لغيره؛ فترك ذكر شأن الأمراء دليل على عدم حبه لهم وإيثاره لغيرهم، وحكم الأغنياء؛ كحكم الأمراء بجامع وصف الغناء.

الثالث: علم العبد بأن حبه للأغنياء إنما ذلك من طمع في نفسه خفي عنه، وحبه لدنيا لم يحصل له منها شيء، ودليل حبه للدنيا أنه أحب من أجلها الأغنياء، ومن أحب شيئا أحب ما يحبه، وكان عنداك فاضلا لا مفضولا.

وهذا معنى قول الشيخ: "**إذ إن محبوب الحبيب فاضل**".

وما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى من الثلاثة الأدوية لعيب النفس الذي هو: إيثاره للأغنياء، وحبهم. لا شك أنها للعيب المذكور نافية؛ ولما ينشأ عنه من الأمراض شافية.

ثم قال رحمه الله تعالى:

ولن يزيد الحرص في المقدور بالميل للخلق سوى الغرور

حب العبد للأغنياء، وإيثاره لهم على الفقراء. دليل على طمعه فيما في أيديهم من متاع الدنيا، والطامع حريص، والحرص لا يزيد فيما قدره الله تعالى في أرزاق العباد. إذ الرزق مقدر مقسوم، والأجل معلوم، وفرغ ربك من ثلاث: الرزق، والأجل، والعبد شقي أو سعيد؛ فإذا لا يزيد الحرص بميل صاحبه إلى الخلق إلا الغرور؛ لأنه يغتر بسبب حرصه على نيل ما لم يقدر له؛ وذلك غير ممكن وقوعه.

ثم قال رحمه الله تعالى:

والمصطفى المختار قد تخيرا لنفسه جلوسه للفقرا

إنما تخير صلى الله عليه وسلم لنفسه جلوسه للفقراء. إذ ذلك مختار الله تعالى، وبذلك أمره ربه تعالى؛ فاختار عليه الصلاة والسلام لنفسه ما اختار ربه له، وأمره به؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

وقال أيضا بهم أمرت وبجلوس غيرهم عتبت

قوله: "بهم". يريد الفقراء المذكورين قبل هذا: عمار بن ياسر، وأمثاله.

وقوله: "أمرت". يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ...﴾ الآية؛ والذين عوتب صلى الله عليه وسلم بجلوسه لهم هم الأغنياء، وهم المراد بقوله: "غيرهم " والعتاب هو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

فعلى العبد أن يختار لنفسه ما اختاره عليه الصلاة والسلام لنفسه، وأمر به؛ وهو حب الفقراء، ومجالسته معهم، وإيثارهم على غيرهم؛ وفي ذلك خير الدنيا والآخرة، وعليه أيضا أن يترك ما عوتب صلى الله عليه وسلم، وهو جلوسه مع الأغنياء؛ لما فيه من شر الدنيا، والآخرة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

محياهم المحيا كذا الممات لأنهم قوم لهم ثبات

هذا البيت تضمن مدح الفقراء أحياء وأمواتا؛ فمحبهم ومجالسهم وموثرهم عن غيرهم ينال بذلك المحيا في الحياة، وفي الممات؛ وفي هذا ترغيب للعبد في حبهم وجلوسه معهم، وإيثارهم على غيرهم.

وأكد الشيخ الرغبة في حب الفقراء، والجلوس معهم، وإيثارهم عن الأغنياء بما ذكره من دعائه عليه الصلاة والسلام؛ وهو قوله:

وقد دعا أن يحييه مسكينا فكان فضلا واضحا مبينا

أشار في هذ البيت إلى ما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه دعا ربه تعالى فقال: "اللهم احيني مسكينا، وأمتني مسكينا"؛ فطلبه لذلك يقتضي تفضيل الفقراء والمسكين على الأغنياء تفضيلا واضحا بينا لا خفاء فيه. إذ لا يطلب عليه الصلاة والسلام لنفسه إلا الأفضل، ولا شك، ولا مرية أن أحوال الفقراء والمساكين أحوال

سنية، وأخلاقهم زكية، وأفعالهم مرضية؛ ولذا طلب صلى الله عليه وسلم أن يكون مسكينا حيا، أو ميتا؛ وأوصى علي رضي الله تعالى عنه بحبهم؛ كما نبه الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك؛ فقال:

أوصى علي المرتضى بحبهم وكم أتى في شأنهم وقربهم

ما زال أهل الخير والصلاح يوصون إخوانهم المؤمنين بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وما فيه خير الدارين، واقتفوا في ذلك سنة الله مع عبيده، وفعله صلى الله عليه وسلم مع أمته.

والوصية للمؤمنين تقتضي نصح الموصي، وحبه الخير لمن أوصاه، وعلى هذا الوجه صدرت الوصية من الإمام علي رضي الله تعالى عنه بحب الفقراء والمسكين، وأوصى بذلك لما أتى في شأنهم وقربهم من الترغيب في ذلك؛ ولما يحصل لمحبهم ولمقربهم ولما لهم عن غيرهم من الخير الجامع لخير الدنيا والآخرة؛ فمن ذلك الحاصل: القناعة، والصبر، والرضى، والذل، والافتقار إلى الله عز وجل، والتواضع، والانكسار. إلى غير ذلك من أوصاف العبودية التي يقتضيها حال الفقير. مع ما في ذلك من متابعة رسول الله صلى الله عله وسلم فيما أمره به ربه تعالى؛ وإيثارا لما أحبه الله ورسوله.

ولما قضى الشيخ ما وعد به من رجز عيوب النفس. قال رحمه الله تعالى:

وقد قضيت ما وعدت أولا مهذبا مقربا محصلا

الوعد الذي وعد به أولا هو قوله في أول الكتاب:

قربتها برجز مفيد للحفظ والتحصيل والتقييد

وهذا في معنى قول الشيخ ابن آبرى رحمه الله تعالى:

قربته في رجز مشطور لأنه أحضى من المنثور

والمهذب: الخالص السالم من التعقيد والتخليط.

والمقرب: هو المحصل للفوائد بلا عناء، ولا كثرة تعب.

والمحصل: هو الجامع للفوائد المحصل لها.

وكتاب الشيخ رضي الله تعالى عنه جامع لهذه الخصال.

ولما قضى ما وعد به، ووفقه الله تعالى لترجيز ذلك على الوجه المذكور،

وأعانه على إكماله. أثنى على الله تعالى على ذلك؛ فقال رحمه الله تعالى:

والحمد لله على ما أنعم ثم له الشكر على ما تمم

جعل رحمه الله تعالى الثناء في مقابلة ما أنعم به من الهداية لهذا التأليف، وتيسيره له، ووجود الحفظ في ذلك، وإخلاص العمل.

وجعل الشكر في مقابلة تمام العمل، وحصول المقصد.

وتقدم الكلام على الحمد أول الكلام.

وقوله:

من رجز المهم للعيوب ومن بيان واجب المطلوب

هذا بعض مما أنعم الله تعالى عليه به، وهو اتمامه لرجز الذي نظمه المهم من عيوب النفس؛ وفي كلامه ما يقتضي إن عيوب النفس كثيرة، وإنما اعتنى رحمه الله تعالى بذكر المهم منها. مع أنها كلها مهمة؛ لكن بعضها أهم من بعض.

وقوله: "ومن بيان اللازم المطلوب". أراد باللازم المطلوب. ما وعد به أولا، والطلوب ما التزمه؛ لأن من التزم شيئا طولب به، ويتحمل أنه أراد بالمطلوب بيان عيوب النفس؛ إذ يطال بيانه كل من له أهلية إلى ذلك.

ولما أثنى على الله تعالى، وشكره. أتى بعد ذلك بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

ثم صلاته على خير الورى محمد وآله عد الثرا

من حسن أدب المثني على الله تعالى أن يأتي بعد ذلك بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالحمد لحسن البداية، والتصلية لحسن النهاية، والتعوذ للصون، والبسملة للعون.

وتقدم الكلام على الصلاة على رسول الله في أول الكتاب.

والورى: هم الخلق؛ وقوله عد الثرى. أراد الكثرة لا الحصر.

ولما صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم عطف عليه الصحابة والتابعين؛ فقال رحمه الله تعالى:

وصحبه والتابعين أبدا...

هذا أيضا من أدب المثني على الله تعالى، والمصلي على نبيه عليه الصلاة

والسلام. أن يثني على أصحابه، وأن يدعو لهم؛ لأنهم رضي الله تعالى عنهم نصروا النبي صلى الله عليه وسلم، وعزروه، وآووه، ولهم علينا حقوق كثيرة، ومزايا عديدة؛ فرضي الله تعالى عنهم، وجزاهم عن الإسلام خيرا آمين.

ثم أعاد الثناء على الله؛ فقال رحمه الله تعالى:

والحمد لله على طول المدى...

أي على طول الزمان، وأمد الليالي والأيام؛ فالحمد الأول تأسيس، والثاني تأكيد، والأول مقيد، والثاني مطلق.

وقوله رضي الله تعالى عنه:

عام ثمان وثمانين نجز بعد ثمانمائة هذا الرجز

هذا إعلام بالزمن الذي تم فيه كتابة الرجز، وقوله: "في يوم الاثنين". تعريف اليوم الذي نجز فيه الرجز، وقوله: "لدى الظهيرة". تعريف بالساعة التي نجز فيها الكتاب؛ فحصل التعريف بالسنين، واليوم، والساعة، وقوله: "نصف جمادى وهي الأخيرة". تعريف بالشهر، وقوله:

فالحمد لله على ما يسرا من نظم مهذبا محررا

أثنى على الله عز وجل على ما يسر له من نظم الرجز، وتهذيبه، وتحريره، وهذه نعمة من الله تعالى يستحق الثناء عليها.

وقوله رحمه الله تعالى:

وفوق ستة من المئين عدتها محقق التبيين

إعلام بعدد بيوت الرجز وفائدة الإعلام بذلك؛ ليكون قارئه، أو كاتبه عالما بعدد أبياته؛ فيعمل على ذلك قارؤه أو كاتبه؛ فتهيأ له تهيئة بحسبه.

وقوله رحمه الله تعالى:

أرجو أن يكون نافعا لكل خير في الوجود جامعا

دعاء إلى الله تعالى، ورغب أن يكون كتابه هذا نافعا للمسلمين، وأن يكون جامعا لجميع الخير النافع دنيا، وأخرى؛ ليعظم ثوابه، ويحسن جزاؤه. إذ الثواب والجزاء على قدر المثاب، والمجازى عليه.

وقوله رضي الله تعالى عنه:

مستغفرا من كل ذنب وزلل وراغبا من ربنا ستر العمل

بعد أن أثنى على الله عز وجل، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، وعطف عليه أصحابه العظام، وتابعيهم الأئمة الأعلام، وطلب المغفرة من الله عز وجل من ذنبه وزلله. إذ لا يخلوا العبد من ذلك. خاصا كان، أو من العموم. إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ورغب رضي الله تعالى عنه من الله تعالى ستر العمل. إذ خير العمل ما كان خفيا مستورا؛ لسلامته من العلل.

وبعد أن طلب من الله تعالى مطلبه، ورغبه فيما رغبه، وصفه بما هو له أهل؛ فقال:

فإنه ذو الجود والإكرام والفضل والإحسان والإنعام

فهذه الأوصاف الجمالية الواجبة لله تعالى الواجبة لله عز وجل. وصفه بها في هذا المحل؛ ليعامله بمقتضاها التي هي الجود، والكرم، والفضل، والإحسان، والإنعام بعظيم النعم.

تم الكتاب بحمد الله، وحسن عونه، وتوفيقه، وكرمه، وفضله، وسميته بكتاب:

"الأنس في شرح عيوب النفس"

وكان تمام تأليفه في يوم الاثنين من أواسط شهر ربيع الثاني من عام اثنتين وستين وتسعمائة

جعله الله خالصا لوجهه الكريم، ومحصلا للثواب العظيم، ونفع به جميع المسلمين بمنه وكرمه.

انتهى على يد كاتبه لنفسه، ولمن شاء الله تعالى بعده. يوم الجمعة التاسع من رجب الفرد الحرام عام ثمانية وثمانين ومائة وألف.

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمسلمين والمسلمات إخوانه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خاتمة للمحقق

لقد ألف محمد الخروبي كتابه: "الأنس في شرح عيوب النفس " سنة 962 هجرية؛ وإذا علمنا أنه توفي سنة 963 هجرية؛ فمعنى هذا أنه ألف كتابه في أواخر حياته؛ وبعدما أصبح شيخ شيوخ الطريقة الزروقية في المغرب العربي، وأخذ عنه الطريقة جملة من كبار علماء عصره - بما فيهم بعض علماء فاس - وهو ما يؤكد وفاءه لشيخه أحمد زروق، والتزامه بطريقته الصوفية الزروقية السنية المحمدية. القائمة على الالتزام بالكتاب، والسنة، وبعمل السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وكبار أئمة المسلمين الذين ساروا على درب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاعتقاد، والقول، والعمل، وجاهدوا النفس، والهوى ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وإذا كان الشيخ أحمد زروق قد نظم فصول السلمي، وقربها برجز مفيد؛ للحفظ، والتحصيل، والتقيد؛ فإن الشيخ الخروبي قد شرحها بكتابه هذا شرحا وافيا. حرص فيه على تبسيط معانيها، وتقريب مقاصدها للسالكين، والمريدين. خصوصا المبتدئين منهم في طريق السلوك، والتصوف.

ومن هنا تأتي أهمية الشرح. حيث سلك فيه الخروبي مسلك المعلم، والمربي، والمرشد الذي يأخذ بيد السالك، ويسير معه على درب السلوك. واقفا معه على كل داء من أدوية النفس، وشارحا للمريد المبتدئ في طريق القوم كيفية التغلب على مكائد النفس، والشيطان، وما يحيكه من مكائد، وما ينصبه من شباك وحبائل على درب سلوكه الموصل به إلى التخلي، والتحلي.

عموما فإذا كان الشيخ زروق قد قيد فصول السلمي في رجزه؛ فإن تلميذه ومريده محمد الخروبي قد قرب معانيها - كشيخ طريقة - للسالك المبتدئ. مذللا له درب السلوك.

ولعل البيئة الثقافية، والاجتماعية للمريدين آنذاك كانت تحتاج هذا التبسيط، وهذا التقريب؛ فجاء الشرح محققا لمقاصده وأهدافه؛ وكأني بالشيخ الخروبي قد

أراد بشرحه أن يتخذ من أرجوزة شيخه أحمد زروق، وشرحه عليها وسيلة للتربية الصوفية بالمدرسة / الطريقة الصوفية الزروقية، ولكن الأجل قد عاجله، وحال دون تحقيق هدفه؛ ولعل تحقيقنا لشرحه هذا يساعد على تحقيق ذلك الهدف الغاية؛ كما يساعد على إزاحة بعض الغبش والتشويش الذى أحاط بالتصوف في عصرنا هذا، وعلى إحياء النهج الصوفي الذي كان معتمدا من طرف أئمة الطريق الصوفي. بعيدا عن كل إنكار، أو مغالاة. راجيا من الله أن تعم به الفائدة، ويكتبه في سجل حسناتنا، وأعمالنا الصالحة، وأن يجعله خالصا لوجه العظيم. آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المحقق:

الأستاذ الشيخ. محمد طيب إدريس

حفيد الشيخ أحمد زروق

فهرس المحتويات

EXPLANATION OF “VICES OF SOUL”

by

Muḥammad ben ʿAli al-H̱arrūbi

Edited by

Mohammad Tayeb Idris



هذا الكتاب

الأنس في شرح عيوب النفس

«... فبالعلم تصح الأعمال الدينية، وبالورع تكتمل الوظائف الشرعية؛ فبالعلم تعلوا الدرجات، وبالورع تنال الكمالات، وبالصلاح ترفع المنازل والمقامات؛ فبالعلم تشرق الأنوار، وبالورع تلوح للقلب الحقائق والأسرار، وبالصلاح تتواصل الأذكار؛ فبالعلم تصح الاستقامة، وبالورع تنال الكرامة، وبالصلاح يبعد العبد من موارد الندامة، فالعلم أصل من أصول الطريق، والورع من أحوال أهل التحقيق، والصلاح الخاص مورد من موارد الطريق؛ فمن لا علم له. لا ورع له، ومن لا ورع له.لا صلاح له ».



المؤلف:

الأستاذ: محمد طيب إدريس.

من مواليد سنة ١٣٦٩ هجرية ١٩٥٠ ميلادية . بقبيلة بني ورياكل بالمغرب.

حفظ القرآن الكريم بمسجد قريته التي ينتمي إليها الشيخ أحمد زروق.

انتقل مع أسرته إلى فاس ؛ وبها درس ، وتخرج من القرويين سنة ١٩٦٨ .

بعدها حصل على :

دبلوم المدرسة العليا للأساتذة .

الإجازة في الآداب.

الإجازة في الحقوق.

انتمى إلى سلك التعليم بتوجيه ، وإصرار من أبيه ؛ وتدرج في المهام التالية:

*أستاذ اللغة العربية والتربية الإسلامية بالدار البيضاء.

*أستاذ المواد الإسلامية بالمعهد الإسلامي بمكناس.

*مفتش التعليم الثانوي بمدينة مكناس.

*مفتش منسق جهوي بأكاديمية التعليم بمكناس.

*مفتش منسق مركزي لمادة التربية الإسلامية بوزارة التعليم بالرباط.

متقاعد حاليا ، ومتفرغ للبحث والتأليف.

له بحوث ودراسات كثيرة في مجال التربية والتعليم.

مؤلف لعدة كتب.



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
هاتف 12/ 11/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com
DKI
دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah



ISBN 978-2-7451-7079-8

Designed & Printed by: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah